مؤلفات

عبد الله الطوخى

- المجلد الأول
- القصص القصيرة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩١

الاخراج الفنى

ماجدة البنا

الإهداء

الى مرآة الحب الصــافية
رفيقة الحلم والطوفــان
زوجتي وصــديقتي
فتحيــة العســال

تقديم ...

حياتى والقصة القصيرة

كتبت القصة القصيرة فى مطلع شبابى الباكر . لم أكتبها بل اكتشفتها ، وكان اكتشافها حدثا هائلا وسعيدا . ان قلت أول وأعظم الأحداث السعيدة فى حياتى ، لا أبالغ ! .. فقد كنت فى فترة الحيرة والشتات والبحث عن النفس ، وعن مبرر لوجودى فى هذا العالم ! .. ومازلت أذكر — والقلب يخفق — أول قصة قصيرة خطها قلمى ونشرت فى احدى المجلات الجامعية عام ١٩٤٩ .. ذلك أنى تقدمت بها فى مسابقة أعلنت عنها هذه المجلة ، وفازت بجائزة قدرها جنيه مصرى واحد ، طرت به فرحا ، واشتريت به هدية لحبيبتى التى أصبحت رفيقة عمرى .. كانت الهدية حقيبة يد جلدية .. بنية اللون انيقة !

ليس فقط لهذه الواقعة العاطفية الفريدة ، بقيت ذكرى هذه القصة فى نفسى ، وانما أيضـا للظروف والملابسات التى كتبتها فيها ، والتى ملأتنى بشحنة وجدانيـة وروحيـة هائلة جعلتنى أخرج القلم والورق وأكتبها ــ وما أنا بكاتب ــ وانصبت من نفسى على الورق فى جلسة واحدة .. واذا بى أمام مخلوق حى وجميل هو جزء من ذاتى . كانت فرحتى فرحة الأم التى خرج من رحمها مولودها الأول . كمـا كان احساسى أن القصـة ليست هى وحدها التى ولدت ، بل أنـا أيضا ولدت بهـا من جديد ! .. فها انذا أستطيع أن أقوم فى الحيـاة بعمل جميل متفرد بل وخطير .. لا أبرر به وجودى فحسب ، بل أمضى به وأنـا منتشى وفخور !

الا أن الأمر يبقى أعمق دلالة من ذلك بكثير . فقد كان أخطر ما فى هذه القصـة موضوعها : شاب على موعد مع امرأة متزوجة كان يعرفها قبل أن تتزوج ، والتقيا صـدفة بعد أعوام من زواجها ، فتحرك الحنين ، ودعته الى زيارتها فى بيتها .. ولكن متى ؟ ! .. بعد أن يخرج زوجهـا فى الصباح الى عمله الذى لا يعود منه الا فى المساء ! ويندفع الشاب مغامرا ، تحت سحر اللحظـات المرتقبة ، ويبكر فى الذهـاب .. يتخفى داخل أحد المحلات المقابلة لباب بيت الزوجة ، راصدا ، وهو يشرب كوبا من اللبن ، حركة الزوج ، منتظر خروجه .. ليدخل هو !!

واذ يرى الزوج يخرج من البيت ، رافعا ياقة معطفه لتحميه من برد الشتاء القارس ، موسعا خطاه ، يكاد يرتعش ، كى يلحق عمله ، تحدث فى نفسـه هزة تجعله يتعاطف مع الرجل .. ويرى نفسه ــ لو فعلها ــ فى صـورة ذئب يتسلل الى البيوت بعد أن يغادرها أصحابها . ليس هو وحده الذئب ، انما هى الأخرى أيضا ذئبة .. ورأى نفسه يخاطبها وهى تفتح له الباب : صباح

الخير يا ذئبتى العزيزة .. فترد عليــه مرحبة بحرارة : صباح النور يا ذئبى العزيز !

ما ان ارتسمت أمامه هذه الصورة ، حتى هتف به هاتف من داخله : هــذه خاتمة لقصة قصيرة . ووجد نفسه مدفوعا بقوة خفية سحرية وشهوانية أيضا ، لأن يخرج من جيبه قلمــا ونوتة صغيرة يحتفظ بها دائما فى جيبه ، ومضى يكتب .. يكتب قصة هذا الذى رآه يحدث لو أنه أوفى بالميعاد وذهب اليهــا . ولم يرفع رأسه من على الورق الا بعد أن انتهى ، وأعطاها أيضا عنوانها : الذئب ! ..وحينذاك نهض من مخبئه ولم يذهب الى المرأة ، بل انطلق فى الشوارع فرحان بقصته !

كان هذا الشاب فى الحقيقة هو أنــا ، ومازلت أذكر الفرحة التى اهتاجت بها روحى بعد أن انتهيت من كتابة القصــة . ليس فقط لأنى ، لأول مرة كتبت قصــة ، وانما أيضا لأنى ، بفضل كتابتها ، نجحت فى مقاومة الاغراء وقهر غريزتى .. لكأنمــا انصبت الشهوة على الورق ، وبمتعة أروع . ونجوت من ارتكاب أبشع أنواع الخطايا .. وهو الزنا !!

تلك كانت البذرة الأولى للفــكرة التى ســيطرت على كل كتاباتى وفنى فيما بعد : ان الانسان بالفن يمكنه مقاومة الشر .. فبدلا من أن يرتكبه ، يتأمله ويعلو عليه ، ثم يحوله من فعل حرام، الى عمل فنى يشهد بطهارة أعماقه وبراءته ! .. وهكذا ارتبطت أول قصة قصيرة كتبتها بفكرة الفضيلة التى تسبغ على الانسان انسانيته ونقاءه !

كما انى خرجت من كتابتى لهذه القصة بدرس هام آخر فى الفن ، وهو أن « التجربة » الحية هى أعظم ينابيع الفنان . كلما امتلأت حياته بالتجارب ، امتلأت وسخت ينابيع فنه التى يغترف

منها .. ومن هنا كانت وما زالت لكلمة « التجربة » رنينها السحرى فى نفسى ، وقوة جذبها المغناطيسى ؛ كوعد أو بشير بقصة جديدة تلوح .. بل ان أية تجربة أو واقعة كانت تمر بحياتى ، لم تكن تكتسب فى نفسى اى وزن او اهمية ، ما لم ار قابليتها لأن تصبح قصة ، أو عنصرا فعالا فى بنيان قصة .. ومن هنا كان نهمى وتوقى الى « التجربة » والبحث عنها ، بل والعمل أحيانا على خلقها !

الا أن هذه القناعة كانت تحمل فى ثناياها تناقضا دراميا واضحا وحادا .. التناقض بين ضرورة التجربة وضرورة الفضيلة فى الوقت ذاته .. كيف يجتمع النور مع الظلام ، والماء مع النار فى حيز واحد ؟ ! .. ولأن هواجس وتوترات العاطفة المقرونة بالجنس كانت فى تلك المرحلة من الشباب هى المحرك والمثير للبحث عن التجربة واقتفاء أثرها ، فقد كانت ضرورة اقتران الفن بالفضيلة يحمل نوعا من المكابدة التى تبلغ حد العذاب .. فالتجربة لكى تكتب جيدا : يجب أن تعاش الى أقصى أطرافها وأعماقها .. كيف يتأتى الجمع بين الاثنين ؟ ! .. ان هربت من التجربة فهى خيانة للفن .. وان ألقيت بكل نفسى فى أتونها ، كسبت الفن وخسرت طهارتى وراحة ضميرى ! كيف يمكن حل هذا التناقض؟!

كان لابد من ثورة لحله فى نفسى . أجل . فقد كنت أحس من أعماقى ، وعلى نحو فطرى غامض ، أن الفضيلة والفن ليسا أبدا ضدين متنافرين ، وأن ثمة موجة واحدة تحملهما وتدفع بهما معا فى نهر الحياة .. كيف اذن يمكن حل هذا التناقض القائم فى النفس وفى العقل ؟ !

كانت تربيتى الريفية المتدينة بالطبع هى المسئولة عن هذه الرؤية .. فقد كان التناقض البادى فى العملية الفنية ، هو فى

الحقيقة انعكاس للتناقض القائم فى نفسى منذ بدء فترة البلوغ ، بين الفرح بالحياة والرغبة العارمة فى احتوائها ، وبين الخوف من الوقوع فى الحرام وأن أكون لعبة فى يد الشيطان . كان لابد من حل لانهاء هذا العذاب ! ولم أكن أمثل حينذاك حالة فردية خاصة ، انما هى كانت حالة جيل كامل ، بل قل حالة وطن بأكمله : وطن عاش طويلا مكبلا تحت حكم غيره ويريد تحطيم الأغلال . انه لا يريد فقط ، بل ويهب أيضا ثائرا لتحقيق ذلك . كانت الحرب أو المجزرة العالمية الثانية منتهية لتوها ؛ والحلفاء الذين انتصروا على الفاشية يجلسون فى « بوتسدام » ليرسموا على الورق خريطة جديدة للعالم . والشعوب المستعمرة تنهض مناضلة من أجل استقلالها واسترداد حريتها ! كان طوفان الثورة المصرية على الاحتلال الانجليزى بدأ يندفع بقوة وعرامة ويغمر البلاد كلها . ورغم أنى كنت لا أحب السياسة بل وأنفر منها ، الا أننى وجدتنى مندفعا مع الطوفان .. واحدا ضمن عشرات الألوف من الطلبة والعمال والناس العاديين زاحفين الى ثكنات العدو فى قصر النيل ، عزلا غير آبهين بمواجهة الحديد والنار ! كانت السياسة ملحمة مجيدة تخلق البطولة والأبطال ! كانت تعنى كلمات محددة : تحرير أمنا الكبرى مصر ، واخراجها من كفن عاشت طويلا فيه .. ولأننى عشت طويلا فى هذا الكفن فى قريتى وما أكثر ما انتفضت ثائرا عليه تائقا للخروج وللانطلاق ، فقد وجدتنى منجذبا شيئا فشيئا الى سياسة تلك الأيام والاندفاع مع الطوفان . كانت الثورة العامة متنفسا لثورتى الشخصية الفردية ، فامتزجت الاثنتان .. وسرعان ما وجدتنى ، بحكم كراهيتى الأولى للسياسة والسياسيين التقليديين ، انضم الى احدى الكتائب الجديدة فى الثورة والنضال . وكانت كتيبة الشيوعيين :

ذلك فصل يستحق أن يكتب بالكامل وبالتفصيل ،لكن المهم منه الآن ، ونحن بصـدد « القصة القصيرة » و « التجربة » و « ينابيع الفنان » انى رأيتنى فجـأة أخرج من الكفن القديم وأمزق فيه . واذا بالعالم قد اتسع أمامى ، والموضوعات تعددت ، والبطولات اكتسبت معنى مختلفا ، وتفسير الأحداث والظواهر حتى الكونية أخذ منطقا جديدا تماما ! .. لم تعد عاطفة الحب التقليدية ومغامرات الجنس النابعة من الكبت والحرمان هى نبع الالهام الأوحد لكتابة القصـة . شرعت أخرج من أسر قصص « جى دى موباسان » و « الفونس دوديه » ومحمود كامل المحامى وابراهيم الوردانى ومحمـود تيمور الرومانسـية ، مستبقيـا ما اكتسبته من فنهم وبراعتهم فى التعبير والقص ! أصبحت قضية التغيير واستمرار الثورة هى مرشـدى ومنارى الذى أكتب فى ضوئه القصـة ، متحمسا ومنتشيا أن القلم يمكنه المشاركة فى صنع واستمرار ثورة !

تلك مرحلة أخرى ، تستحق أيضا الكتابة عنها بالتفصيل .. ذلك أنى سرعان ما وجدت نفسى واقعا فى أسر جديد .. أسر شعارات الكتيبة التى أكافح معها ، والتى تبشر مع مبادىء العدل الاجتماعى بدكتاتورية البروليتاريا ! .. ودخل علينا فى تلك الأيام خفية ، كاتب عتيد أصبح هو المثل الأعلى لى ولكل جيل النضال الوطنى : هو « مكسيم جوركى » ذلك الروسى اليتيم الشريد الذى اتخذ من الثورة أما وأبا ، فجعلت منه عملاقا من عمالقـة الأدب والفن والثورة .. فمضينا نقتفى أثره . بات حـلم كل واحد منا أن يصبح « جوركى مصر » ، أو على الأقل « بافل » بطل روايته « الأم » !

فى تلك الأيام ، وقع فى حياتى حدثان كبيران سـعيدان .. وقعا فى وقت واحد تقريبا : التقيت بحبيبتى التى أصبحت رفيقة

عمرى .. وقامت الثورة التى كنا ننادى بها ونكافح من أجلها : ثورة ٢٣ يوليو .. وبدت الحيـاة معزوفة رائعة وبهيجة . قامت الثورة اذن فلأتفرغ للحب .. حب الحبيبة وحب الحيـاة .. وانطلقنـا .. أنا وهى ! .. واذا نادانى الفن وكتبت فكتابـاتى أهازيج وأغنيات ، ووداعا للحيرة والحزن والقلق ؟

الا أن عاصفة عنيفة سرعان ما تجمعت وانقضت ، فأخذت الحبيب من الحبيبة ومن طفله الوحيد ، وألقت به مع عدد كبير من رفاق الكتيبة فى احدى الزنازين بسجن مصر !! .. تلك كانت تجربة التجارب فى حيـاتى كانسان وككاتب . لقد غيرت الكتيبة فجأة ، وبعد أشهر قليلة من قيـام الثورة ، غيرت تحليلها السيـاسى . وبعد أن اندفعنا من أول يوم نبشر بالثورة ونساندها ، انقلبنا على الوجه الآخر ، وأصبحنا نتهمها بأنها انقلاب أمريكى .. فمن يعلق اثنين من العمـال فى المشنقة ، خميس والبقرى ، ويعدمهما، لايمكن أن يكون الا عميلا لأمريكا .. قمة الرأسمالية العالمية !! .. وان من يجلس مع الانجليز ليفاوضهم على الجـلاء والاستقلال ، لابد سينتهى بالخيانة والتنازلات .. فالتحرير الحق لايمكن أن يتم الا بالكفـاح المسلح .. شعارنا !! .. واقتنعت بالمنطق ، وهتفت مع الهاتفين بسقوط « معاهدة جمال ـ هيد » .. وكان الثمن الفورى : عامان من عمرى فى السجن !

أقول كانت تجربة التجارب .. فقد خرجت منها الى مرحلة النضج ، أول علامـة لهـذا النضج الا ينقاد المرء ـ والكاتب بالذات ، لرأى غيره ، فردا كان أو مجموعة . أن يكون هو نفسه أولا ـ أحاسيسه وفكره وعقله وحساباته هو أولا .. الا يكون ـ دون أن يدرى ـ واحدا فى قطيع . وياليته قطيع واحد ، بل جماعات متناحرة ومتنابذة بأبشع أنواع الاتهامات والمسبات ! وها نحن ننقلب على الوجه الآخر ونعود الى التحليل الأول ،

فها هو عبد الناصر يعقد صفقة الأسلحة التشيكية ، ويذهب الى « باندونج » ويعلن شعار الحياد الايجابى (وليس عدم الانحياز) ويناطح أمريكا والاستعمار كله .. حسن هذا التغيير ، والاعتراف بالخطأ فضيلة ، الا أن ما رأيته بعد ذلك يحدث جعلنى أفر من هذه المنطقة فرارا وبشكل حاسم . كنا ، ونحن فى السجن ، قد نجحنا بعد جهود هائلة ومضنية فى توحيد معظم المنظمات وادماجها فى حزب واحد موحد . وكنا جميعا نرى فى ذلك انجازا رائعا وتاريخيا يثير فى النفس الأمل فى المستقبل .. الا أننى فوجئت ، بعد أن خرجت من السجن بعدة أشهر بأحد القياديين الكبار يأتى الى ويهمس فى أذنى : لقد سيطر الانتهازيون على الحزب ، ولهذا فقد قررنا الخروج منه وتشكيل حزب آخر مستقل .. حزب نورى ! يا الهى . انقسام مرة أخرى ؟ !

وانفجرت فيه : لا .. ليس فقط لتياركم الثورى ، بل لكل التيارات الأخرى . لم أعد أحتمل .. لم أعد أطيق .

واعلنت انفصالى الى الأبد .. انفصالى عن التنظيم وليس عن الفكرة والمبدأ .

والحق أن بعدا نفسيا آخر مكن من نفسى هذا القرار .. بعد شخصى خاص بتركيبتى وتكوينى ! .. كنت أجدنى وأنا فى قلب اجتماعاتنا السرية ، كثير الشرود ، غير منجذب تماما الى ما يدور فيها ، انما أتأمل الرفاق كأشخاص وبشر ، لهم ملامح وظروف وتاريخ ، ثم أتنبه الى أن كثيرا مما قيل لم يدخل أذنى ، فأدارى حرجى .. وما ان ينتهى الاجتماع ونخرج فرادى من مكمننا ، حتى امضى اتنفس الهواء بعمق : حريتى ! تعالى الى يا حريتى !

كنت قد بدأت أضيق بالمواعيد ، وبتلك الدقة وذلك الحذر

الذى يستوجبه العمل السرى ، فما أبشع أن أكون انا ؛ دون أن أدرى ، مصيدة للآخرين .. وحينذاك أوصم بأبشع الاتهامات.. تلك التى رأيتها وسمعتها بأذنى وأنا فى السجن تحول حياة البعض الى جحيم .. انك اليوم بطل .. وغدا عميل متستر ولئيم !!

الحرية .. الحرية .. وخلعت نفسى من التنظيم خلعا ، صانعا لحياتى تنظيمها الخاص بها والملائم لها . وبلغ بى التوق الى الحرية أنى لم أخلع نفسى من قيود التنظيمات فقط ؛ بل خلعتها أيضا من مهنة المحاماة التى كنت أعمل بها .. فقد وجدتها مهنة لا تزدهر فيها أحوال المحامى الا بازدهار المشاكل بين البشر !

تلك كانت إحدى القرارات الخطيرة والمصيرية التى اتخذتها فى حياتى : لسوف أنذر عمرى بكل ما فيه ومن فيه للكتابة .. انثى لا أتخلى .. بل أواصل النضال بالكلمة .. الكلمة المكتوبة !

كانت الكتابة أيامها تعنى « القصة القصيرة » فاندفعت اعالجها وأكتبها بنشوة وشراهة !

ومثلما أذكر حتى الآن أول قصة قصيرة كتبتها ونشرتها فى حياتى ، مازلت أذكر أيضا أول قصة كتبتها ونشرتها بعد خروجى من السجن ، ذلك أنها كانت ، بالصورة التى نشرت بها ، تحمل تلك الغمامة القاتمة التى ظلت تلاحقنى ، وتصم نشاطى بالشك والارتياب وعدم الشرعية ، منذ خرجت من السجن صيف عام ١٩٥٥ ولمدة طويلة ! .. فقد نشرت هذه القصة ، وبرضاى باسم غير اسمى .. ومع هذا كنت سعيدا لمجرد أن أرى قصة قصيرة لى جديرة بالنشر وعلى مساحة صفحة كاملة من جريدة سيارة واسعة الانتشار .. هى جريدة « أخبار اليوم » !!

ابتسم الآن للذكرى .. فما الذى كان يدفع برئيس تحرير كبير وشهير مثل الأستاذ مصطفى أمين ، لأن ينشر قصة لكاتب مبتدىء وخارج لتوه من السجن ، وبهذه الصورة التنكرية ؟ ! لذلك قصة بدأت أول خيوطها وأنا لا أزال فى السجن .

كانت هناك لجنة تابعة للتنظيم الذى أنتمى اليه ، اسمها لجنة رعاية عائلات المسجونين السياسيين ، احدى مهامها جمع تبرعات من الأهالى وأساسا من الشخصيات الكبيرة والقادرة والمؤثرة اعلاميا ان أمكن .

وكان الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير « الأهرام » ، والأستاذ مصطفى أمين رئيس تحرير « أخبار اليوم » ، ممن صدر التوجيه بالذهاب اليهم ! كانت زوجتى هى المكلفة بذلك ، فالتقت بهما وعادت من اللقاء سعيدة ومنتصرة ، فقد تبرع كل منهما بخمسة جنيهات ، استشعرنا من خلالها التعاطف معنا !!

وكان لهذا الاستشعار مبرره . ان حسنين هيكل ومصطفى أمين هما من رجال عبد الناصر . وعبد الناصر تصالحنا مع سياسته ، ونقدنا أنفسنا نقدا ذاتيا ، وبتنا نعترف بقيادته ! .. ما المانع اذن ، بعد الخروج من السجن ، وقرارى بهجر المحاماة ونذر نفسى للكتابة ، أن أذهب لأحدهما وأطلب منه العمل فى جريدته ؟ وبدأت بالأستاذ هيكل الذى رحب بى ، وأبدى موافقة مبدئية ، الا أنه استمهلنى أياما ليسأل عن مدى امكانية تشغيل خريج سجون سياسى معه فى تلك القلعة العتيدة « الأهرام » ! .. وبعد أيام ، فى الموعد المحدد ، فوجئت به يقول منذ أول لحظة دخلت عليه فيها : « يا راجل .. دانت شخصية خطيرة .. والأخطر منك مراتك » . ولا أذكر ما قيل بعد ذلك .

نهضت شاكرا اعتذاره بكل هذه الصراحة والوضوح ! ..
خرجت من عنده واتجهت مباشرة الى الأستاذ مصطفى أمين ..
واذا بى أمام نوعيـة أخرى تماما .. فقد احتفى بى الرجل وهو يستقبلنى ، حتى أننى فكرت ، لو لم اخرج من لقائه الا بهذا الاحتفاء ، وكل هذا الود ، سأكون راضيا ومكتفيا .. حكيت له موقفى .. قال بشكل مباشر : شوف ـ أن تعمل معنا الآن وبشكل رسمى ، هـذا صعب .. أنا أرى ان نبدأ أولا بالنشر .. ومع توالى النشر ، قد تتحسن الظروف ، كن صبورا .. هات قصـة لنقرأها ، واذا كانت ـ معلهش ـ صالحة للنشر ، فسأنشرها على الفوز !

وفى اليوم التالى كنت أقدم له القصة كانت مكتوبة وجاهزة .
وفوجئت به يقرأها وأنا جالس أمامه .. اتابع بدقة كل خلجـة فى وجهه ، ولم يلبث أن رفع رأسـه عنها وقال : قصة جيدة .
سأنشرها فى عدد السبت القادم . كدت أطير فرحا .. ولكنك تعرف المحظورات السياسية .. لهذا ، فأنا أرى ـ درءا لأى مشاكل ، أن ننشرها باسم آخر غير اسمك .. ما رأيك ؟

قلت فورا : موافق .. ليس الاسم الآن هو المهم . المهم هو نشر القصـة . قـال مبتسـما : ولكن لابد لكل قصـة من مؤلف .. فلتختر لنفسك اسما !

وبدت المسألة كمغامرة أو لعبة سرية طريفة معا .. واخترت اسم ولدى .. بديلا لاسمى ! صلاح عبد الله .

وفى الموعد الذى حدده نشرت القصة ، وكان اسمها « أم مدبولى » . طرت بها فرحا وانا اراها تملأ صفحة كاملة .. لم يكن عليها اسمى .. لكنها قصتى أيها الناس .. كلماتى .. وعدت اقرأها من جديد كلمة كلمة .. كأنما أتأكد من انني كاتبها ..

وما أقساه من شعور ، حين يجد المرء نفسه محروما من الانتساب الى كلماته .. الكلمات التى صب فيها ذوب نفسه وسهر فيها الليالى .. وتنسب الى شخصية أخرى وهمية ! .. ومع ذلك فرحت .. فرحت بنفسى ككاتب .. وتراءى لى الأمل كبيرا فى الغد .. وعدت الى الرجل اللطيف الطيب بقصة قصيرة أخرى .. ونشرت بنفس الاسم « صلاح عبد الله » .

الا أن تجربتى مع « أخبـار اليوم » ، ومع هـذا الرجل الذى دخل قلبى لم تتواصل . فقد كنت أيامها أكتب قصصى وأنـا محمل بعقدة الذنب ، أنى تركت « التنظيم » والكفـاح مع الزملاء تحت الأرض ، واذن فلابد أن تتضمن قصصى ما يعلن ويؤكد أنى لم أتخل عن المبدأ ذاته ، وبهذه العقدة كنت أبالغ ، رحت ألتمس موضوعات أبطالها وشخصياتها من الطبقة العاملة ومن الناس الذين يعيشون فى القاع ، فنشر لى الرجل قصة أخرى ، ثم فترت حماسته لهذا النوع من قصصى .

وللحق أيضا ، فان حماسى أنا الآخر فتر ، ولكن من منطلق آخر : كيف أظـل أنشر وأنا محـروم من رؤيـة اسـمى على ما أكتب ؟ ! كانت لعبـة الاستخفاء الطريفـة قد حققت أقصى غاياتها ، وهى اكتسابى لثقتى بنفسى ، ككاتب .. فتحولت بقصصى الى « روزاليوسف » . انها مجلة « اليسار » .. ويعمل بهـا أصدقاء شخصيون : حسن فؤاد ، وعبد الغنى أبو العينين .. ورأيت قصصى منشورة باسمى .. يا لها من فرحة ، واكتمـل احساسى بذاتى ، وبدأت المسيرة الحق ! .. وتصـاعدت الثقـة بالنفس وأنا أسمع أحد النقاد اليساريين الكبار يهنئنى على قصة كتبتها ، وكانت أحداثها تدور فى أحد المصـانع وأبطالها جميعا من العمال والعاملات .. ويقول لى وهو يربت على ظهرى مشجعا ومحمسا : هـذا هو الأدب الطبقى الذى تحتاجه مصر .. وليس

الأدب البرجوازى الذى تفسخ وعفا عليه الدهر !! .. هزتنى كلماته ، ومضيت متحمسا أكتب على هذا المنوال !!

الا أن هذا النوع من القصص لم يكن يشبعنى فى الحقيقة أو يمتعنى ، كنت أحس فيه بكذبة ما .. ادعاء ما .. اننى لا أعرف شيئا عن حياة المصانع والعمال الا بالسماع . وما أكتبه ليس الا بالتصور والخيال .. اننى أؤلف وأفبرك قصصا لم أعشها باحساسى ووجدانى .. انها ، بما تتضمنه من أفكار وتعاليم وشعارات زاعقة ، أقرب ما تكون الى منشور سياسى !

لا .. ليست هذه نغمتى الأثيرة فى الفن .. نغمتى التى أحس معها أنى أرفرف أو انزلق خفيفا على سطح موجة .. نغمتى التى بدأت بها ، وأغرتنى بهجر مهنتى ونذر حياتى للفن !!..لطالما تمنيت فى صباى ومطلع شبابى أن أكون مغنيا.. وما أكثر ما غنيت لنفسى تحت الأشجار على شاطىء النيل فى القرية ، ولأصدقائى هنا فى ليالى القاهرة .. واننى لتائق لأن أحس بأنى أغنى وأنا أكتب القصة .. كيف يتأتى لى هذا ؟ ! كيف أسترد نغمتى .. أين ألقاها فتحملنى من جديد على موجاتها ؟ !

حتى وقع لى حادث جديد ! مجموعة قصص قصيرة لكاتب روسى اسمه « أنطون تشيكوف » .. ومضيت أقرأ فيها .. كانت القصة الأولى بعنوان « موت موظف » .. ولم تكن تشغل أكثر من صفحتين ، ومع هذا ، فما كل هذه البساطة والعذوبة والشجن الآسر الجميل ؟ ! ما كل هذه البصيرة النفاذة التى تستشف ما تحت الجلد كأنها عين نسر ترقب وتكشف من أعالى القمم أدق تفاصيل ما يجرى على أرض البشر وما يدور داخل أركان وجنبات النفس الانسانية .. أجل .. وما كل هذا المزيج الرائع السارى فى قصصه بين الانسان وبين الطبيعة حتى يتحولان

الى عنصر كونى واحد .. وأيضا .. ما كل هـذا العشق للحياة حتى فى مناطق الكآبة والألم ؟ !

كان للحظ السعيد أن تشيكوف هذا ، روسى الجنسيـة ، فنهض على الفور فى نفسى كند خطير لمكسيم جوركى .. فرغم أنه يهمس ويرتل ، الا أنه فى النهـاية يفجر ثورة ! .. هو أقرب الى روحى ومزاجى أكثر من جوركى .. جوركى يقول : جئت الى هذا العالم لأختلف معه . وهو ـ تشيكوف ـ يقول : جئت الى هذا العالم لكى أكتشف أسرار قوانينه .. واغيره بها !!

غزا حب هذا الكاتب قلبى ، وفى صحبته استعدت معه نغمتى الضائعة .. وتمنيت لو أننى كنت أعيش فى عصره . وآه لو أننا كنا نسكن مدينة واحـدة ، أو مدينتين أو مكانين متقـاربين ، لسعيت اليه واحتضنته وصادقته واستمتعت ، ليس فقط بروحه الانسانية الفياضة ، وانما أيضـا بملامح وجهه الدقيق الجميل . والغريب أنى رأيت فى وجهه شبها كبيرا بوجه أمى ، رغم لحيتـه الصغيرة الأنيقة : الأنف المستقيم الشامخ ، والوجنات البارزة المنحوتة ، والنظـارة الطبية التى تنبىء بعينين وادعتين أجهدهما ارهاق العمل المستمر ، وشفتين مزمومتين على شجن عميق ، وارادة لا تلين !

نزعت صورته من الكتاب بحنو شـديد ، ووضعتهـا فى برواز جميل ، وعلقتها فى أوضح مكان فى حجرتى . كان تشيكوف هو أول كاتب علقت صـورته فى بيتى .. أصبح واحدا من عائلتى ! .. تهرع الآن الى ذاكرتى صور الكتـاب الذين علقت صـورهم بعد ذلك بجوار صورته : همنجواى . وتولستوى . وطاغور . ولورد بيرون . كنت ـ ومازلت ـ أرى فيهم ملمحـا مشتركا رغم التباين الكبير فى التكوين الجسدى العـام .. هو ملمح روحى ، يطل من عيونهم على العالم ! .

ولأعد الى رحلتى مع كتابة القصة القصيرة . لقد وجدتنى بعد تعرفى على عالم تشيكوف اندفع بعرام أكثر فى كتابة القصة القصيرة ، وفى ظل موسيقاه الروحيه . كتبت منتشيا بعض قصصى: « وردة نامت » و « ابتسامة الرجل الكئيب » تلك التى فوجئت بعد نشرها فى « روزاليوسف » بتلغراف يهنئنى عليها .. وكان مرسل التلغراف هو الدكتور نظمى لوقا .. تهللت روحى . ومضيت بيقين أقوى ! كما كتبت قصة « الأرنب » وفوجئت بها تترجم الى الانجليزيه . وتدرس بكلية الآداب قسم اللغه الانجليزية كنموذج للقصة المصرية الحديثة .. اختارها الدكتور رشاد رشدى ، وترجمها الدكتور لويس مرقص .. وتصاعد اليقين بالفرحة ! .. لا أنسى أبدا أن زوجتى فتحية هى التى الهمتنى فكرة هذه القصة ونحن فى احدى زياراتنا لقريتى .. ولهذا لا يأتى ذكر لهذه القصة . الا واحس بأنها قصتها . وليست قصتى .. وما أكثر القصص التى الهمتنى اياها . وعايشتنى معايشة كاملة فيها .. اننى مدين لها . ولحسها الفنى الزاخر ، بالكثير مما كتبت ! ..

***

تلك كانت الفترة الذهبية للقصة القصيرة ، ليس فقط فى حياتى ، بل فى حياة مصر كلها ! .. كانت مصر فى ثورة .. الكفن القديم الكبير يمزق ، والطاقات الكامنة تتفجر ، والأرض تعد بانبات أزهار وثمار أجمل ! وكنا كتيبة أو مجموعة صغيرة مسها عشق القصة القصيرة ، فجمعنا هذا العشق الواحد ، وكونا ما يشبه الجمعية الأدبية .. نقرأ فيها لبعضنا ما نكتب وتتناوله بالتعليق والتقييم ، بحماسة وصدق يتفقان مع روح الثورة الطامحة الى تغيير كل شىء الى ما هو أجمل وأحسن ! .. كان لكتابة أى واحد منا لقصة قصيرة وقع الحدث أو الخبر

الهام ، نحتفل به ونجتمع حوله ، ونقضى أمتع الليالى : فاروق منيب ، وصبرى موسى ، وشوقى عبد الحكيم ، وبدر نشأت ، وابو المعاطى أبو النجا ، وعبد الرحمن فهمى ، وصالح مرسى ، وفهمى حسين ، وسيد جاد ، وامين ريان ومحمد سالم .. يشاركنا أحيانا فى تلك اليالى فوزية مهران ، وزينب صادق .

وكان قد سبقنا بقليل ، من نفس الجيل ، مجموعة صغيرة من كلية الطب : محمد يسرى أحمد ، وصلاح حافظ ، ويوسف ادريس الذى نشر مجموعته الأولى : « ارخص ليالى » بمقدمة للدكتور طه حسين . فلفتت الأنظار بشدة اليه ككاتب صاعد نعلن موهبته عن بزوغ نجم سوف يملأ بنوره سماء القصة القصيرة .. كما كان من نفس الجيل أسماء أخرى تعرفت عليها لأول مرة : يوسف الشارونى ، وادوار الخراط ، وشكرى عياد ، ولطفى الخولى ، ومحمود السعدنى ، وسعد الدين وهبة ، وفتحى غانم .. مع اختلاف مذاقهم وتوجهاتهم !

كانت القصة القصيرة الجيدة فى تلك الأيام بمثابة الطلقة التى تدوى فى سكون الظهيرة ، فينتبه اليها الناس وتصبح مادة لحديثهم ! .. وللحظ ، لم يكن اختراع التليفزيون قد دخل بيوتنا بعد . كانت الكلمة المكتوبة ، وليست الصورة ، هى أنس الناس ووسيلتهم الوحيدة لشغل أوقات فراغهم ! كان للقصة القصيرة وزنها ، ودورها الفعال والمعترف به كرسالة ، فمضينا جميعا ، ككتيبة فى ساحة معركة ، نكتب ونكتب ، وكلما كتب واحد من مجموعتنا قصة جديدة أقمنا له احتفالا ، وكأنه عريس يزف الى عروسه ! ..

لكننا ، لم نكن باسم الصداقة والحب ، نجامل بعضنا على حساب الفن : هل هى حقا لقطة قصة قصيرة ، أم هى ملخص لرواية طويلة وبهذا تخرج من عداد القصة القصيرة المثالية ؟ ! ..

والفكرة .. هل فيها ما ينفع الناس ويعطيهم قوة وأملا فى التغيير، أم هى مجرد بكائية تثير فى النفس الاحباط وتضيف الى العتمة القديمة عتمة أخرى جديدة ؟ !

تلك كانت فترة التدريب الأولى للتمرس على اكتساب حرفية القصة القصيرة واكتشاف أسرارها .. تعلمنا منها أهمية السطر الأول ، بل الجملة الأولى فى القصة . ان تكون بمثابة الوثوب المباشر على الموضوع ، ثم الغوص الى اعماقه مستكشفا كل أبعاده، ثم الخروج الى السطح مرة أخرى ومعنا اللؤلؤة : لحظة التنوير ! ..

كما شغلتنا قضية اللغة والأسلوب . كان مذهبنا البساطة فى التعبير بقصد الوصول الى أوسع دائرة من القراء .. وان لجأنا احيانا الى الرمز فمن اجل مزيد من التوضيح والتاكيد ، وليس للتعمية والتغميض ! كنت وأنا اكتب القصة أتمنى أن تقرأها أختى التى لم تكمل تعليمها .. هى وكل أهلى وفلاحى قريتى ميت خميس .

وكان التحدى الأكبر هو القدرة على الجمع بين البساطة والعمق ، وذهب الحماس بأحدنا ، وهو « بدر نشأت » الى حد كتابة مجموعة قصصية بأكملها باللغة العامية « مساء الخير يا جدعان » . بينما الجدل كان حادا ومشتعلا بيننا حول لغة الحوار فحسب : هل يكون بالفصحى أو بالعامية ؟

وقد ظل هذا الجدل مشتعلا بيننا لمدة طويلة ، حتى اكتشفنا بالتجربة أن هناك لغة ثالثة ، هى اللغة الفنية المنبثقة من روح ونسيج العمل ذاته .. لغة لها شاعريتها وموسيقاها الخاصة بها ، سواء أكانت فصحى أو عامية . ان « الفصحى » من « الفصاحة » .. وهل هناك أيها الأصدقاء أفصح من بيرم التونسى

وصلاح جاهين ، وفؤاد حداد .. فرسان التعبير بالعامية ؟ !

كما شغلتنا إيضا قضية أخرى ، هى دور الفن فى التغيير .. وكان أحد مقاييسنا فى تقييم القصة هو نوعية الموضوع أو الأزمة التى يعالجها الكاتب ، ومدى ما يقدمه من حل أو تنوير !!

وكانت هناك حينذاك مدرستان أو تياران فى النقد متناقضان يقفان لبعضهما بالمرصاد : مدرسة الفن الملتزم بقضايا المجتمع ويمثلها الدكتور محمد مندور ، ومدرسة الفن للفن ؛ أو الفن بذاته ولذاته ، ويمثلها الدكتور رشاد رشدى . ورغم أننى كنت منتميا وبحماس الى المدرسة الأولى ، فقد وجدتنى لفترة أتمايل بل وأترنح .. فها هو الدكتور رشاد رشدى يتحمس لاحدى قصصى : « الأرنب » ويقرر تدريسها كنموذج لطلبته فى قسم اللغة الانجليزية .. ثم ، ويا للمفاجأة ، اذا بالدكتور مندور ، الذى كان متحمسا لقصصى من قبل ، باعتبارها منتمية الى تيار الواقعية الاشتراكية ، يهاجم هذه القصة بالذات ، ويتساءل : « ما الذى يقوله هذا الأرنب ؟ ! .. » واضطرب قلمى !!

ومازلت أذكر تأثير هذه الفترة الزاخرة بالحماس وبالصدام على منهج كتاباتى .. فقد ألفيتنى أغير نهاية قصة لى ، بدت لبعض المتحمسين لقضية التغيير مغرقة فى التشاؤم .. متناقضة مع روح الأمل والثورة !

لقد أنهيتها وقد انطفأ « الفانوس » وحل الظلام والخوف ، فعدت انهيها وقد أضاء الفانوس وعمت الفرحة !

ينهض الآن أمامى طيف رجل مهيب وحبيب الى القلب ؛ هو الدكتور على الراعى .. بهدوئه البادى لكنه يخفى فى أعماقه البراكين . كان هو الذى نشر لى قصة « الفانوس » بنهايتها الأولى فى الصفحة الأدبية التى كان يشرف عليها فى جريدة

« المساء » .. وحين رآنى أغير نهايتها على هـذا النحو ، كتب ينقد بسخرية لاذعة ومهذبة هذا التغيير .. فالكاتب ليست مهمته أراحة الناس ، بل اقلاقهم ولسع الكسالى والحالمين منهم الى النهوض ومواجهة المتاكل بالعمل وبالفعل .. فعل التغيير !

وقد ارتجت أعماقى لكلماته .. وبدا لى انى شوهت قصتى باسم التفاؤل وروح الأمل .. فأعدت اليها ــ معتذرا ــ نهايتهـا الأولى .. كما كتبت قصة « النهاية السعيدة » وهى حوارية بينى وبين أحد فوانيس القرية ، ناقشت فيها قضية التغيير ، ليس فقط فى الفن ، وانما فى الحياة بشكل عام !

فى ذلك الجو الحافل والاحتفالى ، كان كل من يكتشف كاتبا عالميا جديدا للقصـة القصيرة يأتينا مهللا ويبشرنا به . وفى غمار تلك الفترة الحماســية ، وقعت فى حـب « أو. هنرى » .. « وارنست همنجواى » الذى عشش فى نفسى بعد قراءة رائعته « العجوز والبحر » ، والتى لم تكن فى الحقيقـة غير قصة قصيرة طويلة محكمة التكوين !

كما وقعت فى حب الكاتب الأرمنى الاصل « وليم ساروبان » وعند ساروبان لابد من وقفة حب ووفـاء . كان لقائى الأول به فى كتابه العظيم « الكوميديا الانسانية » . كان من حيث المظهر رواية طويلة ، لكن كل فصـل فيها ، كان يمكن اعتباره قصـة قصيرة قائمة بذاتها . ومن هذا الكتاب بالذات ، تكونت رؤيتى المثالية فى كتابتى للرواية فيما بعد !

جريت ملهوفا ابحث عن قصص أخرى له . واذا بالطفولة هى عالمـه الأثير والمليء بالروائع والمدهشات . ولأنى أيامها كنت أبا جديدا لطفلين ثم ثلاثة ، فقد أسقطت عليهم وعلى ، عـالم ساروبان وخياله الجميل الطليق والداعى لانطلاق الانسان منذ

خروجه من الرحم الى الحيـاة ، والذى يبدو فيه الصغار اوفر احساسا وأكثر معرفة وحكمة بالفطرة من كثير من الكبار ! .. وفطنت الى ما فى حياتى مع أطفالى وأطفال الآخرين من تجـارب ولمحات يمكن أن تكون نبعا لقصصى ، فكتبت عديدا من القصص ابطالها اطفال وصبية صغار : « ابن العالم » .. و « الموتوسيكل » و « العصفور لعبة » و « حفلة عشرة » .. وغيرها .. وبدا لى انى حققت انجـازا هاما ، فضممت هـذه القصص فى مجموعة واحدة ، رغم ان بعضها كان قد سبق نشره ضـمن مجموعات سابقة ، واسميتها : « ابن العالم » .. داعيا من خلالها الى نظرة انسانية وثورية فى التعامل مع أولادنا الصغار ! وكان من أجمل ثمارها ، مقالا نقديا محبا كتبه الدكتور عبد القادر القط فى جريدة الأهرام ، اعطـانى شحنة هائلة للمضى على الطريق .

اننى أحرص على ذكر ما أتذكره الآن من منابع قصصى ، ذلك لأنى لا اؤمن بالعبقرية الشيطانية التى تولد من العدم والفراغ، بل اؤمن بأن كل الانجـازات الانسانية ، تقوم وتنهض جميعـا على أكتاف بعضها .. وللكاتب الأيرلندى « برنارد شو » جملة ساخرة وبليغة فى هذا المعنى .. اذ يقول : « شكسبير أطول منى قامة ، لكنى اقف على كتفيه » !

***

فى تلك الأيام الحـافلة بالحمـاس وبالحب ، تعرفت على الأستاذ نجيب محفوظ .. كان يعقد ، صباح كل يوم جمعة ، جلسة ادبيـة فى الدور الثانى من كازينو أوبرا ، فسعيت اليها لأستكشفها واستكشفه . وكنت منتهيا لتوى من قراءة ثلاثيته الشهيرة العتيدة « بين القصرين » . واذا بى أقع فى حب شخصه من اللحظة الأولى ، وهو يستقبلنى بوجه بشوش ، وروح ابن بلد عادى بسيط وضحوك . ولم تلبث الجلسـة ، بفضل حماسـه

وتشجيعه ، أن أصبحت ندوة منتظمة لقراءة قصص الشباب ومناقشتها على أعلى وأرقى مستوى ! وسرعان ما ذاع صيت هذه الندوة واشتهرت باسم « ندوة الأوبرا » أو « ندوة نجيب محفوظ » .. فكثر روادها واتسعت رقعتها حتى أصبح المكان أحيانا يضيق بنا . ولأن معظم روادها كانوا من الشباب ؛ فقد كانت المناقشات لا تقف عند حد التقييم الفنى لشكل القصة وأسلوبها ، بل تجنح للدخول فى صميم فكرتها ، ومدى ما تقدمه من اضاءة وطاقة لتغيير الحياة الى الأجمل ! .. كان المناخ الثورى حينذاك ـ خاصة بعد القرار التاريخى بتأميم قناة السويس ووقوع العدوان الثلاثى ، ثم انتصارنا عليه .. كان المناخ مناخ ثورة ، فأين هذه القصص من روح الثورة ؟ ! .. تحولت الندوة الى بؤرة ثورية ! الى أن فوجئنا ذات يوم بالنادل يبلغنا آسفا بقرار وصل صاحب الكازينو من وزارة الداخلية ، بفض هذا التجمع ! وان أى اجتماع يزيد على خمسة ، لابد له من تصريح .. كان وقع القرار كئيبا وقاسيا على نفوسنا . وأعلن البعض رفضه والاستمرار فى الندوة تحديا ، الا ان اشباح زوار الفجر حسمت الموقف ، وقررت الأغلبية فضها ، فانفضت ، وتفرقنا أيدى سبأ !

ولقد بقيت ذكرى هذه الندوة كنبع من ينابيع تكوين جيل أدبى بأكمله .. الا انها بقيت أيضا كجرح غائر أحدثته أجهزة الثورة فى نفوسنا ! كان شعورنا بعد هذا القرار أننا مطاردون من ثورتنا .. ومن هذا الشعور تكون نسيج الحزن والكآبة التى راح يظلل معظم قصاصينا وروائيينا !

ورغم هذا ، فقد كانت القصة القصيرة تمضى فى ازدهار .. وبدأ عشاق جدد لها فى الظهور وانضموا بحماس الى موكبها الاحتفالى : علاء الديب ، وعبد الفتاح رزق ، وعبد الوهاب داود ، وكمال مرسى ، ويحى الطاهر عبد الله ، وجمال الغيطانى ،

وابراهيم اصلان ، وخيرى شلبى ، واقبال بركة ، وصلاح عبدالسيد، ومحمد كمال محمد ، وابراهيم عبد المجيد ، وآخرون عفوا لعدم تذكرهم الآن .

كما كان لقائى التاريخى السعيد بمبدع عظيم فى عالم القصة القصيرة ، هو أستاذنا وفناننا الكبير « يحيى حقى » . لقد التقيت به وبقصصه متأخرا بعض الوقت ، لكنى من أول ما التقيته ، بدا لى وكأنى اعرفه واعرف قصصه منذ دهور ! .. واذكر أن أول من لفت نظرى اليه كقصاص هو الدكتور يوسف ادريس .. اذكر جملته حينذاك : لم تقرأ ليحيى حقى ؟ ! .. من لم يقرأ مجموعته « دماء وطين » فهو لم يقرأ قصصا مصرية ابدا !! وقلبت الدنيا حتى عثرت عليها ، واذا بى أمام انفجارات ضوئية رائعة الحسن زاهية ، كل قصة هى مهرجان مثير حافل بالجمال وبالحكمة ، واعتبرته من يومها شيخ واستاذ القصاصين المصريين ، ليس فقط بقصصه البارعة الممتعة ، وانما أيضا بتلك التحفة التى طلع علينا بها فى أوائل الستينات : « فجر القصة المصرية » وبفضل هذا الكتاب « الجوهرة » الفبتنى أمسك بجذورى ، فرحا باكتشاف جدودى العظام الأوائل الذين مهدوا لنا أرض القصة القصيرة : محمد تيمور ، وعيسى عبيد ، وخيرى سعيد ، ومحمود طاهر لاشين .. ورحت ابحث عن قصصهم وأعجن روحى بعجينة أرواحهم ! .. انه الحنين الملح الدائم للانتماء ، وللاحساس باليقين بصدق ما نذرنا حياتنا من أجله !

مضيت بحماس على درب القصة القصيرة .. الا أن الأمر لم يكن بهذه البساطة واليسر . كنت فى تلك الفترة لا إزال أعانى من آثار تجربة السجن .. أخطر هذه الآثار أنى كنت ممنوعا من العمل فى اية هيئة أو مؤسسة ، عقابا على اختلافى ذات يوم مع الثورة ! .. كنت أحيا عاطلا وشريدا ، خاصة بعد أن هجرت مهنة المحاماة . وتعددت محاولاتى للعثور على عمل ، لكنها جميعا

باءت بالفشل .. وعرفت حزن الآباء والأزواج الذين يقفون أمام اولادهم وزوجاتهم مطرقين عاجزين عن الوفـاء بما يحتاجون .. وسرعان ما تحولت هـذه الفترة بمشاعرها واحداثها الى قصص قصيرة .. وخرجت منها بمجموعة من القصص القصيرة تدور حول البطالة والبحث عن عمل . كتبت قصتى « الصورة » و « الصيد » و « الرجل الذى ضحك » و « هدد ؟ ! لا .. انهيار » وغيرها .. نشرتها فى مجلة روزاليوسف .. وصباح الخير . والاذاعة ، وفى جريدة المساء التى كانت وليدة حينذاك ومعترف بها رسـميا ، ولأول مرة كمنبر لليسار ! ..

كان الاحساس بالمطـاردة بدأ يقل فى نفسى . وحل محله شعور نسبى بالأمان وبالاطمئنان .. ذلك أن الثورة كانت قد بدأت تدخل منعطفا جديدا : أفرج عن المعتقلين السياسيين ، وامتلأ هواء مصر كلها بأغنية عبد الحليم حافظ وصلاح جاهين : احنا الشعب .. احنـا الشعب .. يا فاتح باب الحريـة .. يا ريس يا كبير القلب .. كان ذلك عام ١٩٥٦ .. عام المد .. عام تأميم قناة السويس والتصدى لعدوان ثلاث دول استعمارية.. أصبح الواحد فى الكل .. والكل فى واحد .. وانتصرنا .

كانت مصر لأول مرة فى تاريخهـا الطويل المكتوب بمداد التعاسة والقهر ، تعيش الاحساس بالمجد وبالثقة فى النفس . وبالأمل الكبير فى الغد !

فى خلال تلك الفترة الزاهية أصدرت أول مجموعة قصصية لى : « داود الصغير » .. وصدرتها بهذا الاهداء : « الى جيلنا الجديد الصـاعد . الجيل الذى يملك مصير الغد بين يديه ، ويعيش حياته بالحب وبالثورة معا » .. ثم أعقبتها بمجموعتى الثانية : « فى ضوء القمر » .. وكان اهداؤها : « الى أمى .. الراقدة هنـاك .. خلف الجسر .. وسط الخضرة .. وعلى

شفتيها ابتسامة أبدية » .. وبموت أمى تسربت فكرة الموت الى نفسى واحتلت ركنا ابديا .. وفى البدء كان ركنا للحزن ، ثم مع الأيام اصبح « غارا » للتأمل والحكمة واستلهام المعرفة . وبوحيه كتبت « حد المحراث » ذلك الذى يشق بطن الأرض منذ آلاف السنين ، لتنبثق منها الخضرة ، ورغم آلاف بل ملايين مواسم الحصاد ، فالخضرة فى الحقول ما زالت .. عفية وابدية ، وكأنها لم تحصد مرة من المرات !

وتعاقبت بعد ذلك المجموعات : النمل الأسود .. وابن العالم .. وبحر الذنوب .. والأمل والجرح .. حتى بلغت ستا .. تفصل بين الثالثة والسادسة عدة سنوات ! ..

وكنت أظن فى بدء عهدى بالكتابة ، ان شيئا أو فنا آخر لن يقوى على سلبى من القصة القصيرة ، وان هذا لو حدث فستكون الخيانة الكبرى لحبى الأول والأعظم . هى عين العاشق يعشيها دوما ضوء المحبوب فلا ترى أبعد من هالته ! .. غير أن اشكالا جميلة أخرى من التعبير سرعان ما غزتنى وأوقعتنى فى غوايتها . وكان أول من اغوانى هو « المسرح » .. بخشبته وستائره المثيرة ، ودقات الافتتاح الثلاثة معلنة فتح الستار وبدء الكشف عن الأحداث والشخصيات مجسمة حية !! .. ويا لها من أزمة عنيفة تلك التى عشتها لعدة سنوات ، فى صراع بين القصة القصيرة والمسرح .. كلما واتتنى فكرة انفقت اياما وليالى بل وأشهر كى احسم موقفى منها : هل اكتبها فى شكل قصة أو مسرحية ؟ ! حتى كاد هذا الصراع يشل قلمى تماما . وقام فى نفسى هاجس بأنى ربما فرغت وانتهيت ككاتب ، واذن فقد انتهت حياتى . ورأيت نفسى فى الحلم محمولا فى نعشى ، وأنا نفسى سائر مع الناس فى جنازتى .. فاندفعت ، عقب هذا الحلم ، اكتب مسرحية تدور حول هذا المعنى : يموت الكاتب

حين يتوقف قلمه أو يفقد اتجاهه . وأسميتها « طيور الحب » .. وعرضت فى نفس عام كتابتها على خشبة المسرح القومى .. حينذاك استبد بى عشق المسرح وشحنتنى بطاقة كبرى ومضيت أكتب له .. وهكذا انتهى الصراع بانتصـــار أضـواء المسرح . وأنزوت القصـــة القصيرة فى ركن من قلبى ، متحفزة للانبثــاق والانطلاق فى أية لحظة !! .. ولكن ها هو غريم فنى آخر يدخل الصراع . فقد أغوتنى « الرواية » أيضا برحابة عالمهــا وتوالى أحداثها مثلما تتوالى الأمواج فى النهر العظيم .. والحق أنها لم تكن غواية ، بل كانت ضرورة محتومة وأنا أكتب رحلتى الطويلة الأولى فى نهر النيل . فقد خرجت منى وبشكل تلقائى على شكل رواية طويلة .. فوقعت فى الغواية .. وكتبت عدة روايات أخرى!

هل تمت اذن الخيانة لحبى الأول .. القصـــة القصيرة ؟ ! . على الاطلاق .. فقد تنبهت .. وكلى فرح .. أن كل ما أكتبه : مسرحا أو رواية أو مقالا أو فيلما أو حتى مسلسلا للتليفزيون ، انما أكتبه بروح ومنهج القصة القصيرة .. ذلك المنهج الصـــارم فى ضرورة تحديد اللقطة وتكثيفها والكشف عن أعماقها وحركتها الجياشة الداخلية ، مع روح شعرية وغنائية لو أمكن ، تحلق بها فوق الواقع الدارج والمعتاد ! .. وبهذا المنظور كتبت « رباعيــة النهر » .. كل فصـــل فيها يكاد يكون قصة قصيرة تتعامل مع موقف بذاتــه .. وكذلك فعلت فى روايـــة « العودة للحيــاة » و « عينان على الطريق » بل ان رواية مثل « فجر الزمن القادم » أو مثل « محاكمـــة فأر » تكاد كلّ منهما أن تكون قصـــة قصيرة طويلة ، من حيث تأسيسها وانطلاقها من موقف واحد .. فى مكان واحد لا يتغير أبدا .. رغم توالى الأحداث !!

لذلك تبقى القصة القصيرة هى الأميرة المتربعة على عرش قلبى ، صاحية متيقظة ، بوجهها العرائسى البشوش .. تهمس

لى وترشدنى وتضىء لى الطريق .. وكثيرا ما يستبد بى الحنين اليها واود لو أطرح خلفى كل الأشكال والوذ بها ، متمنيا لو أعود فى عشق الفن الى التوحيد .. وأجلس الى الورق ولا أكتب غيرها .. محققا لنفسى ــ فى محرابها ــ امتع لحظات الاحساس بالحياة والامتزاج الكامل بالوجود !

***

ها هى الآن أمامى .. معظم ما استطعت جمعه من قصصى القصيرة التى كتبتها عبر مختلف مراحل العمر .. أقلب فيهما واعاود قراءتها ، محاولا اعطاءها الترتيب المناسب لضمها فى مجلد واحد أو مجلدين ، كافتتاح لمشروع باعادة طبع كل مؤلفاتى ، فى ذلك الصرح الثقافى الوطنى ، العتيد « الهيئة المصرية العامة للكتاب » فاذا بى ، وأنا اتنقل فى عوالمها ، أمام نوع من السيرة الذاتية

والحق انى ترددت بين شكلين أو منهجين فى الترتيب : هل أقدمها وفق تاريخ النشر الطبيعى منتهيا بأحدث ما كتبت ، أم الأفضل البدء بالأحدث والأكثر معاصرة ، ثم نزولا حتى انتهى بأول ما كتبت ؟ ! ..

هى حقا مشكلة .. فالكاتب لاشك مع الأيام يزداد خبرة ونضجا ، وقد يكون من الأوفق أن يكون لقاؤه الأول مع القارىء فى رحاب آخر قصصه التى تعطى خلاصة تجربته فى الفن وفى الحياة .. وبدا لى فى لحظة ، كم هو جميل لو أننى افتتحت بآخر ثلاث قصص قصيرة خطها قلمى عام ١٩٨٩ .. وهى « صيد البكور » .. و « حلاوة البحر المالح » .. و « موت الموت » ، الا أننى فى النهاية فضلت الاحتفاظ ــ بقدر الامكان ــ بالترتيب الزمنى لكتابتها ، الأمر الذى يكشف عن التجربة الفنية ، ومنابعها ، ونموها وتطورها شكلا وموضوعا .

ولأن النبع الأول لقصصى ، كانت هى حياتى فى القرية ، فقد بدأت بها ، وفكرت أن أدرجها تحت عنوان « قصص العهد القديم » .. ثم كان النبع الثانى : حياتى وتجاربى فى المدينة .. فثنيت بهـا ، مفكرا أيضـا باعطـائها عنوان « قصص العهـد الجديد » .. وهو العهد الأطول والأكبر والذى يحتوى على مراحل وتجارب كثيرة ومتنوعة ، من أول تجربة الحب والزواج ، الى تجربة الأبوة ، تلك التى ألهمتنى عديدا من القصص عن عـالم الطفولة ، فرأيت جمعها وتقديمها متوالية بصرف النظر عن تاريخ كتابتها .. تكاد تكمل بعضها ! .. كما امتصتنى بعد ذلك تجربة عامين فى السجن وما أعقبها من حيـاة التشرد والبطالة .. وبلذع آلامها وقسوتها كتبت عدة قصص صببت فيها مرارة وأشـجان هذا العالم ! .. كما استغرقتنى فى احدى المراحل ، دنيا علاقة الرجل بالمرأة ، حيث اكتشفت أنها أكثر العلاقات طبيعية فى الحيـاة ، وفى نفس الوقت أكثرهـا تعقيدا ودراميـة وامتـلاء بالمتفجرات .. وحاولت التعبير عن ذلك الاكتشـاف فى بعض قصصى ! ..

مراحل وتجارب ورؤى تجعل من هـذا العهد الثانى عهودا كثيرة ومتنوعة .. لهذا ألغيت فكرة « العهود » هذه ، وتركت ترتيب القصص ينساب مع انسياب الزمن الطبيعى ! ..

والحق أنه من الصعب تبويب القصص وتقسيمها بشـكل قاطع باتر .. تلك محاولة عبثية ومليئة بالافتعال ، ذلك أنها فى النهاية تجمعها جميعا روح واحدة ، هى روح كاتبها ، وتنبع كلها من نهر واحد هو نهر الحياة !!

تبلغ هـذه القصص أربع وخمسين قصـة ، أنظر اليهـا

في مجملها ، وهى مضمومة الى بعضها ، كاحدى روايات حياتى ..
كل قصة هى فصـــل فيها ، أو موجة من الموجات !

اهمس لنفسى ، وللأصدقاء : لو أن عشرة قصص منها فقط ،
بل لو خمس لا اكثر تحمل فى ثناياها عناصر البقاء وتجد فيهـــا
الأجيال الجديدة والقادمة ما يثير الفرح والاعجاب ، لكان فى ذلك
كل السعادة والاكتفاء !

« عبد الله الطوخى »

نوفمبر ١٩٨٩

فى ضــوء القمر

كنت طالبا بالجامعة ، حين تزوجت من نعمات .. وحين إذكر الآن لمـاذا لم أستطع الانتظار حتى أتم دراستى كبقية خلق الله ، لا أذكر شيئا سـوى أننى أيامها كنت ممسوسا بالحاجة الى انسانة طيبة ، لا تفارقنى لا بالليل ولا بالنهار .

كنت كأى طالب من الأرياف ، أحس دائما وأنا فى قلب ضجيج القاهرة وزحامها ، بالغربة والضياع .. وبالحزن أيضا .

شيء واحد فقط ، كان يخفف عنى قسوة هذا الشعور .. نعمات .. ونعمات أيامها كانت داخلة على التاسـعة عشر من عمرها .. متوردة الخدين .. وسمراء فى آن واحد .. لكنهـا كانت بخلافى .. كان وجهها دائما متفتحا للحياة .. ضحوكا حتى للزحام .. زحـام المدينة التى ولدت فيها وعاشت كل عمرها .

ورغم ذلك ، التقينا .. التقينا كروح واحدة ، من أرض واحدة . كان من عادتنا قبل الخطبـة والزواج ، أن نتمشى فى شوارع القاهرة وحواريها .. ونتكلم .. ونحلم بحياتنا معا .. وذات مساء .. ونحن نسير سـويا سألتنى فجـأة ونحن فى

وسط الكلام . . ـ « لكن انت ليه بتبقى أحيانا حزين . . من غير سبب ؟ ! ربع أكون أنا السبب ، ومخبى على . . ! »

أربكنى السؤال . أسعدنى . أيقنت أن نعمات انسانة تحبنى . وتحب أيضا لحظات حزنى ، فقررت أن أتزوجها على الفور . . وتزوجنا .

كان أول شعار اتخذته لزواجنا : « الحياة جميلة . . فلنفرح بالحياة » كل شيء فى نعمات كان بكرا . . حتى عينيها العسليتين ، كانتا كعيون الأطفال . . وكنت حريصا من أول يوم على أن أفتح أمامها كل أبواب الدنيا ، لترى على يدى ، كل ما فيها من جمال .

ما من منظر جميل كنت أراه بالصدفة وحدى وانا فى الطريق ، الا وأخذتها معى بعد ذلك لتراه . . ولأرى وجهها الفرحان فرحانا أكثر . ثم نضحك معا من أعماق القلب .

وذات يوم ــ اليوم السابع لزواجنا على ما أذكر ــ خطر لى أن أقدم لها ليلة جميلة .

فأن نقضى ليلة هادئة فى الريف ، وفى قريتى بالذات ، هذا شيء رائع حقا . . فالدنيا صيف . . ونحن فى منتصف الشهر العربى . . والقمر طالع ، وحقول القمح مترامية كالعادة وغافية فى حضن الجسر . . ما أجمل أن تشهد معى نعمات . . وفى قلب الحقول ، أول قمر يهل على زواجنا .

كانت الفكرة جميلة ومثيرة ، كادت تطير لها نعمات من الفرح ، فنفذناها على الفور .

ومع أننا دخلنا القرية ونسمة العصر تهب من فوق الجسر ،

وألوان الشفق لم تخط زرقة الأفق بعد ، الا أننى لم أخرج بنعمات من البيت الا بعد صلاة العشاء بكثير .

كنت أريدها تطلع .. فتجد أمامها البدر متجليا فى السماء .

ظللت أنتظر الليل فى شغف ، حتى اذا ما سكنت الحركة تماما فى القرية ، وانقطعت الأرجل كلها عن السير ، ولم يعد فى السكة واحد يقول لا اله الا الله ، خرجت أنا وهى ، ورحنا وحدنا نتمشى فى حقول القمح العارية التى تم حصادها .

كان اول ما واجهنا هو البدر .. كان يتوسط القبة فى هدوء .. وملايين ذرات الفضاء تشع ضياء ونورا .. وبقايا أعواد القمح المحصودة ، بدت جذورها الرفيعة المسنونة وكأنها تفرش الأرض بالذهب .

توقفنا نحن الاثنين فى حركة واحدة ، ورحنا نتطلع الى القمر .. كانت الدنيا من حولنا خلاء وسكونا .. والسكون له طنين .. وما من صوت الا دقات خافتة بعيدة لماكينة رى آتية من ناحية الجسر ، وآذان بعض ديكة ، ربما ظنت أن ضياء البدر هى تباشير الفجر ، فراحت تؤذن وتصيح .

قالت نعمات فى صوت هامس ودون أن تلتفت لى :

ـ يا سلام .. بلدكم جميلة .. جميلة جدا .

قلت لها وأنا منتش بفرحتها أكثر من نشوتى بالقمر : ما خلاص يا نعمات .. بقت بلدك أنت كمان .. .. وبلد أولادنا اللى جايين .

هزتها كلمة « أولادنا » بالفرحة ، فاستدارت فجأة بوجهها نحوى ورفعت لى بصرها لتقول شيئا .. أى شىء .

كانت فى وقفتها امامى تواجه البدر .. وانسكبت أشعته الفضية على ملامح وجهها الأسمر الصغير اللطيف .. أجزاء من خدودها المتكورة وانفها الملفوف ، مفروشة بنور القمر ، والأجزاء الأخرى تنعكس عليها ظلال ناعمة هادئة .

حلوة .. حلوة نعمات .. عروستى فى ضوء القمر .. ولكن فى عينيها انبهار غريب .. كانت تود لو تجد كلمة تقولها لى لتعبر عن فرحتها ، لكن شيئا غريبا وساحرا كان يوقف الكلمات على شفتيها .

قالت وهى تمسك يدى بانفعال :

ـ أنا عايزة أقول لك .. أقول لك ايه .. سعيدة .. ؟! . لا .. سعيدة مش كفاية .

وصمتت وعيناها فى عينى ، ثم عادت تقول وكأنها تكلم نفسها :

ـ نفسى افهمك .. علشان أقدر أسعدك .

أختلج قلبى .. يبدو أن أجمل ما نجنيه من الحب كلمة تنبع من القلب ، وانه يكفى انسان واحد من كل هذا العالم يحبنا من الأعماق لنكتفى ونعيش .

قلت لها وأنا انظر فى الخلاء :

ـ شايفة الحاجة لما تكون على طبيعتها تبقى جميلة ازاى .. عايزين حياتنا تبقى كده يا نعمات .

ضغطت على يدى ، ثم وسعت من خطواتها تود أن تطير بدلا من أن تتكلم .

مضينا نسير .. لا متقاربين ولا متباعدين .. خطوتنا

واحدة .. وبقايا أعواد القمح الذهبية تتكسر وتخشخش تحت أقدامنا فى ايقاع موحد ، وله رنين .

كانت نعمات تمشى كالمبهورة..وكنت انا مبهورا بانبهارها.. كنت أريد أن أحس كل ما تحس به عروستى ، فرحت انظر الى كل شىء بعينيها هى .

كل شىء كان غارقا فى ضوء القمر .. حتى البيوت والعشش والدواوير الصغيرة أخذ طوبها النيىء لون ضياء القمر ، واطراف سعف النخيل وفروع أشجار الصفصاف بدت اطرافها العالية مفضضة وهى تتموج فى وداعة مع نسيم الليل .

قالت وعيناها تمتدان فى النور حتى تبلغا أشجار الجميز الضخمة الراسخة على جسر النيل .

ــ حاجة غريبة .. الجمال ده كله والناس ما تحسش بيه ؟ ! .. ليه الناس هنا ما يحتفلوش بالقمر ويفرحوا ؟ ! .. ليه يناموا فى ليلة جميلة زى دى .. ؟ !

كان سؤالها ساذجا .. وكانت تبدو وهى تلقيه طيبة وحبيبة الى القلب ، لكن شيئا ما قبض قلبى وأنا أسمعه .

قلت لها وانا اجذب نفسا عميقا من صدرى :

ــ أصل اليومين دول رى القطن .. والفلاحين دلوقت زمانهم فى الغيطان بيشتغلوا .

قالت وعيناها هائمتان بعيدا :

ــ الله .. زمان منظرهم جميل وهم بيشتغلوا تحت القمر.. يا سلام .. جميلة بلدكم .. اجمل ما كنت بتصورها لى .. فاكر ؟

الا فاكر .. !!

قبل زواجنا ، وأيام الخطوبة ، كان يحلو لى دائما ونحن نتمشى فى شـوارع القاهرة ، وبين بيوتها الضخمة العالية ، أن اصف لها الطبيعة فى قريتى .

الترعة من جانب يا نعمات .. والنهر من جانب .. والخضرة والخلاء .. ورائحة الطين والزرع والزهر .. زهر الفول والبرسيم بالذات .. وحتى النسـمة .. كل شىء فيها جميـل يا نعمات .. يا سـلام يا نعمه .. لو يتحقق حلمنا ، ونذهب الى هنـاك ، ونحن زوجان ، خصوصا فى ليالى القمر .

وها نحن معا .. وحيدان .. على أرض مفروشة بالذهب .. سابحة فى ضوء القمر .

توقفنا عن المشى مرة أخرى .. وسكن ظـلانا أمامنا على الأرض .. ماذا يمكن أن نقول فى تلك اللحظة ؟ ! هل فى الدنيـا كلام .. اى كلام ؟ !

لا .. ولا شىء يصح أن يفصلنا فى تلك اللحظـة عن بعضنا ، حتى ولو كان هـذا الشىء هو شعاع واحد من ضوء القمر .

تناولت راسها الصغير بين يدى .. وقربت وجههـا من وجهى .. كان فى نظراتها استسلام ووداعة ، وشفتاها المكتنزتان لهما فى النور طعم ساحر وجميل لم أحس به من قبل أبدا .

آه .. ما أجمل عروستى .. وما أجمل ان أقبلها فى ضوء القمـر .

وضممتها الى صـدرى .. غير أن شفاهنا لم تكد تقترب لتلتقى .. حتى سمعنا فجأة ، صرخة الم عالية شقت طبقات الفضاء من ناحيـة الجسر وصدمت آذاننا ! أصابتنا رعدة .

وتسمرنا فى وقفتنا ، وتصلبت شفاهنا هى الأخرى وظلت متباعدة فى الفضاء

كانت الصرخة فيها الم طافح .. الم انسان يستغيث .

احتضنتنى نعمات فى فزع ، ووقفنا ملتصقين ننصت فى رهبة لأصداء الصرخة ، ونظراتنا تمتد رغما عنا الى مصدر الصوت .. ناحية الجسر .

لحظة من الصمت مخيفة وثقيلة أعقبت الصرخة ، ثم تبدد الصمت مرة أخرى ، وتعالت فى الفضاء صرخات .. صرخات اكثر من انسان واحد .

تشبثت بى نعمات تريد أن تدخل بجسمها فى جسمى .. تماما كطفل صغير مفزوع يحتمى بصدر أمه .

هذا الذى يحدث فجاة .. حلم هو أم حقيقة . ؟! . وأيهما الحلم .. وأيهما الحقيقة . ؟ ! . أنا عشت فى قريتى هذه سنين طويلة .. كل أيام طفولتى وصباى كانت على أرضها .. حتى أجازات الصيف كنت أقضيها بها .. كل شىء فيها أعرفه .. حتى هذه الصرخة .. ياما سمعتها من قبل .. وياما جرحت قلبى بالليل وبالنهار .

أأترك نعمات وأعدو ناحية الجسر لأستطلع الأمر .. لو تركتها فى تلك اللحظة وحدها فى الحقل لسقطت ميتة من الخوف فى ضوء القمر .

ولم تمض لحظات ، حتى كان سكون الليل قد تبدد مرة أخرى ، وامتلأ الفضاء بأصوات خشنة ومخيفة وفظة ، وراحت تدوى وتعلن طلب النجدة والأنقاذ .

وفى النور . .نفس النور الذى كنا نحلم فيه أنا ونعمات منذ

لحظات ، راينا الرجال والنساء تنشق عنهم الحقول والسكك فجأة ، حتى الحقل الذى كنا نقف فيه ، كان الرجال يعبرونه جريا ، ويصوبون لنا نظرات خاطفة غريبة وهم يمرون بنا .. كانوا اشبه بعفاريت مخيفة .. فى ايديهم شماريخ .. وذيول جلاليبهم فى أسنانهم ، ويسرعون صوب الجسر .

احسست بنعمات ترتعش داخل صدرى .

ولم تدش لحظات أخرى . حتى رأينا الجسر يموج بأشباح الرجال ، وجموعهم تتقاطر على هناك وتحتشد وتتزاحم .. وتزمجر .

غاص قلبى .. أنا أعرف ما الذى يحدث فى مثل تلك اللحظات .. كثيرا ما سالت الدماء فى قريتى ، وعلى تراب هذا الجسر بالذات .

يا للكآبة .

حبست انفاسى .. وحبست هى الأخرى أنفاسها ، ورحنا نرقب الحركة فوق الجسر .. كنت خائفا من شىء واحد .. أن ترتفع الشماريخ فى الهواء .

يكفى شمروخ واحد يرتفع ، حتى ترتفع بقية الشماريخ ، وبعد ذلك تحدث المجزرة الرهيبة المعروفة فى ضوء القمر .

أمسكت قلبى .

لكن الشماريخ لم ترتفع .. الأصوات فقط هى التى ارتفعت، واخذت تتشاحن وتختلط وتتعالى حتى وصلت عنان السماء .. وجاءتنا الكلمات مع نسيم الليل ، مختلطة ومبهمة أحيانا ، وواضحة ومفهومة احيانا أخرى :

ـ يا خلق يا هوه .. طب وربى المعبود لأسيح دمه ..

يا ناس ده دور اليماني .. والراجل يتعرض لى .. هى الميـة تفوت عالأرض العطشـانة .. ما هى كل الارض عطشانة .. شهر وعشرة أيام من غير مية .. اعقل يا جدع انت وهو واقصر الشر .. العمدة أهه جاى هنـاك أهه . وهى يعنى البلد مافيهاش رجالة .. طب سيبونى عليه .

وكلمات اخرى .. وفهمت كل شيء .

الناس فى قريتى يا نعمات يفضلون أن يموتوا هم ، ولا يموت الزرع من العطش .

والرجـال يدخلون المعارك الداميـة من أجـل شربة مـاء يروى بها كل واحد أرضه .

انا لم أقل لك هذا من قبل يا نعمات ، فقد كنا دائمـا نحـلم .

أأقوله الآن ؟ ! ربما تقول لى عيناك الجميلتان الخائفتان ، وهل كان ضروريا أن يحدث هذا فى ليلة كهذه .. تركنا القاهرة من أجلها ، وجئنا لننعم بالسكون وضوء القمر ؟ ! .

قلت لها لأهدىء من روعها :

ـ شايفة القناية اللى هنـاك دى .. تعالى نقعد جنبها .. دول ناس بيتخانقوا على الميه .. ياما حصلت الحكاية دى قبل كده .. تعالى تعالى .

قالت والاستغراب على وجهها :

ـ يتخانقوا على الميه .. يعنى ايه بتخانقوا على الميه ؟ !

كان استغرابها ممزوجا برنة خوف عميقة .. لقد أحسست فجأة ، أنها تقف فى عالم غامض مجهول .. عالم لم تكن ترى فيه

منذ لحظات غير الخلاء .. والشجر .. وضياء القمر .. ثم فجأة تجسم هذا العالم أمامها واتخذت ملامحه شكلا قاسيا ومخيفا .. شكل رجال يقتتلون فوق جسر ويسفحون دماء بعضهم البعض .

قلت لها ونحن نقف على حافة القناة :

ـ اصل الميه مخسعة فى الترعة .. شايفه القناية ناشفة ازاى .. وتذكرت شيئا فقلت لها ضاحكا :

ـ انت مش فاكرة شهور التحاريق ؟ ! اللى كنت بتاخديها فى الجغرافيا وانت فى أولى ثانوى ؟ ! .. وارتسمت على فمها شبه ابتسامة لكن الاستغراب والشرود لم يبرحا وجهها .

كان عقلها مع أصــوات الرجال .. وكانت الأصوات لاتزال عالية وحامية فوق الجسر .. فعدت أنصت أنا الآخر .. وسمعت صــوت العمدة الغليظ الأجش ينــادى على شيخ الخفر وعلى الخفراء .. وكانت الحركة واضحة ومضطربة على الجسر .

أشرت لها بالجلوس على حافة القنــاة .. فجلست بجوارى فى صمت ، وكانت شاردة .

أخذنا نتسمع الأصــوات .. كان من الواضح أنها بدأت تقل وتخفت .. والناس أيضا بدأ عددهم يقل ، وصــوتهم بدأ كالهمهمــات .

هل حدثت المعجزة .. ؟ !

بعد دقائق ، رأيناهم يمشون جماعات وفرادى فى خط طويل متحرك متجهين نحو بيت العمدة فى أطراف البلدة .

قلت لها وأنا أتنفس فى ارتياح :

ـ خلاص يا نعمــات .. فاتت على خير .. نرجــع تانى للقمــر .

كنا نجلس على حافة القناة . كتفا فى كتف ، واقدامنا ممدودة امامنا ووجهانا للقمر .. وانتظرت أن تتكلم نعمات ، لكنها لم تنطق بحرف .

قلت مضاحكا ، وكأنى ضبطتها متلبسة بفعل شيء خطير :

ـ بتفكرى فى ايه !! لازم تقولى .. وبسرعة .

قالت وهى تعتدل فى جلستها :

ـ بافكر فى بلدكم .. بلدكم غريبة أوى .

ـ غريبة ازاى .

ـ مش عارفة .. أول لحظة وقفت فيها تحت القمر ؛ حسيت أنى شايفاك فى عينى زى ما انا شايفه القمر .. حسيت كأنى شفت البلد كلها ، وعرفت فيها كل حاجة .. دلوقت باحس أنى مش فاهمة حاجة أبدا .

وصمتت قليلا .. ثم قالت بصوت خافت فيه نبرة حزن بعيدة :

ـ خايفه لأكون مش فاهماك انت كمان ..

هزتنى كلماتها .. هناك كلمات لا تحتمل منا اى تعقيب .. كلمات تحتاج الى الصمت ليستعيدها الانسان فى سره مرات ومرات ، دون أن ينطق بحرف واحد .

كان الهدوء قد عاد الى القرية ، وجموع الرجال قد اختفت من فوق الجسر ، ولم يعد من صوت فى الفضاء سوى دقات خافتة متتابعة لماكينة الرى البعيدة .

أما نعمات ، فكان وجهها ساكنا ووديعا كالملاك .

وفى هدوء : ملت عليها ومددت ذراعى لآخذ وجهها بين

يدى .. لكنها ــ فجأة ــ ابتعدت برأسها عنى فى حركة سريعــة وقــالت :

ــ لأ .. لأ .. مش دلوقت .. احكيلى الأول عن بلدكم .. احكيلى عنها كل حاجة .. نفسى أعرف كل شىء عنها .

لو ظلت نعمات تقول لى كلمة « أحبك » وتكررها لى بعدد جــذور القمح النابتــة فى كل الحقول ، لمــا دخــلت قلبى مثل ما دخلته .. بهذه الكلمات .. « احكيلى عن بلدكم » .

ماذا أحكى عن بلدنا .. ومن أبن أبدأ يا نعمات ؟ !

واعتدلت فى جلستى ، وتربعت أمامها على الأرض وبدأت احــكى .

كان وجهى لها ، وظهرى للقمر .. أما وجهها فكان للقمر ولى فى وقت واحــد .. وكانت تنصت باستغراق ، وعيناهــا الصافيتان تتموجان بكل المعــانى وكأنهما تطلان على عالم واسع عميق . ظللت أحكى .. وأحكى .. وهى تنصت وتنصت .. وصوتى كان حزينــا دون أن أدرى .. كان الكون كله ينصت للحكاية .. والوقت يمر دون أن ندرى ، والقمر يميل فى السماء ويبتعد دون أن ندرى أيضــا .. والهواء تزداد رطوبتــه .. وفوجئنا بديك يؤذن بصوت عــال وكأنه فى حقل قريب منا ، فتنبهنا لنفسينا ، ونهضنا من على حافة القناة ، وفردنا جسمينا فى الخلاء .. كان الهواء رطبا ومنعشا .. والقلب مأخوذا .

« آه يا نعمات .. غير أن قصــة قريتى طويلة .. تحتاج الى ألف ليلة وليلة .. وها هو الديك يؤذن » .

واحتويتها فى صدرى .. وسكن رأسها فى هدوء على كتفى ، ثم سمعتها تتنهد من أعماقها وتغمغم :

ـ دلوقت بس .. عرفت ليه بتبقى ساعات حزين من غير سبب .

ورفعت رأسها من على كتفى ، ونظرت لى وكأنها ترانى لأول مرة .

كانت الحقول ساكنة .. والفضاء كله نورا .. أما القمر فكان مائلا وبعيدا فى السماء ، يرقب أول قبلة لنا فى قلب الحقول .

« ١٩٥٨ »

الأرنب

لما اذن الشيخ جابر لصلاة المغرب ، كان فضاء القرية وبيوتها قد أصبح بلون الرماد ، رفعت أمينة رأسها ، وشدت جسمها ، وتنهدت من أعماقها لتطرد من صدرها تعب النهار ، ثم دخلت فى هدوء على أمها الجالسة فى الحجرة البحرية ، وقالت لها بصوت خافت مكدود :

ــ خلاص يا أمه .. شغل البيت .

ودون أن تنظر لها أمها هزت رأسها علامة أنها سمعتها ، ومضت فى اطراقتها ، وجلست أمينة بجوارها على الكنبة فى هدوء لتستريح .

نفس جلسة كل مساء .. الأم وابنتها متجاورتان .. لكنهما صامتتان تنظران من خلال فتحة الباب الى الطريق ، ترقبان سحب الغبار التى تثيرها قوافل الفلاحين والرعاة وهم عائدون من الحقول والجسور .. وبين اللحظة والأخرى تسرح كل واحدة منهما فى عالمها الخاص .

أمينة تفكر .. الى متى يطول « غضبها » من زوجها ..

أربعون يوما مضت دون أن يبعث بأحـد ليصالحهـا .. ومن يدرى .. قد يطول ، ذلك شهورا أو سنين .

والأم .. متربعة على الكنبة .. متشحة بطرحتها السوداء.. ووجهها الأبيض الحـاد الملامح معتمد على كفها .. تقلب ما مضى فى رأسها ، وتنتظر آذان العشاء .. لتصلى .. ثم تنام .

كان المفروض أن يطول الصمت بينهما كالعادة .. ولكن .. فجأة ، استدارت الأم لابنتها وقالت وقد تذكرت شيئا خطيرا :

ــ بالحق يا أمينـة .. الأرنب الأسود من الصبح مش لاقياه . قومى يا بنتى شوفيه .. خدى اللمبة الكشف وروحى دورى عليه .

احست أمينة كأن حجرا سقط على قلبها فجـأة .. تلك هى ساعة الراحة التى تحظى بها لنفسها من كل هـذا النهـار الطويل .. وقد جلست بالفعل وبدأت تحس بخدر التعب يتحلل ويسرى فى كل جسمها وتسترخى .

همت أن تقول لها فى استعطاف .. « أنا تعبانه يا أمه .. والصباح رباح ، زمانه دلوقت دخل جحر ، أو مستخبى فى عين الفرن » .

لكنها لم تجرؤ كعادتها على أن تنطق بحرف .. كانت تعلم جواب أمها المحتوم .. ستلتفت لها بحدة وتقول بلهجة حازمة آمـرة .

ــ عايزه تسيبيه للصبح عشان عرسه تلهفه .. امشى دورى عليه وهاتيه من تحت طقاطيق الأرض .

وزامت فى سرها .. لا جدوى اذن من الاستعطاف يا أمينة.. والأرنب لابد أن يعود .. وطاف بوجهها سخط أبكم ، وتململت

فى جلستها كأنما تنتظر أن ترجع أمها عن رأيها .. لكن أمها قالت فى جفاف لتستحثها للقيام :

ــ ومش حنام الا ما تجيبيه .

لا مفر اذن يا أمينــة .. أنت لم تجــدى الراحــة فى بيت زوجك .. فهل ستجدينها هنا .. فى بيت امك .. ؟ !

ونهضت من جلستها وهى تكتم سخطها .. تناولت اللمبة الكشف وخرجت لتبحث عن الأرنب فى صمت .

كان البيت واسعا وكبيرا .. بيت من تلك البيوت القديمــة التى خرجت منها أجيال وأجيال .. وفى قديم الزمان ، كان اكبر بيوت العز فى القرية .. المضيفة مفتوحة بالليل وبالنهار .. والرجل الغريب بدلا من أن يأوى فى الطريق الى ظل شجرة توت ، يدلف اليها ويلقى الســلام ، فيجد الغذاء ، وربما تأخذه فيهــا أيضا سنة عن النوم .. وغير المضيفة ، حجرات وحجرات .. حجرات للنوم .. وحجرات للجلوس .. وحجرات للخزين .. وممرات .. وأفران .. ورغم كل هــذا الاتساع ، فقد كان صوت الرجل الكبير أيامها يرن دائما فى أبهائه .. وأصــوات أولاده كانت هى الأخرى تطن فيه وتشيع الحركة والحياة .

ولكن كل هذا راح مع الأيام وانتهى .. مات الرجل .. وكبر الأولاد والبنات وتزوجوا .. الأولاد تركوا البلد وعاشــوا مع زوجاتهم فى المدينة ، والبنات مضين ليعشن فى بيوت أزواجهن .. وصفصف البيت الكبير فى النهاية على الأم ، وأصبح بالنسبة لها ، بيت الوحدة والصمت والذكريات .

وأمينة ، كانت للأسف ، هى البنت الوحيــدة التى مــال حظها .. كانت فى الثلاثين من عمرها .. طويلة .. سرحة .. عيناها واسعتان وعسليتان .. وتقاطيعها جميلة .. لكن جمودا

غريبا كان يطبع ملامحها . من الصعب ان تقرا شيئا فى عينيهـا الواسعتين .. ربما خوف كبير من شىء مجهول .. وربما نداء بالعطف علبها .. كانت من ذلك النوع الذى يستدر عطف الرجال ولا يثيرهم .. وزوجها كان فى حاجة الى امراة تثيره ، لا تستـدر عطفه ، فضاق بها منذ الشهور الأولى .

كان فلاحا ، يسرح بنفسه بالبهائم الى الحقول . يحرث ويروى ويبذر .. ويريد آخر النهار امرأة تنسيه تعبه بحركة من الحاجب ، أو بتقصيعة خفيفة من وسطها .. لكن أمينة ليست من هـذا النوع ، فيسخط عليها ، ويأخذ بعضه بعد العشـاء الى دكان « زهرة » بائعة الجوافة ويسهر عندها .. يجلس فوق المصطبة ، ويأكل الجوافة من يدها .. ويضحك .

وأمينة كانت تحتمل هذا .. لكنها فى لحظات ، كانت تخرج فجأة عن صمتها وجمودها ويربد وجهها ، وتقرر أن تفجر البركان الذى فى أعماقها .. لكنها تعجز عن التعبير ، فتحس بهوان شأنها ، وتبكى فى حرقة ، وقد تمزق صـدر جلبابها ، ثم تصيح كالفاقدة وعيها ووجهها للسماء : « يارب على الظالم وابن الحرام » .. ثم تتركه وتمضى الى أمها لتعيش معها فى ذلك البيت الواسـع القـديم .

وقد خيل لها فى تلك الليلة ، وهى تحمل اللمبـة الكشف لتبحث عن الأرنب أن البيت قد ازداد أتساعا ، وان ظلمـة الليل قد دخلته مبكرة عن كل يوم .

أين هرب الأرنب الملعون ؟

ومشت واللمبـة الكشف تضىء طريقهـا ، وراحت تفـكر فى وجوم .

لابد انه دخل عين الفرن وانكمش على نفسه واقفل عينيه

ونام ؛ وربما اختفى فى جحر فى القاعة المجـاورة لبئر السلم .. وربما .. كان فضاء البيت قد لفته الظلمات : ظلمات متراكمـة وكثيفة ، والقرية نفسها بدأ يسودها ذلك الصمت الذى يعقب الغروب الحزين ، والخفراء بدأوا يأخذون مواقعهم فى أطراف القرية وحواريها ؛ وبدا وجه أمينة فى ضوء اللمبة الهزيل الباهت ، حائرا ومسكينا ومجهدا .

وتمتمت لنفسها .. « يعنى مش كنت زمانى دلوقت فى بيت جوزى ، لكن أعمل ايه .. راجل ظالم .. وانت يارب تعلم ، وغيرك ما بعلم » .

وقادتها قدماها الى قاعة الأرانب ، فوقفت على بابها .

وراحت تجيل فيها البصر .. عبر الأرض .. وفى الأركان .. لكن القاعة كانت مظلمة .. وكل ما فعله ضوء اللمبة ، أنه حول الظلام الى جو ضبابى قاتم ، لا تميز فيه العين شبرا واحدا .

مدت أمينة يدها باللمبة أمامها على طول ذراعها ، وانحنت براسها قليلا ، ومضت تنقب بعينيها فى الأرض .. خطوة خطوة ، ولكن ، لا أثر للملعون .

هو اذن لابد فى جحر .. والقاعة فيها جحران .

واقتربت من أحد الأركان . وركعت على ركبتيها . ووضعت اللمبـة على الأرض ، وفى دائرة الضـوء الصغيرة ، بان جحر صغير .. فوهته دائرية وضيقة ومسدودة بالظلام .

زمت أمينة عينيها ، وراحت تجوس ببصرها فى الجحر .. لكنها لم ترى أمامها غير الظلام .

ــ أدخلى يدك يا أمينة . فقد يكون راقدا فى نهاية الجحر .

وتخيلته قابعا ينظر اليها فى هدوء .. يرعش شواربه .. يراها ، ولا تراه .

غير انها ما كادت تمد يدها الى الفوهة ، حتى أسرعت دقات قلبها وتولاها خوف شديد .

الجحر مظلم .. اسود .. وربما يسكنه ثعبان يا امينة .. او سحلية..وتمتمت بخوف فى سرها « بسم الله الرحمن الرحيم » لا .. سأقول لها .. بحثت عنه كثيرا ، ولم اجـده يا أمى .. وسأبحث عنه مرة أخرى فى الصباح .. والنهار له عينان .. !

لكن صورة أمها انبعثت فى خيالها على الفور .. ستصيح فى وجهها بعصبية : فالحة يا اختى فالحة .. ارنب ومش عارفـه تلاقيـه .. والنبى جوزك عنده حق ومعذور .. هى الواحـدة الخايبه تتعاشر .

وأحست بهوان شأنها ، وسقطت من عينيها دمعتان .

لا .. انها تفضـــل أن يعضها ثعبان أو يلدغها عقرب ، ولا تسمع منها هذا الكلام .

ودفعت بيدها فجـأة داخل الجحر وقلبها يدق .. مدتها حتى أحست بأطراف أصابعها تلمس نهايتـه .. التراب رطب وناعم .. وقوالب الطوب رطبة أيضا وفيها نتوءات بارزة .. هذه النتوءات بما تحمل من خيوط العناكب أرعشتها ، وأوقفت شعر رأسها .. لكنها مضت تتحسس فى رهبة وحذر ..

لاشىء .. الملعون ليس هنا .. وأخرجت يدها بسرعة ، واستردت أنفاسها .

اذن هو فى الجحر الثانى .

وتناولت اللمبة مرة أخرى ، فتراقصت شعلتها مع النفس الخـارج مع تنهيدتها : ورأت ظلها الملقى بجوارها على الأرض يتراقص هو الآخر ويتلوى ، ويأخذ أشكالا غامضة مخيفة .

آه‌يا أمينة .. لو كنت تحفظين آية الكرسى التى يقولون عنها ، اذن لقرأتها الآن ، واطمأن قلبك .. ولكن ربنا هو الحافظ يا أمينة .

واجتازت عرض القاعة الى الركن الآخر .. كانت قدماها وهى تمشى ، تطـأ أعواد البرسيم والحطب الجاف الملقى على الأرض ، فتحدث أصـوات وطقطقات تشرخ سكون البيت ، بل وسكون القرية كلها .

وحين وصلت الركن ، توقفت خطواتها ، وانقطع وقع قدميها المزعج هـذا ، وعاد السكون يطن حولها من جديد .. وهمست لنفسها .. بصـوت مسموع .. « يارب يكون فى الجحر ده بقى وأخلص » .

وادخلت يدها .. لكنها أخرجتها كما أدخلتها ، فارغة .

بقيت جالسة فى مكانها أمام الجحر .. أسندت خدهـا على كفها ، وارتسم على وجهها الذى اختلط عليه الضـوء بالظلام يأس كبير .

أين تبحث عنه هذه المرة ؟ الأم قالت كلمتها .. لن تنـام الا اذا جاءت اليها بالأرنب واطمأنت عليه .

ومرت بخاطرها وهى متجمدة فى جلستها أمام الجحر فكرة مفاجئة : اليس من الجـائز ان تكون أمها قد ذبحته .. واكلته .. ونسيت . ؟ ! ان امها تحب أكل الأرانب بالملوخية ، وهى كثيرا ما كانت ترسـل لها .. « نص أرنب محمر وشوية فتة » وهى

فى بيت زوجها ، لتعزز من مركزها أمامه ؛ ولكن .. آه منه ، لا يشمر فيه ، الظالم . !!

وذكرتها هذه الفكرة بحنان أمها .. صحيح أنها قاسية ، لكنها حنونة أيضا .. ان أمها هـذه لو لم تكن موجودة ، لخنقها زوجها من زمن وتخلص منها .. انه كثيرا ما يثور عليها .. يثور حتى تومض عيناه ، فتخاف من شكله ، وتتكوم على نفسـها ، فى انتظار أن يترك لها البيت .. ويخرج .. فيعاودها شيء من الطمأنينة ، وتتنفس الصعداء .

لا .. لا .. لابد أن أعود لها بالأرنب .. هى التى تحمينى .. وهى الآن جالسة تنتظر .

وتناولت اللمبة ، وضعتها هذه المرة على راسها وسارت ، مرفوعة الرأس .. معذبة .. ومع وضـع اللمبة الجديد ، انحسر الضوء عن معظم وجهها .. حتى ظلها على الأرض ، اختفى هو الآخر ، وتكوم تحت قدميها .

ودخلت قاعة الفرن .

كانت تحس نحو هذه الحجرة بالأمان بعض الشيء .. فآخر خبزة خبزتها فيها كانت منذ يومين ، ولو كان فيهـا حشرات فقد أحرقتها وأكلتها النيران .

وبدت أمامها عين الفرن واسعة .. أوسع من عين الجحر بكثير .

ستدخل اللمبة فيها أولا .. ثم تدخل براسها بعد ذلك .

انحنت حتى وازت براسها تجويف العين ، ثم مدت ذراعهـا باللمبة داخله ،ثم دخلت براسها ، وراحت تبحلق فى الضوء .

ــ آه ..

شهقت فجأة شهقة فرحانة .. كان الأرنب الأسود راقدا امامها فى الركن فوق الرماد .. وما أن انعكس عليه ضوء اللمبة ورأى وجهها يطل عليه ، حتى انكمش فى نفسه وارتعشت شواربه، وبانت فى عينيه لمعة الاحساس بالخطر .

لم تضيع أمينة وقتا .. كانت مجهدة ، وتريد أن تنتهى ، فأطلقت يدها فجأة كالسهم لتقبض عليه .. لكنه كان أسرع .. ما كادت اصابعها تلمس شعره الناعم ، حتى قفز الى أعلى قفزة مذعورة ، أثارت حوله سحابة كثيفة من الرماد .

جزت على اسنانها فى غيظ . وشرعت تمد يدها مرة أخرى، لكنها أحست بذرات الرماد تدخل عينيها ، فوضعت اللمبة بجوار جدار الفرن ، وراحت تفرك فى عينيها وقفلت فمها حتى لا يملأه الرماد ، ثم عاودت النظر اليه ، وعيناها ترمشان .

كان هو الآخر يحملق فيها ويرعش شواربه .

شيء ما أخافها فى نظراته .

احيانا كان زوجها هو الآخر يقبع فى الغرفة وحده فى سكون، وما أن تدخل عليه ، حتى يواجهها بنظرة جامدة مخيفة ، فتفهم على الفور أن وجودها غير مرغوب فيه فتترك له الغرفة ، وتخرج فى صمت .

ولكن .. لا .. هذه النظرات لن تخيفها .. لن تخرج رأسها من الفرن الا بعد أن تمسك به .. ونظرت اليه مرة أخرى فى غل ، وأخذت تفكر من أين تمسك به .. ومدت يدها .. لكن الأرنب كان ليدها بالمرصاد .. ما أن لمحها تمتد نحوه ، حتى قفز مرة أخرى قفزة هوجاء مذعورة ، فاصطدم باللمبة ، فانقلبت ، وانطفأت شعلتها ، وفى الحال ساد عين الفرن ظلام مخيف .

لو كان عليها ، لصرخت فى فزع .. كتمت الصرخة فى صدرها وأخرجتها شهقة .. انها لو صرخت ، فلن تأتى لها أمها جريا وحدها ، انما القرية كلها ستأتى لتستطلع صرخة امرأة تشق سكون الليل .

وارتعش فكاها من الخوف والحزن .. أحست بالدموع تسيل من عينيها الملتهبتين ، وبأنفاسها تضيق ، فمسحت عينيها ، وجذبت نفسا كبيرا ، ثم مدت ذراعيها ، وراحت تتلمس بأصابعها الأرنب فى الظلام .

— تعال بقى .. ربنا يهديك .

ويبدو أن الأرنب كالقطط ، ترى جيدا فى الظلام .. كلما أوشكت يدها أن تقترب منه وتقبض عليه ، حتى يحس بها ، وينط الى بعيد ، فلا تقبض يدها الا على التراب .

مرات ومرات ، واللعين يفلت منها .. وفى كل مرة ، كانت تغوص بجسمها أكثر وأكثر فى العين .. وحميت المطاردة فى الظلام .. نصف جسمها فى الداخل .. والنصف الآخر فى الخارج ويداها تندفعان هنا وهناك بغير انتظام ، والأرنب يتنطط ويقفز فى كل اتجاه .. ومع كل قفزة ، كان رماد الفرن يثور ويملأ الجو بالغبار ، وبالهبو ، وأحست أن المطاردة لو طالت أكثر من ذلك ، فانها ربما تموت مختنقة داخل الفرن ..

وكالمحمومة ، هوت بيدها عليه .. كان اتجاه ذراعها فى هذه المرة صائبا فأطبقت عليه .

لم تستطع حتى أن تتنفس الصعداء .. كانت عين الفرن قد احتشدت بالهبو وبالغبار .. فأخرجت جسمها ورأسها ، ووقفت فى فضاء القاعة تلهث ، وتستعيد أنفاسها .. أما الأرنب فكان يتدلى من يدها ، ويرفص بأرجله فى الهواء .

الآن .. انتهت مهمتك يا أمينة .. اذهبى سريعا الى أمك .. هى الآن جالسة على الكنبة تنتظرك ، ستفرح أنك وجدته .. ولن تقول عنك أنك امرأة خائبة ، وربما تسمعك كلمة طيبة تعزيك عن أحزانك فى الحياة .

ومشت .. كان التعب قد فاض بها .. خطواتها واهنة ، وانفاسها متتابعة ، ومعظم وجهها معفر بالرماد .

ولكن .. ما أن بلغت باب الحجرة ، حتى أحست فجأة بقدميها تتسمران على العتبة .. لم تكن أمها جالسة على الكنبة كما توقعت .. كانت نائمة على السرير ، مغطاة باللحاف ، وتشخر بصوت عال .

ـ أمه .. أمه .. انا لقيت الأرنب يا أمه .

وتململت أمها فى رقدتها . وغمغمت كأنها تحلم .

ـ أرنب . ؟ ! . أرنب ايه يا بنتى . ؟ ! .. أر .. أر ..

وتوقفت غمغماتها .. وسكنت شفتاها .. وغابت فى النوم من جديد .

« ١٩٥٨ »

جفت الأمطـار

أكثر من أى وقت مضى ، أحست أمينة من أعماقها الحزينة ، أن غيابها عن زوجها قد طال .

كانت سماء القرية لحظتها تمطر مطرا غزيرا ؛ والفضاء فوق البيوت والحقول والشجر تشغله غبشة قاتمة يستريح لها القلب المهموم .. تنهدت بصـوت مسموع ، واعتدلت فى جلستها على الحصير خلف فتحة الباب الموارب ، وأسندت خدها الأيمن على كفها ، وراحت ترقب الطريق أمامها وهو يغرق شيئا فشيئا فى مياه المطر .

منذ شهور ، وهى تعيش هكذا فى بيت أمها .. صامتـة واجمة ، تعمل كثيرا ، ولا تتحدث الا نادرا ، وتنتظر ما تشير به السماء عليها أن تفعله .

لقد حدث ما حدث ، وانتهى الأمر ، بأن حملت طفلتهـا

تحولت هـذه القصة الى فيلم سينمائى باسم « جفت الأمطار » كمـا نالت جائزة أحسن قصة للسينما عام ١٩٦٨ .

الرضيعة على كتفها ، وتناولت طفلتها الأخرى فى يدها .. اما صبيها البكر ، فقد كان يلعب لحظتها مع أولاد القرية فى الخارج .. ثم تركت بيت زوجها مطرقة حزينة ، وسارت الى بيت امها وعيناها الواسعتان مغروقتان بالدموع .. وحين رأت أمها الدموع تنحدر على خديها الشاحبين ، قالت لها وهى تستقبلها بصوت يشبه الصراخ ، كأنها تشهد أهل القرية على ما تقول :

ــ بتبكى ليه ؟ ! .. بيت أبوك ومفتوح ، وأرضك معاك تاكلى من خيرها .. يعنى كان زايد عليك منه حاجة ؟ ! .. أنا عارفة قصده .. اللئيم .. يلهف منك الفدانين .. ياخدك لحم ويرميك عضم .. والنبى دى نجوم الضهر أقرب له من أرضك .. ادخلى يا حبيبتى أدخلى .

ومسحت المرأة الصغيرة دموعها ، ودخلت البيت لتعيش فى صمت وسكون .

***

منذ زمن تحسبه بالشهور والأيام والساعات ، حدث هذا .. كانت الدنيا أيامها صيفا وحرا ، والفلاحون فى قريتها يلتمسون النسمات فى الظهيرة ويتمددون مع بهائمهم فى ظل أشجار الكافور والجميز .. والأولاد هم الآخرون ــ ومن بينهم صبيها البكر ــ كانوا يتخففون من ملابسهم ويقذفون بأجسادهم العارية فى مياه النيل والترع والمصارف ليبتردوا .. وها هى الأيام قد دارت عليها بطيئة شاحبة ، حتى أطلت عليها أيام الشتاء فجأة ، وراحت عيون السماء تهطل بشدة وغزارة ، تغرق البيوت والعشش والدواوير .

دارت عليها الأيام ، وهى لا تزال فى بيت أمها العجوز ،

مستوحدة صامتة ، يأكل الحزن قلبهـا ، ولا تبوح بأحزانهـا لأحـد .

وتنهدت مرة أخرى وعيناها ترقبان الطريق المنحدر من خلال فتحة الباب ، وخيوط المطر لاتزال تنهمر بلا انقطاع .

– يا ترى فين أراضيك دلوقت يا حسين .. ؟ !

لقد كانت منـذ أول يوم خرجت فيه من بيتـه ، تتتبـع اخباره .. كانت تسأل مسعودة ، المراة العرجاء التى تملأ لهم جرار المـاء من النيل عن أحواله .. تسألها خفية وفى صـوت هامس حتى لا تسمعها أمها .. ثم جاء يوم انقطع عنها كل اخباره، ولم يعد له حس بالقرية .. ثم عرفت بعد ذلك من مسعودة ، أنه سافر فجـأة .. ترك البلد وهاجر الى أرض بعيدة .

ودون أن تدرى ، أحست بدموعها تتساقط من رموش عينيها على خديها .. وراودتها نفسها أن تجهش بالبكاء وتنتحب، لكنها خشيت أن تسمعها أمها القابعة على الكنبـة داخل الحجرة ، فتنهرها على دموعها وتلمح لها بأنها امراة صغيرة فارغة العين تخن الى رجلها ، فأمسكت نفسها وجففت دموعها ، وأطرقت برأسها بين كفيها ، وراحت تفكر .

هل كان حسين فى الحقيقة طماعا يا أمينة .. ؟ ! .. هل كان فى نيته حقا ان يخدعك كما تقول أمك ، فيجعلك تبيعين الفدانين اللذين ورثتيهما عن أبيك ، ثم يطلقك بعد ذلك ، أو يتزوج عليك .. ؟ !

ولم يطاوعها قلبها أن توافق على ذلك فى سرها .

لقد جاءها ذات يوم بعد أن عاد بالجاموستين من الحقل بعد الظهر وكان متفتح الوجه .. وقال لها وهو يخلع ملابس الشغل على مهل :

ــ امينة .. انا عايز إكلمك فى موضوع .. بس لازم تفتحى لى دماغك كويس ، وتفهمى اللى حاقوله .

وفرحت بابتسامته ، وراحت تستمع اليه وانفاسها تتتابع .. كان يكلمها حينذاك ، وكان يبدو بوجهه الأسمر المستطيل الذى لوحته الشمس ، وكأنه يحلم أحلام الدنيا كلها .

قال لها أن هناك فى الشرقية أرضا نباع بثمن رخيص ، وأن ثمن الفدان هنا يشترى خمسة هناك .. ومع أن تلك الأرض تحتاج الى مجهود واصلاح ، الا أنه قد اتفق مع بعض الرجال من أصحابه ، وسيشتركون فى شراء قطعة كبيرة ليستصلحوها ، لتصبح بعد عدد قليل من السنين ، أجود من أى أرض أخرى فى زمام قريتها .

وسكت قليلا وبان عليه الشرود العميق ثم عاد يقول وهو يشير بكفه الى بعيد .

ــ هناك الأرض بكر يا أمينة .. عايزة الرجال .. الرجال. اللى يحبوا الشغل والعرق بصحيح .. لكن هنا ، زى ما انت شايفه .. البلد كل يوم بتضيق .. والناس بتكتر .. والعمار داخل على الزرع من كل ناحية .. والحكومة عاملة مشروع كبير للجامعة الجديدة من ناحية المنصورة .. وحينزعوا أرض كتيرة .. والجدع منا لازم يفكر فى مستقبله من دلوقت .

وتجلى الحلم الرائع على وجهه الأسمر أكثر وأكثر ، وتحولت نبرة صوته الى ما يشبه الرجاء ، وهو يدعوها أن توافقه على أن يبيعاهما الاثنان ما يمتلكانه ، ويشتريان بثمنه أرضا جديدة .

ــ مش احنا لوحدنا اللى حنكون هناك يا أمينة .. نوار ومراته نفيسة وأولادهم .. ومحمد أبو السيد ومراته .. وأحمد أبو رفاعى .. وكلهم .. كلنا حنشتغل سوا .. ونعرق ..

ونضرب بالفأس .. ونوطي .. ونقوم .. لغاية ما تبقى الأرض خضرة .. خضرة ، وتعوض لنا صبرنا واكتر .

أطرقت ، ولزمت الصمت .. عاد يسألها فى صوت خافت :

ـ ساكته ليه يا أمينة .. ؟

ـ انت عارف يا حسين .

ـ عارف ايه .

ـ أمى .

ـ مالها أمك .. ؟ !

ـ أنا عارفة أنها مش حتوافق ..

ونفرت العروق فجأة فى جبهته ، وارتعشت كل ملامحه ، وصرخ فى وجهها وقد اكتسى وجهه بالشر والغضب .

ـ أمك يعنى ايه .. ؟ ! .. هو كل حاجة بينى وبينك لازم تكون فيها أمك .. اسمعى .. كل اللى فات كوم .. والمرة ده كوم .. هو أنا حافضل طول عمرى تحت رحمة أمك ؟ !

ولم ترد على ثورته بكلمة .. وحين سكت ، أعقب سكوته صمت ثقيل مخيف ، وراح كل منهما يتلمس فى نفسه رائحة عاصفة مقبلة من بعيد ، لتعصف بكل ما فى حياتهما من استقرار وهدوء .

***

انها تذكر ذلك اليوم بكل تفاصيله ، وتذكر أيضا حين مضت الى أمها فى بيتها لتقص عليها ما طلبه منها زوجها .

لم تكد تبدأ فى سرد الحكاية لها حتى لمحت وجهها ينقلب ويكفهر ، ونظراتها تتسع وتزداد حدة ، وحين لفظت « بيع

الأرض » أحست بأن كل شيء من حولها قد انقلب وضعه ، وأن شيئا ما مروعا سيطبق عليها ويخنقها .

ــ ليه .. ؟ .. جنان .. ؟ .. يبيع فى العمار ويشترى فى الخراب .. ؟ هى البلد خلاص ضاقت باللى فيها .. عايز ياخدك هناك .. فى الأرض السودة المالحة . أرض حفرة جفرة .. لا فرع اخضر فيها ولا طيرة فى السما .. لا .. أنا فاهماه وعارفه قصده . طماع وحرامى ولئيم .

وصمتت قليلا لتأخذ انفاسها المتقطعة ، ثم قالت بلهجة متوعدة منذرة .

ــ ولا فى آخر يوم من أيامى ينباع شبر واحد من الأرض .

كانت الأم تتكلم ونصف وجهها مغطى بطرحتها السوداء ، والنصف الآخر قمحيا مغضنا باتر القسمات .. وكان فى صوتها رنة رهيبة مخيفة تنطوى على الاحساس بالخطر ، وعلى الاحساس بضرورة الدفاع عن النفس والقتال بوحشية من أجلها .. لقد مات زوجها وأبو أولادها وهى فى أجمل سنى شبابها .. وكان الأولاد ــ ومن بينهم أمينة ــ لا يزالون صغارا .. وقد ترك وفاته فى قلبها الشاب حزنا ضخما اغرقته فى شيء واحد كبير ، هو تربية الأولاد .. مات الأب .. اذن فليعش الأولاد كما لو أنهم لم يحرموا من ابيهم أبدا .. مات .. فلتبق أرضه التى عاش يفلحها طويلا مقدسة وخالدة ، دون أن تمسسها يد رجل غريب أو قريب .

وقد ارتعدت أمينة لسماع كلمات أمها حينذاك ، فتقبلتها فى صمت حزين كعادتها ولم تتكلم .. قالت الأم كلمتها ،

فلا مرد لها .. واعتبرت ان كلمات أمهـا هى كل نصيبهـا من والدنيا ومن القدر .

وحين رجعت الى زوجها بعد ذلك ، وجدته ينتظر ردها فى قـلق .

قالت له أن أمهـا ترفض البيع ، جذب نفسا عميقـا من أعماقه ، وكأنه يستل فى الخفاء سكينا غرسـته فى قلب كبريائه ؛ ثم قال لها فى هدوء مروع :

ـ انا خارج .. لكن قبل ما اخرج .. اخرجى قدامى .

وسكت لحظة ثم عاد يقول بنفس اللهجة الهادئة المروعة :

ـ قبل كده ، كنت بارجع اصالحك .. لكن المرة دى .. خلاص .. قطعت بينى وبينك العمر كله .

وهكذا خرجت .. الرضيع على كتفها ، والطفلة الأخرى فى يدها ، أما صبيها البكر ، فكان يلعب مع أولاد القرية فى أجران القمح لا يدرى عن فراق أبويه شيئا .

***

انها تذكر ذلك اليوم الحزين بتفاصيله .

آه .. لا عليها من البكاء فى تلك اللحظـة ، فالسماء الواسعة نفسها تبكى وتغرق الطرقات بالسيول .

وجاءها صوت أمها من داخل الغرفة القريبة ، فبدا لها وكأنه آت من أبعاد سحيقة غامضة .

ـ أمينة .. ليه يابنتى قاعدة وحدك فى البرد .. ؟ تعـالى معاى فى الدفا هنا تعالى .

أحست أمينة بكره مفاجىء لهذا الحنان .. ولأول مرة ،

أنبعثت فى رأسها صـورة قاتمة مقبضة لأمها .. لقد تخيلتها امرأة لا تلبس الا السـواد ، وتعيش حياتها وحـدها فى كهف مظلم ، وتمد اليها يدها المعروقة الضعيفة ، تريد أن تشدها اليها لتؤنس وحشتها ووحدتها .

لقد احست فى تلك اللحظـة احساسا لا واعيا ، ان أمها تريد أن نفرض عليها هى الأخرى ترملها القاتل ، مع أن لها زوجا لا يزال على قيد الحياة .

ـ حاضر يا امه .. أنا جايه .

وتململت فى جلستها على الحصـير خلف الباب ، وراحت تجول بعينيها الشاردتين فى السكة المنحدرة .. كان بعض الفلاحين يجرون خفافا ليهربوا من المطر ، والبعض الآخر يسحبون مواشيهم ويستحثونها على الاسراع . وبعض النسـاء كن عائـدات بالجرار من على جسر النيل وقد فاضت ثيابهن بمياه المطر ، ورحن يخطفن خطواتهن فى نشاط وسرعة . أما أطفال القرية ، فكانوا يجرون هنا وهناك فرحين بالمطر ويصيحون وعيونهم متطلعة الى السماء فى فرح .. « يا مطرة رخى رخى على قرعة بنت أختى .. »

كل ما فى الدنيا فى ذلك اليوم الشاتى ، كان يتحرك .. ويجىء ويذهب .. ويشيع الحيـاة فيما حوله .. أما هى ، فراكدة فى بيت امها ، لا طعم للحيـاة فى عينيها ، ولا تملك من جلستها العاجزة الحزينة الا الذكريات .

يا سلام .. انها تذكر الآن يوما من أيام الشتاء المنقضى ، يشبه هـذا اليوم المطير تماما .. كانت السماء تهطل .. وكانت تعيش فى بيت زوجها ، وأحست بماء المطر يتسرب من السـقف وتسقط قطراته فى حجرة الجلوس ، فأسرعت وراحت تخرج المقاعد والكراسى وتغسل الأرض وتنظفها ، ثم فوجئت خـلال ذلك بحسين يقف خلفهـا بجلبابه وطاقيته ، وكل ما فيه يفيض بالمـاء .

ولم تلبث أن رأته ينحنى هو الآخر ليساعدها فى غسل الحجرة .. ولم تمض لحظات ، حتى وجدته يتوقف قليلا ويتأملها .. فتوقفت هى الأخرى وسألته وهى لا تزال منحنية :

ــ ايه يا حسين .. بتفكر فى ايه . ؟ !

فقال لها وابتسامته تتسع ، وعيناه تلتقيان بعينيها فى بريق حبيب :

ــ بافكر فى خدودك .. خدودك حمرة أوى النهارده كده ليه يا أمينة . ؟ !

أحست لحظتها على الفور برعشة خفيفة لذيذة تسرى فى كل بدنها ، وارتبكت ، لكنها لم تلبث أن ضحكت له ضحكة تجاوبت مع البريق المطل من عينيه .. ثم عاودت العمل من جديد ، بنشاط وفرح .

فى تلك الليلة ، لم يسهر حسين خارج البيت ، فالقرية كلها كانت قد نامت مبكرة لتتقى البرد والوحل والمطر ، ودخلا سويا حجرة النوم ، وقبل أن يناما أشعلا نارا صغيرة ، وراحا يرميان فيها بعض كيزان الذرة الخضراء التى كان قد أحضرها معه من الحقل ، وبقيا مع أولادهما يستدفئون حول النار ويأكلون الذرة المشوية .. وحين أغلق الدفء ووهج النار عيون الأولاد بالنوم . صعدا الى سريرهما .. السرير الذى لا تزال تنسدل عليه حتى اليوم الناموسية التل البيضاء .

انه رجل طيب . حسين انسان طيب بالفعل .. ترى ، أين هو الآن فى الدنيا الواسعة . ؟ ! . زمانه هناك .. فى الأرض الجديدة .. مع الرجال الذين اتفقوا معه .. لقد نفذ ما فى رأسه ، وباع فدانيه واشترى بثمنهما عشرة فدادين .. وكذلك الرجال الآخرون فعلوا مثله .. كلهم ذهبوا ومعهم نساؤهم ..

نوار ومعه امرأته نفيسة .. ومحمد أبو السيد ومعه شلبية .. واحمد أبو رفاعى لحقت به زوجته بعد سفره بأيام .. كلهم هناك .. ولابد أنهم الآن فرحون بالمطر .. وفى هذه اللحظة أيضا ، لابد أن الرجال واقفون بعرض الأرض الواسعة . صدورهم عارية مكشوفة . ويستقبلون المطر فى فرح بالغ ، وينحنون على التربة ، ويضربون فيها بفئوسهم ، ويقلبونها بشغف، وتعمر قلوبهم بالأمل .

واهتاج فى نفسها ، وهى تتصوره بينهم ، حنين جارف لأن تكون بجانبه فى تلك اللحظة بالذات . أى لحظة هائلة ، أن يعود حسين الآن من الحقل والمطر ، فيجدها هناك تنتظره . فى ذلك البيت الصغير الذى استأجره ، ويجدها أيضا قد جهزت له طعاما ساخنا وملابس نظيفة جافة لتدفىء أوصاله ، ويكون أطفالها من حولهما يجرون ويمرحون .

على أنها لم تلبث أن أفاقت من خواطرها الحلوة فجأة ، حين نادت عليها أمها :

ـ أمينة .. تعالى يا بنتى غطينى باللحاف ، أحسن النوم ماسك فى عينى .

نهضت من جلستها . كانت أمها قد انتقلت من على الكنبة وتمددت على السرير ، ولم تكد تغطيها وتحكم الغطاء حولها ، حتى كانت طفلتها الرضيعة النائمة على السرير قد استيقظت من نومها وهمت بالبكاء . فتناولتها بين يديها فى الحال ، وجلست على الكنبة ، ومضت تهدهدها وترضعها فى هدوء . كانت الأم قد راحت بعد دقائق قليلة فى سبات عميق ، واستراحت أمينة من أعماقها لنعاسها . فلتفكر الآن كما يحلو لها التفكير ، ولتبك ما شاء لها البكاء ، ولتنتحب أيضا . لقد بقيت الأرض كما أرادت أمها . ولكن أى بهجة بقيت لها فى حياتها ؟ كانت أمها توهمها

انه سيعود ليصالحها ورقبته تحت رجليه . لكنــه لم يعد ، حقق كلمته التى قالها لها فى اليوم الأخير . « كل اللى فات كوم . والمرة دى كوم » .

انها تعرفه .. عنيد . عنيد حين يخطىء الناس فى حقه . وهى أخطأت فى حقه فعلا . رفضت أن تسنده امام الرجــال الذين اتفق معهم على السفر ، وخذلته ، فلم تسمح له بالبيع والشراء مثلما فعلوا .

كان سيكتب لها نصف الأرض باسمها . وكانت سترحل معه فى أرض الله الواســعة . ينشدان حياة حلوة ، وتشاركه أيام العمل والغربة .. يا خسارة .

والتفتت بعينيهــا ناحيــة أمهــا التى تغط فى نومهــا : هى السبب .. أمى هى السبب .

ثم تنهدت وأحست بالدموع تطفر الى عينيها ، وعــادت أعماقها تحدثها من جديد .

لا .. أنا السبب .. أنا الخائبة .. عودتها الا أعمل أى شيء الا بأمرها .. أخواتى انفسهن لا يستشرنها فى أى شيء .. وكلمة أزواجهن هى النافذة ، كان المفروض أن أتصرف لنفسى .. لقد قال لى حسين فى ذلك اليوم أننى أولى الناس بتشجيعه فى هذا المشروع .. صحيح .. كنت أنا أولى الناس بذلك .

كانت رضيعتها قد شبعت وعادت الى النعاس ، فأرقــدتها فى سكون ، وعادت بخطوات خفيفة الى جلستها خلف الباب .. وكانت السماء لا تزال تمطر بشدة ، وراحت تفرغ حمولتها دون حساب .. وفجــأة ، انقطع المطر مرة واحدة .. ولم يعد هناك اى صوت يتخلل سكون القرية الشامل العريض .

ولاح لها من خلف مئذنة الجامع المدببة العالية ، بعض شعاعات خفيفة حمراء ترسلها الشمس من بين الغمام .. ورأت الأرض الممتدة أمام الباب قد تحولت الى بحيرة تنعكس عليها ظلال الأشجار وقطع السحاب .. وانطلقت فى الفضاء بعض الغربان والحمام والعصافير وبدأ الناس يعودون الى حركتهم ويخوضون ببهائمهم فى المياه .

واحست بروحها تفيض بالحزن ، وجاءت تتنهد ، فخرجت التنهدة من صدرها شهقة ، نهضت من جلستها لتبحث عن أى عمل لها داخل البيت لتفرق أحزانها فيه .. لكنها لم تكد تتحرك من جانب الباب ، حتى لمحت امرأة شابة ترفع ذيل جلبابها وتنقل خطواتها فى الأرض الموحلة فى حذر .. علت دقات قلبها لمرآها ، ودون أن تعى ما تفعل ، وجدت نفسها تنادى عليها .

كانت هذه المرأة ، هى نفيسة التى هاجرت مع زوجها نوار ، لتعيش معه هناك ، فى الأرض الجديدة .

وتوقفت نفيسة على ندائها ، والتفتت فى حركة سريعة الى مصدر الصوت ، وحين رأتها واقفة بجوار الباب ، مالت نحوها بخطواتها وسارت اليها .. ولم تكد تقترب منها ، حتى بادرتها أمينة فى لهفة :

— حمد الله على السلامة يا نفيسة .. انشا الله تكونى بخير .

لكن نفيسة لم ترد على ترحيبها على الفور ، انما قالت لها وهى تتأمل وجهها فى شبه استغراب .

— خير ايه يا أمينة .. ؟! .. انت عاملة فى نفسك كده ليه يا أختى .. انت يا عينى بقيتى فى ربع حالك .

ثم مصمصت بشفتيها فى تحسر وعادت تقول :

— وحسين زاخر يا ضنايا .. حالته بقت تصعب على الكافر .. يا أمينة فوقى لنفسك .. امك مش حتنفعك .. وان نفعتك النهارده ، مش حتعيش لك العمر كله .

وسألتها أمينة بصوت ضعيف مسكين ، وكأنها تتلمس لنفسها خلاصا من أحزانها :

— والأرض يا نفيسة .. ؟

— أرض ايه ونيلة ايه يا أختى .. هو علشان عندك حتة أرض ، تقومى تتبغددى على جوزك .. ؟ ياريت كان عندى مال قارون وأنا أعطيه لجوزى .. هو احنا بنلعب هناك .. ؟ .. احنا بنشتغل ليل ونهار .. والحكومة بتشق لنا المصارف ، والأشيا حتبقى معدن .. لمى نفسك يا حبيبتى ، وخدى أولادك ، وروحى لجوزك أحسن لك .. وكتر الكلام مالوش فايدة .

واستأذنت منها نفيسة ، ورفعت ذيل جلبابها مرة أخرى . وراحت تخوض فى المياه بحذر .

واحست أمينة بطنين يلف ويدور فى رأسها .. ثم بخف هذا الطنين شيئا فشيئا ، ليحل محله صفاء ينتشر فى نفسها رويدا رويدا .. ولمحت وهى لا تزال واقفة مكانها بجوار الباب ، دخانا يتصاعد من بعض البيوت ، فعرفت أن النساء والرجال فى القرية بدأوا يشعلون الأفران ليناموا عليها فى الدفء .. الرجال والنساء .. نعم .. كل رجل معه امراته ، الا هى .. والا هو .

ووجدت نفسها تعتزم شيئا ، لم تدر كيف انبثق فى رأسها وتحدد هكذا فجأة ، لكنها صممت على تنفيذه حتى ولو كان فيه موتها .. ولم تكد تحس بأمها تتحرك فى رقدتها تحت اللحاف ، حتى ذهبت اليها ووقفت بجوارها ، ثم قالت لها وكأنها تجرب الحزم والجفاف لأول مرة فى حياتها .

ـ أمـه .

وردت عليها أمها والنوم لا يزال فى عينيها .

ـ عايزة حاجة يا أمينة . ؟

ـ أنا راجعة لبيتى يا أمه .

وعادت إمها تقول فى شبه استغراب وكأنها تحلم .

ـ بيتك .. ؟ .. ما أنت فى بيتك يا بنتى ..

ـ قصدى بيت جوزى .. بيت حسين .

انتفضت الأم من رقدتها ، وراحت تنظر اليها فى استنكار ، ثم قالت لها وقد بدت المفاجأة قد غلبتها على أمرها .

ـ والأرض .. ؟ .. وأرضك .. ؟

ـ الأرض الأرض .. ما الأرض بقى لها أكتر من سـنة معايا .. شفت منها ايه الا الهم والغلب وكلام الناس على حظى المـايل .

ودخل عليهما فى تلك اللحظـة صبيها البكر ، نحيفـا نحيلا يرتعش ، وقدماه الحافيتان موحلتان ، وجلبابه مبتل وصـدره مكشوف وبارز العظـام .. واهتزت أمينة لمشهد ولدها ، فتوجهت لأمها بعينيها الباكيتين وقالت وهى تكاد تصرخ وتمزق نفسها :

ـ عاجبك حال الولد كده . ؟ .. حيقعد طول العمر من غير أب ، زى اليتامى .

وانتثرت الدموع من عينيها ، وراحت تجهش بالبكاء :

ـ يا ريت ما كان عندى ولا قيراط أرض ، كنت استريحت من الغلب ده كله .

وتراءى للأم أنها أمام انسانة أخرى غير أمينة ، تلك التى

عرفتها طول العمر صامتة صابرة ، واحست فى الوقت نفسه أن صبر أمينة قد نفذ ، وأن انفجارا كبيرا ومروعا قد يعقب صمتها الطويل هذا .

فعادت تقول لها وحدة كلماتها تخف وتلين :

ــ ايه اللى جرالك يا بنتى . هو أنا قصدى ايه غير مصلحتك ، يعنى أنا فرحانة بقعدتك جنبى .

وردت عليها أمينة وهى لاتزال تنتحب :

ــ مصلحتى لازم اعرفها بنفسى من النهارده ، والوكيل ربنا .

ثم التفتت الى صبيها الذى راحت الدموع تتساقط من عينيه وهو يراها تبكى .

ــ واد يا مصطفى . روح نادى على خالتك نفيسة مرات عمك نوار . خلاص ، بكره حنسافر معاها ، ونروح كلنا لأبوك .

ومسح الصبى دموعه ، وخرج يجرى فى الطرقات الموحلة فرحا .

فى تلك اللحظة فقط ، ادركت الأم انها أمام قرار حاسم لا سبيل الى الوقوف أمامه ، وتمنت لو تصرخ فى وجه الدنيا بأعلى صوتها ، لكنها أحست أن صرختها ستضيع حتما فى الفراغ، فأطرقت براسها ، وقالت والدموع تنساب من عينيها هى الأخرى:

ــ خلاص يا بنتى .. عوضى على الله .. اعملى اللى انت عايزاه ، وذنبك على جنبك .

لم ترد أمينة بكلمة .. كانت فى أشد الحاجة الى أن تسكت وتستريح . فاستدارت الى رضيعتها النائمة على الكنبة

لترضعها وتشغل نفسها معها . وحين مالت عليها لتحملها بين ذراعيها ، وجدت فمها الصغير يبتسم ابتسامة حلوة رغم أن عينيها كانتا مغلقتين بالنوم ، وتذكرت ما يقوله النـاس ان الأطفـال يضحكون فى نومهم حين تزورهم الملائـكة فى الأحلام . وامتلأ قلبها بسعادة لم تحس بها منذ زمن طويل . رفعت طفلتها المبتسمة الى صدرها وراحت تهدهدها وتوقظها على مهل . ودون أن تدرى وجدت خطواتها تنقلها الى جوار الباب ، فاستندت عليه بظهرها ، وأخرجت ثديها لترضـع طفلتها ، وراحت ترقب الطريق وتنتظر عودة ولدها ومعه نفيسة .

كان الطريق أمامها فى تلك اللحظـة موحلا ، والمسير فيه صعبا ، ولكنها حين جالت ببصرها فى كل ما حولها ، أحسـت براحة كبرى تغمر نفسها .. فالهواء كان قد أصبح دافئا وطريا ، والسماء قد جفت أمطـارها وصفت . ولم يعد فى الفضـاء سوى سحابات صغيرة بيضـاء تسبح على مهل ، وبعض طيور ترفرف بأجنحتها فى الجو لتبحث عن قوتهـا ، وتبنى أعشاشـها من جـديد .

« ١٩٥٨ »

الفـانوس

رغم أن قريتنا الواقعة أسفل الجسر صغيرة جدا ، الى حد أن عم عطية الأعمى يحفظ حواريها وازقتها بالشبر ويتجول فيها دون أن يقوده انسان ، الا أنها فى ظلمة الليل ، تبدو وكأنها عين فرن واسع منطفىء يحوى فى جوفه الغموض والمخاوف والأسرار .

كان الليل ينزل علينا دائما بظلمته الكثيفة الحالكة السواد ، فيثير فى قلوبنا نحن الأولاد الصغار ميلا للحزن والوجوم .

كان نهارنا كله عناء .. نسرح بأقدامنا الحافية وراء الحمير ، ونسقى البهائم من النيل ، ونحصـد القمح أو نزرع البرسيم .. ثم تهبط الشمس ، وتصفر السماء ، فنمسح عرقنا ، ونعود الى بيوتنا والرغبـة تملأنا لأن ننطلق فى فضـاء قريتنا ونلهو ونلعب وننسى متاعب النهار .

غير أن الصفرة كانت لا تلبث أن تضيع من السماء ، ويحل محلها سـواد ثقيل ، وتصبح القرية كلها فى لون الكحل ، وتبدأ الضفادع تنق نقيقا رتيبا مستوحشا ، والريح تندفع من أعلى الجسر خـلال الطرقات المعتمة فتترنح معها أوراق القش الجافة المرمية على الأرض محدثة حفيفا مخيفا ترتعد له قلوبنا .

كان أكثر ما يمكن أن نفعله فى تلك الليـالى المظلمة الواجمة ، أن نستلهم الشجاعة من أعماقنا ، ونخرج من بيوتنا على أطراف أصابعنا ، ونلتقى جميعا ــ كما تعودنا ــ على بلاط العمدة المملوء بالرطوبة ، ونروح نتهامس ونحكى الحواديت .

ولكن غالبـا ما كانت جلساتنا هـذه تنفض فجـأة قبل الأوان .

فرغم ان السماء تكون من فوقنا واسعة وصافية ، والنجوم فيها بعيدة وكثيرة أكثر من دعوات أمهاتنا .. والنسيم من حولنا طرى وفيه رائحـة نوار البرسيم وأزهار الفول ، الا أن الظلمـة التى تبلع حتى ملامح وجوهنا ، كانت تنسينا كل ذلك ، وتملأ نفوسنا برهبـة غامضة ، وتشدنا بشكل لا يقاوم ، الى نوع معين من الحواديت .

فشلبى الأسمر الصغير ، الذى لا تزال بأسفل ذقنه آثـار رفسة حمار هائج ، يبحلق فى الظلمة بعينيه المستديرتين الدقيقتين ، ويميل علينـا هامسا وكأنه يكلم نفسه .. « بيقولوا يا أولاد ، ان بيت الحاجة آمنة مسكون .. والعفاريت كل ليلة تطلع منه بالليل على هيئة أرانب .. وفى مرة يا أولاد بعد صـلاة العشا ، طلعت الأرانب لعم الشيخ جابر قرب الجـامع ، وفضلت تجرى وتنط من حواليه ، وتدخل من بين رجليه ، لكن علشان كان حافظ كلام ربنا .. ماجرالوش أى حاجة » .

كنا لا نكاد نسمع هـذا الكلام ، ونمضى فى تصـوره ، حتى نحس بأنفاســنا تجرى ، وشعر رؤوسنا يقف ، ونلتصق أكثر فأكثر ببعضنا ، لكن سـعداوى النحيل الذى يحلو له دائما أن يعرى ساقيه الهزيلتين كعودى الحطب ، ويلصقهما بالبلاط ليستمتع برطوبته ، لا يلبث أن يلتقط الحديث من شلبى ويكمله ويحكى لنا ، يحكى للمرة العاشرة حكاية عم رفاعى الذى قتل عند المصرف

القبلى .. أن روح القتيل تطلع فى الليل ، على شـكل قسيس طويل له عيون حمراء كشقوق النار ، وذقن طويلة بيضـاء ، ويركب حمارا يروح به ويجىء على طول الطريق الزراعى ، حتى قبل أذان الفجر بقليل .

وقد طلع العفريت بحماره مرة لعم عبد العال أبو الشبراوى وكان راجعا من البندر بعد العشاء ، فتسمر الرجل من الخوف ، ولم يستطع أن يتقدم خطوة واحدة .. رأى بعينيه الحمـار يعلو ويعلو ، ورجلى القسيس تطولان وتطولان ، وذقنه تمتد وتمتد حتى وصلت مترا .. صرخ الرجل من الرعب وجاء يجرى ، لكن العفريت لمسه بعصاه ، فوقع على الأرض ، وأصيب بالشـلل من ذلك اليوم .. مسكين عم أبو الشبراوى .

لم تكن أعصابنا تحتمل الاستمرار فى مثل هـذه الحكايات ، وكانت أبسط حركة تحدث بجوارنا تفزعنا ، وتجسم من خيالنا الرهيب .. فقد يئن فرع شجرة من هبة ريح ، أو نسمع وقع حوافر حمار عائد بصاحبـه من البندر ، فننتفض فى فزع ، ونطلق سيقاننا للريح ، ويقسم كل واحد منا فى نفسه ، الا يخرج من داره بعد ذلك فى الظلمة مهما حدث .

ولكن حدث فى قريتنـا بعد ذلك شىء غريب ، اهتزت له نفوسنا بالفرح ، ورحنا نتأمله غير مصدقين . فقد جاءت علينا ليلة فوجئنا فيها ببلدتنا كلها تموج بالنور ، مع أن السـماء لم يكن فيها قمر

فوجئنا فى تلك الليلة ، بفوانيس كثيرة ، مثبتة فى الحوائط على رؤوس الشـوارع والحوارى ، وفى داخل كل فانوس مصباح مشتعل يرسل الى الأرض والفضاء ضوءا هادئا حلوا يبدد الظلام . ولمـا سألنا ، قالوا لنا أن جميعة الاصلاح الريفى ، التى تكونت منذ شهرين ، قد أخذت اعانة من الحكومة ، واشترت هـذه

الفوانيس . وان هذا شيء قليل من كثير ستقدمه الجمعية للأهالى : فهى ستردم البرك والمستنقعات ، وتنشيء فوقها ملعبا كبيرا لكرة القدم ، يلعب فيه كل أولاد القرية بالمجان .

فرحنا بالفوانيس فرحة الدنيا ، وبدت قريتنا فى نورها اجمل من كل بلاد البندر ، وأخذت حياة جديدة تدب فيها .. الرجال تركوا بيوتهم الضيقة المظلمة ، وتجمعوا فى حلقات على المصاطب وفى الاجران ، والنساء طلعن الى الأسطح وافترشن القش ورحن يثرثرن ويضحكن .. أما نحن الصغار ، فقد أخذنا ذيولنا فى إسناننا ، وانطلقنا مع ريح الليل نجرى فى نور الفوانيس .. نمرح ونصيح .

كانت ليالى النور هذه اجمل من اى حلم يمكن أن يحلمه ولد منا وهو نائم بجوار النهر فى ظل شجرة توت خضراء .

كنا ننتظر بعضنا أول الليل فى ضوء أحد الفوانيس ، ونظل فترة الانتظار جالسين القرفصاء ، نتطلع الى الفانوس وهو يسكب الضوءويبدد الظلام من حولنا .. لم يكن هناك من شيء لا نراه ، حتى الحصى وأشواك السنط وقطع الزجاج القديمة المتناثرة ، كنا نلمحها تلمع على الأرض .. كل شيء كنا نراه بوضوح .. البيوت والدواوير ، وشجرة أم الشعور ، والتلال .. وكل شيء .. كل شيء كنا نراه .

كان الفانوس يبدو فى عيوننا جميلا .. كنا نظل نتأمل زجاجه ، ونتأمل المصباح الذى فى داخله ، والهلال النحاسى الأخضر الذى يعلوه ، نتأمله فى صمت وسكون وكأننا نصلى .. وحين تكتمل جماعتنا ، ننهض من جلستنا ، ونقسم أنفسنا .. عساكر وحرامية .. ثم نندفع فى مسالك القرية المضيئة زاعقين مهللين ، ونظل نجرى ونجرى ، ونضحك ونصيح ، حتى يهدنا التعب ، ونمسح العرق من على جبيننا بأطراف جلاليبنا ، ونعود

الى بيوتنا مهتزين بالسـعادة ، وكأنما اخذنا من ليلتنا : ثمنـا عظيما لكل العناء الذى بذلناه بالنهار فى الحقول وعلى الشطآن والجسـور .

لكن ليالى الهناء هـذه لم تدم طويلا ، فقد لاحظنا بعد شهور قليلة ، أن الفوانيس المضيئة ، بدأت تقل شيئا فشيئا ، وبعض الشـوارع والحوارى غرقت فى الظلمـة من جديد .. وأحسسنا بالقلق يداخل نفوسنا ، ولكن شلبى قال وهو يحك ذقنه المجروحة ليطمئننا ، أن حسنين فراش الجمعية ، لابد أنه ينسى اشعال المصابيح .

غمرتنا كآبة شديدة .. وبدأنا بعد ذلك ، نتسلل من دورنا فى الظلمة على أطراف أصابعنا ، متجهين نحو الفانوس الوحيد الذى بقى لنا فى البلدة كلها ، ولا نكاد نبلغ شجرة السنط التى تميل عليه ببعض فروعها حتى نروح ننظر اليه فى رجاء ، وندعو من قلوبنا ألا تنطفىء شعلته أبدا ثم نجلس فى ضـوئه ، ونظل نحملق فى الظلمة المحيطة بنا ، فنخاف من الجرى واللعب ، وننكمش فى جلستنا أكثر وأكثر .. ونكتفى من السهرة بالكلام والحواديت .

ودون أن ندرى ، عاد شلبى الى حكاياته القديمة .. فقال أن الأرانب بدأت تطلع من بيت الحاجة آمنة ، من يوم أن انطفأ أول فانوس فى البلد .. أما سعداوى النحيل ، فقال هامسا أن القسيس الطويل وحماره ، كانا قد خافا من نور الفوانيس وهجر الطريق الزراعى ، ولكنهما سيعودان بالتأكيد ، لو انطفـأ هـذا المصباح الأخير .

وارتعشـنا جميعا لذكر الأرانب والعفاريت بعد أن كنـا نسيناها زمنا وأحسسنا بدموع الخوف والحزن تبلل قلوبنا ، ورحنا نتطلع الى الفانوس وندعو فى سرنا .. « يارب .. يارب .. ابق لنا هذا الفانوس .. فانوس واحد ليس كثير على بلدنا » .

وحين ذهبنا اليه فى الليلة التالية ، وجدناه لا يزال مضيئا ، ففرحنا كثيرا ، أكثر من أى ليلة أخرى ، وجلسنا على الأرض متربعين فى دائرة النور ، ورحنا نحكى ونتحدث .. ولكن سعداوى قطع علينا الحديث فجأة وقال وهو يشير بيده الى الفانوس .

ـ « شايفين يا أولاد .. الفانوس بينطفى » .

ارتفعت عيوننا جميعا الى الفانوس .. كانت شعلته قد شحبت عن أول الليل ، وبانت عليها علامات الذبول .. أصابنا خوف فظيع ، خوف لم نحس بفظاعته من قبل طيلة عمرنا .. وانتفضنا جميعا واقفين ، ممسكين من الخوف بجلاليب بعضنا .

كانت البلدة كلها فى تلك اللحظة صامتة واجمة .. الرجال لم يخرجوا الى المصاطب والأجران .. والنساء لم يطلعن الى السطوح .. والسكون كان منشورا وعميقا يطن فى آذاننا ، والجنادب يعلو صريرها .. وعواء كلب بعيد يبدو أنه غريب عن قريتنا يصل حزينا الى أسماعنا .. ظللنا واقفين ننظر الى الفانوس الذى يموت منه النور لحظة بعد لحظة وكأننا لا نستطيع حراكا .. وخيل الينا ونحن فى عالم الظلمة والسكون هذا ، أنه لم يصبح فى الوجود كله أحد غيرنا .. ولكننا أحسسنا فجأة بوقع أقدام ثقيلة تقترب منا آتية من ناحية البندر فانتفضنا فى فزع ، وصرخ شلبى وصاح .. « العفاريت رجعت يا أولاد » .. صرخنا جميعا صرخة مزقت سكون الليل ، وأطلقنا سيقاننا للريح عائدين الى بيوتنا .

وكانت هى الأخرى غارقة فى الظلام .

« ١٩٥٨ »

النهاية السعيدة

وصلت والدنيا ليل .. وقفت أتأمل فى الظلمة مشهد قريتى .. لم أكن ألمح لها دليلا أو علامة ، فقط رائحة الزرع النابت فى الحقول ، وشجرة السنط العجوز المائلة عند مدخلها ، كذلك أشباح بيوتها الواطئة الصغيرة الراقدة فى بطن الجسر .

كانت الظلمة حالكة ، والنجوم على صفحة السماء تبرق متهافتة من بعيد ، لم يكن هناك صوت ولا حركة .. لا ساقية تدور ، ولا فلاح يستحث بهيمة .. لا كلب ينبح ، ولا ذئبة تعوى .. كل ما حولى صمت مجسم عميق .. ومع هذا فقد أحسست بروحى تنتعش وترفرف وتكاد تطير ، استنشقت نفسا كبيرا وعميقا ملأت به كل رئتى ، وشرعت أهبط السكة المؤدية الى بيتى .

لم يكن بيتى بعيدا .. كنت أحفظ الطريق اليه عن ظهر قلب ، أحفظه بالشبر .. وأعرف أن المسافة بين مدخل البلد وبينه بها ثلاثة مطبات متباعدة يمكن أن يتعثر فيها الغريب ، وأعرف أيضا أن هذا الطريق الضيق يصعد قليلا عند شجرة

النبق الكبيرة التى تظلل مقام سيدى حسن البادى ، ثم ينحدر الطريق فجأة مرة أخرى ثم يستوى ويمتد حتى ينتهى بوسعاية رحيبة يقوم أمامها بيتنا الكبير القديم .

سرت على مهل متجها الى البيت ، كنت سعيدا لأنى سأرى امى بعد دقائق قليلة .. سأدق الباب الخشبى الكبير دقتين خفيفتين ، فتصحو أمى فى الحال من نومها ، وتخرج رأسها الملفوف بطرحتها السوداء من تحت اللحاف ، ثم تقول فى صوت تختلط فيه اليقظة بالمنام « مين . ؟ » فأرد عليها بصوت هادىء واضح « انا يا امه » . فتنزل من على السرير بقامتها التى أحناها الزمن ثم ترفع المزلاج وتفتح الباب وتتطلع فى وجهى فى لهفة . « مين .. ابنى عبده حبيبى » وتأخذنى بالأحضان .

تفتح قلبى للقاء .. فأسرعت من خطواتى ، سأراها ، وآكل من يدها اى شىء ، وأجلس بجانبها على الكنبة لأسمع منها بعض أخبار قريتنا ، ثم أتركها مستأذنا كالعادة واخرج الى شوارع بلدتى وحواريها ، ربما تكون قهوة هنا أو هناك ساهرة أجلس فيها مع بعض الفلاحين . نشرب الشاى ونتحدث فى ظلمة الليل وسكونه .

لم اكد اجتاز الوسعاية واقترب من باب البيت ، حتى هبت فجأة من فوق الجسر القريب ريح شديدة اكتسحت كلّ ما على الأرض من تراب وأوراق هشة جافة . رفعت يدى لأحمى عينى من ذرات التراب ، غير أن صوتا موحشا وغريبا دوى فى أذنى فجأة ومزق سكون الليل .. كان الصوت فى وحشته وصريره يشبه اصطفاق نافذة زجاجية قفلت بفعل الريح حتى أوشكت أن تتهشم وتتهاوى .. اعترتنى رجفة ، وتوقفت . رحت أنصت وأجيل بصرى فى جدار بيتى وجدران البيوت الملاصقة أتمعن نوافذها ، لكنى كنت أعلم أن النوافذ هنا ليست من زجاج ..

كلها مصنوعة من خشب الجميز أو السنط أو التوت الغليظ ..
فمن أين انبعث هـذا الصوت الزجاجى الخشن الكئيب . ؟ !
لكن الريح هدأت ، وهمـدت الأوراق الجافـة واستكانت على الأرض ، ولم أعد أسمع الا همس السكون وهمس نسمات توشوش لبعض أشجار عارية قريبة .. لابد انه الخوف الذى جعلنى أتناسى أمر هذا الصـوت الغريب وتخيلته وهما .. ولم اكد انقل قدمى لأقطع الخطوات الباقية على باب بيتى ، حتى هبت الريح مرة أخرى باردة وعنيفة ، فثار الغبار ورقصت أوراق القش الجافة على الأرض وترنحت ، ثم دوى الصـوت الموحش مرة أخرى ، وروعتنى ما فيه من كآبة وتشاؤم وصرير . تسمرت فى مكانى من الخوف وعدت انصت من جديد .. أحسست شيئا ما مرتفعا عنى بعض الشىء فى الفضـاء يروح ويجىء فى الظـلام .. يهتز ويتذبذب مع هواء الليل محدثا صريرا كابيا ومخيفا .. ثم توقف الصرير ، وسمعت صوتا غامضا يشق سكون الليل ، ويقول لى بلهجة ترحيب :

ـ مساء الخير يا أستاذ .

تلفت حولى فى جزع وقلت بصـوت خفيض ، محـاولا مداراة خوفى :

ـ مساء النور .. من يتكلم . ؟ !

اجاب الصوت فى نبرة توحى بأن صاحبها يبتسم فى سره ابتسامة سخرية خفيفة :

ـ اتعتقد فعلا أن المساء هنا نور ؟ ! على كل حال .. انه نورك انت .. نورتنا يا أستاذ .

قلت وأنا أمسك نفسى عن الصياح فزعا .. « من انت أولا .. ومن أين تتكلم .. ؟ ! » .. قال على الفور وكأنه أشفق على

حالى .. « أولا يجب أن تطمئن .. انا صـديق قديم .. ولكن أرجوك .. اخفض من صـوتك ، والا لو رآك احد وانت تتكلم معى ، فماذا يقول عنك . ؟ . مجنون معاذ الله ؟ ! انت تعلم أنك انسان محترم فى بلدتنا هـذه ، وعاقل ، ولايمكن أن تتكلم مع شىء لا ينطق فى عرف الناس » .

كان الخوف يمتص انفاسى .. أحسست انى وقعت فى قبضـة أحد العفاريت التى كنا نحـكى عنهـا الحواديت ونحن اطفال .. يا للمصيبة .. لم تطلع لى وانا صغير ، فطلعت لى وأنا كبير .. الجم لسانى ، وشلت خطواتى ، وعاد الصـوت يقول وكأنه يعاتبنى :

ـ لمـاذا لزمت الصمت .. ؟ ! لقد لاحظتك هـذه الليلة وأنت قادم ، كنت فرحان مبتهجا .. فلماذا اكتأبت هكذا مرة واحدة ، وبدا على وجهك كل هذا الخوف .. إتخاف منى .. ؟ !.

قلت فى ضراعـة وتوسـل : اعمـل معروفـا .. قل لى من انت .

قال بصوت ودود .. « الا ترانى فوق رأسـك معلقا على جدار بيتك ، انا .. سأقول لك من انا .. بشرط الا تجرى .. اتوسل اليك إلا تهرب منى .. أنا .. انا الفانوس » .

اصابنى رعب قاتل .. الفانوس . ؟ ! فانوس يتكلم . ؟ ! . خيل لى ان ومضـة خاطفة مرت بذهنى ، وأخذت معها عقلى .. هممت أن أجرى مذهولا مفزوعا ، لكنـه عاجلنى وقـال بنفس لهجته المطمئنة الودودة :

ـ كنت احسب انك ستفرح بلقائى .. أتنسانى هـكذا بسرعة .. ؟ ! وبمجرد أن انتهيت من كتابة قصتك عنى .. ؟ !

قصة عنه .. ؟ ! احسـست براسى يدور ويدوخ . أجل ..

أنا كتبت قصــة عن قريتى ذات مرة .. وسميتها بالفانوس .. ولكن .. ولكن ..

قال مواصلا كلامه « ها أنت ترانى مطفأ .. وبابى الصغير مفتوح تسفى فيه ريح الجسر ، ويكاد زجاجى يتهشم فينتهى بذلك كل ما بقى لى .. لاشـك أن جزءا من المسـئولية يقع عليـك » .

قلت وأنا أشهق « مسئولية .. ؟ ! .. تريد أن تقنعنى أنك تتكلم مثلما يتكلم الناس .. ؟ . لايمكن .. لايمكن .. فانوس يتكلم .. هل تعتقد أنه يمكننى أن أصدق ذلك » .

قال باستنكار شديد .. « ولم لا . ؟ . كنت أعتقد أن الفنان يمكنه أن يصــدق ما يخاف الناس العاديون أن يصدقوه .. نعم .. أنا الذى أكلمك .. وليست هــذه أول مرة أكلمك فيها .. ياما كلمتك طويلا من قبل وأنت تكتب قصــة الفانوس .. الم تكن تخرج فى الليل من بيتك هــذا لائذا بالصمت وبالوحدة ثم تفترش الأرض وتجلس تحتى ليالى طويلة ، كنت تناجينى فيها ، وتحادثنى ، ولا تتعب من التطلع الى .. فلماذا تنكر على الكلام معك هذه الليلة .. ؟ !

قلت مرتعــدا .. أوشــك أن أستغيث .. « ولكن .. ولكن » .

قال بلهجة لطيفة ورقيقة .. « ولكن ماذا ؟ . انزع من قلبك هــذا الخوف الذى يبدو عليك .. الخوف تماما مثل الجهل ، يعمى القلب عن الحقيقــة ، الا توافقنى على هــذا ، باعتبــارك كاتبا .. فنانا .. ؟ !

قلت وأنا أزدرد أنفاسى .. « نعم .. ولكن .. ولكن » .

قال مقاطعا بلهجة حازمة ومهذبة « ولكن يجب أن تجيب على هـذا السؤال : لمـاذا غيرت نهايتى .. أقصد نهاية قصتك « الفانوس » .. كنت انهيتها بشكل ، ثم عدت فأعطيتها نهاية اخرى .. هـذا هو ما أريد أن أناقشـك فيه .. انه تغيير لم يعجبنى ولم يعجب اخـوتى الفـوانيس .. ان ذلـك يؤثر فى مصيرنا .. وقد قررنا أن نبلغك هذا الرأى فى اقرب وقت .. أظنك اقتنعت الآن بحقى فى النقاش معك » .

قلت وأنا أتطلع اليه مستسلما « نعم .. لك الحق .. تفضل .. تكلم » .

قال مبتهجا « عظيم .. سنصل اذن بالتأكيد الى نتيجة .. اما أن تقنعنى واما ان أقنعك ، وبدون شهود علينا . ! . هـل تذكر النهاية الأولى لقصتنا هـذه . ؟ ! . أنا أذكرها .. أنـا أعيدها عليك .. كانت هكذا .. » .

وأحسست بصوته يرق فى هدوء الليل وينساب فى أذنى كالحفيف وهو يقول .. « .. انطفأ آخر فانوس فى قريتنـا ، غرقت البيوت والأشجار فى بحر من الظلام ، طلعت الأشباح من جديد للصغار وهم يلعبون .. صرخوا وطاروا فى فزع الى بيوتهم .. وكانت هى الأخرى غارقة فى الظـلام .. !! .. ألم تكن نهايتها الأولى هكذا .. ؟ ! »

كنت مبهورا وأنا أصغى اليه .. كان صـوته يمس روحى مسا حنونا وعنيفا فى الوقت نفسه ، ونبرة حزن جميلة وجليلة تشيع فى كلماته .. قلت مستعذبا أن أعطيه كل نفسى :

ـ تماما .. تماما .. بل وأجمل مما أنهيتها أنا ..

قال معترضا .. « لا .. لا تكن متواضعا أرجوك .. هكذا

انهيتها أنت .. ونحن لا نريد الليلة الا الحقيقة كما اتفقنا .. فلماذا عدت وغيرت هذه النهاية ؟ ! »

قلت متحمسا .. « لقد سئلت نفس السؤال كثيرا من قبل .. »

قال متهللا .. « من غيرى .. ؟ ! .. اذن هذا يؤيد صحة نظرتنا .. ألم يعاتبك أحد على هذا التغيير .. ؟ ! »

قلت على الفور .. « نعم .. ومن بينهم أستاذ لى ، وصديق فى نفس الوقت ، ونشر عتابه فى احدى الصفحات الأدبية الشهيرة ، ولكن صدقنى .. كانت حيرتى تزداد يوما بعد يوم » .

قال وقد انقلب صوته فجأة الى تحذير وتنبيه .. « اخفض صوتك .. أرى من مكانى المرتفع شبحا قادما .. آه .. انه الخفير .. يقترب منا .. يدب بعصاه حاملا بندقيته القديمة الصدئة على كتفه .. لو سمعك تتحدث الى فسيتهمك أو يتهم نفسه بالجنون .. نعم .. الخوف قد يورث الانسان الجنون .. ما علينا .. قف صامتا لحظة .. التصق بالجدار ولا تتحرك .. وحين يمضى من أمامنا نعاود الحديث .. لا تنس أين وقف بنا الحديث » .

التصقت بجدار بيتى ، قلبى يدق وانفاسى تتتابع .. وبعد لحظات ، تناهى الى سمعى أقدام الخفير تقترب وتقترب .. ثم تعلو وتعلو .. وحين وازانى تنحنح بصوت أرعدنى ، ثم مضى يدب فى السكة على مهل حتى اختفى شبحه ، وتلاشى وقع أقدامه .. حينذاك عاودنى صوت الفانوس .

ــ خلاص راح .. ولو كان هذا الخفير واسع الصدر بعض الشىء ، لناديته ليكون شاهدا علينا فى الكلام .. لكنى لو فعلت ، فسيصرخ بالتأكيد ، ويرمينى بشمروخه ويحطمنى ،

مع أن الريــاح لم تحطمنى بعد .. لكنــك غيره بالطبــع .. أنت فنــان .. تبغى الحقيقــة حتى ولو كانت قاســية على نفسك .. نعود من حيث وقفنا فى الكلام .. آه .. كنت تحدثنى عن عتاب صديقك وإستاذك هــذا على تغييرك لنهاية القصة .. صف لى هــذا الصديق .. انه صديقنا أيضا نحن الفوانيس .. صفه لى فى كلمات قليلة وبسيطة .

قلت وأنا إتنهد .. « شاب حين يضحك .. وحكيم حين يتسكلم » .

قال .. « اعرف هــذا النوع من الناس .. نوع يتقبل كل الأشياء بحب .. لا يهمه أن تضحكه الحقيقة أو تبكيه .. قل لى وحياتك .. ما هى وجهة نظره فى تغييرك لنهاية الفانوس .. اننى شغوف لسماعها » .

قلت مبتسما .. « سأقولها لك بعد قليل .. أعدك بهذا .. لكنى أريد أن أعرف وجهة نظرك أنت أولا » .

قال .. « عظيم .. لمــاذا عدت فأضأت الفانوس مرة أخرى، بعد أن كنت قد تركته فى نهاية القصة مطفأ .. ؟ ! .. ما هدفك من هذا التغيير .. ؟ ! »

قلت .. « أن أترك القارىء فى نهاية القصــة والقرية أمامه مظلمة وحزينة ، هــذه صورة تثير الانقباض التشاؤم والحزن » .

قال .. « ولمــاذا تقول أنها تثير الانقباض والتشاؤم .. الخ من هذه الكلمات المحفوظة .. !! لمــاذا لا تقول أنها تثير عطف القارىء وشجنه ، فتدفعــه لأن يعمل شيئا من جانبه لكى تضاء القرية والفوانيس من جديد .. ؟ ! »

قلت فى حماس .. « وهل ما فعلته أنا شىء ضار .. ؟ ! ..

بالعكس .. أضأت الفانوس الأخير من جديد ، وبذلك أصبح لى دور فى القصة » .

قال فى حماس طغى على حماسى .. « هـذه على ما يبدو مشكلتك فى الفن .. دور الكاتب فى القصة .. ؟ ! من رأيى أن أعظم دور لكاتب ؛ هو أن يخلق القارىء دورا فى الحيـاة .. وفى النهاية الثانية لقصتك هـذه .. أضأت الفانوس الأخير بعد أن كان مطفأ .. وهـذا جميل .. لكنك اضأته بنقطة حبر على الورق .. أنت لم تضئه فى الشوارع والحوارى والبيوت .. انت بذلك أرحت أعصـاب النـاس .. لم تلهب أرواحهم بمأسـاة قصتك .. أطفأت نار حماسهم وشجنهم ، فتركوا القصـة وهم مستريحون ومطمئنون على قريتهم .. وهـذا ما لم اكن انتظره منك .. كنت أحسب أنك فنان ثابت القلب .. بعيد النظرة .. لا يروعك الحزن مهما كان » .

قلت مستفهما .. « يعنى .. ؟ ! »

قال : « أن تترك الناس وهم فى لوعة علينا وعلى قريتنـا المظلمة .. وبدلا من أن تقوم أنت بمهمة اضاءة الفانوس ، توحى لهم هامسا بذلك .. بأن تلك هى مهمتهم » .

قلت وقد تذكرت شيئا .. « هـذا بالضبط رأى صـديقى وأستاذى .. بل وربما تكون نفس كلماته .. غير انى كنت أسأله قائلا .. وما دمت انا لا أضىء عن طريق فنى .. فمـاذا تكون اذن مهمتى .... »

قال الفانوس متعجبا .. « ومن قال لك أنك لم تضىء بفنك ؛ وفى هذه القصـة بالذات .. ؟ ! .. ألم تقدم لهم فيهـا هذه الصورة وقبل ان تنطفىء الفوانيس حين قلت .. « .. ثم فوجئنا ذات ليلة ببلدتنا كلها تموج بالنور ، مع أن السـماء لم يكن بها

قمر .. وفرحنا بالفوانيس المضيئة فرحة الدنيا .. وبدت قريتنا فى تلك الليلة اجمل من كلُ بلاد البندر ، واخذت حيـاة جديدة تدب فى لياليها .. الرجـال تركوا بيوتهم الضيقة المظلمـة .. وتجمعوا فى حلقات السمر على الأجران والمصاطب .. والنساء طلعن الى الأسطح وافترشن القش ورحن يتكلمن ويضحكن .. أما نحن الصغار ، فقد أخذنا ذيولنا فى أسناننا ، وانطلقنا مع ريح الليل نجرى فى النور ونمرح ونصيح .

كانت ليالى النور هـذه ، أجمل من أى حلم يمكن أن يحمله ولد منا ، وهو نائم بجوار النهر فى ظل شجرة توت خضراء .. »

ماذا تريد من دورك فى القصة أكثر من هـذا .. عمـلت ما عليك وأكثر .. غير أن الفوانيس انطفـأت بعد ذلك لسبب لا دخل لك فيه .. ذلك شىء يحزن قلبك الفنان بالفعل .. ولكن ما حيلتك .. ؟ ! اتضيئها أنت من عندك .. بسطر أو سطرين أو عشرة .. ؟ ! .. لا .. كان يجب أن تدع الناس اذا كانوا قد احبوا من قصـتك تجربة النور ، أن يعيدوها بأنفسهم مرة أخرى الى قريتهم .. هـذا هو امتحان الفن ومدى تأثيره فى الناس .. !

قلت وشبه دوار فى راسى .. « عفوا .. لم افهم عبارتك الأخيرة .. اريد توضيحا أكثر من فضلك » .

قال بلهجة حلوة .. « آه .. شكرا .. العبارة الأخيرة .. ماذا كنت اقول ؟ .. آه .. كنت أقصـد أن الفنان يجب الا يعمل كل شىء بنفسه .. يجب أن يترك للناس شيئا يفعلونه .. لابد أن يعطيهم الفرصـة لكى يحسوا أنهم هم الآخرون مثله ، قادرون على الخلق وعلى العمل .. »

قلت .. « .. لقد فهمت تماما .. ولولا هـذا التغيير اللعين فى النهاية ، لمـا ثارت بشأن هـذه القصة أية مشكلة .. ولمـا نطقت أنت .. »

قال بضجر .. « كنت أعتقد أنك فهمتنى فعلا .. المسألة يا أستاذ ليست مسألة نهاية القصة أو بدايتها .. انها قبل كل شيء طريقة تفكير الفنان .. لون نظرته وفهمه للأمور .. وانت حين غيرت النهاية ، غيرت القصة كلها دون أن تحس .. سلبت من قصتك روحا ، وأعطيتها روحا أخرى .. هذا هو الموضوع .. أفهمتنى .. ؟ ! »

قلت مرتبكا .. « تقريبا .. لكنى محتاج الى توضيح أكثر .. لو تكرمت » .

قال .. « جدا جدا .. بكل سرور .. غير انى حريص على وقتك .. لا أود أن أعطلك معى أكثر من هذا .. »

قلت فى لهفة .. « لا .. أبدا .. اكمل من فضلك .. ليس للوقت أى معنى فى هذه الظلمة .. »

قال وقد خيل لى أن لصوته إعماقا بعيدة .. « حين يعطى الكاتب لقصته نهاية اليمة .. هل تظن انه بذلك يضيف الى آلام الناس ألما جديدا .. ؟ ! .. لا .. انه فقط يحرك احساسهم بمأساتهم .. هو يحفزهم لأن يضعوا لهذه الآلام حدا .. !!

« هل نسيت أهالى قريتك .. ؟ ! .. كثيرون منهم ألف الحياة كما هى .. انهم يولدون هكذا .. ويعيشون هكذا .. ويموتون هكذا أيضا .. ضمرت فيهم روح التطلع والتغيير .. ما موقف الفنان هنا ؟ ! .. ما موقفك يا أستاذ . ؟ . »

قلت مباشرة .. « أرسم لهم صورة جميلة لحياتهم .. وأجعلهم يتطلعون دائما اليها .. »

قال ملاحقا كلامى .. « هذا جميل .. جميل جدا .. ولكن قبل هذا .. يجب أن تحرك احساسهم بالألم كما قلت لك

من قبل .. يجب ان تشعرهم بمأساتهم ، وبما فى هـذه المأساة من مرارة والم ، حينذاك سترى كل واحد منهم مندفعا وحده نحو الخـلاص .. نحو حياة أجمل وأفضل .. »

قلت متسرعا .. « الحياة التى أرسمها له فى نهاية قصتى .. هه .. ؟ ! »

قال .. « لا .. ليس هـذا ضروريا .. انك قد ترسم لهم الحياة .. ولكن يبقى لهم بعد ذلك الخيار .. الفنان ليس وصيا على الناس .. هو يحرك الاحساس الكامن فيهم .. ثم هم بعد ذلك يختارون .. هم الذى يقررون مصيرهم بأيديهم .. »

وهنا اضطرب صوت الفانوس وخفت بعض الشىء ، ثم قال وهو يهمس لى فى وجل .. « مرة اخرى من فضـلك : التصق بالجدار .. اخفض صـوتك .. هناك وقع أقدام تقترب .. انهم فلاحون عائدون من الحقـل ، كانوا يروون القمح .. التصـق بالجدار .. ولا كلمة .. »

التصقت بالجدار ، وحبست أنفاسى ، ورحت أتطلع عبر الوسعاية .. لم يكن هنـاك من صـوت .. فقط وقع أقـدام كثيرة .. وهمهمات تبدو موحشة فى ظلمة الليل وسكونه .. ثم لاحت أشباح بعض الرجال يدبون فى الطريق فى صمت ووجوم .. كانت خطواتهم بطيئة .. فى بطء خطوات الجواميس التى يسحبونها بالحبال ، خافضى الرؤوس يتلمسون طريقهم فى الظلام الحالك .

مروا من امامى فى صمت .. همهماتهم توقفت ، واشباحهم اخذت تختفى شيئا فشيئا فى الظلام .

ـ هل رأيت موكبهم .. ؟ ! .. ما رأيك فيه .. ؟ !

قلت كالمـأخوذ .. « انهم ابطـال .. ليتنى أستطيع أن ارسم هذه اللوحة فى قصة لى ، وكما احسستها » .

قال ضاحكا .. « بشرط ألا تأتى فى نهاية القصـــة وتختمها ببعض السطور البطولية .. هكذا مثلا .. « وكان موكب الفلاحين يخيم عليه الوجوم .. ولكن ضحـكة قويـة غامضـة سرعـان ما انطلقت من واحد منهم وراح صداها يتردد فى جنبات الليل الكبير » .

واستمر يضحك .

قلت له فى استياء « أنت اذن لا تثق فى كل ما أكتب » .

قال .. « أبدا أبدا .. العفو والله .. أقصـد هؤلاء الذين أشاروا عليك بتغيير قصتك .. انهم لاشـك يختلفون عن صديقك الذى كلمتنى عنه .. ربما فيهم شبابه ، ولكن تنقصهم حكمته » .

قلت .. « من الجائز .. ولكنى ألمس فيهم هم الآخرين حبا شديدا للحقيقة .. »

قال ساخرا .. « حب بلا تجربة .. كطائر بلا أجنحة » .

قلت .. « يعنى .. ؟ ! »

قال .. « يعنى كل ما قلتـه لك من قبـل .. لقد تأخر الوقت .. وقد تناقشنا كثيرا .. كثرة النقـاش تبدد طاقـة الفنان .. آن الأوان .. استودعك الله .. »

قلت فى لهفة ورجاء .. « لا .. لا .. أرجوك .. لا تتركنى الآن .. دقائق فقط .. أناقشك فى .. نقطة صغيرة .. »

قال بصوت حاسم أجش .. « لم يعد جدوى من النقـاش بعد الآن .. الأفضـل لك أن تفكر فى كل ما قلته لك .. سـلام عليك .. كلمة أخيرة .. هناك ريح آتية من فوق الجسر .. ريح باردة وشـديدة .. كن شجاعا وأنت تواجهها ، ولا تخف .. سلام .. السلام عليك .. »

وسكت الصوت مرة واحـدة ، وساد المكان صمت عميق رهيب .. هممت أن أرفع يدى لأتضرع اليه واستمهله .. لكن ريحـا شديدة وباردة هبت مندفعة من أعلى الجسر واكتسحت الوسعاية والبيوت والأشجار ، وحدثت ضجة مخيفة ومروعة كنت أسمع خلالها زجاج الفانوس يصطفق مرات ومرات فى وحشة وكآبة .. ثم سكنت الريح والشجر .. وهـدأت حركة بـاب الفانوس المفتوح ، ولم يبق منها سوى اهتزازات ذات صرير مفزع وكئيب .

التقطت انفاسى ، وصحت وشعر راسى وقف كالابر .. « أنت .. أنت .. كلمنى .. كلمـة واحـدة فقط .. فقـط لا غـير .. »

ولكن ما من مجيب من القرية كلها .. سوى السكون .. والشجن .. وصـوت أقدام خفير أو فلاح عائد من حقله .. يدب مع بهيمته ، فى جوف الظلام .

« ١٩٥٨ »

أونجلش

فى تلك الأيام ، لم أكن الصبى الوحيد الذى يحب الكلاب فى قريتنا ، كان بدير والشحات هما الأخران يحبان الكلاب حبا جما .. لم نكن نحن الثلاثة نسمع عن كلب جميل وقوى فى أى بلد من البلاد المحيطة بنا ، حتى نذهب اليه ، نرقبه ونتأمله . ونتحرى عن نوعه .. بلدى أم وولف .. أرمنت أو لولى أو رومى .. ونظل نرصد حركاته وسكناته ، وكذلك حركات وسكنات صاحبه ، ثم نتفق على أحسن الخطط لاصطياده . وكانت خطتنا غالبا ما تنجح، وأصبح لكل واحد منا مع مرور الأيام ، كلب جميل وقوى يفخر ويتباهى به .

سميت كلبتى « صابحة » وبدير أسمى كلبه « نصر » أما الشحات فكان لون كلبه أسود غطيسا ، ليس فيه اشارة واحدة غير سوداء ولهذا فقد اسماه « سبع الليل » . وكان يغمرنا نحن الثلاثة احساس مفرح بأننا نملك أجمل ما فى الحياة .

كانت كلابنا تصحبنا أحيانا الى الحقل ، وأحيانا كانت تبقى فى القرية تجرى وتمرح حتى نعود لها بعد الغروب .

وذات مساء ، كنا عائدين ببهائمنا الى القرية .. ولم نكد نصل الى مدخلها ، حتى رأينا الولد سمبو يقبل علينـا وهو يحجل فى مشيته كالعادة ويقول متحسرا .. « ما عرفتوش يا عيال .. مش عربيـة الكلاب جت فى الضحى ولمت كلاب البلد كلها .. مفيش غير كلب ولا اتنين اللى فلتوا ناحيـة الجسر ، وماحدش يعرف هجوا على فين » .

فوجئنا بالخبر المحزن . لم نشأ أن نصـدقه أول الأمر ، لكن القرية كان يسـودها هدوء ثقيل على غير العادة ، لم يكن يتخلله نباح كلب واحد ، ولم تلمح عيوننا كلبـا يرقد هنـا ، أو آخر يتمشى هناك .

فكرنا أن نترك حبال البهائم من أيدينا ثم نجرى حتى نلحق بعربة الكلاب ، ونبكى للعسـاكر كى يعيدوا الينا كلابنـا ، لكن الوقت كان متأخرا والشمس راحت ، وحتى تراب الطريق لم يعد عليه أى أثر للعجلات .

عدنا بالبهائم الى مربطها . كانت الطرقات كئيبة ، والتلال واجمة والدنيا باتت خالية من أية فرحة . لكن أملا صغيرا كان يداعب صدورنا .. ربما كانت كلابنا هى التى نجت بنفسـها وفرت ناحية الجسر . انطلقنـا نبحث على الجسر ، وفى حقول القطن ، وعلى أسطح البيوت والدواوير . لكن الليلة انتهت دون أن يصادفنا كلب واحد فى القرية .

وحين طلع الصبح ، فوجئت بمنظر رقص له قلبى ، ورحت أهلل وأزعق وأصيح . كانت صابحة ترقد فى الندى أمام باب الدار ، وأذناها البنيتان مرتخيتان الى أسـفل ، ورقبتها البيضاء ممدودة بمستوى بقية جسمها ، وكان فى عيونها التعب والارهاق . . وكذلك بدير فوجىء هو الآخر بكلبه « نصر » يتمشى بجوار الدوار ويتشمم التراب ، فجرى اليه . وراح يحتضـنه ويربت على ظهره

بحنان .. أما الشحات ، فلم يعد اليه سبع الليل ، وراح يمنى نفسه بعودته بعد الظهر او فى المساء .. لكنه لم يعد .. وحينذاك فقد الأمل ، وراح يبكى ويقطع قلوبنا ببكائه ، اما أمه ، فقد فرحت فى نفسها بضياع الكلب حتى لم تعد له رائحة ولا اثر ، وقالت له وهى تنسيه الموضوع .. « يعنى هو جاموسة بتحلب .. فى ستين داهية يا سيدى » .

وفى الليل ، اجتمعنا نحن الثلاثة بجوار ضريح سيدى حسن البادى واستندنا الى جذع شجرة النبق ، وغير بعيد منا ، رقدت صابحة وكذلك نصر .. وعيونهما تلمع فى الظلام .

ومضت لحظات تعودت فيها عيوننا على الظلمة ، ثم قال الشحات وهو يهز رأسه فى أسى .. « يا خسارة .. كان زمان سبع الليل معانا .» .

قلت فى حزن .. « آه . وكان زمانه مع صابحة ونصر كمان » .

فقال بدير .. « هو دلوقت عند الحكومة .. مالوش رخصة » .

قال الشحات وصوته يرتعش بالبكاء .. « يا يسموه .. يا يضربوه بالرصاص » .

ارتجفنا لكلماته ، وتصورنا سبع الليل وهو يتلوى من الألم على الأرض ، ثم تهمد حركته ، ويموت .. يا خسارة يا أولاد .

كان الشحات أكبر منا بعامين .. عمره أربع عشر سنة ويفهم فى الكلاب أكتر منا .. ولأول مرة ، عرفت أن الحكومة تسمم الكلاب التى ليس لها رخصة ، أو تضربها بالرصاص حتى

لو كانت أجمل كلاب الدنيا . وعز علينا الشحات ونحن نرى حزنه الشديد .. لكن صوته لم يلبث أن تغير ، وسمعناه يدق التراب بكفه بقوة وتحد ويقول « طيب .. والله ليكون عندى كلب أحسن منه » .

وأدركت على الفور أن الشحات سيبدأ جولة فى البلاد القريبة ، يستعرض كل ما فيها من كلاب ، ويرمق أحسن ما فيها ثم يظل يحوم حوله ، حتى يصطاده ويعود به الى داره .

وعاد يقول بصوت حاسم .. « والكلب المرة دى حيكون من المنصورة » .

دق قلبى بالخوف عند سماع كلمته الأخيرة .

كانت قريتنا أقرب القرى الى مدينة المنصورة .. فعند نهاية الطريق الزراعى الذى لا يزيد طوله عن كيلو مترين ، تقع حديقة شجرة الدر والنادى الملكى ، ويبدأ الطريق اللامع المرصوف المؤدى الى مبانى المدينة .

وفى الحقيقة ، كان كل واحد منا يتمنى من قلبه أن يكون له كلب من كلاب هذه المدينة .. ذات البيوت العالية والسكك الأسفلت والأنوار الكهربائية غير أننا كنا نخاف من مجرد الدخول البرىء الى هذه المدينة .. فقد كانت أمهاتنا فى تلك الأيام يحذرننا من ترك قريتنا ، ويقلن لنا أن العساكر هناك يمسكون بالفلاحين ويضربونهم ويقودونهم الى المركز..ليس فقط العساكر المصريين.. بل أيضا العساكر الانجليز ! .

ولذلك ، كنا حين يصادف الأمر ونذهب الى المنصورة يوم السوق ، نسير داخل الرصيف ، ونتمنى لو ندخل فى جدران البيوت حتى نختفى عن عيون العساكر ، وحين نرى عسكريا ببدلته الصفراء من بعيد ، تهبط قلوبنا ، ونسير على أطراف

أصابعنا ، ونوهم انفسنا ان العسكرى ربما يغفل عنا .. !! .. فكيف بالله يريد انشحات سرقة كلبه الجديد من المنصورة ؟ .

ولم أكد أفتح فمى لأذكره بهذا المنظر ، حتى بادر وقال لنا :

ـ والمرة دى حيكون كلب « أونجلش » .

يخرب عقلك يا شحات ؟ !

حقيقى أن الشحات ولد جرىء ، وانقذ مرة جاموسة أحد الفلاحين جذبها التيار أيام النيل ودفعها الى بعيد ، وصاح الرجال وصرخت النساء ولكن الشحات خلع ملابسه ، والقى بجسمة الأسمر النحيل الخفيف فى قلب النيل ولحق بالجاموسة .. وبطريقة سحرية ، جذبها الى الشاطىء وانقذها .

حقيقى انه ولد جرىء .. لكن كل شىء يستطيع أن يفعله الا أن يتعرض لكلب « أونجلش » .. ورحت أتصور كلب اونجلش هذا .. آه .. لقد عرفت ما الذى أدخله فى رأسه .. أنه كلب أسود غطيس ، ليس فيه اشارة واحدة بيضاء ، تماما مثل كلبه الذى ضاع .. سبع الليل ! .. عنده حق الشحات .. ولكن هل نسى أونجلش « بحاله » ؟

كان أونجلش هذا رجلا انجليزيا يسكن أحد البيوت فى أطراف المنصورة من ناحية قريتنا ، تحيطه قوة رهيبة غامضة ، هى قوة بلاده التى تحتل بلادنا كلها من زمن طويل ولم يكن أحد منا أيامها يعرف كيف يعيش .. هل هو متزوج .. هل له أولاد .. هل له عمل غير الاهتمام بالجنينة التى تحوط منزله ؟ .. حتى اسمه .. اسمه الحقيقى .. لم يكن أحد يعرفه .. انما هو رجل انجليزى ، انجليزى فقط .. يعنى « أونجلش » ولا غير .. وكان شعره أصفر غامقا ، ووجهه ورقبته فيهما حمرة رغم الشمس التى لوحتهما ، وكان يرتدى دائما بنطلونا كاكيا قصيرا ،

وجوربا طويلا كاكيا ايضا . وفى المرات التى كنا نراه فيها ، كنا نلمحه يسير وحده على شــارع البحر ، يدب بحــذائه الأحمر الغليظ ، رأسه تسبق صــدره ، كأنه يبحث فى غيظ عن شيء يصطدم به .. وكنا أيامها نسمع الناس يتكلمون كثيرا عن شيء اسمه « الحماية .. » .. ويقولون ــ فيمــا يقولون ــ ان أى مصرى يقتله اى انجليزى ليس له دية ، والقاتل لا يحاكمه قانون !

فكيف يتهور الشحات ــ وهو يعرف كل ذلك ــ ويقول لنا انه سيسرق كلب أونجلش ؟ ! .

قلت باستنكار : « باين عليك مستغنى عن روحك » .

قال بلهجة حامية : « بكره تشوفوا .. الكلب حيكون عندى وحا اسميه كمان سبع الليل » .

وفى الصباح التالى ، والشمس لم يكن قد بان لطلوعهــا اية علامة فى أطراف الحقول ، جاءنى الشحات وقال لى : « اعطنى صابحة » .

وجعلت أتردد ، نظر لى نظرة غاضــبة فيها شيء من العتاب وقال .. « حارجعها لك بالكتير آخر النهار » .

وفهمت قصــده على الفور .. فقد كنا أيامها فى موســم عشارة الكلاب .. أعطيتها له والقلق يملأ نفسى ، تناولها من الحبل الذى علقته فى رقبتها ، وسحبها ومضى فى الطريق الزراعى المؤدى الى المنصــورة . ولم يكد يبتعد عنى قليلا ، حتى رحت أجرى خلفه لألحق به ، وقلت له :

ــ « انا جاى معاك يا شحات » .

وأضاء وجهه بالسرور ، مضينا فى الطريق صامتين .. كنا

نحس أننا على أبواب أخطر تجربة مرت بحياتنا : وكانت رهبة شديدة تملأ نفوسنا ، ولا نقوى معها على أى كلام .

ولم نكد نصل الى طريق الأسفلت حتى ضاقت خطانا ورحنا نسير بحذر وعيوننا متوزعة على كل الطريق .. وحين بدأنا نقترب من بيت أونجلش ، اخترنا شجرة كبيرة ، جذعها ضخم ، وفى أعلاها زهور حمراء كثيرة ولها ظل كثيف على الأرض ، وجلسنا خلفها .. وبقيت صابحة واقفة بجوارنا تنظر الينا فى صمت وتساؤل .

رحنا نرقب الطريق من مخبئنا ، لم يكن هناك عساكر لحسن الحظ . ومر الوقت بطيئا .. قاتلا فى بطئه .. وأخيرا ، جاء الفرج ، وارتعشت قلوبنا ، وتتابعت أنفاسنا ، وتبادلنا نظرة تشجيع .

فى تلك اللحظة ، لمحنا « أونجلش » يخرج من بيته ببنطلونه الكاكى القصير ، ورأسه الحمراء الممدودة الى الأمام ، ويتجه بدبيب خطواته الثقيلة الى داخل المنصورة . وتنفسنا الصعداء : كنا نحس ونحن نتنفس أن الدنيا لم يعد فيها هواء ، وحين أبتعد أونجلش ، وغاب عن عيوننا ، قال لى الشحات :

ــ « خليك هنا .. خللى بالك من السكة .. » .

وبقيت جالسا فى مكانى ، وسار هو وصابحة على مهل بحذاء السور ، وحين حاذى بوابة البيت ، توقف .. وتوقفت أيضا صابحة .

كان كلب أونجلش الأسود لحظتها يقف خلف الباب ، ويمد « بوزه » من خلال القضبان الحديدية ، وحين لمحت عيناه صابحة ، اهتزت شواربه اهتزازة سريعة ، واختلج جسده ،

واهتز ذيله فى سرعة اهتزاز شواربه ، ثم راح يشب على الباب ، وقد سرت فى أطرافه حيوية دافقة .

واحسسنا لحظتها بسعادة خفية ، ونحن نرى أن أولى مراحل خطتنا قد نجحت .. فقد كان من المهم جدا ، ألا ينبح الكلب ولا يغضب لوجود أحد أمام الباب .. وبقى الشحات واقفا لا يتحرك . وازدادت حركة كلب أونجلش وصدرت عن أنفه أصوات خافتة متلاحقة ، ثم هبط برجليه الأماميتين من على قضبان الباب ، وراح يدور حول نفسه ، ثم قفز فجأة قفزة عالية من فوق السور . وفى غمضة عين ، كان على أرض الشارع ، بجوار صابحة التى أصابها فرح مفاجىء ، فراحت تتواثب فى نشوة وذيلها يهتز .

غمرنا طوفان من الفرح ، لكننا كنا لانزال نرتعش من القلق ومن الخوف .. أن يعود أونجلش فجأة ، ويكون دمنا حلالا ، أو يضبطنا عسكرى ، ويظل يضربنا بحذائه ، ثم يرمى بنا فى اسطبل الخيل داخل المركز .

وبدأنا نتحرك .. عائدين من نفس الطريق الذى جئنا منه ، وسارت معنا صابحة ، ومن خلفها كلب أونجلش .. وفى دقائق بدت لنا سنين طويلة ، كنا قد قطعنا الطريق الأسفلت ، وأصبحنا على الطريق الزراعى .. وسط الحقول .

كانت صابحة بيضاء ، وأذناها بنيتين جميلتين ، وكان شعرها ناعما ونظيفا ، وفمها مدبب وطويل ولطيف .. ولذلك ، فقد ظل كلب أونجلش يتبعها ويتشمم أثرها .. ولكننا لم نكد نقطع مسافة من الطريق ، حتى توقف الكلب فجأة ، وتصلبت أذناه ، واستدار برأسه ناحية مبانى المدينة ، وراح يعوى عواءا رفيعا خافتا أشبه بالأنين ، ثم تركنا ومضى يجرى عائدا الى

المنصــورة .. واحست به صابحــة فراحت تعوى هى الأخرى وتزوم .. وتقفز الى أعلى وتشب بأطرافها حتى تتخلص من الحبل الذى نمسكها منه ، لتلحق بالكلب ولكنهــا لم تستطع ، فراحت تنبح نباحا عاليا وكأنها تنادى عليــه . ولم يكد نباحها يصــل الى سمعه ، حتى توقف عن الجرى فجــأة ، واستدار ناحيتها مرة أخرى ، وراح يبادلها النباح .

ونظر الى الشحات فى قلق وقال .. « تعرف احسن حاجة ايه ، نمشى احنا ، ونسيب صابحــة ، هى اللى حتجيبه البلد وراهــا » .

وأطلقنا صابحة من حبلها .. ولم تكد تجرى ناحيــة كلب أونجلش ، حتى أعطى ذيله للمنصورة ، وانطلق هو الآخر ناحيتهــا والتقيا فى منتصف الطريق ، وراحا يتواثبان ويتشاكسان ودون أن يحس كلب أونجلش وجد نفسه خلفها فى شوارع قريتنا .

وفى الحــال رتبنا أمرنا الا يخرج الكلب من البلد ، ويصبح للشحات الى الأبد .

ولم يلبث أن شاع الخبر .. العيال سرقوا كلب أونجلش .. كــلب « أونجلش » بحــــاله .. ؟ ! .. مش معقـــول .. دول ولا الشياطين !!

وهرع أطفال القرية وصبيتها جميعا يتفرجون على كلب أونجلش ، وكانوا لا يريدون أن يفارقوه .. وباتت القرية كلهــا تتحدث عن هــذا الخبر الأبيض والأسود فى آن واحد .. وأعجب بعض الرجال بشيطانيتنا ، والبعض الآخر تذكر « الحماية » . ومسدس أونجلش ، فقالوا أن مصيبة كبرى ستحل قريبا بالبلد .

ومال على الشحات وقال .. « خلى صابحة معاه يومين فى

البيت » عشان يولف علينا .. انا خـلاص حاسميه « سـبع الليـل .. »

وافقته ، وكنت اتمنى فى نفسى لو يكون لى مثل هـذا الكلب الكبير ، ولا أطلب من الدنيا شيئا بعد ذلك .

لم نكن ندرك ايامها أن سرقة كلب هـذا الأونجلش لن تنتهى هكذا ببساطة .. فقد سرى الخبر من قريتنا الى القرى المجاورة ، ثم الى المنصورة ، وأخيرا الى المركز ذاته .. ولم يكد يمر يومان ، حتى رأى الناس عددا من العساكر فى طريقهم ناحيـة بلدتنا ، وطار الخبر فى الحـال ، وفى الحـال أيضا ، شم الشحات رائحة الشر وراح يفكر معى بسرعة .. « نعمل ايه .. ؟ ! نقتله أحسن ما ياخدوه ؟ ! لا .. حرام .. نقتل أونجلش نفسه ولا نقتلش سبع الليل .. نعمل ايه .. والعساكر ، والبهدلة فى اصطبلات الخيل .. ؟ ! »

وفى دقائق ، كنا قد أصبحنا عقلاء لأول مرة فى حياتنا .. واطلقنا صابحة الى الشارع ، ومن خلفها سبع الليل .. وراحـا يجريان فى شـوارع القرية وحواريها .. وحين هجم العساكر على بيت الشحات وعلى بيتى ، لم يجدوا شيئا بالمرة .

كنا قد فررنا بجلدنا ، واختفينا فى حقول القطن دون أن يحس بنا انسان .. كانت الشمس لحظتها حامية ، ونسمة واحدة لا تهب على الحقول من فوق الجسر ، وظلال أشجار القطن صغيرة وخفيفة ، والعرق يسيل بغزارة على وجهينا ، ولكننا كنا نحس بسعادة كبيرة تغمرنا ونحن فى هذا المكان الصامت الأمين .

ونظرت الى الشحات وقلت له فى همس « انا عارف .. مش حيلاقوه » .

فقـال لى وهو يبتسم ابتسامة تمـلأ كل وجهه النحيـل

الأسمر .. « وحتى او لقيوه .. سبع الليل حيرجع تانى ، سبع الليل حب صابحة .. وصابحة حبت سبع الليل » .

قلت له .. « طيب .. وأونجلش . ! ؟ »

قال وهو يقطف لوزة من لوزات القطن المتفتحة ، ثم يبتسم فى مكر :

ـ أونجلش .. ! ؟ .. ما خلاص راحت عليه .

« ١٩٥٨ »

داود الصغير

كانت رابطتى بهذا الطفل ، رابطة محدودة .

وانى لاذكر الآن ، أول يوم رأيته فيه .

كنا بعد العصر ، وضوء الغروب الهادىء الملون ، يغمر شقتنا الصغيرة فى الدور الرابع من أحد شوارع الجيزة . وكنت أتأهب للخروج . لكى أقابل صديقا أردنيا تعرفت عليه منذ أيام .

كنت أسرع فى ارتداء ملابسى ، لا لكى الحق موعدى مع هذا الصديق الجديد فحسب ، وانما لاهرب من تلك الضجة التى يصنعها طفلاى وهما يمثلان « شارلى شابلن » وهو يبارز الناس الذين يقتلون الأطفال الصغار . يبارزهم بعصاه العجيبة .

طاخ طاخ .. ايه الراجل الوحش مات .. ايه .. طاخ طاخ .. مات .. مات .

فى خلال هذه الضجة التى تتكرر عشرات المرات كل يوم ، كنت ابتسم من أعماقى لزوجتى ، وأقبض فى نفس الوقت على أعصابى ، وأفكر بالانطلاق هربا الى الخارج الأنعم بقليل من الراحة والهدوء .

كانت شقتنا تتكون من ثلاث حجرات ، وممر رفيع ضيق . وقد أصبحت هـذه الشقة ، بعد أن كبر طفلاى وراحا يمارسان فرحتهما بالحيـاة .. بالزعيق والصياح والجرى من حجرة الى حجرة ، أصبحت أشـبه بمصيدة صـغيرة مغلقـة يتمنى المرء لو يهرب منها بمجرد أن يدخلها .

وكنت انظر الى زوجتى وهى تتعثر فى الطفلين حيثما تذهب، فلا أحس منها تبرما ولا ضيقا .. ورغم انها كانت مريضـة تعانى من ضعف فى قلبها ، فقد كان وجهها الأسمر الصغير الشاحب . دائم الابتسام .. وكأن الأمومة الكائنـة فى أعماقها ، قادرة على أن تعطيها الاحتمال لتعيش وحدها بين ألف طفل صغير ، فى حجرة صغيرة مقفلة .

وحين فتحت الباب لاخرج ، وقعت عينـاى على طفل صغير كان يهم بأن يطرق الباب بيده ، ولمـا رآنى ، صعدت عيناه الى ، واستقرتا قليلا على وجهى .. !!

كانت عيناه واسعتين .. حتى لتشغلان نصف وجهـه ، وكان فيهما شعور بالاطمئنان كأنه يعرفنى جيدا ، وأعرفه منذ زمن طويل .. كان رأسه كبيرا نوعا ما ، وشعره أسود فاحمـا وقصيرا . وكانت بشرة وجهه يشوبها مسحة خفيفـة صفراء وكان يلبس جلابيـة غامقة نظيفة ، وفى قدميه الصغيرتين .. « قبقاب » صـغير .

وقبل أن أسأله من يكون ، سألنى فى ألفة واطمئنان :

ـ ممدوح وحمدى .. هنا .. ؟

وفهمت على الفور أنه أحد أصدقاء طفلى الصغيرين .

وما أن سـمع الطفلان صـوته ، حتى اندفعا كالاعصـار

الصغير نحو الباب ، وراحا يزعقـان ويهللان .. ايه .. « داود » جه .. « داود » جه .. جه .

كان ذلك أول يوم رأيته فيه .. ولم يكن يمر يوم بعد ذلك دون أن أراه .

لم أكن أعيره كثيرا من انتباهى .. كان يلعب مع الطفلين فى بيتى ، ويشترك معهما فى ملء فراغ الطفولة الذى لا نهاية له .

وكنت فى هـذه الأيام ، أعيش مع الناس الذين يتكلمون عن مصير الحياة والأشياء .

كانت الأحداث الكبيرة ، تشغل العـالم وتهز النفوس فننسى فى غمارها تفاصيل حياتنا الصغيرة .

تأميم القنال .. وانتخابات الأردن .. خطف « بن بللا » .. واشاعة مقتل الملك حسين .. دوامة ضخمـة كنت أتوه فيها ، وأغفل عن أشياء كثيرة ، منها هذا الطفل الصغير .

مرت الأيام ، وتعودت أن أرى فى بيتى ثلاثة أطفال .. طفلى ممدوح وحمدى .. وداود الصغير .

كنت أجفل بادىء الأمر من وجوده مع طفلى .

كان طفلاى يلبسان « بنطلونات » .. وهو يلبس « جلابية » .. وكانا يلبسـان صنادل .. أما هو فيلبس « قبقاب » .. وكانت خصلات شعرهما ترتمى على جبينيهما ، أما شـعره فقصـير جـدا .

كان هذا الشعور يساورنى فى بعض الأحيان ، لا سيما حين يزورنا أخو زوجتى المهندس ويقول لى مستنكرا : « لا .. لا .. أنتم لازم تنقلوا من هنا .. لازم تسكنوا فى حى تتربى فيه الأولاد تربية كويسة » .

على أن هـذا الشعور كان لا يلبث أن يختفى حين أرى الأطفال الثلاثة فى دوامة مرحهم ولعبهم ، يكادون أن يتحولوا الى طفل واحد .

ثم انقضى هذا الشعور من نفسى شيئا فشيئا .

كنت الاحظ أن جلباب « داود » نظيف دائما .. لا يتسخ رغم كثرة اللعب وانه لا يخلع القبقاب من قدميه ابدا .. وكان رغم انه افقر من طفلى ، انظف منهما دائما .

وكثيرا ما كان يلمع فى ذهنى سؤال خاطف : هذا الطفل .. من يكون .. ؟

غير أن الانجليز ايامها كانوا يحشدون البوارج والمدرعات وحاملات الطائرات ، ويزرعون أرض قبرص بفرق الموت ليطلقوها علينا ، ويقولون لنا انهم لا يهوشوننا بذلك .

وكنا نحن جميعا ـ لأول مرة ـ نقذف بأنفسنا ضد التيار ، ونقبل التحدى ، ونعانى تجربة المفاضلة بين الحياة والموت .

لذلك كان الناس ينسون تفاصيل حياتهم ، وكان سؤالى عن الصغير لا يلبث أن يتلاشى مع أشياء كثيرة من راسى وظللت أجهل من يكون .

كنت قد حفظت اسمه « داود » من كثرة نداء اطفالى عليه ، ولكن .. من هو .. ابن من .. من أمه ومن أبوه .. اليس له بيت ؟ ! لم أكن أدرى عن كل ذلك شيئا ، وكنت أجد نفسى خلال اندفاعى وراء عجلة أحداث الحياة .. أؤجل هـذا السؤال .

لم اكن أعرف عنه ، الا انه يأتى الى شقتنا فى الصباح ، ويتركها مع المساء ويقضى اليوم كله يلاعب اطفالى ، واطفالى يلاعبونه .

كان وجود هـذا الطفل فى البيت مصـدر سعادة كبرى لأطفالى ، ولذلك فقد كنت مستريحا لوجوده بيننا .

ولكن مع مرور الأيام ، وجدته وقد أصبح عبئا جديدا على .

لم أعد اشترى للطفلين ، الا اذا اشتريت له مثلهما تماما . واذا حدث ونسيت ، سألنى ممدوح مستغربا .. « طيب .. وداود يا بابا » ويقول حمدى مسرعا .. « أنا حاعطيه من معايا يا بابا » .

وانظر الى داود حينئذ فتطالعنى من عينيه الواسعتين نظرة حزينة مكبوتة لا أحتملها .

هكذا أصبحت ، دون أن أحس ، أبا لثلاثة أولاد .. وبالرغم من هـذا ، فقد ظل « داود » شيئا صغيرا ، فى هامش حيـاتى التى تملؤها ضجة الحياة الكبرى .

وفى احدى الليالى .. عدت متأخرا الى مسكنى . كان الليل قد انتصف ، وأحسست بالصمت الكثيف يغمر البيت .. فتحت باب الشقة .. ودخلت فى هدوء .

كنت أحسب ــ كالعادة ــ اننى سأجد زوجتى مستغرقـة فى النوم مع طفليها ، وفى يدها كتـاب مفتوح ظلت تقرأ فيه حتى أخذها النوم ، غير أنى وجدتها راقدة على السرير ، شاحبـة مصفرة الوجه ، لا تكاد تقوى على شـد انفاسها ، وبجوارها ينام طفلاها الصغيران .. ورأيت فى ذات الوقت داود الصغير جالسـا القرفصـاء على السجادة بجوار السرير ، وينظر اليهـا بعيونه الواسعة الصامتة .

أخذنى هذا المشهد العجيب ، هرعت فى لهفة الى زوجتى . كان بريق عينيها خافتا ، لكنهـا كانت تجـاهد لكى تبتسم لى ابتسامتها الحبيبة .. وتطمئننى .

ملت عليها أقبلها ، وكأنى أعطيها الحيــاة كلها فى هــذه القبلة ، وسألتها فى حنو .. مالك يا سميحة ؟ .

قالت بصــوت واهن وهى تبتسم .. « مفيش .. أصــل قلبى تعب .. جتلى النوبة ووقعت فى الصــالة .. لكن الحمد الله خفيت خلاص » .

تتابعت دقات قلبى ، وغامت نفسى بسحابة من الحزن .. ان سميحة باتت شيئا من نفسى .. لقد أحببتها منذ أكثر من سبع ســنوات .. ولم يهن هــذا الحب يوما .. اننى لم أفــكر يوما — حتى مجرد التفكير — فى اليوم الذى أعيش فيه أنا وأولادى بدونهــا .

وتأملتها طويلا .. فرأيتها تميل بعينيها وتنظر الى داود القابع على السجادة أسفل سريرها ، ثم تتسع ابتسامتها ، وتنظر لى مرة أخرى .

سألتها فى حيرة : ليه داود ماروحش لغاية دلوقت .. ؟ قالت وهى تمر بأصابعها على شعر رأســه القصير الأســود فى حب وحنان : لمــا تعبت .. كان ممدوح وحمدى ناموا .. وكان لسه داود ماروحش .. لمــا شافنى تعبانة قوى ، مارضيش ينزل وأنا بالشكل ده .. بعته الأجزاخانة بالروشتة والفلوس وجاب لى الدوا .. الدوا هو اللى فوقنى .. وبعدين قلتله ينزل .. مارضيش لغاية انت ما تيجى .

ووجدتنى أنظر للطفل طويلا ، وحلقى يغص بالدموع .. كان ينظر الى زوجتى وفى عينيه دعــاء طفولى هــادىء بأن يشفيهــا الرب .. انحنيت عليه وأخذته بين أحضــانى ورحت أقبله فى تأثــر .

كنت أحس لحظتها أنه أعز الى قلبى من طفلى ممــدوح

وحمدى .. وأنه شيء كبير جدا فى حياتى .. أكبر من كل تلك الأحداث التى تغرقنى الحياة فى دوامتها .

واحسست به يخرج من بين ذراعى فى رفق ، ثم تطلع الى بعينيه الواسعتين ووجهه الشاحب النظيف الساكن وقال :

ـ انا مروح بقى .

واهتز كيانى كله لسماع صوته فى تلك اللحظة .. لقد احسست بشيء ضخم مرهوب يعيش فى أعماق هذا الكائن الصغير .. وقلت له وحروف كلماتى تتقطع :

ـ استنى لما آجى معاك .. أحسن الدنيا ضلمة عليك .

فقال وهو يبتسم ويشير الى زوجتى بأصبعه الصغير .

ـ لا .. خليك مع أبلة .. أحسن هى لسه تعبانة .. أنا ماخافش من الضلمة .. أنا عمرى ما خفت من الضلمة .

وجالت عيناه جولة صغيرة بالسرير .. حيث ترقد زوجتى وحيث يستغرق صديقاه حمدى وممدوح فى سبات عميق ، ثم توجه الى الباب ، وفتحه فى هدوء ، وخرج .

وسادنا الصمت لحظات .. كانت تسرى خلالها الى مسامعنا صوت طرقات « القبقاب » الصغير ، وهو يهبط على السلالم .

وتنهدت زوجتى وقالت فى صوت واهن حزين .. « مسكين .. مفيش حد بيدور عليه .. أمه تفتكر انه عند أبوه ، وأبوه يفتكر انه عند أمه .. وضايع بين الاتنين .. أصل ابوه متجوز على أمه » .

وانحدر على خديها الشاحبين ، خيط رفيع من الدموع .

قلت لها .. « مالك يا سميحة .. ؟ »

قالت وهى تبكى .. « شايف صغير اد ايه .. لكن قلبه كبير .. كبير أوى .. يا ريته كان ابنى .. »

قلت لها فى تأثر .. « ما هو زى ابننا تمام .. »

وسكت لحظة ، ثم قلت فى انفعال مؤلم .. « سميحه .. أنا نازل خمس دقايق .. حالحقه وأوصله .. »

وأسرعت نحو باب الشقة ، وفتحته ، وهبطت السلالم بسرعة فى الظلام حتى وصلت أسفل البيت .

كان الشارع يختنق بالظلمة ، وبالصمت الكثيف .

وقفت أرهف سمعى ، علنى التقط صوت « القبقاب » لأعرف اتجاه الطفل .. لكنى لم أكن أسمع شيئا ، سوى الصمت المتراكم الثقيل .. لقد غاب الطفل الصغير فى الليل الكبير .

ظللت واقفا وحدى فى الظلام .. كان الليل جهما وكئيبا .. وأحسست بحزن من النوع الذى يحب الانسان أن يستسلم له .. كنت أحس بأننى عثرت صدفة فى الظلام على شىء ثمين رائع ، لكنى فقدته فى نفس اللحظة فى غمار الليل الحالك .

واستدرت لكى أطلع السلالم ، وأطمئن على زوجتى المريضة، ولكن سميحة حين رأتنى ولمحت كآبتى ، ابتسمت وقالت : معلهش .. بكره من بدرى حتلاقيه معانا .. داود .. أصبح خلاص .. ابننا الثالث .

قلت مغمغما .. تمام .. تمام يا سميحة .

« ١٩٥٧ »

ابتسامة الرجل الكئيب

اضطرتنى ظروف الحيـاة ذات مرة أن أشـتغل صرافا فى محل خردوات صغير !

واحد من تلك المحـلات القديمـة المرصوصـة على رصيف شـارع السـد ، والتى أفلتت من التنظيم بمعجزة ، فبقيت قائمة على الرصيف بلونها الرمادى العجوز شاهدا على احدى معالم مصر القديمة .. !

ومن أول لحظـة جلست فيها وراء « الكيس » فوق المقعد العالى ذى الأرجل الخشبية الثلاث ، وجدتنى أطل على عـالم غريب جدا .. فالمحل كان ضيقا ومستطيلا ، ومع هذا ، كان مزدحما بأشكال وألوان من النـاس ، والسقف كان واطئا به منحنيـات ، والحوائط كلهـا من الأرض الى السـقف مملوءة بالأرفف ، والأرفف مملوءة بالعيون ، والعيون مملوءة بالبضاعة . وقد تراءى لى الحائط الذى أجلس تحته مائلا قليلا .. وتصورت فيما لو حـدثت ابسط هزة ، وسقطت الأرفف بالبضـاعة على رأسى ورءوس الزبائن .. !!

داخلنى احساس بالسخرية !

أهذا هو آخر المطـاف .. !!

غير انى عزيت نفسي كعـادتى كلما اضطرتنى الظروف الى شيء لا أحبه ، قائلا لنفسى : تجربة !

طيلة حياتى وأنا هكذا ، اهون وقع الأشـياء والأحداث على نفسى بأسم التجربة .

رحت أمارس عمـلى فى صمت وهـدوء . يأتينى الزبون فآخذ منه القسيمة والنقود . ثم اراجع الحسـاب بدقة . ثم أعطيه البضـاعة .. وبين الزبون والزبون . اضـع قلمى بين أسنانى ، وأتأمل الجو من حولى فى وجوم . !

وذات يوم ، جذبنى منظر غريب وطريف :

امرأة سمراء ضخمة وسمينة ، تنتقى لنفسها « سوتيانا » وتقيسه على صـدرها الضخم .. كان صـدرها ضخما الى حد أنهـا راحت تقلب فى كومة من « السـوتيانات » وتقيسـها الواحـد بعد الآخر .. وحين عثرت ـ بعـد أكثر من نصـف ساعة ـ على « سوتيان » مناسب ، أطلقت صيحة فرح عالية ، لكنها عادت فى نفس اللحظـة وقالت وهى تمصمص بشفتيهـا الغليظتين فى تحسر وأسـف : « بس يا خسـارة .. مش ده اللون اللى أنا عايزاه .. أنا كنت عايزاه بمبى .. »

غير أنى افقت من سرحتى كالمفزوع على صـوت يصبح فى وجهى محتجا ويقول « ما تعطينـا البضـاعة بقى يا سـيدنا وتخلصنا ، واللا يعنى عايز تلطعنا جنبك .. » !

ارتبـكت .

كان ولدا صغيرا .. واقفـا أمام الكيس ، يشب على أطراف قدميه ، ولا يبدو منه سـوى عينين واسعتين براقتين .. وحول

العينين وجه صغير أسمر معفر .. وفوق الوجه رأس كبير ملبد بالشعر .. وفى نظراته صفاقة وتحدى .

قلت وقد غاظتنى المفاجأة ، وغاظتنى أكثر طريقته فى الكلام وفى النظرات « طب بس هات الفلوس وبلاش غلبة .. ! »

ارتفع حاجباه ، وقال فى جزع :

ـ فلوس .. ؟ ! فلوس ايه يا افندى .. ما هى القسيمة قدامك .. والفلوس اديتهالك .

ـ اديتهالى .. ؟ !

ـ طبعا .. لما حضرتك كنت ..

وتحول فجأة بنظراته الى المرأة السمينة ، وغمز لى بعينه اليسرى غمزة ماكرة ، ثم عاد يقول :

ـ بس لازم حضرتك ناسى .. افتكر كده .. !!

ما هذا .. ؟ أيمكن أن أكون قد فقدت ذاكرتى الى هذا الحد ؟ !

سددت له نظراتى أملا فى أن أهزه وأعرف الحقيقة من عينيه ، لكنى فوجئت به هو الآخر يسدد لى نظراته .. !!

شىء غريب أحسسته على الفور فى عينيه .. شىء قوى وعميق ونفاذ ولولا مشكلة الفلوس هذه ، لرحت أنظر فيهما دون أدنى ضيق أو ملل .. كانتا واسعتين وبراقتين . وخضرتهما غامقة وداكنة .. ورموشهما ثقيلة وطويلة ، حتى تكاد تلقى ظلا على خديه .. ! كانتا جميلتين .. جميلتين لدرجة أنى تذكرت لحظتها فتاة كنت أعرفها معرفة حميمة .. كانت تحب العيون الجميلة ، وتحدثنى دائما عنها ، حتى ولو كانت عيون

قطة .. ! غير أن هـذا الخاطر سرعان ما انقطع ، فقد كان يطل من عينيه بريق التحدى .. !

شككت فى الأمر .. !!

أيمكن أن أكون قد أخذت منه النقود وانا مشغول بمنظر هذه المراة السمينة ونسيت .. ؟ ! ربمـا .. وانا دائى الوحيد فى هـذه الدنيـا ، والذى كثـيرا ما أكره نفسى من أجـله هو النسـيان !! .. فتحت الدرج بسرعـة ورحت أقلب فيه واهرش فى رأسى .. !! .. ولكن يا ناس .. كيف اتأكد ، وفلوس الشغل كلها من الصباح فى درج واحد .

جئت أنظر اليه مرة أخرى كالغريق .. وجدته مائلا برأسه الى الوراء وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة وقال :

ـ انت صدقت بصحيح انى اديتلك الفلوس .. ؟ هـا .. اتفضل الفلوس أهى .. بس المرة الجاية لازم تاخد بالك منى .. !

استسخفت طريقته فى المزاح .. !

ماذا لو كان صاحب المحل موجودا فى تلك اللحظـة ، ورأى طفلا صغيرا يعبث بصراف خزينتـه .. ؟ ! انتابتنى رغبة فى أن أصفعه ، غير أنى فوجئت « بمحروس » وهو أكبر عمال المحـل الثلاثة سـنا ، يقول لى بلهجـة باسمة ، لكنهـا جادة وساخرة

ـ ما هو لازم تاخد بالك يا ريس .. أمـال .. ده شـغل سوق .. يعنى تسرح لحظة تضيع وتضيع المحل معاك .. !!

أحسست فجأة اننى فى منطقة خطر .. منطقـة لا تحتمل سرحانا ولا تأمل ولا « تجـارب » ولا يحزنون .. ! .. تكفى سرحة مثل هذه وسرحة أخرى وسرحتان ، ثم أكون بأمر الله وأمر صاحب المحل أتسكع فى الشوارع من جديد .. !

وفى غيظ شديد ، القبت له بالبضاعة وصحت فيه :

ـ ياللا يا واد خد بضاعتك وغور من قدامى .

لكنه ما أن تناولها ، وابتعد عن البنـك خطوتين ، حتى استدار فجـأة نحوى ، وصـاح هو يميل براسـه الملبدة بالشعر الى الوراء .. « ها .. شايف انت كبير أد ايه .. لكن برضه ضحكت عليك .. !! »

يا الهى .. ما الذى ينويه معى هذا الولد .. ؟ !

وفجاة .. رأيتـه يقفز بجسـمه الصـغير الى أعلى ، ودار حول نفسه فى فضـاء المحل دورتين ، ثم عـاد واسـتقر على الأرض ، ووسع ما بين قدميه الحافيتين ، ثم مال بظهره الى الخلف ودق على صـدره المكشوف الهزيل بكفـه دقتين وقال فى زهو : حلاوتك يا واد يا امبـابى ياللى مفيش منك فى البلد عشرة .. هأ هأ هأ هاى .

وخطف منى نظرة ساخرة ، ثم انطلق ببضـاعته الى الشارع الواسع يقفز ويحجل فى ضوء الشمس .. !

لم اكد أمضى فى التفكير كالمأخوذ فيما حدث ، حتى تنبهت فجأة الى أن أرض الدكان ترتج ، ورأيت المرأة السمينة « اياها » تتجه بخطواتها الثقيلة الى الباب دون أن تشترى شيئا .. !

امسكت انفـاسى ، واشفقت ان تهتز الأرفف تحت وقـع أقدامها وتسقط بالبضاعة على رأسى وعلى الأرض .

ـ يا ساتر استر .

وما أن خرجت من باب المحـل فى سـلام ، حتى تنفسـت الصعداء ، ونظرت الى « محروس » .. كان هو الآخر ينظر لى

ويبتسم .. ثم قال لى وهو يجذب كالعادة نفسا عميقا من صدره المتعب .. « ولسه ياما حتشوف كمان » .

طنت كلماته فى اذنى ، لكنى احسست لها بارتياح شديد فطالما تمنيت ـ قبل ان آتى الى هذا المحل ـ وانا اتسكع فى الشوارع والميادين ابحث عن عمل . لو ان عملى الوحيد فى هذه الدنيا أن أهيم فى ارجائها وارى أكبر عدد من الأشياء قبل أن أموت .. كنت كثيرا ما أهمس لنفسى وانا هائم على وجهى كالتائه : هناك أشياء وأماكن واناس لابد أن يراهم المرء فى هذا العالم قبل أن يموت .. غير انى دائما كنت أفيق على الحقيقة المرة ، حين أعود آخر الليل الى زوجتى .. صفر اليدين .. كئيبا .. وتقول لى بعينيها الصابرتين الحزينتين « والى متى سنظل هكذا .. الى متى .. ! »

وكان هذا الركن الصغير فى هذا المحل القاتم الكئيب .. !

أيمكن ان أجد فيه لنفسى نوعا من العزاء .. فأرى أشياء لم أرها ـ كما يقول محروس ـ وأسلى نفس الحزينة .. ؟ !

ودون أن أدرى ، وجدتنى أسأل محروس :

ـ الكن الواد ده بيشتغل ايه يا محروس .. ؟ !

وقال وقد تنبه لسؤالى :

ـ قصدك امبابى .. ؟ ! .. آه .. ده صبى ترزى .. كل دقيقة والتانيه حتلاقيه زى الجن بينط قدامك .. بس خللى بالك منه كويس !

لا أدرى لماذا عاودتنى فى تلك اللحظة آخر كلمة قالها لى امبابى ، وراحت ترن فى رأسى . « شايف انت كبير أد ايه . لكن برضه ضحكت عليك » . !

ما الذى كان يعنيه هذا الأفاق الصغير بهذه الكلمات .. ؟ ! .

ورغم اننى كنت أعلم انهـا خرجت من فم ولد صغير ، لا يزيد عمره على الثانيـة عشرة ، الا اننى أحسست بهـا تزعزعنى وتشككنى فى نفسى !

صحيح ، لمـاذا اختارنى انا بالذات ـ من بين الزبائن وعمال المحل ـ ليلعب لعبتـه العابثـة السخيفة هـذه ، ويضـحك على .. ؟ ! لمـاذا يستهين بعض النـاس أحيانا بأمرى ؟ كثيرا ما أسأل نفسى هـذا السؤال المرير القاسى ، فتقول لى نفسى : « لأنك طيب » وحينذاك انتوى ان اكون فظـا .. بل وشريرا ، لكى يقف كل واحد معى عند حده .. !

قرضت اسـنانى ، وانتويت او عـاد هذا الولد ان استرد منه حقى كاملا ، وأجعله يكف عن « حنجلته » السخيفة هـذه ويشعر بالندم !

لم تمر نصف سـاعة ، حتى لمحته واقفـا على باب المحل ، يرمقنى بنظرة طويلة ويبتسم .

ضايقتنى ابتسامته . ! نعم .. ما هى مناسـبة الابتسـام فى تلك اللحظـة والدنيـا حر .. والشمس تضرب فى رأسه ، والأسفلت يلسع قدميه والعرق يسـيل خطوطا سـوداء قذرة على وجهه .. ؟ ! .. لسـوف انزع هذه الابتسامة المتبجحة من على شفتيه ، واوقفه عند حده .

ورآه محروس ، فالتفت لى وقال .. « أهو جه ابن الجنية تانى . مش قلتلك ! »

ناديت عليـه .. فأقبل نحوى يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، وينظر لى بركن عينيه ، كأنمـا يوهمنى انه خائف منى ، أو كأنما يوهم نفسه انه يلاعبنى لعبة القط والفار .. ! وقبل ان انطق بحرف ، بادرنى ساخرا :

ـ شفت بقه الفصل اللى عملته فيك .. ؟ !

وفوجئت بعمال المحل الثلاثة يضحكون ، فارتبكت .. ! ويبدو انهم فى تلك اللحظة كانوا فى حاجة لأن يضحكوا ويزيحوا عن قلوبهم الهموم ، ففردوا انفسهم ، واشعل كل واحد منهم سيجارة ، وللصدفة .. لم يكن هناك لحظتها زبائن فطلبوا « واحد شاى » واقتربوا منا فى شبه حلقة ، وراحوا يترقبون حوارا ينشب بينى وبينه .. !

كنت أنا الآخر فى أشد الحاجة الى تسلية ، غير انى رأيت الولد يقف منى أمامهم موقف الند للند ، ويبدانى بالتحدى .. ! قلت له فى غيظ .. « طب وانت عارف اللى بيسرق بيودوه على فين .. ؟ ! .. عالسجن على طول » .

فأرسل على الفور ضحكة ساخرة وقال : « ها .. انت فاكرنى عبيط ؟ .. دول بيودوهم الأحداث يا جميل .. مش السجن .. دنا امبابى والأجر على الله .. »

اذهلنى جوابه .. ورغم اننى تضايقت لأنى خسرت بداية الجولة معه ، الا اننى أحسست بقلبى يتفتح له ، ووجدتنى ابتسم له رغما عنى ، وما أن رآنى ابتسم له ، حتى استخفه الفرح ، ودق على صدره وكرر نفس كلمته .. « دنا امبابى والأجر على الله .. »

لا ادرى لماذا كان وقع اسمه غريبا على سمعى هذه المرة .. أليس هذا الاسم « امبابى » كبيرا على سنه .. ؟ ! وتذكرت فى الحال شيخا مجذوبا .. له لحية طويلة بيضاء .. ويلبس الجبة والقفطان .. ويجلس دائما على مقهى صغير قريب منا فى حارة الميضة ، يشرب القرفة والجنزبيل ، ومن حوله أتباعه ، واسمه الشيخ امبابى . ! قلت فى فضول وسخرية :

ـ طب وامك سمتك ليه امبابى .. تقدر تقولى .. ؟ !

قال وهو يتحنجل ويهز شعره الملبد ، فبدأ فى عينى كديك صغير ينفض عرفه فى زهو : « أقول لك يا سيدى .. عشان ولدتنى فى امبابة .. يوم مولد سيدى الامبابى .. آل وكانت عايزه تعملنى شيخ وتندهلى يا شيخ امبابى .. هأ هأ هاى » .

ثم التفت الى محروس فجأة وقال : « ياللا يا عم ادينى شريط نمرة خمسة .. وتلات سوست .. أحسن اتأخرت على الأوسطى بتاعى . أعوذ بالله عليه راجل ! »

ويبدو انه مثل صحيح .. ذلك الذى يقول « ما محبة الا بعد عداوة » فقد وجدتنى أحب امبابى . وأحب حديثه ومرحه وشغبه .. واوشكت ان انكشه مرة اخرى وأسأله أى سؤال عن « الأوسطى بتاعه » لكن بعض الزبائن دخلوا المحل فجأة ، فتفرقت حلقتنا فى الحال ، ولزم كل واحد منا مكانه ، اما امبابى ، فقد أخذ بضاعته ، وانطلق كما انطلق فى الصباح الى الشارع .. يتقفز ويحجل ويغنى .

منذ ذلك اليوم ، وعلاقة أشبه بالصداقة ولدت بينى وبين امبابى ! كنت لا أكاد أراه يدخل المحل ، حتى تتفتح له نفسى ، وأنادى عليه .. اشاغبه ويشاغبنى ويضاحكنى وأضاحكه .. وابدد بالمزاح معه ذلك الملل الذى كان يهجم أحيانا على روحى ويكاد يكتم انفاسى .. بل ان امبابى أصبح مع الأيام ظاهرة طبيعية فى حياتى ، لا يغيب يوما عن المحل ، الا وأحس له بوحشة، وأسأل عنه محروس ، فيقول لى بابتسامته الشاحبة : « يعنى حيروح فين ؟ بكره يا خويا تلاقيه ينط قدامك زى عفاريت الضهر .. » وفعلا أفاجأ به فى اليوم التالى ، يندفع داخل المحل ، ويشق طريقه وسط الزبائن ، يشاغب معى كالعادة ويهزر ..

ويغنى ويصفر .. ثم يأخذ بضاعته وينطلق صائحا كالعادة فى ضوء الشمس « حلاوتك يا واد يامبابى ياللى مفيش منك فى البلد عشرة » فأبتسم من أعماقى ، واواصل العمل بحماسة شديدة ..!

غير أن الحياة ليست أنا وامبابى فقط .. فقد بدات احس بملل من عملى فى هـذا المحل ، واصبحت اتململ كل دقيقـة على مقعدى العـالى ، ذى الأرجل الخشبية الثـلاث .. وتاقت روحى لأن انطلق فى الشوارع من جديد .. ايمكن أن تمضى حياتى هكذا فى هذا الكفن القاتم الرهيب . ؟

وعاودتنى الكآبة .. عاودتنى بشـكل ساحق وثقيل .. ولم تعد نفسى تتحرك لأى شيء اراد .. بل انى اكتشفت انى دائمـا أخدع نفسى باسم « التجربة » وأهول من الأمور .. فلا تجارب جديدة فى هـذا المحل ولا اى شيء يثير . صحيح ان النـاس مختلفون ، لكنهم داخل المحـل متشابهون .. متشابهون بشـكل غريب .. الكل يجمعهم صراع واحد حول القرش .. ! . وياعم صلى على النبى داحنا زباين ، وياعم على الطـلاق نخسر فيها ، وتزعل ليه يا سـيدى ، بين البايع والمشترى يفتح الله ! نغمـة واحـدة لا تتغير ، حتى تقززت منها نفسى واحسست بتفاهـة حياتى ، ورحت أعمل وانا مطرق الراس فى صمت ووجوم . !

غير ان امبابى كان دائما لكآبتى بالمرصـاد ، لم اكن أراه يمرح ويفرح ويتحنجل الا وابتسم اه رغما عنى .. ثم أجـدنى أتساءل فى ضيق وحيرة : أى جزء من قلب الانسـان يمـكن ان تنبع منه كل هذه السعادة وتفيض .. ؟ !

وكأنما العفريت كان يحس بسـؤالى فيجيب عليه بضحكة اخرى مفاجئة .. ضحكة تنزع كآبتى وأضحك دون ان أعرف لمـاذا أضحك .. وهـكذا .. اصبح امبابى هو سـعادتى الوحيدة فى هذا المحل المقبض الكئيب . !

وذات يوم .. ساعة ظهر ، كان المحل خاويا تماما من الزبائن .. فالجو ساخن ؛ واسفلت شارع السد المواجه لعينى يبخ حرا وصهدا ، والحركة فيه مثل النسمات تكاد تكون معدومة ، جلست سارحا فى ملكوت لا أدريه ، وكأنى فى غيبوبة .. فجأة .. دخل امبابى .. ولم أصدق عينى .. !

كان رأسه الصغير يتدلى فوق صدره ، ونصف وجهه بعينه معصوب بقطعة قماش .. ويمشى ببطء يتحسس طريقه .

ـ مالك يا واد يا امبابى .. ؟ !

لم يرد .. فقط زام بكلمات لم أفهمها ، ثم قال لمحروس وهو يقترب منه ، وراسه مطأطأ : « ادينى دستتين زراير .. وبكرة خيط شيكولانى سودة » .

كان صوته خافتا .. وشفته السفلى متدلية فى سخط وفى الم كظيم .

امبابى هذا .. ؟ ! مستحيل .. واين قفزه وحجله .. أين غناؤه وضحكه ! ؟

نهضت من مكانى ، وأسرعت نحوه .

ـ مالك يا امبابى .. ؟ !

ـ عينى .. !

قالها بنبرة واجمة مقتضبة خلعت قلبى .

صحت فيه : « مالها عينك .. ورينى » .

ومد يده الى العصابة ، ورفعها عن وجهه ، ثم تطلع الى .

كانت احدى عينيه نصف مفتوحة .. اما الأخرى ، فجفناها منطبقين وملتهبين ، والدموع تسح منهما بغزارة .

كان وجهه متربا ، فاختلطت الدموع بالتراب على خده . وبدت خيوطها على وجهه كطرقات رفيعة موحلة متشابكة .

انحنيت عليه ، وأمسكت براسه بين يدى .

ـ افتح عينك .

وحاول أن يفتحها ، لكن عضـلات وجهه ارتعشت بالألم وباليأس ولم يستطع . !

امسكت بجفنيه فى رفق ، وفتحتها .

كانت عينه اليمنى مصبوغة كلها بلون الدم .. وفى قلب الدم كانت نقطة صغيرة بيضاء معقودة .. !

غاص قلبى .. !

العين الجميلة .. العين التى ذكرتنى أول ما رأيتهـا بتلك الفتاة التى تحب العيون الجميلة .. هذه العين ، تصبح فجـأة قطعة مخيفة من اللحم الأحمر .. ؟ ! وهـذه العقدة الصـغيرة البيضـاء ، والتى تكاد تلتصق بحافـة انسانها وتطبق عليـه ، ماذا تكون .. ؟ !

صرخت فيه : إيه اللى عمل فيك كده ؟ !

قال وهو يسبل العصابة على عينه من جديد ، ويطرق الى الأرض براسه : « العيال كانوا بيلعبوا العقلة والمضرب .. وقفت اتفرج .. نطت العقلة جت فى عينى » .

تنبهت لشىء غريب فى صـوته .. كان فيه تعب وارهاق . ولكن كان فيه لامبالاة أيضا .. أفزعتنى هذه اللامبالاة . اننى معقد من كل شىء يمس العين .. امبابى لا يعرف ان العين نور .. وأن الحيـاة من غيرها كآبة وظلام .. لقد أشرفت أنا نفسى على هذه الظلمـة ذات مرة .. كانت « عملية » خطرة ، ظلت الأربطة البيضاء بعدها على عينى أكثر من أسـبوع ، وكنت أسـأل نفسى

وأنا فى عالم الظلام الموحش .. لماذا يبحث الناس عن معبود ، وفى الحياة نور العين . ؟ !

لكن صديقى امبابى لايزال طفلا . انه لا يبالى . وسيهمل بالتأكيد عينه وتضيع منه .

قلت له وأنا أربت على كتفه فى حنان وكأننى أرجوه :

ـ اسمع يا امبابى .. تودى البضاعة للأوسطى .. وبعدين تروح على بيتكم ، وتخلى أمك تغسلها لك .. والصبح توديك المستشفى .. فاهم .. ؟ !

وأومأ براسه فى صمت ، ثم أعطانى النقود .. وأخذ البضاعة ، وسار نحو الباب .. خطوة خطوة .. وعلى مهل .

كانت هذه أول مرة يخرج فيها امبابى من المحل ، دون أن يقفز ويصفر ، أو يصيح كالعادة فى مرح بجملته الحبيبة .. « حلاوتك يا واد يامبابى .. ياللى مفيش منك فى البلد عشرة » .

وبدا المحل فى عينى ذلك اليوم مقبضا وكئيبا أكثر من أى يوم مضى .

توقعت ان يغيب امبابى عن عيوننا عدة أيام بسبب عينه ، لكنى فوجئت به فى اليوم التالى واقفا أمامى فى سكون .. كأى زبون غريب ، وفى يده القسيمة .. ! كان بنفس منظر الأمس ، ولكن بدون عصابة على عينه .

سألته : رحت المستشفى يا امبابى . ؟ !

ـ لأ ما رحتش .. !

ـ مارحتش .. ؟ ! مارحتش ليه .. ؟ !

قال فى لامبالاة وضجر .

ـ أنا عارف بقى .. ياللا ادينى البضاعة ومشينى .. !

أحسست كما لو انه يريد أن يقول لى : وانت مالك .. وأن مسألة عينه هذه ان كانت تهمنى فهى لا تهمه .. واذن فلأتركه فى حاله !

جذبته من كتفه بشدة ، وصحت فيه كأنى داخل معه فى معركة « طيب نزل ايدك الوسخة دى من على عينك » .

قال مزمجرا .. « أصل الدموع نازلة ما بتبطلش » .

انحنيت عليه .. امسكت برأسه ، وفتحت جفنيه ، وتطلعت فى العين الجريحة .

ارتعدت .

كانت الحمرة قد ازدادت كثافة ، والعقدة البيضاء قد اتسعت فى شبه دائرة ، وبدأت تزحف على انسان العين نفسه .. !

امبابى فى خطر .. ! ويبدو أنى الوحيد فى كل هذا العالم الذى يحس بهذا الخطر .. حتى هو نفسه لا يحس بالخطر .

قلت لأرج أعماقه بالخوف : انت عارف عينك دى لو خسرت يحصل ايه .. ؟ !

همهم متسائلا : يحصل ايه .. ؟ !

قلت لأرعبه : تبقى بعين واحدة . والعيال يقولولك .. يا أعور !

ارتعشت ملامح وجهه وانقبضت .. ثم تطلع لى فجأة وقال فى يأس وتعاسة :

ـ طب وأنا أعمل ايه بس .. ؟ قوللى أنا أعمل ايه .. ؟ !

وظل متطلعا لى ، ينتظر الجواب ، والدموع تسح من عينيه .. !

طن سؤاله فى رأسى :

صحيح .. ماذا يفعل امبابى .. ؟

قبل سؤاله المفاجىء هـذا ، كنت انا المسيطر على الموقف . ولكن فى لحظة واحدة ، تعرى كل شىء .. !

كثيرا ما تختبىء فى اعماقنـا لذة كبرى خلف تألمنـا لآلام الآخرين .. لذة الاحساس بأننا « انسانيون » .. فنشارك الناس آلامهم ، ونهمس لأنفسنا فى كبرياء ورضا .. أهنـاك أروع من هـذا .. ؟ !

لكن امبابى عرانى فجـأة أمام نفسى ، حين ألقى فى وجهى بالسؤال « طيب وانا اعمل ايه .. ؟ ! »

اذن لابد للموقف ان يتغير .. فأما ان أقدم له الجواب على الفور واما الا اجعل من مأساة عينه ملهـاة اسلى بها قلبى الحزين ، فأتركه يخرج ببضـاعته ، ولا الومه بعد ذلك على اهمال عينـه الجريحة ، وليكن مصيره بعد ذلك ما يكون . !

قلت بلا وعى ، وكأنى آخذ قرارا خطيرا فى حياتى « تعرف تجيلى البيت بكره الصبح بدرى ؟ »

قال على الفور ، متشبثا بالأمل « البيت فين .. ! ؟ »

اخرجت ورقة صغيرة ، وكتبت له العنوان بالتفصيل .. وتنفست من اعماقى فى ارتياح .

ها انا لا اتألم فقط لآلام الآخرين ، بل اصنع ايضـا لتخفيف آلامهم شيئا .. !

كنت اظن ان المسألة قد انتهت عند هذا الحد ، غير انى

أكتشفت فى صباح اليوم التالى ان أبسط خطايا الحياة ، لا يمكن أن يتصدى لمحوها الا مسيح جديد ؛ لا يخالجه الشك أبدا ، ويملك فى قلبه لآلام الناس بحرا لا ينفذ من الدموع . !

فوجئت فى الصباح بامبابى يدق على باب بيتى ؛ وقد ازدادت عينه سوءا ، وحتى العين الأخرى ، لم يعد قادرا على ان يفتحها وينظر بها الا بصعوبة . !

أخذته من يده ، وأنا أحس بقلبى يرتعش .. ! لماذا هكذا .. لماذا أضيف الى هموم روحى هموما جديدة .. ؟ ماذا أفعل لك يا امبابى .. ماذا أفعل .. ! واحسست على كاهلى بثقل الجبال . وانني اتداعى . !

كنت قد حكيت لزوجتى فى الليل حكايته .. وطلبت منها — حين يأتينا فى الصباح — أن تذهب به الى المستشفى حيث انى لا أستطيع ترك عملى فى المحل . وحين ناديت عليها ورات عين امبابى ، شهقت دون وعى شهقة عالية ، وبدت على وجهها علامات الألم العميق !

انتابنى شعور غامر بالراحة .

ما أجمل ان يقاسمك انسان آخر من قلبه ، احزانك من أجل هموم وآلام الآخرين . !

غير انى فوجئت بها تقول فى انفعال « مستشفيات لأ . حيسيبونا قاعدين فى عز الشمس للضهر .. وآخرتها يعطوله شوية غسيل ومرهم وبعدين يقولوا له روح على بيتكم .. ! لأ يا سيدى .. أنا عندى المرهم والغسيل .. روح انت على شغلك وسيبهولى . »

وانا سائر فى الطريق الى المحل عاودتنى نوبة رضا عن

نفسي ! أيمكن ان افعل لامبابى اكثر من هـذا ؟ .. لاشيء فى مقدورى أكثر من ذلك . !

غير انى ما كدت أجلس جلستى التقليدية خلف الكيس على مقعدى العالى ، وهل الزبائن وبدأ طنين المساومات ، حتى عاودتنى الكآبة . واحسست انى افتقد امبابى وروحه المرحة .

فاجأتنى مرة أخرى نوبة شك قاسية !

كيف تركته لزوجتى .. ؟ ! انا اعرف ان قلبها حنون .. والشهقة التى سمعتها تخرج من صدرها حين رأت عينه ، لايمكن أن اسمعها من الف طبيب وطبيبة .. ولكن ، أيكفى هذا .. ؟ مجرد طيبة .. وحنان ساذج ؟ ! لا .. كان لابد من المستشفى ، وبسرعة .. ! .. ماذا يحدث لو كنت تركت عملى فى المحل ، ولو « بالخصم » واخذته الى اى مستشفى .. ؟ !

اهذا كثير فى سبيل أن احتفظ لانسان .. أى انسان بنور عينه ؟ اننا نضيع الوقت عليه ، والمرض يستفحل فى عينه ، وربما زوجتى الآن تتلهى بمأساته .. وتفرح هى الأخرى بأنها وجدت لنفسها فى الحياة دور المنقذ ، ولن ينكشف القناع ، الا بعد أن تتم كل فصول المأساة ، ويفقد امبابى عينه .

وثقلت على صدرى الكآبة !

غير أن الحياة ، وهى تمحو عن وجهها أبسط الخطايا ترفض أن تعلق ذنبها بانسان واحد ، وترسم لنفسها طريق الخلاص على نحو عجيب غير مفهوم ! .. فالذى حدث لامبابى مع زوجتى كان يشبه المعجزة فى يوم حزين ! .

كل الذى فعلته معه أنها كانت تغسل له رأسه ووجهه بماء دافىء ، ثم تجلس على مقعد منخفض ، وتجلسه على الأرض

بين قدميها ، وتتناول رأسه الصغير وتضعه على ركبتيهـا فى حنان ، ثم تقطر له فى عينه ، وتضـع له المرهم ، وبعد ذلك تعطيه كوبا من الشاى بالحليب .

وشيء غريب كان يحـدث للصبى فى أغلب المرات : كانت تأخذه شبه سنة من النوم وهو مستلق برأسـه على ركبتيها ، فتبقى جالسة فى مكانها لا تتحرك ، وامبـابى فى غيبوبة الارهاق والنوم .. ثم ينتبه ، فينهض منتفضا ويرمش بعينه السليمة فى حياء .. ثم يخرج على أن يعود اليها فى العصر مرة أخرى ! .

وأحيانا كانت زوجتى تدخله حجرتى الصغيرة ، وتطلب منه أن يستريح فى الظل قليـلا على الكنبة ، حتى تهدأ عينـه من المرهم والقطرة ، فيغيب عن نفسه ، ويروح ــ دون أن يدرى ــ فى النوم ، ثم أعود من المحـل فأجده لايزال غارقا فى سـبات عميق : وصـدره الصغير يطرد انفاسـا منتظمة عميقة ، أشبه بأنفـاس رجل عجوز يستريح من شقاء الحياة الطويل ! .

ولم تمض أيام قليلة ، حتى بدأت بشائر المعجزة تلوح ! . بدأت حمرة العين تخف ، والعقدة البيضاء تأخذ فى الانحلال ! .

تهلل قلبى بالفرح ، وافرحنى أكثر ــ وأدهشنى فى الوقت نفسه أيضا ــ أن امبابى لا يخلف المجيء مرة واحدة .. بل ان اصراره على الشفاء وعلى الحضـور مرتين فى اليوم الواحد .. كان قد حول الأمر بيننا وبينه الى سـباق من أجل الشفاء ! .

ومع الآيام كانت عينه تصفو وتصفو .. والبياض الطارىء على انسانها يشف ويشف .. ثم جاء يوم ، وتلاشـت العقدة البيضـاء نهائيا من عينه ، وعادت العين الجريحة كما كانت مثل اختها ، لا يستطيع المرء أن يحدد ، أيهمـا كانت الجريحـة ،

وتمنيت لو أقابل بالصدفة تلك الفتاة اللطيفة التى كانت تحدثنى عن حبها للعيون الجميلة ، واريها عينى امبابى !

لحظتها احسست ان فى قلبى سعادة تكفينى لأعوام طويلة ، وتخيلت ، والفرحة تملؤنى ، حين يعود امبابى الينا فى المحل من جديد .. يعود الينا بكل حيويته ومرحه ، ويتحنجل ويتنطط ، ويشاغبنى ويهزر ، ويصيح بجملته المزهوة الحبيبة « حلاوتك ياواد يامبابى ياللى مفيش منك فى البلد عشرة » وتعود الى المحل بهجته الوحيدة المفقودة ! .

لمحته بعد يومين ، يشق طريقه وسط زحام المحل .. كان مندفعا ومرحا ووجهه الأسمر الصغير مشرقا وبشوشا بالعادة .. فصحت عليه بلا وعى ، وبودى ان أحتضنه : « امبابى .. تعال يا امبابى .. »

وتهللت روحى وتفتحت للحظات مرحنا القديمة ، غير انه لم يكد يسمع صوتى ، حتى توقف عن حنجلته فجأة ، وتطلع لى .. وما أن جاءت عيناه فى عينى ، حتى فوجئت بنظرته تنكسر وترتخى ، ثم اقبل نحوى بخطوات بطيئة مرتبكة ، وقال وهو يحاول الا يرفع عينيه فى وجهى : « حضرتك عايز حاجة ؟ ! »

حضرتى ؟ !

أحسست براسى يدور .. ولم ادر ماذا أقول .

ابتسمت له ابتسامة حزينة ، ثم اطرقت فى كآبة !

« ١٩٥٩ »

الصـــورة

ما كدت أصـــل شارع الكورنيش ، وأمد بصرى الى بعيد ، حتى رأيت العمـارة التى يسكنها « حامد بيه » شاهقة ومشرعة فى الفضاء .

لم تكن العين تجهد نفسها كثيرا أو قليلا فى البحث عنها ، كانت بنية اللون ، ممعنة فى الارتفاع ، حتى بدت وهى تبرز فوق البيوت المتلاصـقة والمترامـيـة حولها مثل عنق أســمر طويل لا رأس له .

أحسست وأنـا أتأملهـا من بعيد بشىء من السكينة يغمر روحى .. وبالرغم من انى قطعت المسافة كلها من بيتى سيرا على الأقدام ، الا انى حين نظرت الى ساعة يدى ، وجدت أنه لايزال باقيا على موعدى مع الرجل أكثر من نصف ســاعة .. قلت فى نفسى .. أقضى هـذا الوقت على الكورنيش .

كنا فى الضحى . والشمس لم تشتعل بعد ، وموجات طرية ومنعشة من النسيم تهب من قلب النهر .. وبدا لى الهواء لحظتها غامرا ومتدفقا وكأنه يكفى لكى تتنفس به المدينة أعواما وأعواما .

جلست على أحد المقاعد الرخامية ، ورحت أتصـور ما يمكن أن يحدث فى مقابلتنا التى ستتم بعد قليل . لكنى لم أعد لها أى كلام .. فبالأمس تحدثت مع الرجل بكل جوارحى . عرضت عليه المشكلة وقلت له أن الكأس قد فاضت ، وأنه لاشىء يثقل قلب المرء أكثر من الاحساس بالعجز . العجز حين يقف كل صباح أمام زوجته وأطفاله ، وتمتد له عيونهم وأيديهم ، فلا يجد لهم فى يده شيئا مما يطلبون .

نعم لا داعى فى التفكير فيما سأقوله للرجل ، فهو نفسه كفانى كثرة الكلام ، حين قال لى والاستغراب يبدو فى عينيه الواسعتين من خلف نظارته الطبية السميكه .. « شىء غريب .. هـذه المدينة الكبيرة كلها ، ولا تجد لك فيها عملا حتى الآن .. لا .. تعال لى غدا ، فى مثل هـذا الميعاد .. وسينتهى كل شىء » .

لقد لخص لى عمق احساسه بحالى بتلك العبارة البسيطة .. قالها من قلبه . والألم ينطق من على ملامح وجهه الوسيم النحيل .

أجل .. لن أكلمه بعد ذلك عن مشكلتى أبدا .. ولاترك مصيرى بين يديه .. ليوم .. أو لأيام أو شهور كما يشاء .

كانت الشمس لاتزال تفرش أشعتها على مياه النيل بدون حساب ، وتلمع على صـدر الموج ، فتبدو مثل ملايين الريالات الفضية اللامعة .. تبرق .. وتتموج .. وترتعش .. بل وخيل لى أنى أسمع لها رنينا أيضا .

وكان اليوم يوم أحد .. وبعض الناس فى أجازات ، فركبوا القوارب واللنشات . وملأوا هواء النهر بصيحات وضحكات .. وراح بعضهم يدور بلنشاته حول النافورة التى تنبثق منها المياه الى أعالى الفضاء .

استنامت روحى لذلك المشهد ..

آه .. هو جميل ورائع ذلك النهر .. نهر النيل .. ولكن.. كم هو غير جميل فى نفس الوقت أيضا . أن يجلس على ضفته انسان موجوع القلب .. وحزين ..

ولا أدرى لحظتها لماذا تذكرت أن كثيرا من الناس ، فى بلاد العالم كلها يحبون الجلوس على ضفاف الأنهار ، ويسندون خدودهم على أيديهم ، ويهزون أرجلهم فى هدوء وأسى ، ويحلمون.

ورحت أحلم من جديد .. ان « حامد بيه » قادر على أن يجد لى عملا .. فهو رجل واسع الثراء .. والصلات .. وقد ظل لعدد من السنين النائب الوحيد للدائرة التى تقع فيها قريتى.. وهو معروف على نطاق واسع .. ولقد قابلنى بالأمس فى حماس بالغ .. يا سلام .. لو يستمر هذا الحماس . فيأخذنى من يدى على الفور ، ويسلمنى الى عمل ما .. وفى أى مكان .. فلم يعد أمامى مجال للاختيار .. المهم .. عمل .. أستقر فيه .. ولو سألنى بعد ذلك أى انسان .. « وانت بتشتغل فين يا أستاذ .. ؟ » فأجيبه فى الحال ، بلا تفكير ولا تردد ،ويكون لى حينذاك مكان .. وعنوان .. وحين يسألنى طفلى الكبير كعادته فى الصباح .. « انت رايح فين يا بابا .. ؟ » أقول له فى زهو وكبرياء .. « رايح الشغل بتاعى .. وبكره حاخدك معايا هناك يا حبيبى » .

يا سلام يا حامد بيه .

وتصورته من جديد .. نحيفا .. كثير من شعر راسه قد شاب ، ولون بشرته أسمر من طول ما يقيم فى عزبته فى الريف .

ومرت أمامى فى تلك اللحظة قوارب لسباق التجديف ، كل من فيها يجدف بذراعيه ويفرد ثم يثنى بسرعة ركبتيه ، ويمرق كالسهم على سطح الموج .. نظرت الى ساعتى .. كان الموعد قد

ازف . فقمت اتمشى ببطء على أسفلت الكورنيش وعيناى معلقتان بالعمارة الشاهقة ، ورحت اتملاها وأعد فى طوابقها التى تزيد على العشرين .

● وحين ضغطت على جرس باب مسكنه ، فتح لى خادم أسود يرفل فى ثوب أبيض فضفاض ، وحول وسطه حزام أخضر .. نظر لى مستفسرا قلت له : موعد مع حامد بيه .. وسرت خلفه فى الصالة .. كان أول شىء قابلنى فيها هو الهدوء العميق .. وكانت أرضها مفروشــة بالسجاجيد ، وبدت أمام عينى طويلة وممتدة ، حتى خيل لى أول الأمر أنى مازلت أتمشى على الكورنيش .. كل شىء فى الصــالة بدا وكأنه غافيا يحلم .. الستائر .. والصور .. والمقاعد الوثيرة المستديرة ، والأوانى الخزفية المرتبة على رفوف مثبتة على الجدران .

وحين انتهينا من الصــالة ، دخلنا شبه صالة أخرى أعدت كحجرة الطعام .. وعلى أحد كراسى المــائدة ، كان حــامد بيــه يجلس .. مرتديا بدلة سوداء ذات خطوط بيضــاء ، وفى يده سماعة التليفون يتكلم ، وأمامه جرائد الصباح وبعض المجــلات ، وصندوق لامع فى حجم الكف مصنوع من خشب الأبنوس !

وحين رآنى ، ابتسم لى ابتسامة واسعة وهو مشغول بالكلام فى التليفون . ثم أشار لى بيده ورأسه برقة لكى أجلس أمامه .

وجلست .. كان كل ما حــولى فى ذلك المســكن غارقا فى السكينة والهدوء .. حتى خطوات الخــادم وهو يمشى فــوق السجاجيد الكثيفة الحمراء كانت أشبه بالحفيف .. لذلك ، بدا صوت حامد بيه وهو يتكلم فى التليفون عاليا وله صــدى .. ودون أن أحس ، وجدتنى أنصت رغما عنى لمــا يقول . كان يتناقش فى جد واهتمام .. سمعت اسم محدثه .. وسمعت ايضــا الفاظا تتردد أكثر من مرة ، وعرفت أن هنــاك نزاعا حول أرض ، وأن قضية مرفوعة منه فى محكمة الاصلاح الزراعى .

كان من الواضح أن الطرف الآخر فى الحديث ، رجل واسع الجـاه وله سلطان .. تمنيت لو تنتهى هـذه المكالمـة بالحديث عنى .. عن عمل لى .

لكنى كتمت الرغبـة فى نفسى .. وعتبت على روحى تطفلى السريع على علاقات الرجل بالناس ، ورحت أتشاغل فى شىء آخر حتى ينتهى من حديثه .

كانت أمامى لوحة كبيرة معلقـة على الحـائط مرسـومة بالزيت .. وكانت الصورة فيها مريحة ومشرقة الألوان .. حقول خضراء ، يشقها صفان طوبلان من الأشجار المورقة والمثقلة بالازهار وبالثمار ، وبينهما طريق..يبدأ واسـعا .. ثم يضيق ويضيق.. حتى يتلاشى فى نقطة غامضة تلتقى بالأفق البعيد .

رحت أتأمل الصورة واتسلى .. لكن شيئا ما أحسسته من أول لحظـة ينقص الصـورة ، وحـلا لى أن أشغل نفسى فى التفكير فى هذا الشىء وأجهد ذهنى فى البحث عنه ، حتى ينتهى الرجل من الحديث .

لكنى لم أستطع .. كنت مشـدودا الى كلام الرجل .. وكان شيئا ما .. واجما وحزينا يطفو تارة على سطح الصـورة . ثم يختفى تارة أخرى ويتلاشى .

وانتهى الرجل من حديثه فجـأة .. وضـع السـماعة على التليفون ، واتجه فى صمت بعينيه مع عينى الى اللوحة ، ولم تلبث أن ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة وقال .. « منظر من بلدنا .. رسمه الرسام وهو فى زيارة معى العزبة » .

قلت : فعلا .. لوحة جميلة .. لا تمل العين من رؤيتها أبـدا .

وخطر لى أن أكمل له رأيى فأقول .. « لكن شيئا ما ينقصها .. شيئا يمكن العثور عليه » .

لكنى تذكرت حالى ، وسخرت من نفسى . أنا لم آت الى هنا لأضيع الوقت فى التأمل والحديث عن لوحة رائعة وملونة .. انا جئت هنا ليقول لى هذا الرجل الطيب .. « لقد كلمت لك فلانا بخصوص عمل .. » أو لينهض من مكانه ، ويخرج معى ، ويصطحبنى فى عربته هنا وهناك .. وأحس أن باب الأمل أصبح مفتوحا أمامى .

لزمت الصمت .. لكنه ظل يرقب الصورة فى سكون واستغراق ، ثم قال وكأنه يحدث نفسه .. « أنظر .. كيف تنتهى آخر شجرة مع آخر نقطة فى الطريق » .

قلت ونبرة صوتى يكسوها الحزن والأسى .. « تمام .. الأشجار تنتهى .. والطريق كذلك ينتهى .. ولكن بشكل لا يوحى بالانتهاء . ان الطريق والأشجار تظل قائمة وممتدة فى خيال الانسان » .

قال وقد تملكه الطرب فجأة ، واتسعت عيناه حتى ارتفع حاجباه عن نظارته .. « تمام .. تمام .. فكرتك رائعة .. كنت احس بها .. ولكن لم أكن أستطيع التعبير عنها .. لست أدرى لماذا .. الانسان منا فى هذه الأيام مشغول جدا .. مشغول بحيث لا يجد لحظة من الفراغ يعيشها فى لوحة مثل هذه » .

مستنى عبارته الأخيرة .. احسست من أعماقى برغبة فى ان أصرخ .. صرخة اجمع فيها احزانى ، وأجرح بها قلبى وأقول له .. « انت لا تملك لحظة من فراغ .. وأنا حياتى كلها فراغ فى فراغ » .

لكنى لزمت الصمت .. وأطرقت .

اننى أستحى من أن أصرخ لنفسى فى وحدتى ، فكيف أصرخ صرخة العذاب فى وجه رجل طيب مثل هـذا ، تطوع لخدمتى ، ولم أعرفه الا منذ زمن قليل .. !!

وأحسست بأحزانى تطفو وتسد حلقى ، وتمنيت لو يترك مسألة اللوحة هـذه ، ويدخل من تلقاء نفسه فى الموضوع .. الموضوع الذى جئت من أجله ، حسب اتفاقنا سويا بالأمس .

ولم يطل صمتنا ، فقد قام الرجل من على مقعده ، وخطـا بظهره خطوتين الى الوراء ، ثم قـال وعينـاه لا تزالان عالقتين بالصورة .. « يبدو عليك أنك تفهم جيدا فى الفن .. طيب .. ما رأيك لو كان الرسام قد رسم بعض طيور ترفرف فى الهواء .. بعيدا عن آخر شجرة .. هناك .. فى ركن الصورة .. ؟ ! »

.. أحسست من حيوية صـوته ، أن قلبه مفتوح وفرحـان للحديث عن لوحته ، وأن لحظة حماسه ونشوته يجب الا تطفئها همومى وأحزانى الراقدة فى نفسى .

قلت .. « من الجائز يا حامد بيه .. وعلى كل حال .. فأنا أحسست من اللحظة الأولى بشىء ينقصها .. ربما طيور كمـا تقول .. وربما شىء آخر » .

وأغرقت نفسى فى المشهد عن طيب خاطر .. ربما فكرة منى تعجبه ، وتشعل حماسـه لعملى .. ومرت لحظـات .. ولم ألبث أن وجدتنى أقول وكأنى أكتشـف لنفسى شيئا مدهشـا .. « ما رأيك يا حامد بيه .. لو كان الرسـام قد رسم على الطريق آثار أقدام .. رمزا لانسان كان يمر من هنا .. ذات يوم ؟ ! . »

ورأيت عينيه تتسعان أكثر وأكثر ، ووجهه الأسمر يزداد بهجة وتفتحا ، ولم يلبث أن اقترب منى وصاح فى فرح وكأنه

يود أن يعانقنى .. « يا سـلام .. على الفكرة .. فكرة ممتازة .. صحيح .. لمـاذا لا يرسم الرسام آثار اقدام . ؟ ! »

ودون أن ادرى ، وجدت نفسى ابتسم له من قلبى ، وجاوب ابتسامتى هو الآخر بضحكة من أعماقه ، ثم قال وهو يتنهد .. « تعرف .. الفن فى نظرى أجمل شىء فى الحياة ، بدونه تمر الأيام على الواحد منا مملة وثقيلة .. فعلا .. نحن نضيع أيامنا فى تفاهات .. لقد سمعت بأذنيك حين دخلت وأنـا أتـكلم فى التليفون .. مشاكل لا تنتهى .. ولكنى سأكلم الرسام اليوم فى هذه الفكرة » .

وخلع نظارته ، وراح يمسحها بمنديله على مهل .. ثم لبسها وعاد يتأمل الصـورة من جديد ويقول :

ــ « تخيل معى .. أثر قدمين مفرطحين .. كبيرين .. يشغلان كل بداية الطريق .. ثم تصغر القدمان بعض الشىء .. ثم يصغر أثرهما أكثر فأكثر ، حتى يتلاشيا تماما عند آخر نقطـة فى الطريق .. آه .. انها ستصبح أجمل لوحة فى بيتى .. »

وران علينا السكون لحظـات ، جاء خلالها الخـادم وهو يحمـل صينية عليها فنجـالان من الشاى ، وبعض قطـع من البسكويت .. واختلست نظرة من ساعتى دون أن يلحظ الرجل .. كانت قد بلغت العاشرة والنصف .

ياه .. لقد مر أكثر من ساعة ، ولم يثر بيننا كلام من قريب أو من بعيد عن الموضـوع الذى جئت من أجله .. توقعت لحظتها أن ينشغل الرجل قليلا بشرب الشاى ، فينسى حكاية اللوحـة هـذه ، وينظر لى وجهـا لوجه ، ويتذكر ما جئت من أجلـه ، ويتكلم فيه .

ورأيت يده تمتد فى هدوء الى التليفون ، ويدير القرص .

آه .. ربما جـاء الفرج .. لابد انه سيكلم انسانا كبيرا بخصوصى ، يأخذ منه موعدا ، لنتوجه لمقابلته . بعد أن ننتهى من الشاى .

ــ ألو .. الأستاذ عبد المنعم من فضلك .

ــ ....

ــ خرج . ؟ . من خمس دقائق . ؟ . طيب مرسيه .

وهز رأســه وهو يضع السماعة ، وقال والأسف يبدو على وجهه .. « خسارة .. تصــور خرج من خمس دقائق » .. على أى الأحوال .. سأتصل به اليوم .. ضرورى .. ضرورى .. »

وأشار لى كى أتناول فنجــال الشاى ، غير أن احساســا خفيفا باليأس كان قد تسلل الى نفسى .. قلت له وأنــا أدارى لهفتى وأشفاقى .

ــ من هو ...

قال على الفور .. الرسام .. كنت أسأل عنه .. فكرتك عن الأقدام أعجبتنى جدا .. ولن ارتاح حتى انفذها فى أقرب وقت .

قال ذلك فى حماس وكأنه يحيينى ويرضينى بكلماته ؛ ثم مد يده الى العلبة الأبنوســية الموضوعة أمامه بجوار الجرائد ، وما أن فتحها وأخرج منها سيجارتين ، حتى حدث شىء غريب استيقظت له ــ فجــأة ــ كل حواسى .

لقد انبعثت من العلبــة أنغــام موسيقية ذات ايقاع متتابع وجميــل .. لم يكن يبدو على وجــه الرجــل وهو يقــدم لى السيجارة ، أى احساس غير عادى .. كل شىء فى بيته كان يجرى هادئا وطبيعيا .. وترك العلبــة مفتوحــة ، وظلت الموسيقى دائرة .. هادئة ومتموجة أحيانا .. ومتتابعة وراقصــة أحيانا

أخرى .. وكل شيء فى الجلسة أخذ طعما آخر .. أحلى وأجمل وأغرب .

رشف الرجل جرعة شاى ، ثم جذب نفسا طويلا وعميقا من سيجارته ، ثم قال وهو ينظر الى علبة الأبنوس : البيانو الذى فى داخلها يعطى لحنا واحدا .. لا يتغير .. لكنه جميل على أى حال .. ومريح للأعصاب .. خصوصا لو تأمل الانسان لوحة مثل هذه لحظة سماعه .

قلت له ومشاعرى بدأت تتفكك وتستريح .. « بالفعل .. اللحن ماشى مع الصورة ، لقد رأيت علبة مثل هذه فى خان الخليلى .. تفرجت عليها فى مرة من المرات . كانت جميلة . ولكن هذه أجمل بدون شك . وأغلى أيضا بكثير .. »

قال بحماس « لا .. لا .. هذه العلبة شيء آخر .. انها من فيينا .. فيينا فيها أشياء كثيرة وعجيبة .. أنا زرتها منذ سنتين .. غريبة هذه المدينة .. أنت لا تتصور .. »

وراح يحكى لى عن أيامه فى المدينة البللورية الساحرة .. انزلق الى الحديث عنها دون أن يحس هو .. ودون ان أحس أنا .. كانت علبة الأبنوس مفتوحة .. والنغم لايزال مسترسلا متتابعا حلوا وسريعا .. حتى أننى تخيلت وأنا استمع لكليهما أنى أرى « سندريلا » الصغيرة وهى تشب على قدميها وتتماوج وترقص وتحلم داخل العلبة السحرية .. ودار بى الرجل دورة جميلة ورائعة فى بلاد الشمال على أنغام البيانو الصغير ، وكانت اللوحة تطل على من فوق الحائط فى انشراح وهدوء . وتخيلت آثار الأقدام وقد رسمت فيها على طول امتداد الطريق ، وأحسست بأشواق بالغة الحلاوة والحزن تهتاج فى روحى .. وأن العالم كبير كبير لا حدود له ، وأننى لابد فى النهاية سأجد لنفسى فيه مكانا .. وعملا ما .. أستقر وأحيا فيه .

لكنى تنبهت فجأة من خواطرى .. فقد دق جرس التليفون. وكان رنينه المفاجىء عاليا ومزعجا جدا .. وضع حامد بيه يده على السماعة فى ضجر ليوقف الرنين .. وما أن رفعها وبدأ فى الكلام حتى فهمت أن محدثه هو نفس الشخص الذى كان يتكلم معه عند دخولى .. فقد تكررت نفس الألفاظ .. النزاع .. والأرض .. ومحكمة الاصلاح

ولم ألبث أن رأيت ملامح وجهه تكتسى بعلامات الجد ، وراح يقول فى استغراب .. « ماذا تقول .. ؟ ! .. اليوم بالذات ؟ . شىء غريب .. لا لا .. سأحضر حالا .. »

أحسست بقلبى ينقبض . ورأيت حامد بيه ينهض من على الكرسى ، ثم نظر لى وهو يقول فى تأثر .. « انا متأسف جدا .. أنا مضطر للسفر اليوم .. وسأبقى فى العزبة عدة أيام .. كان فى ذهنى أن نخرج الآن معا .. وأقدمك لواحد من أصدقائى .. ولكن معلهش .. كن مطمئنا .. لا تقلق من هذه الناحية .. »

قلت له وشبه غمامة تزحم رأسى .. « متشكر .. متشكر خالص .. أنا عارف ان ظروفك صعبة .. سأتصل بك بعد أسبوع .. فى مثل هذا اليوم .. »

قال .. « تمام .. أكون رجعت .. وعلى العموم .. لقد أمضينا معا وقتا لطيفا .. »

قلت وأنا ابتسم له .. « جدا .. جدا .. »

كنت قد نهضت أنا الآخر من على مقعدى .. ورأيته يتجه بخطواته نحو باب مسكنه ، فتبعته .. ولكنه توقف فجأة واستدار مرة أخرى نحو المائدة ، ومد يده الى العلبة الأبنوسية وقفلها .. وفى الحال ، انقطعت الموسيقى .. وانعقد الصمت الثقيل على المسكن من جديد .. وخرجنا مسرعين .

كانت عربته السوداء الكبيرة تنتظره .. وفتح له السائق

بابهـا ودخـل فيهـا ، ثم أشار لى وقـال مجاملا .. « ممـكن أوصـلك .. »

قـلت مرتبـكا .. « شـكرا .. سـأتمشى قليـلا على الكورنيش » .

وانطلقت به العربة كالريح .. وحين اختفت عن عينى بعد لحظـات ، رحت ارقب أمواج النيـل فى وجوم ، واتمشى على الكورنيش وحدى من جديد .

« ١٩٥٧ »

الصيد

بعد أسبوع ، ذهبت الى حامد بيه كما اتفقنا ، وكلى أمل .

كان كل همى الا يحس الرجل أنى أصبحت ثقلا عليه ، غير أن الخادم لم يكد يخبره بوجودى حتى رايته يقبل نحوى باسم الوجه ، ومد لى ذراعه مرحبا .. « أهلا أهلا .. جئت فى الوقت المناسب .. فقط سأتناول لقمة صغيرة ، ثم نخرج فى الحال .. لابد أن ننتهى من موضوعك اليوم .. تعال . »

كان يرتدى ملابسه المنزلية .. شبشب .. وبيجامة .. وروبا حريرا فيه نقوش صغيرة لامعة ومفضضة .

قادنى الى نفس الحجرة التى جلسنا فيها فى المرة السابقة : حجرة المائدة . كان يتهيأ لتناول افطاره ، وكانت بعض ألوان الطعام موضوعة على المائدة بشكل منسق وجميل ، وأصنافها توحى بأنها من الريف .. فطير مشلتت .. وجبن أصفر قديم ، وقشدة .. وعسل أبيض ، وبرتقال كبير بسرة ، خمنت أنه لابد من ثمار حديقته فى العزبة .

قال لى فى بشاشـــة ونحن نجلس الى المــائدة .. « أكل فلاحى .. هيا .. معى .. »

اعتذرت له شاكرا .. واعـــاد على عزومته فى الحاح وكرم .. لكنى فى الحقيقة لم أكن أستطيع أن أبتلع شيئا .. ومع أنى كنت قد تناولت لقمة صغيرة مع زوجتى وأولادى فى الصباح ، الا أننى بعد أن قطعت طريق الكورنيش الى بيته ، وكان هواء النهر يهب من حولى ، أحسست بقرصـــة الجوع فى بطنى .. كان يخيل لى فى تلك اللحظـــة ان معدتى يمكنها أن تطحن الزلط .. غير أنى لسبب لا أدريه كنت قد فقـــدت شـــهيتى تماما بمجرد أن اقتربت من بيتـــه .

قال وهو يمد لى بيده ببرتقالة ، وفمه مشغول بمصـــغ الطعام .. « اذن تأكل هــذه على الأقل .. قل لى .. كيف حالك .. وأولادك .. ؟ ! »

تمنيت فى تلك اللحظـــة أن أكون شجاعا .. فأحـــكى له بصراحة عن حالى بعد أن سافر الى عزبته .. وددت لو أقول له انى قضيت الأيام السبعة أنتظر عودته بفارغ الصبر .. أجوب شوارع القاهرة على غير هدى ، واتفنن فى قتل الوقت .. أتفرج على النـــاس فى الطرقات ، وعلى المعروضـــات فى الفترينـــات ، واتوقف لأعد طوابق العمارات الضخمة الشامخة ، ثم أعيد عدها مرة أخرى خوفا من أن أكون أخطأت الرقم الصحيح ، وادخل مزادات البيـــع لأتســـلى بنداءات الدلالين وأســـاليب المشـــترين والنصابين والمحتـــالين ، وأقف على محطـــات الترام والأتوبيس وأتفرج على الركاب وهم يتزاحمون ويتشاتمون وربما يتعاركون .

كنت أود أن أحكى له كل ذلك بالتفصيل ، وأحكى له أيضـــا عن الكآبة الصامتة التى كانت تلفنى أنـــا وزوجتى وأطفـــالى وكلنا أمل فى عودته .

تنهدت وقلت فى حياء .. « الأولاد عال.. بخير والحمد لله.. طول الأسبوع ونحن جميعا فى انتظار عودتك .. »

قال لى وقد أخذته كلماتى وتوقف عن مضـع لقمة كانت فى فمه « العفو .. العفو يا أخى .. تصـدق بالله .. كنت دائمـا على بالى وانا فى العزبة .. أنت انسان طيب .. ولازم تشتغل .. لازم .. وفى وظيفـة معقولة ومناسـبة .. تعرف الدكتـور محسن بيه الهرنوبى .. ؟ ! وكيل وزارة الخارجية سابقا .. ؟ ! سنذهب اليه الآن .. معنا موعد معه .. هـذا الرجل وحده هو الذى سيجد لك عملا بالتأكيد .. لقد كلمتـه عنك .. واخذت منه وعدا .. أن صلاته واسعة وعديدة .. وله نفوذ أيضـا .. وهو صديقى منذ أيام الطفولة ..

احسست بفرحة جارفة تتملك كيانى .. ودون أن ادرى.. انبسطت عضـلات معدتى فجـأة . وتفتحت شهيتى للطعام . وودت لو يعيد على عزومته من جديد وأشاركه فى اكل الفطير .. ابتسمت فى نفسى ، ورحت آكل فصـوص برتقالتى بشهية وعلى مهـل .

وعاد يقول لى وهو منهمك فى طعامه .. « تعرف ان ملحوظتك عن الصورة أعجبتنى جدا .. جدا جدا .. ؟ ! »

وبلا وعى ، وجدتنى أتطلع الى الصـورة المعلقة على الحائط ، وكدت أصرخ وأقول له .. « لا لا . أرجوك .. كفانى كلاما عن الصورة .. وعن الفن .. وعن الموسيقى .. وعن الحيـاة .. كفانى ما حـدث فى المرة السابقـة .. أرجـوك .. خلنـا فى الموضوع .. »

لكنه مضى يقول وهو يمضغ الطعام فى هدوء ، وعيناه تتطلعان الى الصـورة .. « هل تذكر ملحوظتك . ؟ ! عن ضرورة رسـم

آثار أقدام انسانية فى الطريق .. ؟ ! .. لقد تكلمت عنها مع بعض اصـدقائى .. وبالذات مع محسن بيه .. لقد أعجب بها جدا .. وهو يريد أن يراك .. انـه يهوى اقتنـاء التحف واللوحـات النادرة .. »

عاودت الطمأنينة روحى لذكر اسم محسن بيه .. فأن يحدث بينى وبينه تعارف على هذا النحو ، وقبل أن أراه ويرانى ، هذا شيء جميل ومبشر للغاية .

كنت أظن أن حامد بيه سيظل جالسا الى المـائدة ، يأكل ويتسلى معى بالحـديث حتى يأتى على كل ما أمامه من طعـام لكنى فوجئت به ينهض مرة واحدة من على مقعده ، ثم نادى على الخـادم الواقف عن قرب وقال له .. « جهز لى بدلة يا عبده .. البدلة الكاروهات .. »

ثم التفت لى وقال مستأذنا وهو يغادر المـائدة .. « عن اذنك دقيقة .. البس وننزل على طول .. »

ودخل غرفة جانبية خلف خادمه .. وبقيت وحدى أنتظره .

وعلى غير ما كنت أتوقع .. لم يغب فى ارتداء ملابسه ، فقد رأيته بعد دقائق قليلة ، يخرج من الغرفـة بخطوات نشيطـة مرحة ، وقال لى وهو يشير بيده نحو باب مسكنه .. « تفضل » .

كان يرتدى بدلة خيل لى أنها جديدة ، لم تلبس من قبل أبدا ..بنية اللون .. كاروهات .. وبثلاثة أزرار .. بدا فيها أكثر طولا .. وأكثر رخاء وأناقة ، وكأنه ذاهب الى حفل كبير ساهر .

وخرجنا من البيت .. وتنفست الصعداء .

كانت عربتـه السوداء الفاخرة تنتظره .. وما أن رآنـا

السائق ، حتى نهض من جلسته على أحد الكراسى فى الشمس ، واسرع نحو باب العربة وفتحه . وأشـار لى حامد بيه بالدخول ، فدخلت .. وقال للسائق وهو يعتدل فى جلسته ويفك أزرار جاكتته .. « على نادى الصيد .. »

نادى الصيد .. ؟ !

لم أكن أدرى من قبل أن فى القاهرة شيئا اسمه نادى الصيد ، رغم أنه كان يخيل لى من كثرة تجوالى وتسكعى فى أرجاء المدينة ، أنى أعرف كل شبر فيها .

وانطلقت بنا العربة ، وسادنا الصمت .

كل لحظة من لحظاتى مع هـذا الرجل ، كانت امتحانا قاسيا لأعصابى . اذا التزم الصمت ، كان على أن احترم صمته ، فألتزم السكوت أنـا الآخر حتى لا يكون وجودى معه عبئا عليه .. واذا تكلم فجـأة ، كان على أن أسرع فأنصت لكل كلماته بكل جوارحى وأبحث له عن الرد المناسـب ، حتى اكون خـير انيس له فى رفقته .

كنت وأنا معه مسلوب الارادة ، زمام أمرى بيده ، ولا أدرى من مصيرى معه اى شىء .. كان على دائما أن اتقبل عالمـه الذى يعيش ويتحرك فيه بلا ادنى تفكير أو تفسير .. ولو قال لى حينذاك .. هيا بنا نرمى انفسنا فى البحر لنبحث لك عن عمل فى قاعه ، لأومأت له برأسى موافقا ، وقذفت أمامه بنفسى فى البحر على الفور ، وأرحت ضميرى .

كانت العربة تنطلق بنا ، والصمت يسودنا ، فلا أسـمع الا صوت الهواء وهو يئز ويصطدم بواجهة العربة فى انطلاقهـا السريـع .

ظلت العربة تطوى الطريق بنا .. وفى دقائق ، كنا قد اجتزنا

مبانى المدينة وبدأت الشوارع تمتد أمامنا واسعة وفسيحة وشبه خالية ، ثم عرجت فجأة الى اليمين ، ودخلت شارعا عريضا طويلا : تظلله أشجار كثيفة ضخمة .. وخيل لى أنى أسمع طلقات نارية تدوى فى الفضاء .

لابد أننا اقتربنا .. فقد كان هناك صفان طويلان من العربات الضخمة تزحم الطريق حتى لم يكن هناك موقف لعربتنا .. وفجأة .. تباطأت العربة .. ثم توقفت أمام مبنى أبيض صغير وانيق .. وأسرع السائق وفتح لنا الباب .. وهبطنا .. وسرنا نحو باب المبنى .

كنت وأنا جالس فى العربة بجوار حامد بيه .. أتصور نادى الصيد هذا ، مكانا هادئا وغارقا فى السكينة ، يخطر عليه الناس فى هدوء وراحة بال . ويجلسون فى استرخاء ، ويمدون أرجلهم أمامهم ، ويعطون وجوههم لشمس الشتاء ويستدفئون ويثرثرون، ويقضون أيامهم الفارغة بعيدا عن ضوضاء المدينة .

ولكن .. ما ان دخلنا من الباب ، حتى وجدت نفسى فى عالم آخر تماما .

من أول خطوة خطوناها بداخله ، واجهنا زحام شديد .. جموع من الرجال والنساء تتدافع وتتزاحم وتشرئب بأعناقها وتتنادى بشكل غريب لم أفهمه .

كان البعض يصيح .. والبعض يجرى مهرولا كأنه يخشى ان يفوته قطار .. والبعض الآخر تتقارب رؤوسه وكأنه يهمس بأسرار .

وأحسست بحامد بيه يجذبنى من ذراعى ورحنا نشق الزحام بصعوبة ثم توقف أمام سبورة كبيرة سوداء .. مكتوب عليها أسماء .. وأمام الأسماء أرقام .. ومضى يقرأ فى السبورة

باهتمام .. فرحت أقرأ أنا الآخر . وفوجئت باسم « محسن الهرنوبى » مكتوبا عليها وكان هو الاسم الثانى فى القائمه .

لم أفهم من الأمر شيئا .. وكنت فى نفس الوقت لا اريد ان أفهم أى شىء .. بل انى أحسست بأنفاسى تضيق . وراسى من الزحام والضجيج تكاد تدور .. وخطر لى ان اجازف واقول له .. « أرجوك .. لقد تعبت أعصابى .. عن اذنك .. وسأقابلك فى يوم آخر » . ثم أخرج من هذا المكان . ولا أريه وجهى بعد ذلك أبدا ، وليكن من أمر مصيرى ومصير أولادى بعد ذلك ما يكون .. !!

لكنه تحرك من أمام السبورة فتحركت أنا الآخر خلفه كالمذهول .. ومضينا نشق الزحام . ثم صعدنا ثلاث درجات . ورأيت صفين طويلين من المناضد . كل منضدة تغطيها مظلة كبيرة وملونة مثل مظلات البحر ، والرجال والنساء يجلسون اليها ، وأمامهم تمتد مساحة واسعة ومستطيلة مثل ملاعب كرة القدم ، ينبت فيها عشب كثيف قصير أخضر .

لابد أنها حلقة الصيد .

وتقدم حامد بيه الى منضدة وجدناها بالصدفة خالية ، فجلسنا اليها .. ثم سمعته يصيح فجأة وبأعلى صوته .. « يا دكتور محسن .. يا محسن بيه » .

والتوى منى عنقى دون أن أحس ، ورحت اتطلع لأرى هذا الدكتور محسن .. رمز آمالى جميعا .

ولمحت رجلا يقف فوق العشب داخل الحلقة .. يلوح لحامد بيه ، وعلى وجهه ابتسامة تكفى لوجوه آلاف الرجال المهمومين .. ثم أقبل يخطو نحونا بخطوات واسعة نشطة وكأنه يجرى .

كان رجلا يقارب الخمسين من عمره ، ومع هذا لم يكن على

وجهه آثار لأى غضون .. وكانت سمرة وجهــه مشربة بحمرة خفيفة . ويرتدى بنطلونا وقميصا .. وفوق القميص بلوفر بكم طويل .. وفى يده اليمنى بندقية صيد .

استرحت لمنظره من الوهلة الأولى .. كان يبدو متفتحــا وفرحانا بالحيــاة .. وحين بلغ مكاننا ، قام حامد بيه ، وسلم عليه .. ثم استدار لى وقدمنى اليه .. وقدمه الى .

اعجبنى ســلام الرجل .. كان سلاما فيه صحة وعافيــه وشباب ، وفيه ترحيب أيضا .. ولا ادرى لمــاذا داخلنى اليقين اننى لابد مشتغل على يديه . وفى وقت قريب جدا .

وما كاد حامد بيه يطلب منه الجلوس معنا ، حتى ســمعنا جرسا يدق ثلاث دقات متتابعة .. فحدثت فى الحــال ضجة كبرى ، واستأذن منا الدكتور محسن ، وذاب فى الزحمــة عن عيوننا ، وهرع كل الناس الى حلقة الصيد ، واتخذ كل منهم لنفســه وقفة أو جلســة .. ثم عــاد الجرس فدق مرة أخرى دقــة واحدة ، فالتزم الجميع الصمت وران على المكان سكون عميق .

كان الصيد قد بدأ .

لأول مرة فى حياتى كنت أشــهد عملية الصيد هذه .. كان الشعور بالغربة يملأنى .. وفى بعض اللحظات .. كان يخيل لى ان الناس كلهم من حولى يحسون بأنى غريب عليهم .. ودخيل على عالمهم هــــذا .. وكنت أحيانا أختلس النظر الى من يجلســون أو يقفون بجوارى ، فلا أجد أحداً يرمقنى بنظرة ، أو حتى يحس بوجودى .

كان الجميع لاهين بترقب المعركة المنتظرة ، فرحت أنــا الآخر اترقبها ولكن بغير حماس ، وبودى لو تنتهى فى لحظــة ، ويعود لنا الدكتور محسن ، ونتكلم فى الموضــوع ، وننتهى منه على أى وجه ، ثم أغادر المكان عدوا ، الى أعماق مدينتى .

وابتدأ الصيد .

كان هناك شاب أحمر الوجه ، واقفا داخل الحلقة ، ومصوبا فوهة بندقيته الى الأرض بشكل غريب أثار فضـــولى ، فمضيت أرقبـــه .

وفجأة .. لوح رجل براية حمراء ، فخرجت حمامة صغيرة سوداء من حفرة فى العشب ، وانطلقت فى فزع فى الفضـــاء . وتبعها الشاب الأحمر بفوهة بندقيته .

وأطلق رصاصة .. وسكنت حتى الهمسات .

ثم انطلقت الرصاصة الثانية ، واشرأبت الأعناق .

ثم انطلقت الثالثة والأخيرة .. لكن الحمامة الســـوداء ظلت ترفرف فى الفضـــاء ، ورأيتها تبتعد مفزوعة فى اتجـاه مبـانى المدينة البعيدة .

ودون أن أحس .. وأنا أتتبع الحمــامة بعينى ، وجدتنى أتذكر .. أنا واقف فى بلكونة بيتى فى الســـيدة زينب ، وطفـلى الصغير واقف بجوارى ، يشير فى نشوة وفرح الى سرب من الحمام تعود أن يحلق ساعة العصر من كل يوم حول الأبراج القريبـــة من سطح بيتنا ، ويهلل فى طرب ويصيح .. « الله .. شايف الحمــام يا بابا .. أنا باحب الحمــام يا بابا .. اشترى لى حمامة والنبى يا بابا » .. ويظل الصغير يرقب الحمام بعيونه الطفلية الفرحة المنبهرة ، حتى يهبط الغروب على الحى .. وتنتشر العتمة ، فيهبط الحمام عائدا الى برجه فى سكينة وأمان .

هــذه الحمامة الهاربة ، المتخبطة فى الفضـــاء من الفزع .. لو تطير .. وتظل تطير .. حتى تقترب من بيتى ، وتحط على بلكونة شقتى ، وتأنس الى طفلى الصغير .

غير أنى افقت على الضجة وهى تعلو وتتزايد من حولى .. كان البعض يزوم فى حسرة وأسف ، والبعض يهلل .. ثم سمعت أصواتا تقول :

ــ « دور الدكتور محسن .. آخر دور .. دور واحد .. بخمسة وسبعين جنيه » .

وتوجهت ببصرى الى الحلقة ، كان محسن بيه واقفا بقامته المديدة مصوبا بندقيته ناحية الحفرة التى ينطلق منها الحمام ، على أهبة الاستعداد لأن يطلق رصاصته .. كان وجهه لحظتها أشبه بصقر يكاد ينقض ، ومنظره يوحى بثقة لا حد لها .. ثقة فى انه قادر على أن يفعل اى شيء فى هذه الدنيا .. أى شيء .. بما فى ذلك ايجاد عمل لى .

ولوح الرجل بالراية الحمراء .. وأمسك الجميع أنفاسهم مرة أخرى .. انطلقت من الحفرة حمامة بيضاء ، وطارت ترفرف مذعورة فى الفضاء ، وتبعها محسن بيه بعين بندقيته .

كانت اعصابه من فولاذ .. وما أن أطلق رصاصته ، حتى هلل الجميع على الفور وصعدت من حناجرهم أصوات أشبه بالهتافات رجت أرجاء الفضاء .

كانت الرصاصة قد أصابت الحمامة من اللحظة الأولى .. رأيتها تتجمد برهة فى الفضاء وكأنها صعقت ، ثم انتفضت انتفاضة خاطفة ، ثم هوت على الأرض ، واستقرت على العشب الأخضر بلا حراك .. وعلى نفس العشب ، كان محسن بيه واقفا كالعملاق .. يبتسم ، ويتحفز .

انقبض قلبى .. احساس عميق بالخوف وبالتشاؤم غمر نفسى .. وتذكرت طفلى .. لو كان معى الآن هنا ، لجرى نحو الحمامة ، واحتضنها وراح يبكى .

ورحت أبحث بعيني عن الحمامة المقتولة .. كانت راقدة .. بيضاء على العشب الأخضر . بلا حراك .

زاد احساسي بالضياع ، وبالخوف من شيء مجهول يكاد يدهمني ، ويقضي على .

التفت الى « حامد بيه » .. خيل لى أننى سأرى على وجهه الألم لمقتل الحمامة الصغيرة .. لكن وجهه الطيب النحيل كان يبتسم .. كان يبدو فى غاية السعادة والطرب .. والتقت عيناى بعينيه ، فقال لى « شايف محسن بيه .. رجل مدهش .. مدهش .. الضربة منه لازم تصيب » .. قلت وأنا ازدرد ريقى .. « تمام .. تمام » .

وحول بصره عنى الى الحلقة .. كان الصمت قد خيم مرة أخرى على فضاء النادى .. وارتفعت الراية الحمراء ثم انخفضت .. وانطلقت حمامة .. ورفرفت فى الهواء .. لكنها قبل أن تحلق عاليا ، كانت الرصاصة قد أصابتها .

لابد أن الرصاصة جاءتها فى مقتل .. فى الرقبة أو فى القلب .

وغاص قلبى .. ومن حولى ثارت عاصفة مجنونة من التصفيق والصياح وقام حامد بيه وقعد على كرسيه مرات ومرات ، وظل يهتف متهللا ومنتشيا .. « برافو .. برافو محسن بيه » .

ويبدو أن محسن بيه سمع صياحه ، فنظر الينا فى زهو ، وراح يهز لنا بندقيته ، شاكرا ومحييا .

كل العيون كانت تنظر اليه ، حتى عيون الصبايا والنساء

الجميلات . وغير بعيد عنه كانت الحمامة المقتوله ــ مثل أختها ــ هامدة على الأرض .. ولكن فيها بقايا حيـاة .. أجنحتها تنتفض لحظة ، ثم تهمد حركتها على العشب لحظة أخرى .. وتقدم رجل يلبس طاقية وجلبابا ومشى نحوها ، وما أن اقترب منهـا حتى تناولها في يده . ثم أخرج سكينا من جيبه .. وذبحها .

آه .. قتلوا الحمامة يا طفلى الصغير .. ثم ذبحوها .

وبكى قلبى فى صمت .

كان أسم محسن بيه يتردد حولى على كل لسان ، ومـال حامد بيه برأســه نحوى ، فأفقت من ذهولى ، وقال لى وهو لايزال فى قمة نشوته :

ــ الظاهر ان حظك عال .. مزاج محسن بيه باين عليـه النهارده مدهش .. فاضل الحمامة الثالثة .

الحمامة الثالثة .. سيقتلونها يا طفلى الصغير .. ويذبحونها أيضا بالسكين .

كان محسن بيه متحفزا لها ببندقيته ، يريد أن يصعقهـا بمجرد أن تطل على الدنيـــا من الحفرة .. وارتفعت الرايـة الحمراء .. وانطلقت حمامة ملونة ، وانطلقت فى أثرها رصــاصة . لكن لم يحدث أى تهليل .. خيم على الجميع صمت عميق ، وظلت الحمامة ترفرف فى الفضــاء ، ورفرف قلبى لمنظرها فرحا .. « يارب » .. كنت أدعو فى سرى أن تفلت الحمامة من المصـير المفجع .

غير انه كان باقيا لمحسن بيك رصاصتان .. انطلقت الثانية عقب الأولى على الفور .. لكنهـا طاشت هى الأخرى ، وسمعت حامد بيه يقول فى حسرة ويمصمص بشفتيه .. « خســارة .. دلوقت مزاج محسن بيه حيضيع .. »

مزاجه يضيع .. ! ؟ . معنى هـذا ان موضوعى هو الآخر سيضيع .. تتابعت انفـاسى .. لا .. يجب ان يصيبهـا .. يجب أن يقتل الحمامة .. وانطلقت عيناى مع كل العيون ارقب الرصاصة الثالثة .. لابد أن يصيبها .. يارب يصيبها .

كانت الحمامة قد ابتعدت عن مكانه بكثير .. ولكنهـا لم تكد تقترب من حدود الحلقة ، حتى انطلقت الرصاصة ، ورأينـا الحمامة تتلوى وتهوى متطوحة الى الأرض ودون أن تتعدى الخط المرسـوم .

وبلا وعى .. وجدتنى اقفز من على الأرض وأصيح مع الجميع كالمحموم .. « هيه .. برافو .. برافو محسن بيه » .. ورأيت البعض يعانق محسن بيه وهو يلوح ببندقيته بحمـاس ليرد على الصيحات والتحيات ، والنصر يلمع فى عينيه .

وفجـأة ، أحسـست وكأنى افيق من حلم مفزع ، وانتابنى وجوم شديد .. أحسـست أننى فى حاجة الى أن أغيب فى عـالم من الصمت لا حدود له ولا قرار .

كان قلبى يبكى على الحمامات الثلاث . وكانت صـورة طفلى الصغير تتراءى لى وهو يبكى معى ويقول .. « الراجل ده وحش يا بابا .. ليه يقتل الحمامة يا بابا .. »

وأطرقت برأسى فى وجوم . كنت قد فقدت حماسى لكل شىء .. لم أعد متحمسـا لا لمقابلة محسن بيه ، ولا للكلام معه ، ولا حتى للعمـل ، ولا لأى شىء فى الحياة .. وحتى بعد أن جاء الرجل وجلس معنا ، وكتب لى كارتا أذهب الى صـديق كبير وحميم له فى احدى الشركات الزراعيـة ، كنت كالمذهول ..

أخذت الكارت فى يدى وتركت النادى ومضيت الى الشـــارع أمشى على غير هدى .

كانت أصوات الرصـــاص لاتزال تدوى فى أذنى .. ومنظر الحمامات الثلاث فى عينى ؛ هامدة على الأرض مذبوحة .. بلا أدنى حراك . وخــوف غريب يطبق على ؛ من أن تأتينى من الخلف رصاصة مجهولة فتصرعنى .. وتنهى حيــاتى التى طال بهــا التشريد .

« ١٩٥٧ »

هدد ؟ ! لا .. انهيار

كان من الصعب أن أتصور أن الأستاذ رياض هذا وصاحب هذه الجثة الضخمة كلها شاب فى الرابعة والثلاثين .

فحين ذهبت اليه فى مكتبه أول يوم لأتسلم منه عملى فى الشركة ، وجدت كل ما فيه مكتظا باللحم .. أردافه الضخمة تثقل خطواته وتعوق حركته عن السرعة ، ونقاطيع وجهه الأبيض الأملس ملظلظة ومتداخلة ، وعيناه تبدوان من ثنايا جفونه المنتفخة كخرزتين سوداوين لامعتين تتأرجحان فى كل اتجاه .

كانت مهمتى عسيرة معه .. فمن أول لحظة كان على أن أتفهم نفسيته لكى أكتشف أحسن طريقة للتعاون معه ؛ وأضمن بذلك لنفسى مستقرا فى العمل .

وكنت قد التحقت بهذه الشركة بوساطة أحد أولاد الحلال .. ولما كان مؤهلى الرسمى الوحيد للأسف . هو ليسانس الحقوق ، فقد عينت بها تحت بند قلم القضايا .. ذلك القلم الذى لم يكن يشغله انسان سوى الأستاذ رياض هذا ولا غير .

لم أكن فرحانا لأنى عينت فى عمل مثل هذا .. بالعكس ..

كنت احس أنه رمية قاسية رماني بهذا القدر ولا مفر منها. كنت أكره المحاماه من كل قلبى .. فقد مارستها من قبل أكثر من سنتين ، وعصرت فيها نفسى لكى أقف فى ميدانها على قدمى وأجرب فيها معنى النجاح .. غير انى كنت مصابا بمرض عضال .. مرض التأمل فى الحياة والأحياء وتسجيل خواطرى .. وقد وجدتنى أسجل كل يوم .. فيما أسجل ، كرهى لمهنتى .. ثم وصلت ذات يوم الى تعريف بسيط لها ، وهى انها مهنة لا تزدهر فيها أحوال المحامى الا بازدهار المشاكل بين البشر ، ففاض كرهى لها ، وهجرتها هجرانا تاما .

ولكنى ــ لسوء الحظ او لحسنه لا ادرى ــ كنت متزوجا ولى ثلاثة أطفال وبيت مفتوح .. ولكى يظل هذا البيت مفتوحا ، والأحياء أحياء ، كان من المحال أن اظل منطلقا فى الشوارع أتأمل الحياة والأحياء وأسجل أفكارى وخواطرى .. كان لابد لى من عمل أضمن منه موردا ثابتا كل شهر ، وقد فشلت فى ذلك زمنا طويلا .. وفى النهاية لم أعثر الا على هذا العمل ، وتحت رئاسة الأستاذ رياض هذا ، فقبلت وأنا مرغم وحزين .

ومن أول يوم ذهبت فيه لأستلم منه عملى ، عزمت على أن أفتح له قلبى ، وان أبحث عن السبيل الى قلبه هو الآخر .

وفى لقائنا الأول ، رأيته جالسا خلف مكتبه فى هدوء ، فخيل الى أنى أمام طفل ضخم وأليف .

استبشرت خيرا بالعمل معه .. فقد أزاح الكرسى الذى يجلس عليه ، ووسع لنفسه فراغا يقف فيه ، ثم نهض يستقبلنى وعلى وجهه ابتسامة لطيفة ، وسلم على مرحبا ، ثم جلس الى مكتبه وبدأنا الحديث .

غير أنى فوجئت بابتسامته تنطفىء وتمحى ، واتخذ وجهه طابعا جادا ورزينا لا يتسق لظلظته ، وبدأ يتكلم .

ومن أول لحظة ، داخلنى شعور خفى بعدم الارتياح .. كان يكلمنى دون أن ينظر الى .. وكانت شفتاه تتحركان .. ويداه تشاوران ، أما عيناه فكانتا مثبتين على زجاج مكتبه .

والغريب أنه سبقنى فتكلم فيما كنت اريد أن أتكلم فيه .. حدثنى عن التعاون وروح الزمالة والعمل المشترك . وركزت انا الآخر على هذه المعانى واكثر ، ووصل بى الحماس انى صارحته بأنى أرجو أن اخفف عنه كثيرا من عبء العمل .. واريحه .

كنت اكلمه ووجهه الى مكتبه ، وعيناه على الزجاج .. وقد أعطانى وضع وجهه هذا فرصة لأتلمس صدى كلماتى فى نفسه ، وأتأمل ملامحه اكثر واكثر .

كانت بشرته بيضاء مشربة بزرقة خفيفة جدا ، واذناه كبيرتان ومفرطحتان بشكل يلفت النظر ، وكان تعبير وجهه جامدا ، حتى بدا لى أنه ينتظر بفارغ الصبر انتهائى من كلامى .

وحين انتهيت من كلامى وحماسى ، رأيته يجوب بخرزتى عينيه فى جدران الحجرة ويقول :

— المفروض يكون مكتبك معاى فى الأوضة هنا .. لكن للأسف زى ما أنت شايف .. المكتبة القانونية بالعة الأوضة .. ويستحسن يكون مكتبك فى الأوضة اللى جنبى .. وحنكون قريبين من بعض على كل حال .

كانت هذه اول مناسبة أعرف فيها معنى التعاون وروح الزمالة من وجهة نظره .. ومع هذا لم أعبأ كثيرا .. المهم عندى ان أعمل فى أى مكان ، وبأى صورة تكون .

ذهبت الى مكتبى الجديد فى الحجرة المجاورة ، واسندت ذقنى على يدى انتظر منه عملا .. ولم يطل انتظارى .. فقد شاهدته يدخل على الحجرة وفى يده بعض ورقات ، ومن خلفه

فراش الشركة يحمل بين ذراعيه آلة كاتبة .. ثم لم يلبث أن وجه لى الحديث : انت عارف ان فى الشركة قضايا كثيرة وخطيرة .. وبعضها يحتاج لنوع من السرية . عشان كده أنا شايف انك تعاونا فى كتابتها على المكنة .. مذكرة مثلا ، عريضة دعوى ، انذار ، الحاجات اللى انت عارفها دى .. انت زميل طبعا وفاهم كل حاجة .

فى تلك اللحظة فقط تنبهت الى خطته الماكرة .. أن يحولنى من محام فى قلم القضايا الى تايبست قلم القضايا .. فما العمل ؟

كان المفروض بالطبع أن أقطع عليه خط الرجعة ، وأحدد الأمر بينى وبينه بجلاء ، لكننى لم افعل .. ! .. لقد فرحت من أعماقى بخطته هذه .. وتقبلت طلبه برضا ، بل وتمنيت فى نفسى أن يقتصر عملى معه على الآلة الكاتبة ، فأظل بعيدا عن جو القضايا .. ودراسة المواد والنصوص ، تلك التى أمقتها من كل قلبى .

بل أنى فرحت بالماكينة فرحا شديدا .. وتصورت نفسى فى أوقات الفراغ وأنا أدق عليها لمزاجى وأسجل خواطرى وأفكارى ، والمسألة كلها من أولها الى آخرها « أكل عيش » .

هكذا استقر الوضع من أول يوم ، دون أن نتفاهم فيه بصراحة .. تفاديت أن أكون محاميا ، وتفادى هو أن أكون منافسا للعرش الذى يجلس عليه .. ولكى يغطى موقفه معى ، كان دائما وهو يقدم لى شيئا أكتبه ، يركز على كلمة « زميل » .. انت زميل طبعا وعارف .. ما تفتكرش ان كتابة مذكرة زى دى على المكنة حاجة بسيطة .. والتايبست ما بتفهمش فى القانون وتغلط كتير .. لكن انت يوم ما تلقى غلطة حتصححها على طول .. لازم انت تتصرف ، والأمور تمشى على طول .

كنت ابتلع كلامه عن طيب خاطر ولا أعقب عليه .. وسارت العلاقة بيننا هكذا فى صمت .. أنا فى حجرتى أدق مذكرة أو عريضة على الآلة ، أو غارق فى ذهولى أو فى تسجيل خواطرى وأفكارى ، أما هو فكنت اراه رائحا غاديا يترجرج ، كأنه فرح بجثته وشبابه .. وقد حدث أن سافر المدير الى الخارج لمدة شهر ، فازدادت حركته وعلت ضحكاته وكثرت تنقلاته .. كان يحدث فى كل حجرة يذهب اليها ضجة .. والأستاذ راح يا أولاد ، و « المتر » جه يا أولاد ، وتليفون للأستاذ .. وفنجال شاى « للمتر » قوام .

كان كمن يتنقل على عرش بين رعاياه وقضاياه .. أما أنا فبقيت ساكنا غارقا مع نفسى .

أحيانا ، كانت ضجته تثير فى نفسى شعورا بالاستفزاز وبالرغبة فى الصراع معه .. كنت حينذاك أتخيله بالونة منفوخة ضخمة لو شككتها بطرف ابرة صغير لتقلصت وتكرمشت فى نفس اللحظة .. غير أنى كنت امسك نفسى .. ان الصراع معه صراع من نوع سخيف ، والنصر عليه أسخف .. وأيامى فى هذه الشركة مهما طالت ، فهى موقوته .. ولن يلوح لى بصيص عمل آخر يتجاوب مع روحى الا وسأوليهم ظهرى هاربا بلا ندم .

لذلك تركته يصول ويجول على عرش قضاياه ، وبقيت هادئا فى ركنى ، مع ماكينتى .

وذات يوم خال من العمل تقريبا ، جائنى فى آخر وقت ؛ وقبل انتهاء اليوم بربع ساعة تقريبا ، وطلب منى فى حرارة زائدة ان أدق له قبل أن اخرج ، عريضة على الآلة الكاتبة .

وكعادته دائما حين يطلب منى طلبا عاجلا ، راح يعبر لى عن احترامه لعملى .. « والله لو سمحت يا أستاذ فلان ..

ونشاطك المعهود والله يا أستاذ .. الخ من تلك الكلمات الخداعة الجميلة » .

ورغم أننا كنـا بعد الغروب ، والوقت متأخر ، وطبقـات الظلام بدأت تتراكم خلف زجاج النافذة عن يمينى ، الا أن طلبه هذا أنعش روحى بعض الشيء .. فعملى فى ذلك اليوم كان قليلا، وقد حاولت منذ الصباح أن أنتهز فرصـة فراغى وأكتب بعض خواطر لنفسى على الماكينة ، لكن ذهنى وجسمى كانا قد تخشبا من طول الفراغ .

تناولت منه صـورة العريضة وبدأت أدق على الآلة ، كلمة كلمة .. « انه فى يوم .. وأنا محضر محكمة .. وفى تاريخـه أعلاه .. وحيث أن .. الخ »

ظللت اكتب وراسى مركز فيما انقل .. لم أكن أريد الشرود حتى لا أخطىء فى شيء فاضطر لاعـادة ما كتبت ، حتى وصلت الفقرة التاليـة .. « وحيث أن الشركة المعلن اليها قـد اخلت بالتزاماتها المنصوص عليها فى العقد السالف الذكر .. وحيث انه نتيجة لهذا الاخلال ساءت حال جميع المبانى الى درجة يخشى عليها من الهدد » .

هـدد .. ؟ !

لم تكد عيناى تقعان على هذه الكلمة حتى توقفت يداى عن الحركة وبقيت أصابعى مفرودة فى الهواء فوق أصابع الماكينة .

ما كلمة « هدد » هذه .. ؟ وما موقعها من هذه الجملة . ؟

وعدت أفكر مرة أخرى فى كلمة « هدد » .. وفى الحـال تخيلت رجالا شمروا عن سـواعدهم ، وامسكوا بفؤوس ومعاول وراحوا يضربون بها فى جدران بعض المبانى ويهدون فيها .

نعم .. هذا هو الهدد .. أن يكون بفعل انسان ، وهـذا ما لا ينطبق على تلك الحالة المذكورة فى عريضة الدعوى .

لا .. انسب كلمة هنا ، هى .. « الانهيار » فتكون الجملة هكذا .. « .. وحيث انه نتيجة لهذا الأخلال قد ساءت حال جميع المبانى الى درجة يخشى عليها من الانهيار » .

تمام .. بهذا يكون المعنى مضبوطا .. وانتابنى احساس شديد بالزهو .. احساس يتيم لم أحس به من قبل طوال عملى فى هذه الشركة ، ومضت أصابعى تدق من جديد .

الغيت كلمة « هدد » وكتبت بدلها كلمة « انهيار » . غير انى لم البث أن توقفت عن الدق مرة أخرى ، وجعلت أسائل نفسى .. « هـل انبه الأسـتاذ رياض لهذا التغيير » . ؟ ! .. طبعا ، فواجب الأمانة فى العمل يقتضى ذلك .. ولكن .. ربما يركب راسه ، ويتذكر عرشـه ، فلا يوافق على التغيير ، ويطلب منى اعادة كتابتها مرة أخرى .

لا .. لا .. الأفضـل الا انبهه ، فالوقت قد تأخر ، والظلمة اصبحت تغطى زجاج النافذة ، وآن لى إن أخرج الى الشـارع لأتنفس الهواء الطلق وأصافح وجوه البشر !

لن أنبهه .. وقطعا ستفوت عليه .. فلو كان يعرف المعنى الحقيقى للكلمة ، لمـا كتبها بالتأكيد .

وعدت أدق من جديد .

ويبدو انه كان معجبا جدا بكلمة « هدد » هـذه ، فكررها كثيرا .. وكنت كلما قابلتنى فى سطر من السطور ، غيرتها من تلقاء نفسى على الفور وكتبت بدلا منها « انهيار » .. حتى يحدث اتساق فى معنى العريضة كلها .

ولم اكد انتهى من الكتابة واخرج الأوراق والكربون من الماكينة واشرع فى ترتيبها ؛ حتى رايته يدخل على والقلق باد على وجهه .

ــ هيه .. خلصت .. ؟ ! عــال .. تسمح بقى علشـــان اعرضها على المدير ؛ أحسن قاعد منتظرها مخصوص .

ــ اتفضل .. بس إنا غيرت كلمة بكلمة .

قلت منى الاعتراف فجــأة ودون أن أدرى .. وبدا عليـــه وقد اصيب بذعر مفاجىء ؛ وانقلبت بشرة وجهـــه وازدادت زرقة وقتامة ؛ ثم قال وكأن كارثة قد لحقت به « كلمة ايه اللى غيرتها » ! ؟ ! انت مش عارف انها رايحة المدير . ؟

قلت وأنا ابتسم له ابتسامة مهذبة واشير بأصبعى على احد السطور .. « لقيت كلمة « هدد » غير مناســـبة .. فكتبت بدلها كلمة « انهيار » .

اكفهر وجه .

ــ يعنى ايه غير مناسبة . ؟ أنا اللى كاتب العريضـــة وعارف أنا باكتب ايه .. طيب لازم تتغير كلها من أول وجديد . اتفضل .

قلت له فى هدوء بالغ :

ــ حصل خير على العموم ، أصلى كنت فاكر أن لى الحق فى التصرف .. انت نفسك اللى قلت كده ، لكن ..

ورأيته يفتح فمه ليرد على كلامى مقاطعا ومحتجا ، غير أنه عاد فقفله ولزم الصمت وراح يجذب انفاســـا متتابعة من سيجارته حتى خيل الى إنه مصـــاب بضغط الدم ويخشى عليه ، فآثرت السكوت ، خصـــوصا وأن المشكلة بدت لى سخيفة لا تستحق جدلا أو نقاشا ، فتناولت منه الأوراق وقلت متراجعا « على كل

حال أنت اللى شايف المبانى وعارف حالتها .. أنت أدرى بالموضوع » .

ويبدو أنه استراح قليلا لتراجعى ، فصفت زرقة وجهه قليلا ، ثم جذب نفسا سريعا من صدره وقال بحماس : « شوف .. ما تفتكرش انى باكتب أى كلام .. انا دايما أحب أدقق فى الفاظى .. ومش فى الفاظى بس .. فى حياتى كمان .. كل المحامين زى ما أنت عارف يحبوا المبالغة فى استعمال الألفاظ .. أنا بالعكس .. ما أكتبش الا الحقيقة .. وفى الموضوع بتاعنا ده ، أنا فكرت فعلا فى كلمة « انهيار » .. لكن لقيت فيها تهويل ومبالغة .. ليه .. ؟ أقول لك ليه » .

ومضى يشرح لى الفرق بين كلمة « هدد » وكلمة « انهيار » .. غير انى لم أفهم منه شيئا ، بل وجدته يتخبط ويتناقض ويكاد يصل الى نفس رأيى .. ولمحت بوادر الحيرة والحرج ترتسم على وجهه فأسرعت أتدارك حيرته وحرجه .. وقلت له مؤمنا على كلامه : « تمام .. تمام يا أستاذ رياض .. هدد مظبوط » .

وارتسمت على وجهه شبه ابتسامة باهتة ثم تركنى وخرج .. وجلست الى الماكينة لأدق العريضة من جديد .

كان موعد الخروج من الشركة قد فات منذ وقت طويل .. وليل الشتاء كالعادة هبط مبكرا ، والموظفون كلهم خرجوا .. وبقيت أدق على الماكينة وحدى .. وحانت منى نظرة الى نافذة حجرتى فوجدت طبقات الظلام متكاثفة ، والدنيا سكون ، ولا صوت من حولى سوى نقرات الماكينة تدق فى راسى وتملأه بالضجيج ، فضاعفت من سرعتى لأنتهى من العريضة ، وانطلق الى الشارع اشم رائحة الحياة والناس .

لابد أن مسا من الجنون قد أصابنى بعد ذلك ، فقد وجدتنى

حين قاربت نهـاية العريضـة أتوقف عن الكتـابة وأضحك . أضحك على نفسي وبصوت عال .. لقد تنبهت فجأة الى انى وقعت فى سهو فظيع لا يغتفر . كنت قد أعدت كلمة « انهيار » فى سطور كثيرة .

كانت الكلمـة قد التصقت بعقلى .. ونسيت كلمة « هدد » هذه بالمرة .. !!

شعرت بسخرية مريرة من نفسى : الآن .. ماذا أصنع . ؟ !

لابد أن أعيد للكتابة مرة ثالثة ، وذنبى على جنبى .

وجئت أغير الورقة المكتوبة بأخرى بيضـاء خالية ، لكنى رأيته واقفا على الباب وكل ما فيه يتعلق بالارتباك .

ـ هيه .. خلصت . ؟ !

قلت وانا أدارى خجلى : للأسف .. غلطت تانى . نسيت وكتبت انهيار .. وصرخ .. حتى انى خفت أن يفقد رشـده ويسقط بجسمه الضخم على الأرض ويغمى عليه .

ـ انت بتحتقر كلامى ؟ يعنى إنا مش عارف أكتب عريضة دعـوى يا ناس ؟ وماتعملهاش الا لمـا يكون المـدير واقف على دماغى ؟ طيب .

قال (طيب) .. وفهمت من نبرته أنه يهدد .. عند ذلك فقط خرجت عن صمتى .. ان المسألة تتطور .. ويجب أن أتكلم وأدافع عن موقفى .

ـ شوف يا أستاذ رياض .. الأوضـة دى أولا ماتزعقش فيها .. ثم أنا يا أخى مش مقتنع بكلمـة « هدد » دى .. وعشان كده كتبت « انهيار » تانى ، كده من غير ما أحس .

ـ يعنى كـلامى مالوش قيمـة .. طرطور أنـا فى قـلم

القضايا .. تعال حضرتك اقعد مطرحي .. انا اصلى كنت فاهم من اول يوم .

وعاد يصرخ بصوت عال .. غير أن صراخه لم يلبث أن احتبس فى حلقه فجأة ، حين احس بالباب يفتح من خلفه ، ورأى المدير واقفا بطوله وعرضه فى فتحة الباب ينظر الينا فى صمت وشموخ واستنكار .

ــ ايه الحكاية .. الظاهر انها وكالة .. مش شركة .

كانت هذه أول مرة ارى فيها الأستاذ رياض وجها لوجه مع المدير ، ولم يأخذنى العجب حين رأيته يرد عليه وهو مطأطأ الرأس وصوته خاشع يتحشرج :

ــ انا خلاص يا سعادة البيه .. مش قادر اتعاون معاه ابدا .

ونظر لى المدير فى شموخ . يسألنى بعينيه ، غير أنى لم أتكلم .. لم يكن عندى أدنى حماس لكى أدافع عن نفسى .. انها قضية تافهة .. وكل ما هو حولى ممل وتافة .. والأستاذ تافه .. وسيأتى اليوم الذى أتركهم فيه دون أن أودعهم بكلمة شكرا أو حتى كلمة عتاب .

ــ وعاد المدير يسأل .. « ايه الموضوع .. أنا مش فاهم حاجة » .

ــ عريضة الدعوى يا سعادة البيه .

ــ مالها .. اتكلم على طول .. فيه ايه .

ــ قاعد يغير فيها ويبدل على مزاجه .. ودى مسئوليتى قدامك يا سعاد البيه .. وبان على وجه المدير التجهم والغضب .

ــ يغير فيها .. ؟ ! دى عريضة بخمستاشر ألف جنيه .

وشاع خوف غريب على وجه رياض وقال بصوت متراجع :

ـ على كل حال سعادتك تستريح .. والعريضة حتوصلك حالا .. وسليمة .

ـ استريح .. استريح يا حضرة ، دول خمستاشر ألف .. ورينى .

ـ وتناول منه العريضة ، ونظر اليه مستفسرا .

ـ فين التغيير اللى عمله . ؟ !

ورأيت أصابع الأستاذ رياض تمتد وتشير على الورقة شبه رعشة :

ـ كان المفروض يكتب هنا كلمة « هدد » .. لكنه كتب « انهيار » .

ـ هيه .. وغيرها .

ـ لا يا سعادة البيه .. مفيش غيرها .. بس كررها كتير .

وسكت المدير ، واخذ يقرأ العبارة على مهل وباهتمام .. مرة .. ومرتين .

ـ طيب وفين الغلط . ؟ الجملة ماشية سليمة .. « الى درجة أصبح يخشى معها على المبانى من الانهيار .. كلام سليم .. قصدك فين التغيير » ؟

قال رياض متلجلجا وعيناه منخفضتان .. « لأ .. أصل كان المفروض يكتب العملية هدد » .. لأن العملية مش انهيار .. العملية هدد .

ونظر اليه المدير فى استغراب ، وارتسمت على وجهه الشامخ ابتسامة سخرية :

ـ هدد ازاى بقى يا أستاذ ؟ !

والجم رياض .. ظل مطرقا فى صمت ووجوم ، وراح المدير

يقرأ العريضــة التى كتبتها اول مرة ؛ من أولها لآخرها ، حتى انتهى منها ثم قال لى وهو يهز رأسه فى رزانة ووقار :

ــ الكلام مظبوط .. ومن غير كده ما تنفعش .. ثم رد العريضة الى رياض وقال فى جفاء .. « ابقى هاتها لى فى المكتب » وخرج .. ولم ألبث أن رأيت رياض يخرج خلفه بجسمه الضخم فى سكون ووجوم . فنهضت من مكانى لكى الحق به ، واستوقفه واقول له صادقا من قلبى :

ــ أنا آسف .. آسف والله يا أستاذ رياض .. أنا ماكانش قصــدى .

لكن الأســتاذ رياض كان يتبع المدير فى الصــالة الطويلة الساكنة . بخطوات بطيئة متعثرة تدعو للرثاء .

وما أن دخل حجرة المدير وغاب عن بصرى ، حتى أحسست بانقباض ثقيل يملأ روحى ، فانتفضت خارجا الى الشارع ، متمنيا اليوم الذى أستطيع أن أترك فيه هــذه الشركة بمن فيها ، دون أن أودعهم بكلمة شكر أو كلمــة عتاب .. ولكن .. ربما يوما أقول كلمة اعتذار .. للأستاذ رياض ، ثم أمضي أبحث لنفسى عن موقع جديد فى الحياة .

« ١٩٦١ »

الرجل الذى ضحك

شخص واحد فقط ، ظل جالسا الى مكتبه الصغير فى ركن الحجرة لا يتحرك ، وكأنه لم يسمع بالخبر .

الخبر : أن مدير المؤسسة ــ واسمه الأستاذ ماجد ــ أصيب باحتقان شديد فى زوره ، فاضطر الى الرقاد فى المستشفى عدة أيام لاجراء عملية لاستئصال اللوزتين .

كان الخبر قد وصل الى المبنى الكبير المطل على الميدان الواسع المزدحم المستدير ، فحدث على الفور نشاط مفاجىء فيه .. الموظفون تركوا مكاتبهم .. وراحوا يلتقون شللا شللا فى الحجرات وعلى السلالم وفى الطرقات ويتفقون : متى يزورون المدير فى المستشفى ، وأين يلتقون قبل الذهاب .

واحد فقط ، فى كل هذه الضجة ، ظل جالسا الى مكتبه فى وجوم لا يتحرك .

هو يوسف خليل .

كان يوسف خليل يقول لنفسه وقد أضنته الحيرة .

هل أذهب .. أم لا أذهب ؟ !

ان زيارة مثل هـذه للأستاذ ماجد ، لاشك شيء جميل .. ولكن ، هل من حقى فعلا ان ازوره ؟ .. ام انهـا حكايـة واجب ، ولابد .. لابد ان أؤديه ؟

وخرجت من صدره زفرة .

لكم يضنيه نوع العلاقة التى بينه وبين مديره .. الأستاذ ماجد هذا .

أكثر من عامين معه فى العمل ، ومع هذا ، فلا شيء بينهما سوى التجاهل والصمت .. صمت كان يحز فى نفس يوسف ويجرحه .. بل كثيرا ما كان يدفعـه الى التفكير فى أن يترك هذا العمل ، وهـذا المبنى بأكمله وينطلق ـ بكرامتـه ـ فى الشوارع ، حتى ولو تشرد فى الدنيـا من جديد . لكن صـورا من المـاضى كانت تبرز له فجأة ، فينقبض لها قلبـه ، ويسرع فيكبح جمـاح نفسه : لم يعد فى العمر بقية اخرى لاحتمـال التشرد .. وغـدا ، يأتى اليوم الذى يكتشـف فيه الرجـل حقيقته ، فيفتح له قلبـه ، وتنصلح الأمور .. لكن هـذا اليوم أبدا لا يأتى ، وصـمت المدير يزداد عمقـا ويثقل على قلبـه يوما بعد يوم .

وعاد يحدث نفسه .

« لو ذهبت اليه فعـلا وزرته ، الن يقول انى انتهزتهـا فرصه لاجلس معه وأتقرب منه ، وأتملقه ؟ .. أليس من الجائز أن يفكر هـكذا ؟ .. ثم افترض انى لم أزره ، فهل سينتبه لعدم زيارتى ؟

بالطبع لا .. انه لا يحس بوجودى وهو هنا ، قريب منى فى العمـل ، فهل سيحس بى وهو هنـاك ، فى مكان آخـر بعيـد .

لا .. لن أكون طفيليا .

ولن أذهب .

وتجهم وجهه الشاحب فجأة ، واتخذ طابعا صارما ، وانكب مرة اخرى على أوراقه ، وراح يواصل عمله من جديد .

غير انه عاد بعد لحظات فتوقف عن العمل ، وراح ينصت وهو يحملق فى فراغ الحجرة بعينيه شبه الجاحظتين .

كان العاملون لا يزالون يتجمعون حول الخبر ويتفقون على الزيارة .. وتناهت أصواتهم الى سمعه .. كانت تخفت أحيانا وتخفت حتى تبدو فى أذنيه كالهمهمات .. وأحيانا تعلو وترتفع حتى تطغى على أصوات الترام والعربات المنطلقة فى الميدان القريب .. وتحول مجموع الأصوات فجأة فى رأسه الى ما يشبه الطنين .

ما كل هذا ؟

ودهمه شعور بالخوف غريب .. وارتسمت له على الفور صورة أمه العجوز ، فغمره احساس بالأمان .. ربما هى تدعو له الآن من القلب أحر الدعوات .. ذلك هو عملها فى الحياة .. ومرة أخرى ، جذبته الأصوات والهمهمات .. فيها شيء غريب يوحى بالتحفز والانتباه .. يبدو أن مرض المدير ليس مرضا ، وإنما هو حادث .. حادث خطير لا يصح أن يمر عليه هكذا ببساطة ، وعليه أن يراجع تفكيره فيه من جديد .

واضح من كل ما سمع أنه سيكون الوحيد الذى لن يزور .

ماذا لو حدث وتنبه الأستاذ ماجد ــ بشكل من الأشكال ــ لعدم زيارته ؟

صحيح أن الموقف بينهما لن يسوء إكثر مما هو سيء ، لكنها

ستكون ـ على الأقل من وجهة الذوق ـ سخيفة فى حق رجل مريض .

لا لا .. لابد أن أزوره !

ولـكن ..

مع من أزور ؟ !

وبلغ أذنيه فى تلك اللحظـة صـوت ضخم عالى ، فانقبض وجهـه لسـماعه .. كان الصـوت ضخما جدا . وعاليا جدا حتى ابتلع جميع الأصـوات من حوله .. انه صوت « عباس » رئيس القسـم الذى يعمـل فيه .. وتخيله واقفـا وسـط الشـلة .. بجسمه المربع السـمين ، وعينيـه اللولبيتين اللتين تأخذان كل الاتجاهات فى آن واحد ، ويكلمهم بحماس زائد .

ضغط يوسف على أسنانه حتى ارتعشت عضلات فكيه .

آه منه .. الوغد . لمـاذا هو متحمس جدا هـكذا ، وكأنه ذاهب الى فرح أو حفلة عيد ميـلاد ؟ .. أين كان كل هـذا الحماس أو بعضـه ، حين سقط زميلهم الصغير « جبران » مريضـا ولزم الفراش فى بيته أكثر من شـهر ؟ .. لم يزره مرة واحدة ولا حتى سأل عليه بالتليفون .

وهز رأسه كمن يدرك شيئا .

هيه .. « عباس » هـذا دائما يعرف المناسبات التى يقفز فيها .. بل انه لا يقفز ، هو فقط يقف كالجدار ، يحجب الكل وراءه ، والأسـتاذ ماجد لا يرى سـواه .. حتى فى هـذه الزيارة يريد أن يكون هو الوسيط ، يعمل زفة لرئيسه ويتقدمها ، ويتقدم بذلك من قلب الرجل خطوات وخطوات .

لا .. لن أذهب فى شلته .

لن أزور وأمامى جدار .

ولماذا أذهب مع أحد ؟ ..

وكما لو أنه عثر على شيء نادر وثمين كان ضائعا منه ، فانشرح وجهه فجأة ، وتهللت كل ملامحه .. « صحيح .. لماذا لا أذهب وحدى .. نعم وحدى ، دون أن يكون معى أى انسان آخر » ؟ ..

يا لها من فكرة .

اليست هذه فرصة فعلا .. فرصة كانت على وشك أن تضيع ولا يمكن تعويضها .. أجلس مع الأستاذ ماجد لأول مرة فى حياتى .. أجلس معه عن قرب ، وبلا تكليف .. و .. وبالتأكيد سيحدث بيننا أى كلام .. سيسألنى — على الأقل شغلا للوقت — عن أحوالى فى العمل ، وحينئذ أكلمه من قلبى .. أخرج له حبات قلبى .. ويحس بى الرجل لأول مرة على حقيقتى ، ويكون ذلك بداية عهد جديد لى فى العمل .

آه ...

وتنفس بارتياح ، ثم أشعل سيجارة وراح يجذب منها أنفاسا عميقة حارة .

« .. عباس هذا موهوب فى الانتصاب كالجدار ، فلأكن أنا الآخر موهوبا فى القفز من فوق الجدران .. نعم .. يجب أن أكون واقعيا مع نفسى ، فلا ألوم أبدا عباس .. لا ألوم الا نفسى فالحياة صراع ، وعباس لو لم يفعل هذا ، لما استمر وما عاش .. و ..

وكل يتحرك بطريقته .. فلأتحرك أنا أيضا ، ولكن بطريقتى .. ما دمت صادقا مع نفسى فلا يهمنى .. لقد آن الأوان .. لاقفز من فوق الجدار » .

وتدفقت فى عروقه موجة حماس ، فانكب على عمله لينتهى منه ، وبحركة لا ارادية ، مر بيده اليسرى على ذقنه ، فتنبه الى أنه لم يحلقها منذ أربعة أيام ، قال مذكرا نفسه : « لن انسى أن احلقها فى البيت قبل الذهاب .. لابد ان أكون نظيفا وأنيقا بقدر الامكان »

عند يوسف خليل بدلة بنية اللون ، تفتح وجهه الأسمر وتنعشه فارتداها ، وعنده رباط عنق ملون أهداه أياه صديق قديم عاد أخيرا من بعثة فى الخارج فارتداه ايضا .. وحين نظر الى المرآة ، رأى نفسه انيقا ومتفتحا ، فتفتحت نفسه للزيارة اكثر وأكثر ، وغادر بيته .

وبالصدفة ، لم يكن المستشفى بعيدا جدا عن بيته ، فقرر أن يقطع المسافة مشيا على الأقدام .. كلها ربع ساعة ويكون هناك بالضبط فى الموعد الذى حدده لنفسه ! .. كان قد ظل طيلة فترة الظهيرة يفكر ، فوصل الى أن الخامسة مساء هى انسب الأوقات .. تكون زحمة زيارات الصباح قد انتهت ، وزيارات المساء على وشك البداية ، وبذلك يكون هو البادىء فيكون وقعها خفيفا وجميلا على نفس الرجل ، فيستقبله بود وترحيب .

ومضى يسير ..

كان الوقت قبل الغروب بقليل ، ورغم أن الدنيا كانت شتاء ، الا أن الجو كان لطيفا .. لطيفا بشكل محسوس ، والناس يروحون ويجيئون بنشاط .. والسماء ، كانت زرقاء فوق الشارع ، تخطر بها سحابة كبيرة وناعمة وبيضاء .. ولاحظ أن السحابة تتحرك فى نفس اتجاهه ، فأسرع بلا وعى من خطواته ، وضحك لنفسه .. « ليس بعيدا أن أرى هذه السحابة نفسها من نافذة حجرة الأستاذ ماجد ، فأقول له وأنا أتحكم فى ابتسامتى ناظرا الى النافذة .. هذه السحابة نفسها كانت

فوق راسي وانا في الطريق اليك .. تصـور يا أسـتاذ ماجد .. وكنت اسابقها » .

وندت عنه ضحكة صغيرة .. « أيهـا الساذج .. ليس الى هذا الحد يمكن أن يصـل بينكما الكلام .. أنسيت يا يوسف انك ذاهب الى المدير ؟ »

وهبط شيء في داخله .

الكلام فقط سيكون في حدود العمل . يكفي هذا .

وهبت عليـه وهو يسير فوق الرصيف نسـمة منعشـة طريـة ، ذكرته بجو العصـارى في الصيف : فأحس برئتيـه تتسعان ، وخطواته تخف وتسرع .. « فلأشـعل سيجارة » وجذب نفسا طويلا .. « الدنيـا واسـعة .. تجمع الأرض والسحاب ، والنـاس والعربات ، والمرضى والاصحاء في قلبها .. قلبها الكبير الواحد .. فلماذا يحس المرء احيانا إنه وحيد .. وغريب ؟ . يبدو أن العيب عيبي » .

وهز رأسـه ..

بعد قليل .. سيصـل الى المستشفى . وسـيدق باب حجرة الرجل المريض في هدوء ويدخل .. سيجده راقـدا .. شاحبا .. على السرير .. سيطلب منه الا يتحرك .. الا يزعج نفسه حتى بالسـلام ، ويجلس أمامه ، قريبـا منه ، وسيسأله عن صحته ، وسيسأله هو بالتالي عن الأحوال في العمـل .. وحينئذ سيتكلم من قلبه .

آه .. لو أن كل ما في أعمـاقي أستطيع أن أخرجه له : ان الأمر يتلخص في ..

وراح وهو ينظر بشـكل عابر الى واجهـات المحـلات ،

يستعيد فى ذهنه كل الكلام الذى أعده ورتبه مع نفسه طيلة فترة الظهيرة .. سيقوله نقطة نقطة .. لن ينسى واحدة منها .. سيحرص الا يكون فى كلامه أية رائحة للتملق أو النفاق ؛ بل اذا استدعى الأمر سيوجه اليه ــ الى الاستاذ ماجد نفسه ــ بعض الملحوظات .. الى خطته فى العمل .. يوجهها اليه بشكل مهذب ورقيق .. وحينئذ يحس الرجل أن هنــاك وجهة نظر جديدة فى العمل كان من الواجب أن يتعرف عليهــا ويستمع اليها من زمن .. ولكن .. آه منه : « الجدار » .. عباس هــذا .. رئيس القسم .. هو الذى يحول دائمابينك وبين هذه الكفاءات ؛ بل ودائما يذر الرماد على أعمالهم ليطفىء من بريقها فى عينيك ؛ ليظل هو اللامع الوحيد فى نظرك .

لا .. لا .. لن يذكر اسم « عباس » ولا غير عباس .. لن يتكلم عن هؤلاء الذين يتخذون من التهريج البارع ولباقــة الكلام ســتارا يغطون به عجزهم فى العمل ، ثم يصــلون الى أعلى المراكز .. فقط سيتكلم عن توزيع العمل .. عن الكفاءات التى تعيش راكدة فى الظل .. عن الأساليب الرخيصة التى تروج وتنتشر وتهبط بمستوى الانتاج والعمل .. خصوصا .. و ..

ومضى وهو مسرع فى خطواته يستعيد الكلام وينمقه .

فجأة انقطعت خواطره على منظر احدى الواجهات الزجاجية الأنيقة فتباطأت خطواته .. ومر بيده على ذقنه « أليس المفروض فى مناسبة مثل هــذه ، أن يذهب الانسان ومعه هدية .. تحمل المعنى اللطيف والانسانى للزيارة » ؟

وتوقف عن المشى ، وراح ينظر فى الواجهــة .. « علبــة السجائر هذه مثلا » .

وراح يتأملها .. علبــة مستطيلة ومفضضة .. فى حجم الكف .. مرســوم عليها مربعات سوداء .. وفى قلب كل مربع ،

رسمت باللون الأخضر ، ملكة مصرية قديمة ، جالسة على ركبتيها ، تصلى للشمس ، والتاج على راسها ، وفى يدها اليمنى فرعان من زهرة اللوتس .

الله .. ما أجملها ..

ووقعت عيناه على الثمن .

ياه .. ولوى شفتيه .. لو كنا فى أوائل الشهر لفعلتها ، بشرفى ، بلا أى تفكير ولما همنى بعد ذلك كيف أعيش بقية الشهر !!

لو هدية جميله ومعبرة ، وفى نفس الوقت رخيصة .. ما لكل الأشياء الجميلة هكذا غالية !

ووقعت عيناه على حقيبة مفتوحة .. مبطنة بقطيفة ، سماوية اللون ، معروض عليها ـ بترتيب وأناقة ـ محفظة ، وجلدة ساعة ، وحزام ، كتب على ورقة صغيرة مجاورة له .. حزام جلد لازار .

ماذا تعنى « لازار » هذه ؟ كم فى الدنيا من أشياء لا نعرفها. وراح يتفحص جلد الحزام . وتذكر فجأة أن الأستاذ ماجد له كرش ضخم يسبقه دائما فى المسير ، فابتسم لنفسه وهو يكاد يضحك .. يا مفقل .. الأستاذ ماجد قطعا لا يستعمل الأحزمة .. انما يستعمل الحمالات لتعينه على المسير .. واتسعت ابتسامته ، وواصل المسير مبتعدا عن الواجهة .

نعم .. لا داعى للتفكير فى حكاية الهدية هذه ، فالأستاذ ماجد لابد يعرف حالة واحد مثله .. ثم أن العلاقة بينهما لم ترتفع بعد الى هذا المستوى .

فلتكن الزيارة هكذا .. عادية وبسيطة .. من القلب الى القلب ، ولتكن هديته اليه بعض أفكار تعود على العمل

بالنفع .. نعم .. لابد أن يكون معقولا ومتزنا فى كلامه .. لابد أن ينكر ذاته .. وليكن كل اتجاهه فى الحديث خطة جديدة للعمل .. ومرة أخرى .. لا داعى أبدا لذكر أية اسماء بالمرة .. سيقول له .. « رئيس العمل كالمايسترو .. عصاه الصغيرة الأنيقة تشير الى أصغر عازف كما تشير الى أكبر عازف .. نعم يا استاذ ماجد .. عليك أن تكتشف قدرات الجميع وتحتضنها .

مرة أخرى ، تباطأت خطواته ، ثم توقف نهائيا عن المسير وقد ارتفع حاجباه بالسرور .

رأى عن يمينه فاترينة ضخمة عالية من الزجاج ، وخيوط رفيعة من الماء تنزلق عليها وتتسرب فى خطوط متعرجة .. وكل سرسوب ترقص بداخله قطرات صغيرة تتواثب وتتلاحق حتى تصل الى اسفل الفاترينة لتسقى مجموعات زهور ناضرة وملونة .

وتفتحت أساريره .

لو « بوكيه » من هذه الزهور الجميلة ، يحمله اليه هدية ؟ و .. الله لو تكون من زهرة « البانسيه » بالذات . لقد قرأ عن هذه الزهور ذات مرة فى احدى القصص ، وأحبها ثم سأل عنها ، وحين رآها أحبها أكثر .

هيه .. مرة أخرى .. الفلوس .. فليدعه نهائيا من هذا الموضوع ، ويواصل السير فى خط مستقيم .

هم أن يغادر الفاترينة ، لكن قدميه تسمرتا ، وتعلقت عيناه بمنظر جميل : « فازة » صغيرة من النيكل .. تخرج منها ثلاث وردات .. والثلاث صغار .. بلدى .. كلها براعم تكاد

تتفتح .. الله .. اجمل ما فى الحيـاة ، هى الأشياء الصغيرة التى تعطى وعدا بالتفتح والازدهار .

لمـاذا لا يأخذ واحدة منها .. واحدة فقط ، ويقدمهـا اليه؟ ستكون لمسة جميلة بلاشـك .. ودون أن يدرى ، وجد نفسه يدخل المحـل .. غالب احساسه بالخجل وبالارتباك واشترى واحدة من الوردات الثلاث .. وخرج .

استخفه فرح غريب حتى كاد يقفز فى مشيته .. سيقدم له هذه الوردة الصغيرة هدية .. وقد تثير دهشـة الأسـتاذ ماجد فى أول الأمر ؛ لكنهـا ستكون دهشـة الانسان الطيب لكل ما هو صغير وجميل ومؤثر .. وسيعرف أى نوع من الناس ، هو يوسف .

ومضى يوسف يمشى بمرح .

الورد رمز للود بين الناس .. فلتكن هذه هى هديته اليه فى مرضـه .

ولكن .. هل يظل يحملهـا فى يده هكذا ؟ .. يتركهـا تتأرجح أمام الناس بين أصابعـه كأى شاب « عايق » .. فرحان بنفسه ؟ .. اذن ماذا يفعل ؟ .. يلفها فى ورقة ؟ .. لكنهـا رقيقة ، وصغيرة .. لا تحتمل .

وبمنتهى الحـذر . فتح جاكتته ، وبمنتهى الرقـة ، أدخل غصنها الرفيع الأخضر الموزق فى جيبه الداخلى ، وبقيت الزهرة الحمراء خارج الجيب تلامس صـدره .. وأحس بقلبه يدق دقات سريعة وحنونة .

ربما .. ربما يجمع الود كل الناس فى يوم من الأيام .. وتطيب الحياة .. وواصل المسير الى المستشفى .

كان بين الحين والحين يشـــع يده على صـــدر الجاكتـــه ويتحسس الوردة بحنان بالغ ويطمئن عليها . ولم يكن يرى من الأشياء التى تقابله فى الشارع سوى خطوطها العريضة العامة . وأخيرا وجد نفسه أمام باب المستشفى .

لم يتعب فى السؤال عن الحجرة .. قالوا له .. « عند نهاية الممر .. خذ يمينك وستجدها » .

وسار فى الممر .. ممر طويل تكســـوه ظلال هادئه أوحت اليه أن يخفف من وقع خطواته ، وما أن انتهى منه والتفت الى اليمين حيث باب الحجرة ، حتى جحظت عيناه فى دهشـــة وتسمر فى مكانه .

ما هذا ؟ لكأنه فى حديقة للزهور !

أكثر من مائة بوكيه ورد .. وأكثر من الف وردة بلدى مرصـــوصة بأناقة ونظـــام أمام الحجرة . حتى تكاد تسد الطريق اليه .. و .. ووسط الزهور والورود ، عشرات البراعم الصغيرة التى لم تتفتح بعد .

أحس بشىء يســـد حلقه ، وبشىء كالدوار يلف بسرعة فى راســـه .

الى هذا الحد كان ساذجا ؟ .. يشترى للمدير وردة ؟ .. وهز راســـه بشـــدة .. حمدا لله أن أحدا فى العـــالم لم يعـــلم بفعلتـــه .. واغمض لحظـــة .. هيـــا يا يوســـف .. ابتســـم وبسرعة .. لا تطل الوقوف هكذا أمام الباب .. هيا افرد صدرك وادخل على الرجل المريض بوجه بشوش .

كان الأستاذ ماجد راقدا على سرير أبيض .. وبدا بجسمه الضـــخم أكبر من السرير .. ولأول مـــرة كـــان يراه يوســـف

ببيجامته .. ولمح شعرات سوداء كثيفة نابتة فى صدره .. والحجرة كانت تموج بسكون مهيب .. خطا يوسف نحوه بنشاط . وسلم عليه بحرارة .

ـ حمد الله على سلامتك يا استاذ ماجد .

واعتدل ماجد قليلا فى رقدته وقال وهو يمد يده بالسلام :

ـ متشكر .

قالها بصوت واهن متحشرج . فتذكر يوسف على الفور ـ كالمصدوم ـ ان العملية التى اجراها الرجل ، عملية لوز .. ومعنى هذا أن الزور مجروح ؛ واذن لا كلام على الاطلاق .

احس بحجر كبير يسقط على قلبه .. إسقط فى يده وارتبك .. كيف لم يفكر فى هذا ولو لحظة ؟ .. كيف ظل يفكر الساعات ويعد فى الكلام الذى سيقوله له ، وفى الردود التى سيسمعها منه ؟

وشملت روحه غشاوة . فاطرق .. لكنه عاد يجاهد .. فربما ..

ـ شد حيلك يا أستاذ ماجد .. مش حضرتك احسن دلوقت ؟

ودون أن ينطق الرجل بكلمة ، هز له رأسه هزة مقتضبة ، وبسط له كفيه علامة الاعتذار ، ثم أشار الى حنجرته ، واطرق وأغمض عينيه .

اذن .. ولا كلمة .

بقى هو الآخر جالسا مطرقا فى صمت .. أحس بما يشبه الاختناق .. وفكر .. « لو قمت الآن فسيستريح كلانا من غير شك » .

تذكر الوردة فجأة ، فانتفضت أعماقه .. قد تبرز من صدر الجاكته عفوا فيلمحها الرجل ويتعجب فى نفسه .. أحكم يوسف من غلق الجاكته . ثم عقد ذراعيه فوق صدره .. أحس بالوردة .. بأوراقها تكاد تتفتت .. انقبض قلبه .. ومر بذهنه خاطر ، يخرجها من جيبه ويقدمها .. لكن الصمت فى الحجرة كان ثقيلا يجمد كل شيء .. والرجل مطرق ومغمض عينيه .. وشعره كثبف فوق جبهته .. وكل ما فى الغرفة يوحى لكل ما فيها ولكل ما فى الأعماق أن يتوقف ويصمت .. ان تظل المسافات والأبعاد كما هى ، لا تتغير ولا تتبدل .

انتابه احساس دافق بالهروب .

أيقوم ويستأذن ؟

لكن الرجل كان لايزال مطرقا ومغمضا عينيه .. لا يصح أن يقلقه .. فليظل جالسا هكذا حتى يفتح عينيه .

واطرق هو الآخر .

فجأة ، تناهت الى مسامعه ضجة ، فارتعد كل وجوده ..

ورأى الباب يفتح بحركة مندفعة ، كانت احدى الشلل قادمة لزيارته .. يتقدمها عباس .. واغتمت روحه لمرآه .. كان يتحنجل فى خطاه ، ولم يكد يخطو من الباب بجسمه السمين المربع ، حتى شمل الغرفة كلها بنظرة واحدة سريعة من عينيه اللولبيتين ، وقال بصوت يقترب من الصياح وهو يخطو نحو السرير .. « سمعت آخر نكته يا ريس » ؟ .

وقبل أن يلقى بالنكته ، وقبل أن يرد عليه الرجل بكلمة ، سمع يوسف الحجرة كلها تفرقع بالضحكات .. وبدون أن يدرى كيف يمكن أن يحدث هذا ، رأى وجه الأستاذ ماجد الساكن

ينشرح ويسطع بالبهجة ، ثم يقول لعباس بصـوته المتحشرج ويكاد يضحك :

ـ قلت لك ألف مرة بطل جنـان .. قوللى أول .. ايه اخبار الشغل !

ومط « عباس » شفتيه بحركة عتـاب ، ثم مال برأسه قليلا على كتف الرجل وقال : « جرى ايه يا ريس .. يا ريس رفقا .. رفقا بصحتك .. والنبى كل حاجة ماشيه عـال .. بحسك .. اسمع أول النكته دى : كان فيه مرة واحد راجل بدقن ، قابل واحدة ست .. راح .. »

ولم يتابع يوسف النكتة .. كان يحس فى رأسـه بدوار وانه يتلاشى .. لا يسمع ولا يرى .. طغى عليـه شعور كاسـح بالغربة .. وانه الطفيلى الوحيد فى الحجرة .. وتذكر بالكاد وهو يختنق ، أنه جاء قبلهم واذن فله الحق أن يخرج أيضـا قبلهم .. ولكن كيف يفعل هـذا ؟ .. وسط هـذه الزيطة ، والأنظار والأنفاس كلها متجهة الى الأستاذ ماجد ؟

مستحيل .. مستحيل يا يوسف أن تصـدر منك أية حركة .

لقد وقعت فى فخ .. ولا مهرب .

وأفاق فجـأة على ضحكة ضخمة من عباس ، تبعتها ضحكة هائـلة من الجميـع ، فانتفض فى فزع .. انه الوحيـد الذى لا يضحك .

وبسرعة ، فتح فمه .

وراح يضحك ويضحك .. ويضحك ويضحك .

« ١٩٦١ »

شاطر يا عبد الستار أفندى

مضت أكثر من ثلاث سنوات وعبد الستار أفندى موظف مغمور فى تلك الشركة الكبيرة المشهورة .. وذات يوم .. وجد أمامه الفرصة سانحة ليثبت فيها للمدير انه شاب موهوب ونشيط ، فصمم الا يضيعها على نفسه .. !

لم تكن بينه وبين المدير من قبل علاقة عمل مباشرة .. ولكن حدث أن تغيب السكرتير يوما عن الشركة ، فاستدعاه الرجل المهيب الى حجرة مكتبه الفاخرة ، وطلب منه بنفسه والاهتمام باد على وجهه الوقور الجاد ، أن ينجز له بعض عمليات حسابية عاجلة ، ثم يعرضها عليه فى اليوم نفسه ، حتى لو اقتضاه الأمر أن يتأخر فى الخروج بعضا من الوقت .

وبالطبع رحب عبد الستار بطلب مديره من كل قلبه ، وعلق على انجازه آمالا كبارا .

وما أن عاد الى حجرته ، حتى كان قد تحول الى شعلة متوهجة من الحماس والنشاط .. خلع جاكتته وكرافتته وعلقهما على ظهر الكرسى الذى يجلس عليه ، ثم أشعل سيجارة وأخذ

نفسا طويلا بمزاج ، ثم انكب على مكتبه وأوراقه : وسرعان ما نسى العالم كله ، واستغرق فى مهمته الخطيرة .

صورة واحدة فقط . هى التى كانت تتراءى له بين الحين والحين وتتخلل الأرقام والأعداد التى يحسب فيها .. المدير بوجهه المهيب الجاد ، جالس خلف مكتبه فى أقصى حجرته الواسعة الطويلة وكأنها صالة ، وينظر الى الباب فيراه ، داخلا عليه محملا بالدفاتر والأوراق فيبتسم له ابتسامة خفيفة جدا . ثم يقول له فى وقار .. « خلصت بسرعة كده .. ؟ لا .. برافو عليك يا عبد الستار أفندى » .

لو يقول له المدير عبارة مثل هذه .

وتأججت شعلة الحماس فى قلب عبد الستار أكثر وأكثر . وراح قلمه يعمل مع عينيه فى المئات والألوف من الأرقام والأعداد، ولم يرفع رأسه عنها وعن المكتب : الا بعد ان انتهى من المهمة كلها ، واطمأن لها تماما .

عظيم..لسوف يعجب المدير قطعا بهمته ونشاطه..وسيقول لنفسه .. هذا شاب نشيط وكفؤ .. فلماذا لا نستغل نشاطه وكفاءته بصورة أحسن فى العمل .. ؟ ! ألم ينجز العملية فى أقل من نصف الوقت المقدر لها .. والوقت هنا من ذهب .. ؟ !

ونهض عبد الستار من على مقعده فى حماس ، وتناول جاكتته وكرافتته ولبسهما ، وبدا على وجهه النحيل الأسمر أنه تذكر شيئا هاما ، فخطا نحو زجاج النافذة ، وخطف من خياله المنعكس فيه نظرة سريعة ليطمئن على منظره ، ثم انحنى على دفاتره وأوراقه ، وحملها بين يديه وسار بها فرحانا الى حجرة المدير .

كانت الحجرة تقع فى نهاية الصالة ، فى ركن هادىء على

اليسار ، وحرص عبد الستار وهو يمشى نحوها أن تكون خطواته مهذبة جدا ، وهادئة جدا ، ولا صوت لها .

ورأى الباب مواربا .. وهم أن يدقه مستاذنا . لكنــه خشى أن تسقط الأوراق من بين يديه .

أينحنى ويضع حمله الثقيل على الأرض .. ثم يدق الباب مستأذنا .. ثم يعود فينحنى ويحمل الحمل من جديد ، ثم يدخل بعد ذلك . ! ؟ . لا .. لا داعى لكل ذلك هــذه المرة .. سيدخل مباشرة ، فى أدب يغنى عن الاستئذان .. حاملا عذره بين يديه ، وسيستقبله الرجل بنظرة تقدير .

وفتح الباب بكتفه الأيمن فى هدوء بالغ .. ودخل .

لم يكد وجهه يسبقه فى الدخول ، حتى لطشه منظر غريب .. أحس على الفور بشىء يكاد يصعقه ويشل حركته .. وأراد أن يستدير بأوراقه وينفلت عائدا الى حجرته .. وتنتهى المسألة عند هــذا الحد ، لكن ضجــة كبرى كانت قد حــدثت فى نفس اللحظة ، ولم تمهله لكى يعود ، خيل اليه أن ديناميتا قد تفجر وطاش فى قلب جبل .. !!

أيمكن أن يحدث هذا يا ناس ؟ !

يمكن وأكثر .. فقد هوى أمام عينيه فجــأة ، كأس ليمونادة مثلج على مــكتب المدير .. وانســكب على حافظـــة أوراقــه الخضراء ، وعلى بنطلونه من ناحية البطن ، وعلى الأرض أيضا .

لسبب لا يدريه مخلوق فى هــذا العــالم كله ، لم يدخل عبد الستار الحجرة الا فى هذه اللحظة بالذات .. ولو كان قد تقدم دقيقة واحدة أو تأخرها ، فربما لم يكن قد رأى ما رآه .. ولكن ساعة النحس تأتى لأبسط الاسباب !

فحين أطل عبد الستار بوجهه من الباب فى هدوء . كان المدير فى وضع غريب .

كان يبدو كأنه يهم بالنهوض من على متعده ، ويمد إصابع يده الطويلة الضخمة الى صدر سكرتيرته الشقراء مازحا ومغازلا .. أما هى فكانت ــ فى نفس اللحظة أيضا ــ تقفز فى دلال وتمنع .. وتقول « لا يا أستاذ .. كده يبقى عيب » .

الدنيا يومها كانت صيفا وحرا .. وكانت ترتدى بلوزة لونها برتقالى ، والفتحة العليا التى بين مفرق ثدييها واضحة وفيها ظل جميل . وكتفاها كانا شبه عاريين ، وخصرها نحيل جدا ؛ وخصلة من شعرها البنى المصبوغ ترتمى على حاجبها الأيسر !

الغزال الأشقر الحرون كان يقفز ويتأوه .. والأصابع الكبيرة كانت تمتد فى نهم .. وفى نفس اللحظة ، جاءت عين عبد الستار فى عين مديره المحترم !!

كلاهما أحس بلسعة حارقة .

هم عبد الستار بالارتداد على عقبيه ليعود بدفاتره وأوراقه الى حجرته لكنه لم يستطع .. فحين لمحه الرجل داخلا عليه ؛ استرد يده من على الصدر النافر ، وكأنه يخرجها من ماء مغلى .. وقبل أن تعود يده الى مكانها الطبيعى ، كانت هوجاء مذعورة ، فأطاحت بكأس ليمونادة مثلجة كانت موضوعة أمامه على المكتب ، وأحدثت ضجة كبرى !

أما عبد الستار ، فقد وجد نفسه دون أن يدرى ــ يتخلص من أوراقه ودفاتره واندفع كالمأخوذ الى مكتب الرجل ، وراح وهو مسحوب الأنفاس يجفف بمنديله الحافظة وزجاج المكتب من السائل المراق .. !!

ظل منحنيا على المكتب يمسحه .. يده ترتعش . وأنفاسه تكاد تذهب ، وخواطر كئيبة محزنة تتدافع وتتزاحم فى راسه .

كده يا عبد الستار .. ؟ ! لماذا دخلت هكذا من غير اذن . ؟ ! . وفى هذه اللحظة بالذات . ؟ ! ها أنت قد رأيت كل شيء .. رأيت مديرك المهيب فى العن لحظة . ! .. إنت لا ترضى بالحرج لرجل مثل هذا ، لم يكن يكلم احدا فى العمل الا من لغلوغه السمين المتدلى تحت رقبته !! .

لا يا عبد الستار .. لم يكن يصح منك هذا أبدا .. قطعت عيشك بنفسك ، وخل الحماس والشطارة تنفعك . !!

الخواطر والأشباح كانت تتدافع وتتزاحم فى رأسه وهو مقوس الظهر فوق المكتب يجففه .. ولو كان الأمر متروكا له هو وحده ، لظل هكذا محنيا دون أن يرفع رأسه ، حتى لا تلتقى عيناه بعينى المدير مرة أخرى .. !!

لكن المفروض فى الرجل أنه مشغول دائما ، وفوق رأسه برواز ذهبى أنيق مكتوب بداخله بخط جميل .. « الوقت من ذهب » .

اذن .. عليه أن ينسحب .. ولكن .. كيف ينسحب ؟ ! .

أيقول له .. اغفر لى هذه الغلطة يا سعادة البيه !! .. لا .. لا داعى للمغفرة أبدا ، فأنا لم أر شيئا بالمرة .. وان كنت قد رأيت ، ففى بئر عميق والله .. حتى أصدقائى فى سهرة الليلة لن أتسلى معهم .. ولن اضحكهم بكلام مثل هذا .. فليس كل ما يرى ، يقال يا سعادة البيه .

والسكرتيرة فى الحقيقة حلوة .. ساخنة يا سعادة البيه فى سخونة هذا اليوم الملتهب . ولا عليك أن تتسلى لحظة وتروح

عن نفسك .. نعم تتسلى .. فمعاذ الله أن يكون معظم وقتك معها هكذا .

وأحس عبد الستار بحزن شديد يثقل على قلبه ، وتدم غامض يجتاح نفسه .

الصمت كان فى الحجرة عميقا ومذهلا .. وعبد الستار لايزال منحنيا على المكتب .. وخطوط الليمون المثلج منسابة على الأرض .. وصاحبة البلوزة البرتقالية واقفة لا تدرى من الأمر شيئا على وجه اليقين ، فقد كان ظهرها لحظة النحس للباب .

أما المدير ، فقد نبتت فى جبهته العريضة حبات عرق كثيرة ، واصفرت بترة وجهه وكأنها تغضنت .. كان هو الآخر قد شل عن الكلام .

أيستطيع أن يصرخ فى وجه عبد الستار ، ويقول مشيرا على الباب .. « اتفضل اخرج بره » لكن أنفاسه لم تكن تسعفه على أى كلام .

واستمر الصمت الثقيل لحظات ، ثم علت فجأة دقات كعب حذاء السكرتيرة على أرض الحجرة الباركيه .. ومضت خارجة بلا أى كلام . وبقيا هما الاثنان وحدهما .

هيه يا عبد الستار .. لابد أن تتصرف بسرعة .. لا تعقد الغلطة أكثر واكثر .. غادر الحجرة على الفور .. لقد جففت الليمون بمنديلك حتى فاض ، وآن لك أن تعصره .. وتعصر نفسك أيضا .

وكمن يحمل ثقلا ضخما يتدلى من حول عنقه ، راح يرفع رأسه من على المكتب فى تثاقل وقلبه يدق .. وحين حاذت

عيناه عينى الرجل وشرع ينظر اليه ليقول له أى شىء .. أى شىء يأتى على لسانه .. لكن الرجل نفسه كان مطرقا برأسه : وأصابعه تدق بقلم صغير على زجاج المكتب دقات رهيبة متتابعة وكأنها نذير .

وفى صمت وانحناء : خطا عبد الستار خطوات قليلة نحو منضدة زجاجية كان قد وضع عليها الدفاتر والأوراق دون أن يدرى ، ثم حملها بين يديه ، ووقف بها أمام مديره مطرقا فى صمت .

أيتقدم بأوراقه ويضعها بأدب على المكتب ، ثم ينصرف فى سكون . لا

لا .. يجب ألا يعيد حماقته .. يجب الا يخطو خطوة واحدة نحو الرجل الا باشارة منه .

كانت وقفته فى منتصف الحجرة الواسعة .. بعيدا بعض الشىء عن المكتب الفاخر ، وبدا وهو مطرق فى وقفته حاملا أوراقه ، كمن يحمل ذنبا كبيرا بين يديه .

وطالت وقفته لحظات .. لكن الرجل لم يرفع له رأسه .. ولم ينطق بحرف .. بل ظل يدق زجاج مكتبه بطرف قلمه دقات غريبة ومخيفة .

هيه يا عبد الستار .. الواضح أن الرجل متجاهل وجودك انت وأوراقك .. فالى متى ستظل فى وقفتك الرهيبة هذه .

ها هى دقات قلم المدير قد توقفت تماما ، وبدأ ينفخ من أنفه الضخم .. ثمة انفجار آخر على وشك الحدوث .

انسحب فورا بأوراقك .. وعد بخيبتك أيها المتحمس النشيط الى عالمك الذى كنت تعيش فيه مغمورا منذ أكثر من ثلاث سنوات .

واستدار عبد الستار بدفاتره وأوراقه الى الباب ، ومشى في هدوء ، ثم خرج كالمذهول .

ولم يكد يصل الى حجرته حتى قفل بابها خلفه واستند بظهره عليه والأوراق بين يديه ، ثم أغمض عينيه .. يسترجع الموقف دون أن يصدق أنه قد حدث .. وبعد وقت لا يدريه . كان يتحرك من مكانه في بطء ، وضحكة هستيرية ساخرة تخرج من قلبه الحزين .. ثم جلس الى مكتبه ورأسه بين كفيه ، وراح يفكر في المصير .

« ١٩٦٢ »

فى شـــارع السد

فى تلك الساعة ، كان من المهم ان يكون لكل انســان بيت أو سـقف ليهرع اليه ويستظل فيـه .. أما من ليس له بيت ولا سقف ، فكان من المحتم عليه أن يهرب من ذلك السعير الذى تطرده الأرض من جوفهـا ، ويبحث عن شبر من الظل ليجلس فيه ويجفف عرقه ويستريح .

وشارع السد الذى ينحدر من ميدان السيدة زينب ، كان ساعتها يغلى فضــاؤه بالصهد وارضــه التى كانت لم ترصف بعد ، ومبانيه العالية القديمــة المشققة ، وعربات الكارو المتناثرة فى أنحائه ، كانت تبدو كلها من شــدة الحر هامدة وهشة ، لها رائحــة الشىء الذى يوشــك على الاحتراق .. وكان الشارع يبدو خاليا الا من أرجل قليلة بدت وهى تهرول مثل عفــاريت الظهــر .

على أن هــذا الفراغ لم يلبث أن راح يخف شيئا فشيئا .. فالشمس كانت ماضــية كالعادة فى رحلتها نحو الغرب ، والبيوت الرمادية القديمــة المرتفعة على اليمين بدات ترمى على الأرض

ظلالا راحت تطول لحظـة بعد لحظة .. ولم تكد تتكون منطقة واضحة من الظل حتى آوى اليها كثير من الرجـال والشـبان والصبية . تمدد البعض منهم واقفل عينيه ؛ وحاول أن يغفو .. واشترك البعض فى جوزة وراحوا يدخنون المسل ويتحدثون .

ولم يكد يمر بعض من الوقت حتى فوجىء الجميع بصـوت نفير يرتفع فى الفضاء وينتشر .

ـ توت .. توت .. توت .

امتدت اعناقهم ناحيـة الصوت وراحوا ينظرون فى فضول ، لكن البعض لم يلبث أن لوى شفتيه فى سخرية واستخفاف . وعدل رقبتـه على رأسـه وراح يفكر فى حـاله من جديد .. أما البعض الآخر . فقد ظل ينظر فى فضول ويبتسم .. !!

كانت طفلة صغيرة تقف بالقرب منهم فى الظل ، وبين يديها الصغيرتين نفير نحاس صدىء راحت تنفخ فيه بشدة .

لم يكن عمرها يزيد عن العاشرة ، قمحية الوجه شاحبة .. فى اسفل ذقنهـا دقة صغيرة خضراء ؛ وتلبس جاكتـة قديمـة حمراء . وبنطلونـا أسـود يبرز منه جزء كبير من ساقيهـا النحيلتين .. وبالقرب منها ، كان رجل كبير يخطو على مهل . وقد بدا من أول لحظـة أنه أبوها .. كان عارى الرأس ؛ يلبس صديريا غامقا مخططا . وسروالا أبيض فضفاضا ومربوطا من عند القدمين كالذى يلبسـه الصيادون ؛ أما وجهـه فكان مستطيلا رفيعا ؛ والأنف حاد كالمنقار ، والعينان لا تبرز خضرتهما الداكنة من داخل وجهه الغائر المعفر .

وراح الرجل يرقب ابنته فى نظرات صارمة ، ثم أشـار لها بذقنه اشارة خفيفة آمرة على أثرها انزلت النفير من على فمها ، وألقت به على الأرض ، ثم أخذت تفرك كفيها الصغيرتين وتصيح

بصـوتها الرفيع وعيناها تتجولان فى الراقدين على الأرض تارة . وفى الناس القلائل الذين يمرون بالشارع تارة اخرى .

« .. هـادى يا هـادى .. يا أبـو العبـاس يا حـامى إسكندرية » .

ثم انحنت على الأرض والتقطت دفـا راحت تدق عليـه دقات سريعة متتابعة ، وعادت تصيح فى صرخات رفيعة :

« .. تكالى واعتمادى عليك يارب .. يا رازق الطير ارزق عبيدك » .

وأرسلت عينيها الى مقـام السيدة زينب المواجـه لها . وراحت تنادى وكلماتها المنغمة تمتزج بايقاع شخشخة الدف :

ـ نظرة .. يا بنت زين العابدين .

وعادت دقات الدف وشخشخاته تتتابع وتسرع اكثر من الأول .

كانت مساحة الظل التى تلقيها البيوت قد اخذت تتسـع وتترامى ، والايقاع بدأ ينتظم فى نغم متوازن متماسـك . ووجهها الصغير الشاحب أصبح أكثر تعبيرا وانفعالا .. وفى دقائق قليلة ، كان جمع غير قليل من الناس بدأ يتجمع حولها وتكونت حلقـة منهم ليتفرجوا عليها .

وخطا أبوها نحوها خطوتين طويلتين ثم قال لها فى صـوت حاد وهو يصفق وعيناه تتجولان فى الشارع وفى الناس .

« .. هوب هوب .. ياللا هوب .. ورى الرجـالة شغلك يا محروسة » .

وقفزت الطفلة فى الحـال قفزة سريعـة ، واذا برأسـها تحت ، وقدميها فوق .

صـاح الأب :

الحق شوف .. طفلة عجيبة .

لحظـات .. وقفزت قفزة أخرى اعادتهـا الى وقفتهـا الطبيعيـة .

جذبت من صدرها الهزيل نفسا عميقا ، ثم رفعت وجهها الى السماء المتوهجة ، وأرسلت من النفير أنفاما متقطعة متلاحقـة ثم عادت تقول وهى تخرج بعض أكواب نحاسـية صغيرة من كيس ملقى على الأرض :

ـ ١ ، ٢ ، ٣ .. اللعب يبدأ يا جدعان واللى يحب النبى يصلى عليه .

همهم الواقفون .. « اللهم صلى عليه » .

ووجهت الطفلة كلامها الى إبيها :

ـ أبويـا ..

ـ عاوزه ايه .. ؟ !

ـ ايه ده .. ؟ !

ـ كتكوت ..

ـ كم كتكوت .. ؟ :

ـ كتكوت واحد ..

ـ طيب لو كانوا تلاتة ؟ .. !

ـ مش معقول ..

وحولت الطفلة نظرتها الى الواقفين من حولها ، وراحت تقول وهى تشير الى أبيها :

ـ شوفوا الحاوى ده كبير ازاى .. وانا صغيرة اد ايه .. لكن انا العب احسن منه .. والجـدع يظبطنى .. دول كام كتكوت ؟ ! طبعا تلاتة .. وده كم كتكوت ؟ .. طبعا واحـد مش كده .. طيب فتح عينك .. وانت يا راجل يا طويل يا عريض يا اللى واقف هنـاك ، لو جدع تظبطنى .

وتوجهت انظـار الكل الى رجل فلاح يقف بينهم بقامتـه الفارعة ويلبس جلبابا بلديا وطاقيـة صوف : وكان يبتسم لها من قلبه .

وثنت ركبتيهـا فى حـركة رشيقة وجلست على الأرض فى غمضة عين .. وفردت ساقيها امامها .. ثم وضعت كتكوتها على التراب وتركته يجرى ويقفز وسط المتفرجين .. كان كتكوتا مرحا لونه تختلط فيه الصفرة بالخضرة وعيناه لامعتان .. حاصره الكل بنظراتهم .. وطافت بوجوههم ابتسـامة .

ـ كام كتكوت .. ؟ !

ـ قلنا واحد ..

ـ طيب وان كانوا تلاتة ؟ !

ـ قلنا مش معقول ..

ـ طيب اوريك ..

ـ ابوه ورينـا ..

ـ لا .. نستفتح من الجدعان دول قبل ما نلعب ..

ـ لا .. وريهم شـطارتك الأول ، احسن حد يفتكر انك بتضحكى عليه ..

وتعقد جبين الطفلة ، غضبت من كلمـاته الأخيرة ، قالت مستنكرة :

ـ أنا عمري ما ضحكت على حد .. انا بنت جدعة . باكسب اللقمة بعرق الجبين .

ومسحت جبينها باصبعها الصغير .. وازالت عنه العرق الذي كان ينحدر عليه من خلال خصلات شعرها الغزير .. ثم التقطت الكتكوت من على الأرض وانحنت على الأكواب ترفعها .. واحدة بعد أخرى .

ـ شايف انت وهو .. كتكوت واحد مفبش غيره .

ثم راحت تقلب الأكواب الفارغة على فتحاتها فوق المنديل الفاقع من جديد . ووضعت الكتكوت تحت واحدة منها .

ـ هيه .. الجدع يظبطني .

ومدت يديها في حركة سريعة ، وراحت تكشف الأكواب الثلاث واحدة بعد أخرى .. ومن داخل كل واحدة ، كانت تخرج كتكوتا جديدا ، لونه غير لون الآخر ، ولم تلبث ان اطلقت الكتاكيت الثلاثة على الأرض فراحت تتواثب وتصوصو وتدور .

ضحك الجميع ، وصفقوا في اعجاب .

كان الصهد لايزال يغلي في الجو ، والعرق يلصق ثياب الواقفين بأجسادهم ، والطفلة الصغيرة بدا وجهها مصفرا ومرهقا .

ـ اللعبة دي مش حاجة .. فيه حاجات احسن بكتير .. والمصري زي ما انتم عارفين ، ابو التفانين .

ورمقت اباها بنظرة .. كانت عيناه الغائرتان تتفحصان الواقفين . وابتسم ابتسامة صغيرة وقال وهو يصفق من جديد :

ـ مش قلتلكم طفلة عجيبة .

وعاد يدور فى قلب الحلقة ويقول :

ــ يا بختنا بالنبى .. طيب وعاوزه ابه دلوقت يا محروسة.

التقطت الطفلة الدف من على الأرض وراحت تشخشخ به وتقول :

ــ عابزه استفتح من دول .

ورفعت عينيها الى السماء وعادت تصيح بحرارة :

ــ الهى يعمى عينيه ! ؟

فصاح ابوها متسائلا :

ــ هو مين .. ؟

ــ اللى فى جيبه فكة ، وبيخل علينا بيها .

ــ طيب روحى لفى عالجدعان .. وسيبيكى من الأندال .

وبدأت الطفلة تدور ، وصاجات الدف تشخشخ بين اصابعها، وراحت تبح صوتها الذى كان قد أخذ يضعف ويخفت .

ــ الهى ربنا يخليه اللى معاه الفكة .. واللى ممعاهش ، ربنا يفك ضيقته وضيقتنا !

وظلت تدور مرة واثنتين وثلاثا ، ثم اعادت الرق الى ابيها وهى تمسح العرق من على جبينها بيدها المتربة .

ونظر الرجل داخل الرق ، واكتست ملامحه بالحزن والضيق، وعاد يقول للناس فى مرارة :

ــ تلاتة صاغ بعد العذاب ده كله يا ناس .. معلهش يا محروسة .

لفى كمان مرة .. كملى الشلن نتغدى به .

وتناولت منه الرق .. وعادت تدور ، لكن يدا واحدة لم تمتد لها بشيء .

كان بعض المتفرجين قد تركوا الحلقة ، لكن أناسا آخرين جاءوا ووقفوا مكانهم ، ودب الأمل فى قلب الرجل من جديد ، عاد يصيح :

ــ طيب من تانى يا محروسة .. شد حيلك يا حبيبتى : علشان أجوزك النهاردة واطلقك بكرة .

واخرج لها من جيبه بيضة ومنديلا رفيعا فاقع الألوان .. تناولتهما منه وراحت تقول وهى تلوح بيدها فى الفضاء :

ــ دى ايه ؟ ! بيضة .. وده ايه ؟ ! منديل .. طوله عشرة أشبار بالكتير .. وراحت تقيسه بكفها الصغير .. ثم كورته وحشرته فى فمها ، وتبعته بالبيضة أيضا ، فبدأ وجهها الصغير الشاحب منتفخا وصدرها الصغير يعلو ويهبط وهى تجاهد لتأخذ انفاسها فى هذا الجو الخانق .

وبدات الطفلة تخرج المنديل الملون من فمها .. راحت تجذب .. وتجذب .. مناديل مترابطة بدت من طولها وتتابعها كأن لا نهاية لها . واستمر صدرها يعلو ويهبط .. وشحوبها يزداد .. وبدت عيناها وكأنهما جاحظتان .. !

وصفق الناس لها واشتد التصفيق . وتعالت همهمات .. يا سلام بنت عجيبة .. عجيبة صحيح .

والطفلة لاتزال تشد بأصابعها الصغيرة حبل المناديل من فمها ، ولم يكد ينتهى الحبل المزخرف الطويل حتى كانت البيضة بارزة من بين شفتيها .. ؟

وارتفعت الهمهمات من جديد : تانى .. من تانى .

نظرت الطفلة الى ابيها نظرة زهو . ارتعشت عظـام وجهه رعشة خفيفة .. فقد احس وهو ينظر فى عينيها ان لعبتهما قد بهتت كثيرا ، وان لون وجهها قد زادت صفرته .. وراح يقول :

ــ معلهش يا محروسة .. من تانى .. الجـدعان عاوزين تتفرجوا عليكى مرة تانية .

وتنهدت الطفلة فى صمت ، ورمشت بعينيهـا ، ثم بدات تلعب لعبتها من جديد والناس يحملقون فيها ويتعجبون .

كانت الحرارة قد بدات تخف بعض الشىء . والميدان راح يصب فى الشارع اناسا كثيرين ، والنسيم بدا يهب خفيفا ، لكن الحلقة المرصوصة كانت تحجب الأنسام عن الطفلة .

وراحت الصغيرة تجذب الحبل من فمها من جديد . واخذ صـدرها يعلو ويهبط بسرعة عن ذى قبل ، لم يلحظ احد من الواقفين ان ساقيها الصغيرتين بداتا تتخلخلان .. واحد فقط هو الذى كان يحس بها .. ابوها .. قال يستحثها مشفقا :

ــ برواة عليكى يا محروسة .. هانت والنبى .. وحنتعشى الليلة كمان .

واخيرا انتهى الحبل الطويل من فمها وبدات البيضـة تشق طريقها الى شفتيها ، لكنها لم تكد تطل من فمها حتى سعلت الطفلة سعلة مفاجئـة فسقطت البيضـة من بين شفتيها على الأرض ، وانكسرت .

وظهر فى عينى الطفلةشىء يشبه الفزع ، واحست بشىء رفيع حاد يمزق فى صـدرها ، وسعلت سعلة اخرى اهتزت لها ضلوعها ، وشعرت بعينيها تغيمان وراسـها يدور ، وجاءت تهز وجهها وتنظر للناس من خلال ضبابات ملأت عينيها ، لكنهـا لم تع اى شىء ، وسقطت على الأرض مغمى عليها .

روع أبوها ، فانكفأ عليها وحملها بين ذراعيــه ، ووضعهــا على حجره ، وراح يخاطبها بكلمات فاجعة ويهزها ويبكى .

وحــدثت ضجــة كبيرة بين المتفرجــين وتحركت الأقــدام وتزاحمت الأجســاد .. وعلت أصــوات واختلطت .. يا بنت زين العابدين نظرة . ميه يا جدعان .. وسع يا خلق انت وهوه .. يا ناس دى مش فرجة .. خلوها تشم نفسها .

شيئا فشيئا بدأت الطفلة تفيق .. وراح صــدرها الصغير يعلو ويهبط فى هدوء وانتظام .. وحين احست بالضبابة الكبرى تنقشع عن عينيها راحت تسبح ببصرها فيما حولها ، وتراءى لها الناس والأشياء خفيفة شفافة وكأنها فى حلم .. ثم بان فى عينيها وكأنها تنبهت لشىء فراحت تدور ببصرها فيما حولها .

ولم يكد بصرها يقع على الرق حتى استقرت نظراتها المجهدة عليه لحظات .

ثم رفعت عينيها الى أبيها وسألته مهمهمة ، وشبه ابتسامة تطوف بوجهها .

ــ آبا .. احنا لمينا أد ايه يابا ؟ !

« ١٩٥٧ »

وردة

وأخيرا .. انتهت وردة من عملها اليومى الطويل .

تنهدت من أعماقها فى ارتياح ، واستندت برأسها الصغير على حائط المطبخ لتستريح لحظة ، لكنها أحست فجأة بالخدر يعاود رأسها ويثقل جفونها ، فابتعدت براسها عن الحائط ، وراحت تهزه فى جزع لتطرد النوم من عينيها ، ولم تلبث أن تركت مكانها ، وراحت تجتاز الممر الساكن الذى يفصل المطبخ عن بقية الشقة .

كانت الشقة لحظتها غارقة فى السكون ، ونور الكهرباء فيها يعطى احساسا بأن الليل فى الخارج مظلم وفاحم السواد ، والأصوات التى كانت تتصاعد الى سمع الصغيرة من أعماق الشارع القريب قد هدأت وخفتت وتحولت الى همهمات غامضة بعيدة متقطعة .. ما من صوت كانت تسمعه وردة حينذاك سوى حفيف قدميها الصغيرين وهى تمشى على بلاط الممر فى وهن وعلى مهل .. وصوت سيدتها هو الآخر كان يعاود الدوران فى رأسها

الدائخ المرهق .. « وبعد ما تخلصى يا وردة ، تمسحى جزمة حسن ، وبعدين تنيميه .. اوعى تنامى يا وردة قبل ما حسن ينام .. فاهمة يا شاطرة باقول ايه » .

كانت سيدتها قد آوت الى سريرها منذ وقت قليل واستسلمت لنوم عميق .. اما حسن ـ طفلها الصغير ـ فقد ظل ساهرا .. كان قد نام نومة طويلة بعد أن أحضرته وردة من مدرسته بعد الظهر ، ولم يستيقظ الا مع غبشة الغروب ، فظل صاحيا بجوار أمه على نفس السرير ، وراح وهو منبطح على بطنه ببيجامته الصغيرة النظيفة الخضراء ، يقلب تارة فى كتاب صغير ملون ، وتارة أخرى يشخبط بقلم رصاص طويل فى كراسة بيضاء .

كان خائفا من سكون الليل المطبق من حوله ، ومن الأصوات التى كانت تصدر عن وردة وهى تروح وتجىء فى المطبخ تغسل الأوانى والأطباق ، ارتعد رعدة خفيفة حين سمع وقع قدميها يقترب شيئا فشيئا من حجرته .. وتعلق بصره بالباب ، وراح ينظر فى وجل :

ـ انت خلصتى يا وردة .. ؟ !

كانت واقفة فى مدخل الباب ، تجفف يديها المبلولتين فى جلبابها الرمادى القصير ، ورأسها الصغير المعصوب بمنديل ازرق غامق مائل نحو صدرها فى وجوم ، وضفيرتاها الرفيعتان الصغيرتان تتدليان حتى قرب كتفيها .. وتعب النهار يطل من عينيها الغائمتين المرهقتين .

ـ ايوه خلصت ، فاضل مسح الجزمة .. جزمتك فين يا حبيبى .

قالتها بصوت خافت أجش فيه حنان عميق وغريب .. ومع

أن وردة لم تكن تزيد عن التاسعة ، وحسن عن السابعة . وكثيرا ما انطلقا معا كصديقين فى أرجاء الشقة والشارع يلعبان ويضحكان ويتنطظان ، الا أنها كانت دائما فى الليل ، وبعد انتهائها من عمل النهار الطويل ، تبدو وكأنها توشك أن تضيع فى غيبوبة ، فتواصل عملها فى صمت ووجوم ، وتتمنى لو يتركها الجميع فى حالها . لا يكلمها أحد حتى تنتهى من عملها ، ثم تأخذها الغيبوبة وتنام .

ـ تعالى اتفرجى معايا فى كتاب شرشر .. شوفى يا وردة .. شوفى شرشر .

لكنها عاجلته على الفور لتسكته .. « مش دلوقت .. سبنى أشوف شغلى عشان ننام .. جزمتك فين » .. ؟ !

كان قد داخل صوتها بحة قاطعة مرهوبة ، أدرك معها أنها لا تريد منه فى هذه اللحظة أى كلام .. فانكمش فى نفسه وقال بصوت خافت ، كأنه يطيع أمرا « الجزمة تحت السرير » .

ومالت بجسمها فى الحال ، دخلت براسها تحت السرير ، وحين لم تر شيئا .. مضت تزحف هنا وهناك .. كان البلاط ناعما ورطبا ، والتصق به خدها وهى تزحف عليه فأحست بالرطوبة تسرى فى خدها لطيفة ومنعشة .. تمنت لو تسند وجهها على البلاط ويبقى جسمها ممددا بطوله هكذا حتى الصباح وتنام .. لكنها أفاقت فجأة على صوت حسن يسأل هامسا :

ـ انت لسه مالقيتهاش يا وردة .. ؟ !

كان يريد ان يقول أى كلام ليحس بوجودها معه ، ويطرد عن نفسه الخوف من وحدته .

وعادت أصابعها تتحسس فى الظلمة من جديد .. هنا

وهناك .. ولم تلبث إن قالت مفمفمة فى شبه فرح .. « اهى .. لقيتها أهى » .

كان صوتها الأجش يبدو بعيدا ومفرغا وكأنه صادر من بئر عميقة .. ثم عادت تزحف بجسمها ورأسها الى الوراء .. ولم تكد تخرج بالحذاء حتى جلست متربعة على الأرض ، ووضعته فى حجرها . وراحت تأخذ أنفاسها وتتنهد .. ولم تلبث أن انحنت برأسها على الحذاء وراحت تمسح فيه .

ومنذ اللحظة التى دخلت فيها بجسمها تحت السرير لتبحث عن الحذاء . حتى اللحظة التى جلست فيها على الأرض لتمسحه . كان حسن يتتبع كل حركاتها وفى عينيه ما يشبه التساؤل والانبهار .

انها تقف وحدها بالليل فى المطبخ ولا تخاف .. وتمشى فى الممر الطويل الصامت ولا تخاف أيضا .. وتدخل فى الظلمة تحت السرير دون أن تصرخ أو تبكى .. وهى الآن تمسح الحذاء فى سكون ونشاط .. وبدت فى عينيه فجأة وهى جالسة على الأرض تحت مستوى نظره كبيرة .. كبيرة بضفائر ولا تخاف .. ودون أن يدرى .. تركزت عيناه على يدها وهى تروح وتجىء بالورنيش على حذائه . وتملكه فضول شديد . وازدادت عيناه اتساعا . ثم قال لها فجأة :

ـ أنا أعرف أمسح الجزمة زيك يا وردة .. هاتى وأنا اوريكى .

شهقت دون وعى منها فى جزع .. سيدها الصغير يمسح الحذاء .. !! واستقرت عيناها على وجه سيدتها الفارقة فى النوم . همست له فى غضب :

ـ انت حتسيبنى فى حالى .. والا اقول لماما الصبح انك

غلبتنى .. يالله خليك فى كتابك وخلينى أشـوف شغلى عشـان تنـام .

وانكمش الطفل مرة أخرى فى يأس وعـاد يقلب فى صفحات كتابه الملون الصغير ؛ وأحدث تقليبه المستمر فى الصفحات خرفشة بدت واضحة وعالية فى سكون الليل ، فجذبت انتبـاه وردة . ونظرت دون وعى منها نظرة خاطفة الى الكتاب .

فرح حسن بنظرتها الى كتابه ، فأسرع يقول لها فى ابتهاج ممزوج بالرجاء :

ــ دا كتاب شرشر .. شوفى يا وردة .. شوفى .

قـالت مغمغمة وهى تتنهـد فى ضجر . ويداهـا تروحان وتجيئـان على فردة الحذاء بطريقـة آليـة : اشـوف ايه بس يا حسن .. ؟ !

قال لها وهو يقرأ الكتـاب .. « الأرنب شرشر .. شـاف الكلب فلفل .. شرشر خاف .. قام نط » .

وسكت برهة تم عاد يقول وهو يشير لها بقلمه على صـورة ملونة بالأحمر والأخضر والأسـود : شوفى يا وردة .. شرشر بينط ازاى .. ده خايف من فلفل .

ودون أن تعى وردة ، توقفت يداهـا عن الحـركة مـرة واحدة ، وسكنتا بالحذاء على حجرها ؛ وراحت تتأمل الصورة .

كان مرسوما على الصفحة أرنب اسود يقفز قفزة واسـعة . وشواربه الطويلة الرفيعة السـوداء ممدودة أمامه فى الهواء . وخلفه الكلب فلفل يمد رقبته ، وينبح عليه .

وتفتحت عينا وردة ، وارتفع حاجباها الثقيلان ، وراحت

تتأمل الصــورة باستغراق .. عالم حبيب واليف تفتح امامها فجأة دون ان تعى ، وراح ينبسط فى ناظرها ويتسع ويتسع .. تحولت ذرات النور المنعكســة من مصباح الكهرباء على الكتاب فى عينيها ، الى ملايين شماعات الشمس الهادئة تغمر قريتهــا الصغيرة الواقعة أسفل الجسر .. ورات أمامها حقلا واســعا من البرسيم الأخضر يموج بحبات الندى فى الصباح ، وثلاثة أرانب ملونة تقفز وتنط فى الحقل الكبير وتقضم اعواد البرسيم ، وامها تقف عند راس الحقل ناحيــة الزراعية ، وتنادى عليها بأعلى صوتها : تعــالى يا وردة حلقى معايا عالأرانب .. حلقى يا بت أحسن هربوا من القاعة .. يا ندامة أحسن عمك شبانة ييجى ويلاقينا بندهس فى أرضه .

وتبدأ المطاردة بينهما وبين الأرانب ، ثم لا تلبث أن تنضم الى المطــاردة شلبية ، أختها الصغيرة : وسكينة صاحبتها التى تسكن فى دار بجوار دارها .. وتحلو المطــاردة وتحمى ، وترتفع صيحاتهن فى الفضــاء حتى تصل الجسر ، ثم تتحول الصيحات الى ضحكات وهن يجرين ، والأرانب تجرى ، وتنط امامهن فى ذعر .. ثم يمسكن أخيرا بالأرانب ، وتقول امها وهى تنظر الى الأرانب التى ترفص بأرجلها فى هواء الحقل : وانا يعنى ناقصــة وجع دماغ ؛ والنبى من بكرة على ســوق التلات واخلص منكم .

لكن وردة افاقت من تخيلاتها فجــأة على صــوت حسن يسألها فى حرارة وحماس :

ــ مش الأرنب شرشر حلو يا وردة .. ؟

كانت على وشــك أن تذهب الى سوق التلات مع امهــا ، ويزوران المنصورة بالمرة .. لكنها رمشت بعينيها وتنهدت وكأنها تفيق من حلم جميل حرمها منه حسن .. ولم تلبث أن أومأت له

برأسها علامة الايجاب ، ثم سألته فى فضول وشغف وهى تشير الى صورة اخرى فى الصفحة المقابلة :

ـ طيب ودى ايه كمان يا حسن ؟ .. اقرالى كده .

وراح يقرأ لها كلمة كلمة ، وعلى مهل :

ـ البط يأكل فت .. والوز يأكل رز .

ندت عن فم وردة ضحكة حلوة فرحانة .. كانت رنة ضحكتها أشبه بصوت بطة صغيرة تكاكى وهى تستحم فى الترعة وتصفق بأجنحتها فرحا فى الهواء .

غير انها لم تلبث ان كتمت ضحكتها فى صدرها ، وابتعدت برأسها من فوق الكتاب .. رأت سيدتها تتقلب فى فراشها لتغير الجنب الذى تنام عليه .. فراحت ترقبها فى قلق خشية أن تصحو ، لكن السيدة كانت لاتزال مستغرقة فى نومها العميق .

واقتربت برأسها الصغير مرة أخرى حتى كاد جبينها يلتصق بجبين حسن المنبطح على السرير ، وعادت تتأمل الصورة من جديد .

كان حسن قد فرح لأن قراءته اضحكتها وافرحتها ، فراح يقلب فى صفحات الكتاب لينتقى لها صورة اخرى تضحكها أكثر وأكثر .. لكن يديه توقفتا فجأة عن التقليب ، وسألها وعيناه فى عينيها :

ـ انت بتعرفى تقرى يا وردة .. ؟

فوجئت بالسؤال .. ولم ترد .. ثمة تعبير حزين غشى وجهها وأطل من عينيها ، وصورة محددة وواضحة كالشمس طفت الى ذهنها فجأة .. ذات يوم .. منذ سنتين بالتقريب ..

كانت خارجة بعد العصر من مدرسة القرية الواقعة عند شجرة الجزورين ، تزعق وتصيح مع البنات الأخريات .. كن جميعا يضحكن ويجرين فيثرن بأقدامهن الصغيرة سحابات من غبار السكة فى الفضاء ، وواحدة منهن تقول : الليلة قمرة يا أولاد .. وسهرتنا تبقى الليه فى الجرن .

فى نفس اللحظة ، سمعت صوت ابيها الخشن ينادى عليها ، وحين تلفتت اليه وجدت افنديا كبيرا واقفا معه ببدلته النظيفة ، وقميصه الافرنجى الأبيض الشاهق .

ـ أهى وردة يا بيه .. تعالى سلمى على سيدك يا بت .

وصحباها الى دارها والبنات الصغيرات يرقبنها فى استغراب .

كانت امها تقف فى صحن الدار تنتظر ، وحين رأتهم ، مسحت شيئا من عينيها بطرف طرحتها السوداء ، ثم قالت لها بحزم وجفاف وهى تغالب رعشة خفيفة على شفتيها :

ـ يالله يا وردة مع سيدك ، وكمان جمعتين بالكتير حنيجى نزورك .. شالله يا سيدة زينب . ثم احتضنتها وقبلتها .

ذلك كان آخر يوم لها فى المدرسة ، لم تمسك بعده ورقة أو قلما .

وعاد حسن يسألها .. وعيناه تترقبان الجواب .

ـ أنت بتعرفى تقرى يا وردة . ؟ !

ارتعشت شفتها السفلى ، ونظرت له فى عتاب حزين .. ثم قالت له بصوت خاطف وكأنما تتحداه :

ـ أيوه .. باعرف .

ـ طيب خدى اقرى كده .

وناولها الكتاب .. وجاءت تمد يدها اليه . لكنها احست فجأة بفردة الحذاء تثقل يدها ، فتنبهت الى نفسها ، وشهقت فى فزع .. تذكرت لحظتها انها كانت قد نسيت الحذاء نسيانا تاما ، فابتعدت براسها عن راس حسن وعن الكتاب . ثم تربعت من جديد ، وانحنت على الحذاء ، راحت تحك فيه بسرعة لتعوض الوقت الذى فات .

ـ انت حتسيبنىاشوف شغلى .. والا اصحى مامتك واقول لها . ؟ !

كانت البحة الخشنة الغريبة قد عاودت صوتها فجأة ، فأحس بها تعود مرة اخرى فى عينيه كبيرة ، وغريبة عنه ، ومرهوبة .. فسحب بصره عنها فى صمت وانحنى بوجهه على كتابه وراح يقلب فيه ، ويتفرج فى ملل .

أما هى .. فقد انكبت بكل وجهها على الحذاء ، ومضت تعمل فيه بهمة ونشاط .

كان الليل من حولهما قد ازداد سكونا وعمقا .. ومصباح الكهرباء يسكب عليهما ضوءا هادئا وصافيا .. وعاد كل منهما الى الاستغراق فى عالمه الغامض الغريب .

راح حسن يشخبط فى كراسته بالقلم ، ثم ترك الكراسة ، وعاد يقلب فى الكتاب ، ويتفرج على شرشر .. ثم أحس فجأة ـ ودون أن يعى ـ أن الأرنب شرشر يبتسم له .. ويكبر ثم يصغر .. ويبتعد ثم يقترب .. وخطوط جسمه الأسود الناعم تخف ، ثم تتلاشى تماما ، وتصبح بياضا فى عينيه .. كان حسن قد راح فى نوم عميق .

وبقيت وردة ساهرة وحدها .

نبع من الأحزان يرقد فى اعمـاق وردة ، ويفيض على وجهها كلما مر بخاطرها شيء يذكرها بقريتها .. فى مثل ذلك الوقت من الليل ، يكون كل شيء فى القرية هاجعا ومستكنا فى الظلام ! .. الدور ، والجسور والبهائم والشجر .. وزمان أمها الآن هاجعة على الفرن .. محتوية شلبية اختها الصغيرة فى حضنها ، وتربت لها على جسدها الصغير ، حتى تنام .

وانتبهت من الحذاء ، فوضعته تحت السرير فى هـدوء ، ونهضت واقفة وهى تتنفس فى اعياء .

ماذا بقى وراءها . ؟ ! .. ونظرت الى حسن .. آه .. يجب أن تعدل نومته .. فانحنت براسها عليـه ، واحاطت خديه بكفيها فى رقة وحذر ، ووضعت راسـه على الوسادة بجوار راس أمه ثم اخلت يديها .. وشـدت قامتها المنهكة ، وجذبت من صدرها مرة اخرى نفسا عميقا .

الآن .. انجزت وردة كل ما عليها .. وفى الصـباح ستجد سـيدتها كل شيء جاهزا .. آن لها الآن أن تعد فرشـتها فى المطبخ .. وتطفىء النور ثم تنام . لكنها تنبهت الى كراسـة حسن وكتابه ما زالا موضـوعين على السرير .. فتناولتهما لتضعهمـا وهى فى طريقها الى المطبخ على البوفيه .

ولم تكد تتناول الكتاب وتنظر فى جلدته السوليفان الحمراء اللامعة .. حتى راحت أصابعها تقلب دون وعى منها فى صفحاته .

« انت بتعرفى تقرى يا وردة ؟ . ! .. » عاودها سـؤال حسن فجأة .. ودون أن تدرى .. تراخت ساقاها ، وجلست على الأرض مرة أخرى ، ووضعت الكتـاب مفتوحا على حافـة السرير ، وراحت تنظر فيه .

كانت فى الصفحة صورة للأرنب شرشر واقفـا على ساقيه الخلفيتين ، وينظر اليها بكل وجهه وشواربه ضاحكا فرحانا .

وانتقلت عيناها الى الكلمـات التى تحته ، وراحت تتمعن فيها .. خطوط رفيعة .. مستقيمة ومستديرة .. وممـدودة ومتشابكة .

— اين كلمة « شرشر » . ؟ !

— وأين كلمة « فرحان » . ؟ !

وراحت عيناهـا تدوران مع خطوط الكلمـات وتدوران ، وتدوران .. وتنتقل بينها وبين الصـورة .. لكن التعب كان يثقل جفنيها .. ورموش عينيها تتلاقى ، ثم تنفرج ثم تتلاقى ، والرؤى تختلط فى خيالها .. شرشر يقترب ثم يبتعد .. شرشر زعلان ، شرشر فرحان .. شرشر يظهر .. شرشر يختفى .. وردة تبتسم .. وردة تجرى مع البنات فى الجرن وتضحك .. وردة ترقد فى حضن أمها على الفرن وتنـام .. وردة نامت .. جسمها على الأرض .. وراسها ملقى على حافة السرير .. فوق الكتـاب .

« ١٩٥٨ »

شا .. جا .. رة .. شجرة

كانـوا ثلاثـة .. يلعبون فى حديقـة واسـعة على النهر ويتصايحون .. والشمس لم تطلع بعد .. والفضـاء رائق ليس فيه ذرة واحدة من ضباب .

جذبت الزوجة الصغيرة نفسا عميقا من صـدرها ، وبحركة سعيدة ، ألقت بنفسها فوق العشب الأخضر وراحت تنادى :

ــ كمال .. كمال .. كفايـة جرى .. « حمادة » زمانه تعب ، هاته فى ايدك وتعال .

والتفت لها زوجها الشاب مبتسما للحظة ولم يرد .

كان مشغولا بملاعبة ابنه الصغير . وكان الاثنـان ــ الأب والابن ــ يضحكان ويجريان .. وكرة صغيرة تنتقل بينهما .. حينا فوق العشب .. وحينا آخر فى ممر الحديقة .

وبالكاد ، كان الطفل الصغير يستطيع أن يجرى .. كل أربع أو خمس خطوات يتعثر خطوة .. ان كل عمره فى الحياة سنتان.. وكلما كان يقع على العشب يصيح عليه أبوه :

ـ هيه .. برافو حمادة .. بطل .. قو مبسرعة ولا يهمك.

وينهض الصغير من عثرته وتبحث عيناه عن الكرة ، فيصيح الأب من جديد :

ـ هناك .. عند الشجرة .. اجر هاتها .

ويجاهد الصغير فى الجرى .. يجاهد ليحفظ توازنه .. وما أن يصل الى الشجرة .. حتى يذهب الأب اليه ويقول وهو يشير بكل ذراعه على الشجرة :

ـ تعرف دى تبقى ايه يا حمادة ؟ . اسمها « شجرة » .. شا .. جا .. را .. « شجرة » .. قول كده .

فتطل الحيرة من عينى الطفل ويبحلق وتتردد عيناه بين أبيه المتحمس وبين الشجرة ثم ينطلق قائلا : « ججرة » .

ـ برافو حمادة .. انت هايل .. ولد ذكى .

ثم يصيح على زوجته التى تجلس على العشب تعد لهما الساندوتشات وترقبهما فى سعادة .

ـ فاتك نص عمرك .. سامعة ابنك حمادة بيقول ايه ؟ .. بيقول « ججرة » على الشجرة .

وازداد صوته ارتفاعا وحماسا :

ـ النهارده حاخليه يعرف كل حاجة فى الجنينة .

كان الوقت بعد كل هذا لايزال مبكرا .. والشمس لم تطل بعد على الحديقة من خلف قمم بيوت المدينة .. لقد استيقظ الأب فى ذلك اليوم مبكرا جدا رغم انه يوم أجازته ، وحين فتح النافذة محاذرا من برد الصباح ، لامس وجهه هواء

دافىء طـازج ؛ فانتعش قلبه ؛ وامتـد بصره الى بعيد ، فرأى السماء زرقاء صافية لا تتخللها سحابة واحدة .. قال لنفسه .. « كل هـذا الجمال والدفء في يوم من أيام الشتاء ، ونظل بطفلنا الوحيد داخل جدران أربعة » ؟

واستدار بحماس الى زوجته ليوقظها « هيـا نرتدى ملابسنا ونأخذ حمادة ونتمشى فى احدى الجناين .. أتذكرين ؟ . ولدنا تعلم المشى مع بداية الشتاء .. لم يذهب معنا خـارج المدينة ابدا وهو يمشى على رجليه .. كنت تحملينه على صدرك .. هيا انهضى .

وتركوا المدينة خلفهم .. وانطلقوا الى الحديقة .

ـ وشايف دى يا حمادة .. ؟ الحمرة دى .. ؟ اسمها « وردة » اسمها ايه ور .. ده .. قول كده .

كان يريد ان يعلم طفله الأسـماء والكلمات .. واستبدت به الرغبة فى أن يرقب التعبيرات التى تتوالى على وجة الصغير وهو يحملق فى الأشياء لأول مرة وينطق باسـمائها .. فينتابه احساس بالكبرياء وبالفرح .

من صلبه خرج هـذا الكائن الى الدنيـا .. كائن صغير يتحرك ويمشى ويتلفت حـوله ويلتقى بالطبيعـة لأول مـرة فى حيـاته .

ولمح قرص الشمس يبرز فجـأة من وراء مبانى المدينة .. أحمر .. ساطعا ومتوهجا ، فاتسعت عيناه وجلس على ركبتيه ليصبح راسه قريبا من رأس صغيره وصاح :

ـ شايف يا حمادة .. شايف القرص اللى بيلمع هنـاك ده .. ؟ اسـمه « الشمس » .. فاهم .. ؟ . الشـمس ..

الشمس دى هى اللى بتنور لنا الدنيا .. وشايف كمان .. الأزرق المفروش حوالين الشمس .. ؟ الواسعة اوى دى ؟ .. اهى دى اسمها « السما » .. اسمها ايه .. ؟ . قول كده .. سا .. ما ..

ويتعثر الطفل فى الكلمات .. ثم ينطقها بطريقته .. فيحتضنه الأب بفرح شديد .. ويصيح على زوجته بأعلى صوت وهو يتناول الطفل من يده ويذهبان اليها :

ــ خلاص يا ست .. حمادة ابنك بقى كبير .. عرف كل حاجة فى الجنينة .. شايفه بيضحك ازاى وفرحان .

وتشابكت ضحكاتهما ، وجلسا يأكلان بشهية ، ويطعمان صغيرهما .

فجأة ، هبط غراب .

هبط من فوق شجرة ؛ ووقف قريبا منهم ؛ وراح وهو يتواثب ويتلفت حوله بحذر ، يرقب الطعام بعينيه الصغيرتين المستديرتين .

صاح الأب هامسا لطفله :

ــ بص يا حمادة .

ما أن وقعت عينا الطفل على الغراب ، حتى اتسعت عيناه بالدهشة ، وتسمرت نظراته عليه .

ــ تعرف ده اسمه ايه يا حمادة .. اسمه غراب .. لازم جعان .. شوف .

وقطع الأب لقمة ، وبهدوء ، رمى بها للغراب .

قفز الغراب من الخوف وارتد طائرا قليلا الى الوراء ، ثم وقف وعاد يرقب اللقمة ، ويتلفت حوله بحذر .. وكلص

صغير ظريف ، راح يقترب محـاذرا من اللقمة .. خطوة خطوة .. ثم التقطها بمنقاره بسرعة وازدردها .

ضحك الطفل وقهقه فى سعادة .

ـ خد يا حمادة اللقمة دى .. ارمها انت له .

وتناول الطفل اللقمـة من ابيه ، ونهض من جلسته وراح ينظر للغراب .

وكأن شيئا فى عينى الغراب كان ينـادى الطفل فخطـا نحوه واللقمة فى يده .

ـ لا يا حمادة .. ماتمشيش اكتر من كده أحسن يخـاف منك ويطير .. ارم اللقمة يالله .

ورمى الطفل اللقمة ، ولم يتحرك الغراب .

لا هو تقدم الى اللقمـة خطوة .. ولا هو تراجع من الخوف خطوة .. ظل فى مكانه .. ينظر لحظـة الى اللقمة الملقـاة على العشب .. ثم يعود وينظر الى الطفل .. ويطيل النظر .. كأنما يقول لنفسـه .. « .. هـذا الشىء الصغير لا يؤذى .. لا يصح أن أخاف منه » .

وبهدوء شديد ، تسلل الى اللقمة ، ثم التقطها ، وارتد خطوتين الى الوراء بسرعة ، وعـاد يقول للطفل الصغير بعينيه .. « هيا أيها الصديق .. اقذف بلقمة أخرى » .

كان الطفل مدهوشا . خطا نحو الغراب خطوة . لكن الغراب تراجع خطوة .. تعجب الطفل .. لمـاذا يجرى الغراب منه .. وتقدم خطوة .. مرة أخرى عـاد الغرب فقفز الى الوراء نفس الخطوة .

يا لها من لعبة .

مرتان وثلاث .. وخمس .

كلما تقدم الطفـل خطوة أو خطوات ، أسرع الغراب الى الخلف ، محتفظـا بنفس المسافـة بينهمـا .. وعيون الاثنين لا يفترقان .

والأب ينظر الى الأم فى سعادة :

ــ ولدنا وجد لنفسه صديقا .. العالم ملىء بالأصدقاء .

وكأن الصديقين الصغيرين اكتشفا لنفسيهما لعبـة حلوة ، فراحا يمارسانها بمرح . الطفـل يتقدم من الغراب ، والغراب يسحبه مداعبا الى الوراء .. وابتعدت بهما اللعبـة كثيرا فى الحديقة .. والطفل نسى العـالم ، والغراب هو الآخر حلت له اللعبة فظل يحـاوره ويسحبه بعيدا بعيدا .. فجـأة برز رجل ضخم ، يلبس جلبابا وطاقية ، وحافى القدمين .. انه الجناينى .. وما أن أحس به الغراب ولمحه ، حتى انتفض فى فزع ومضى يشق الفضاء مبتعدا واختفى .

بهت الطفـل .. أين الغراب ؟ . اين راح ؟ . وجـاء يتلفت حوله ، فلم يجد شيئا .. لا شىء من حوله أبدا .. ندت عن صـدره شهقة .. خوف فظيع أطبق عليـه .. أين هو ؟ أين أبوه ؟ . أين أمه ؟ . فراغ .. فراغ مهول .. لا حديقـة ، لا شجر .. لا ورد ، لا شمس ، لا سـماء .. انشق قلبه عن صرخة رعب هائلة .

تسمر فى مكانه ، وراح يصرخ ويصرخ فى فزع .

« ١٩٥٧ »

حفلة عشرة

قفز الخاطر فجأة الى رأسى فانتفضت .

ماذا لو تاه ولدى .

وقفزت من على فراشى كالملسوع . وارتديت ملابسى بسرعة مجنونة ؛ ونزلت فورا الى الشارع .

كان الشارع يموج بالحركة .. زاغت عيناى .. ناس .. عربات .. اتوبيسات .. اشارة مرور .

ـ تاكسى .. تاكسى .

واندفعت داخل التاكسى وأنفاسى لاهثة :

ـ سينما كايرو يا اوسطى .. أقرب طريق لو سمحت .. بسرعة ارجوك .

وانطلق التاكسى .

كان السؤال يلف ويدور فى رأسى بسرعة مخيفة كالدوامة .

ـ ماذا لو تاه ولدى ؟ !

واشعلت سيجارة ، ورحت اجذب منها أنفاسا متتابعة سريعة ، كأنما اريد أن اشعل بها صدرى واعاقب نفسى على ما فعلت .

كيف سمحت له بهذا ؟ الم اكن قد أفقت من النوم بعد ، حين جاءنى الصغير وأفضى الى برغبته .. فانقدت له ، ووافقته ؟

أبدا .. أبدا .. كنت فى كامل وعيى .. كنت قد صحوت من النوم من وقت طويل ، وشربت الشاى ، وتصفحت الجرائد ، ثم .. ذهبت اليه فى حجرته لآخذ من جبينه قبلة تشعرنى بجمال الصباح .. كان واقفا ببيجامته الصغيرة على سريره ينظر الى الشارع من خلف الزجاج .. لم يحس لحظتها بدخولى .. ظللت ارقبه بفرح .. كانت أنفه المتكورة وهى ملتصقة بالزجاج شبه فطساء .. فيم يفكر العزيز يا ترى وهو يطل هكذا بعينيه الى الدنيا من خلف الزجاج .. وقد قلت لنفسى لحظتها بشغف وقلبى يرفرف « متى .. متى يكبر صغيرى وينطلق وحده فى الدنيا ؟ » .

وحين أحس بى ، التفت لى واتسعت عيناه بالفرح وقال وهو يندفع الى صدرى ويتعلق برقبتى :

ـ انت صحيت يا بابا ؟

ورددت عليه بقبلة ضاحكة على خصلة شعره السوداء المتهدلة على جبينه .. قال فجأة وفى عينيه الواسعتين نظرة رجاء :

ـ بابا .. أنا عايز أروح السينما .

ـ السينما ؟ !

ـ أيوه يا بابا .. مش النهارده الجمعة .. ودلوقت حفلة الأطفال .. أصحابى زمانهم كلهم هناك دلوقت فى سينما كايرو ..

ـ لكن أنا مش فاضى دلوقت يا حبيبى عشان آجى معاك !

قال برجاء :

ـ أروح أنا لوحدى .

ـ لوحدك .. ؟ ! لوحدك ازاى ؟ !

وتحول الرجاء فى عينيه الى شبه دموع وارتعشت شفتاه :

ـ مش انت بتقول انى كبرت .. وبقى عندى سبع سنين .

وبلا وعى .. وافقت .

أعطيته النقود وارتدى قميصه وبنطلونه القصير ، ووصفت له الطريق .. ونزل .

جنون ذلك الذى حدث منى .. كنت قطعا لا أزال مخدرا بالنوم .. كنت أحلم انه كبر وأنا أرسم له الطريق « شارع الفلكى بطوله .. وامش على الرصيف يا ايهاب .. حاذر من العربات .. سيقابلك ميدان الأزهار .. اسأل على شارع شريف .. ثم خذ يمينك .. ثم يسارك .. ثم .. ثم » .

كيف فقدت عقلى الى هذا الحد فقذفت بطفلى وحيدا فى الشوارع ؟ !

باسم ماذا فعلت هذا .. ؟

باسم التجربة .. ؟

باسم الاعتماد على النفس وتعاليم كتب علم النفس والتربية الحديثة .. ! ؟

أنا احمق .. مجنون .. أنا جاحد النعمة .. لا أستحق أن أكون أبا .. أنا متوحش القلب .. يارب يارب .. لا يتوه ..

وقف بى التاكسى أمام السينما .. كان الزحام شديدا ، جمهور الحفلة التى تلى الأطفال فى انتظار لحظة الدخول .

وبلهفة ، وبكل قلة ذوق ، اندفعت أشق طريقى فى الزحام واسأل : « هل خرج الأطفال » ؟

« لا .. خمس دقائق ويخرجون » .

ووقفت أنتظر .

كان قلبي يهبط شيئا فشيئا الى قدمى .. لقد سألت طفلى قبل أن يخرج عن الفيلم الذى سيراه ، فقال وهو يكاد يطير من الفرح :

ـ الرجل المثالى يا بابا .. !!

وقد شجعني الاسم ، بل وجدتنى لحظتها أفكر : كيف إصبح انا الأب المثالى فى عين طفلى ..

وأحسست لحظتها بنوع من الزهو يملأ صدرى وأنا أعطيه النقود ، وأتركه يمضي .. وحده .

انا ساذج ، خرافى التفكير .. وبحركة لا اراديه ، التفت خلفي الى لوحة الاعلانات وتعلقت أنفاسى : صورة كبيرة بالألوان لرجل يرتدى عباءة فضفاضة حمراء .. وعلى وجهه قناع أسود ، ويمتطى صهوة جواد أبيض طائر به فى الفضاء .

الآن .. مئات الأطفال داخل السينما جالسون أو واقفون يبحلقون بعيونهم المبهورة فى الشاشة ويتفرجون على هذا الرجل بحصانه .. وولدى ؟ .. تراه الآن جالسا بينهم ، أم ضل الطريق الى السينما وراح يضرب فى الشوارع على غير هدى .. ويبكى ؟

وقاومت الرغبة فى البكاء .

الدقيقة الواحدة كانت تمر كعام .. فجأة ، علت ضجة كبيرة وفتح باب السينما على مصراعيه ، وبدأ الأطفال يخرجون.. كانوا فى اندفاعهم المرح من الباب أشبه بكتاكيت صغيرة تتدحرج وتكاد تنكفىء وهى تتزاحم وتتسابق فى الخروج الى ضوء الشارع .

رحت انقب بكل أعصاب عينى .. ولدى .. أين ولدى ..

بجبهته المضيئة ، وانفه المكور وخصلة شعره السوداء التى تلامس حاجبيه ..

بنات وصبيان .. كلهم صغار ، وكلهم .. كلهم فى ايدى آبائهم أو امهاتهم او أخواتهم الكبار .. والفرحة تقفز من عيونهم .. احسست بغصة فى حلقى.. وبقلبى يهبط الى قدمى.. ما من ولد وحيد .. الولد الوحيد فى كل هذا الزحام سيكون ولدى .

اين انت .. أين أنت يا ايهاب .

الكتاكيت كانوا يندفعون الى الشارع .. وعيناى تروحان وتجيئان .. وقلبى يروح ويجىء .. هيصة وزيطة وضحكات نابعة من القلب وجميلة .

لو أسمع ضحكة واحدة منه أو كلمة لعرفته دون حتى أن أراه .. العشرات والمئات كانوا يخرجون .. وولدى .. يا ولدى أين انت ؟ ..

أيمكن أن تكون جالسا فى مقعدك كالعقلاء ، حتى ينتهى الزحام ؟ ..

ربما .. انا دائما اتخيلك هكذا .. كبيرا .. وعاقلا يا ايهاب .

شيئا فشيئا ، كان الزحام يخف ويخف .. وبدأوا يخرجون فرادى .. ثم .. لم يعد يخرج أحد .

غامت عيناى .

لقد ارتكبت الجريمة .. وتاه ولدى .

عدت أسأل وأنا اكتم هلعى :

ــ ماعدش أطفال جوا السينما ؟ .

ـ لأ .. كلهم خرجوا .

رفضت أن أصـــدق .. اندفعت جريا الى الصالة .. كانت فارغة ، صامتة ، تكسوها ظلال كثيفة أشبه بسوق أو مهرجان كان وانفض ، ولا مخلوق فيها سوى اثنين يكنسان الأرض فى وجـوم .

تاه .. تاه .

وخرجت الى الشارع .

ماذا أفعل ؟ .. أجرى فى الشوارع ، واسأل وابحث .. ربما أصطدم بطفل وحيد يبكى .. فيكون هو ؟ !

أى اتجاه آخذ ؟ . أبدأ بأى شارع ، هذه المنطقة سوق .. المدينة كلها سوق .. مدينة بلا قلب ؛ كما أحسها الشاعر مرة .. متوحشة .. لأ .. انا المتوحش .. ماذا ستفعل أمك حين يبلغها الخبر .. ليتها لم تكن نائمـــة لحظتها ، كانت بالتأكيد ستمنعك من الخروج وحدك .. الجنون .. حين تعلم .. حزن العمر .. لقد كنت حلمها يا ايهـــاب وهى لاتزال صبية .. هى التى اختارت لك الاسم حتى قبل أن تحمل بك .. كنت حلمنا فى أجمل أيام عمرنا .. يا حبيب عمرنا .. أهكذا بسرعة تضيع منا فى زحام الحياة .. يأخذك أناس مجهولون .. ولا يدرى أحد ما مصيرك .. فى كل البلاد أناس بلا قلب .. غير رحماء .. يخطفون الأطفال ويستعملونهم فى ...

لا .. لا .. هنـــاك أيضا أناس طيبون و .. آخرون لم ينجبوا .. ليتك تكون من نصيب هؤلاء ، سيحبونك بالتأكيد ، عيناك واسعتان سوداوتان..وابتسامتك .. ابتسامتك جميلة .. من يومك وابتسامتك جميلة .. ومن يومك وانت قوى .. كنـــا نسميك « شمشون الصغير » أتذكر ؟ . على البـــلاج .. فى ثانى

صيف لك فى هـذا العـالم ، كنت تمشى وتجرى بالمـايوه على الرمل ، وتهجم على الموج دون تهيب ، وفى يدك عصا ، وصـدرك قوى ومرتفع ، ونزهو بك أمام الأصدقاء وأمام البحر .

ولدى .. من أجل أمك على الأقل .. أرجوك .

لا تصدمها الصدمة الرهيبة .

يا الهى ! . من أين أبدأ البحث ؟ !

فجأة .. سمعت ضحكة .. تصلبت قدماى وأذناى .. هل اصدق قلبى ؟

والتفت ..

كان هو .. ولدى .. ايهاب .. واقفا مع ثلاثة أطفال .. كتاكيت صغار فى مثل حجمه وسنه .. كانوا يضحكون .. وواحد منهم ينفخ صدره ويقول : « هيه .. أنا الرجل المثالى » .

قال ولدى وهو يشيح بذراعه :

ــ لا .. لا أنا الراجل المثالى .. شوفوا .

وقفز بجسـمه الصـغير الى أعلى فاردا ذراعيـه وكأنهمـا جناحان .

صحت بلا وعى .. ايهاب .. ايهاب .

توقفت فجأة والتفت الى بعينين مستغربتين :

ــ الله .. انت دخلت السينما يا بابا ؟ .

قلت بصوت خافت وكأنى أستريح من مشـوار طويل قطعته جريـا :

ــ لا يا حبيبى .. أنا ...

وتلجلجت ..

صاح واحد من الأطفـال فجـأة وهو يشـع عينيه فى عينى ولدى وقال بلهجة ساخرة :

ـ هاها .. وبتقول لنا انك جاى من بيتـكم لوحدك .. آه يا كداب .

وانقلب وجه صغيرى ، وصاح وقد امتلأت عيناه بالدموع :

ـ لا .. أنا جيت لوحدى .. جيت لوحدى .

ـ آه يا كذاب !!

والتفت لى بعينيـه الباكيتين وعـاد يصيح وهو يدق فى الأرض بقدميه .

ـ أنا مش كداب .. أنا اللى جيت لوحدى .. لوحدى .. ايه اللى جابك يا بابا .. ايه اللى جابك !

وراح يبكى .. ويمزق نفسه من البكاء .

« ١٩٦٠ »

العصفور لعبة

طلع عليه النهار وهو جالس الى مكتبه محنى الرأس يعمل بفكره .. وقد استغرقته الحالة حتى لم يحس بدرجات الألوان وهى تنبثق أمامه على مهل من كتلة الليل الصلدة السوداء ثم تتفتح وتشرق درجة بعد درجة حتى أخذ وجه الدنيا لون النهار .

وربما كان قد ظل هكذا ، غير شاعر حتى بضجة الصباح التى بدأت تشيع فى المدينة الضخمة ، لولا أن شيئا ما حدث فجأة جعله ينتفض فى جلسته ، وبغريزة الخوف وجد نفسه يميل مفزوعا وبسرعة على اليسار ليتفادى ذلك الشىء المندفع نحوه من باب الشرفة بسرعة رهيبة ، كقذيفة قاعدة اطلاقها مجهولة ، لكنها بالتأكيد قريبة ، ثم من هول السرعة تواصل اندفاعتها وترتطم بالحائط فوق رأسه ، ثم تسقط على الأرض بجوار مكتبه .

كان عصفورا ..

هنا ، تحركت فى الرجل غريزة القنص القديمة ، وفى أقل

من لمح البصر كان يندفع قفزا الى الباب الذى دخل منه العصفور وقفله ، ونظر الى الباب الآخر الذى يفضى الى بقية الشقة ، كان هو الآخر مقفولا .. واذن .. وقع العصفور فى الفخ !

وقف لحظة ينظر الى الطائر مفرود الصدر لامع العينين متسع الشدقين بابتسامة النصر .. ها قد اصطدت عصفورا .. وعصفورا ملونا جميلا .. وابهجه الموقف ، وتذكر طفله .. سينادى عليه .. « نعم .. ما أروع أن يقدم الأب لابنه مثل هذه المعجزة على الصباح » .

وشد قامته سعيدا مزهوا .

« وليرى ايضا إن فى امكان أبيه أن يصطاد عصافير » !!

ما أن رأى الطفل العصفور ، حتى اكتسحت كيانه فرحة كبرى .. حقا معجزة يا أبى العظيم .. ! كان يقفز ويصفق ، وبدا وكأنه لا يصدق ، وصاح وهو يحضن أباه :

ــ العصفور ده بتاعى يا بابا .. اصطدته علشانى ؟ ! .

ــ عصفورك يا حبيبى .. عصفورك .. !!

قالها الرجل وقد تهدج صوته بفرح غامر لفرح طفله الصغير الوحيد .. والتفت الى زوجته التى كانت هى الأخرى فرحة وسعيدة بسعادة طفلها ، وقال :

ــ عصفور جميل .. مش كده ؟ ! .

قالت وهى تتأمل العصفور :

ــ ده كنارى .. الله على الوانه .. شايف زاهية وناطقة ازاى !

ــ بس مسكين .. الصدمة كانت شديدة عليه .. عندك أكل له ؟ ! .

ـ عندى .. بس مش حياكل يا عينى .

ـ ليـه ؟ !

ـ عشان حزين ووحيد .. النوع ده ما ياكلش ، الا اذا كان له وليف معاه !!

ـ يعنى ايه ؟

ـ نشترى له عصفور تانى ، دكر اذا كانت دى نتايـة .. أو نتاية اذا كان ده دكر ، ونشترى لهم قفص يعيشوا الاثنين مع بعض فيه !!

سمع الطفل اقتراح الأم ، فصاح مؤيدا وكل جسمه يهتز.. « ايوه يا بابا .. والنبى يا بابا .. اشترى له قفص يا بابا » .

يا لها من فرحة .. محـال ، وتحت اى شـمار ، اطفاء هذه الفرحة .

وسرحت عينـا الأب .. رسم خياله الصـورة : عصفوران جميلان من الكنارى ، يعيشان فى بيته ، داخل قفص أنيق مدلى من سقف الصـالة .. وفى أوقات الراحة ، يجلس مسترخيـا أمامهمـا .. ويتأملهمـا .. وراح يتأمل الصـورة .. حـدثت اهتزازة .. تحولت أسـلاك القفص فى عينيه الى قضبان ، ورأى سجينين فى زنزانة .. هبت الذكرى المروعة من الأعماق فانقبضت روحه .. لقد مر بالتجربة ذات مرة ، وشيبت روحه .. من أجل حرية وطنه ، فقد حريته أعواما .. واغمض عينيه وهز راسه بشدة : لا .. حكاية القفص هذه مرفوضة .. وأيضا لن يشترى الوليف الآخر ! . أى شىء جناه هـذا العصفور ليحبسه؟! كل ما فى الأمر انه كان يبحث عن حريته .. وضل طريقه ! .

لا .. لن أكون أنا سجانه !! بعض من الوقت يقضيه الطفل

مع العصفور ثم يطلق سراحه .. نعم .. الى الفضاء لابد ان يعـود .

كان الطفل يقترب من العصفور .. خطوة خطوة .. منحنيا ومادا ذراعيه الصغيرتين أمامه ، ثم فجـأة ، وكقناص صغير حذر ، قفز على العصفور قفزة مخيفة ليمسك به ، غير أن صرخة اعتراض حاسـمة من شفتى الأب أوقفته .. استدار نحو أبيـه مستفسرا فى دهشة .

ـ ليه يا بابا .. ؟

ـ عشان لو مسكته حيموت فى ايدك . !

خفض الطفل عينيه فى استسلام ، واستدار الى العصفور معتذرا !! انقبض قلب الرجل ، وتشاءم لمصير العصفور : الأطفال سرعان ما ينسون .. وستعود اللعبة مرة أخرى .. وتصبح لعبة الموت ! .. ونظر الى زوجته كأنما يطلب منها العون .. وهمس :

ـ انا خايف الولد يموت العصفور ! ..

ـ اشترى له قفص ، حطه فيه .

ـ مستحيل .. وانت عارفة .. اسجن عصفور بجناحين ، واتفرج عليه .. منظر ما اقدرش عليه .

ـ وكنت بتصطاده ليه ؟ !

ـ أنا ما اصطادتوش .. هو اللى دخل الأوضه .

ـ وبعدين قفلت عليه .. !!

ـ اللى حصل .. اعمل ايه دلوقت !!

كان العصفور قد هرب مرتعبا من قفزة الطفل ، ولاذ منكمشا

بركن آخر .. وكان يلتصق بالجـدار كأنمـا يريد أن يدخل فيه ليختفى عن هذه الأجسام والعيون المريبة الغريبة .

أحس الرجل أنه فى ورطة .. هو المسـئول ان حـدث للعصفور شيء .. هل ينتظر حدوث هـذا الشيء . !! ولكن .. كيف يمكن اقناع الطفل بترك العصفور يطير .. ؟ ! .. كيف ؟ ! يحدثه عن ضرورة الحرية للطيور ؟ !

ـ حاسألك سؤال يا مجدى .. ليه ربنـا خلق العصـفور بجنـاحين ؟ !

ـ عشان يطير يا بابا ..

ـ يطير فين ؟ !

ـ فى الجو يا بابا ..

وتحمس الأب ، وتفاعل للنقاش ..

ـ عظيم .. يبقى ازاى نسجنه فى قفص ، او فى أوضـه زى دى .. بين أربع جدران زى دول .. ؟ ! .. حرام طبعا .. ربنا يعذبنا .

اختلج وجه الطفل .

ـ أنا حا حافظ عليه يا بابا ، وحاحط له اكل كثير .

ـ ولو يا حبيبى .. برضه حرام .. نسيبه أحسن يطير ؟!

ـ يطير .. ؟!

اتسعت عينا الابن ، وبدا فيهما الانزعاج . ولمح الأب بوادر دموع تكاد تنبثق ، بل وسرعان ما انبثقت ، وقال الطفل متوسلا وهو يبكى :

ـ لا يا بابا .. العصفور ده بتاعى .. انت اصطادته علشانى ؟

مناقشة الحرية مع الطفل سذاجة وعبث ، واستخدام القوة أيضا .. خطأ :

ما العمل .. ما العمل !!

فجأة .. خطر له خاطر .. لمعت الفكرة .. وبرقت عيناه :

سأنفذها .. ولتكن تجربة .. وان نجحت . فستكون المعجزة .

ـ هيه .. يا مجدى .. انا وماما حنخرج نقعد فى الصالة تيجى معانا ؟ !

ـ لا يا بابا .. حاخلينى مع العصفور . !

ـ توعدنى انك ما تمسكوش ؟ !

ـ أوعدك يا بابا .

ـ وعد رجاله .. ؟ !

ـ وعد رجاله !!

ـ واوع تفتح شباك البلكونة ؛ احسن يطير .. سامع :

ـ حاضر يا بابا ..

وخرج مع زوجته ، وعلى الفور بدأ فى تنفيذ الخطة !! .

فى هدوء شديد ، وبصوت لا يسمعه الطفل ، قفل الباب بالمفتاح .. سألته الزوجة باستغراب وانزعاج .

ـ ايه اللى بتعمله ده ؟ !

ـ دلوقت حتشوفى .

ـ حاشوف ايه .. عايز تحبس الولد لوحده ليه ؟ !

ـ مش لوحده .. معاه العصفور .. أرجوك ، أنا باحب الولد زيك بالضبط .

وتركها ومضى ينظر من ثقب الباب .

كانت هناك مطاردة خفيفة من الطفل للعصفور .. الطفل يناديه بذراعيه الممدودتين ؛ والعصفور يروح ويجىء بفزع وارتباك .. فى كل اتجاه .

وقف الطفل ينظر الى الطعام الذى أحضرته الأم للعصفور : ألن تأكل منه يا صديقى العزيز . ؟ !

ووضع بعض حبات أرز على راحة يده ، واقترب يعطيها للعصفور ، لكن العصفور ولى على الفور هاربا الى بعيد ! . اغتاظ الطفل .. وهجم عليه مندفعا فى ضيق يريد أن يمسك به ، لكنه توقف .. تذكر وعده لأبيه .. واكتفى بالجلوس والفرجة عليه .. ما أجمل الوانه .. لو يلمس هذا الريش الجميل بيديه .. ؟ ! أبوه لايزال يعتقد انه صغير .. سينادى عليه ويطلب منه هو أن يمسك به .. واستدار الى الباب ينادى بصوت خافت :

ـ بابا .. بابا ..

لم يرد بابا ..

ـ ماما .. ماما ..

ولم ترد ماما .

لماذا لا يسمعانه . ؟ ! لابد انهما تركا الصالة ، وذهبا

الى حجرة أخرى !! . لم يحس بحركة الأب والأم وهما يتبادلان النظر من ثقب الباب للاطمئنان .. قالت الأم همسا :

ـ حرام عليك .. الولد حيخاف ..

ـ افرضى انه خاف .. حيحصل ايه !

ـ بدأ يزهق .. بيلف حوالين نفسه ..

ـ عن اذنـك ..

ووضع عينيه مرة أخرى على الثقب .. كانت الفرحة قد تبددت من على وجه الطفل .. نظراته حائرة .. تتردد بين الباب وبين العصفور .. العصفور مصمم على موقفه .. هذا العصفور لعين يستحق الضرب ..

ـ يا بابا .. يا ماما ..

مرة أخرى لم يرد الاثنان . لا صوت ولا حس يسمعهما . البيت ساكن صامت « سأخرج وانادى عليهما .. سأخرج بحذر ولن يهرب العصفور » . وذهب الى الباب وحاول ان يفتحه . فوجىء به مغلقا بالمفتـاح . خوف مفاجىء انبثق فى نفســه ، وأسرعت دقات قلبه .. وحاول مرة أخرى فتح الباب . الباب لا يفتح . تضاعف الخوف فى روحه وانعقدت دمعة كبيرة قاومها فى حلقــه ..

ـ بابا .. بابا .. يا ماما .. يا ماما ..

الصمت الثقيل يشمل البيت .. تركاه وخرجا .. وقد يكونا خرجا من البيت كله .. صرخ ينادى بأعلى صــوته .. اندفعت يد الأم لتخطف المفتاح ، لكن يد الأب تحولت الى قبضة من حديد على ذراع الأم .. بلا كلمــة .. وبرقت عينــاه ..

لا .. لم يأن الأوان بعد .. انها تجربة الحرية .. فليتذوق الصغير ما فيها من مرارة .

قالت الزوجة وهى تعانى من قبضة يده :

ــ انت متوحش .

قال وعيناه تلمعان :

ــ هو اللى متوحش . عايز يفضل حابس العصفور . أرجوك مش عايز اى كلام .

ــ افتح لى يا بابا .. افتح لى يابابا ..

وراح الطفل يدق على الباب مناديا ، ولم تلبث نداءاته أن تحولت الى صرخات .

ــ افتح لى يا بابا .. افتح لى يا بابا ..

والأب لا يفتح .

شمل الرعب كيان الصغير وتخلخل .. الحجرة ضيقة ومقبضة ؛ لمعة عينى العصفور مخيفة .. الجدران ضخمة .. مصمته .. وضاقت انفاسه .. الى متى يظل محبوسا .. ؟ ! .. ونظر الى باب الشرفة . هل هو الآخر مقفول بالمفتاح . واندفع بلهفة يفتحه .. فانفتح وانطلق منه الى الشرفة يصرخ وينادى .. يا بابا .. يا بابا .. ماما ..

فتح الطفل باب الشرفة من هنا ، وفى غمضة عين كان العصفور قد مرق فاردا جناحيه ، وانطلق سابحا فى الفضاء !!

للحظة أصاب الطفل الذهول والخوف . ماذا سيقول لأبيه ؟ ! . هو الذى فتح الباب فطار العصفور .. ؟ ! ليكن ما يكون .. وليخاصمه أبوه ، وليضربه ، وليعاقبه اى عقاب ..

المهم أن يفتح له باب الحجرة .. الآن : يريد أن يخرج .. هل سيظل هكذا محبوسا حتى يأتى الليل ؟ ! ويخيم الظلام .. و .. تتابعت أنفاســه وارتمى فى خوف على الباب يدق بكلتى يديه ، ويصرخ .. ويبكى ..

ـ افتح لى يا بابا .. افتحى لى يا ماما .

صرخت الأم فى جنون ، وهى تهز كتفى الأب « أنت فظيع.. شنيع » .. العصفور طار خلاص .. كفاية حرام عليك ؟ .

ـ عايز اخرج يا بابا .. عايز اخرج يا ماما .

والصرخات الباكية ، والضربات الصغيرة المرتعبة على الباب تتوالى .. وبرقت عينا الأب بابتسامة وحشية تخفى مرارة الألم الرهيب .. ومد يده الى الباب بالمفتاح .. نعم ..

آن الأوان .

وفتح الباب .

« ١٩٦٢ »

ابـن العـالم

... ما ان انتهى اللعب ، حتى ضجت الساحة التى اتخذها الصبيـة والأطفـال ملعبا لهم بالصـياح وبالصفير .. فريـق « الصواريخ الجهنمية » المنتصر يهتف ويصيح . وفريق « الأسد المرعب » الذى انهزم يصفر ويزوم .. وتداخل الفريقان واختلطـا وابتدأت بينهما اللعبـة الثانية الطريفة : لعبة الكلام الحاميـة بين الغالب والمغلوب .

غير أن طفلا من فريق الصـواريخ الجهنمية نظر فجـأة الى ساعة يده ، وحينذاك طرقع باصبعيه فى الهواء وهتف متذكرا مع نفسـه :

ـ آه .. لابد أن أعود ..

وانفلت من ساحة اللعب ، وانطلق يجرى فى الطريق المؤدى الى بيته .. كان يحجل من الفرح مرة ، ومرة اخرى يقفز فى الهواء ، ناشرا ذراعيه النحيلين فى الفضاء ، وقد خيل اليه انه ربما يحلق ويطير .. كان احساس جارف بالنشوة يملأ كل كيانه الصغير .

أليس هو وحده الذى حقق الهدفين لفريقه فانتصروا بذلك على « الأسد المرعب » ؟ !

آه .. ماذا سيحدث حين يلقى لهم بهذا الخبر فى البيت ؟ ..

وملأ صدره بنفس عميق من هواء الشارع ليساعده على الجرى .. وازدادت سرعته .. كان يتمنى لو يصل البيت فى غمضة عين .. ليس المهم انه لن يتأخر على موعد الغذاء كما اتفق مع أمه .. المهم أن يعلنهم بالخبر .. هذا الخبر سيحدث فى البيت هزة .. وأول من سيفرح به ، هى أمه .. أمه دائما تقول له : « لم تعد طفلا يا اسماعيل .. لم تعد طفلا » .

كلامها حق .. لم أعد أبدا صغيرا .. صحيح ان أخى مصطفى يكبرنى بسنتين .. ولكن ، لو كان معنا فى هذا الماتش ، هل كان حقق هدفا واحدا ؟ ..

كان صدره يضيق بفرحته .. وتمنى لو يقابل فى الطريق شخصا يعرفه ، اى شخص .. صبى الخردواتى .. أو ابن بائع الجرائد الذى يبيع لهم الجرائد فى الصباح أو حتى بائع الخبز ، ويحكى له . غير أن الطريق على طوله كان ساكنا شبه خال .. لم يكن يشغله سوى صفين من الأشجار الكثيفة على الجانبين ، وخلفها تكاد تختفى بعض بيوت متناثرة .. صامتة تحت الشمس، لا أحد يدخلها أو يخرج منها .. ونظر الى صفى الأشجار الممتدة بظلالها على طول الطريق .. وخيل اليه ان الأشجار تنظر اليه .. فمضى ينظر اليها .. وهى تجرى .. شجرة .. شجرة .

لقد انتصرت إيتها الأشجار « وتمهل قليلا ليسترد أنفاسه » لم أعد صغيرا .. هذه الشجرة المدببة العالية ، أستطيع أن اتسلقها حتى آخر فرع فيها .. سأطلعك غدا أيتها الشجرة .. لم أعد صغيرا أيتها الأشجار جميعا .. أمى تقولها

لى دائما .. كم احبها ، امى .. وأبى أيضا أحبه .. وأخى مصطفى .. ولكن مصطفى هـذا دائما يزهو على ، وينفخ لى صـدره لأنه أكبر منى بسنتين .. سنتين فقط .. ها .. بعد دقائق سيتغير الموقف .. بمجرد ان يسمعوا الخبر .

ومضى يسرع .

كانت الشمس لحظتها تتوسط صدر السماء .. ظهر يوم من أيام مايو .. وظلال الأشجار أصبحت عمودية فبدت ارض الشارع أشـبه بشريط طويل من النور ، يجرى فوقه الصغير ويحجل .

كان الطريق واحدا من شـوارع تلك الضاحية التى يسكنها الصغير مع اهله .. يحاذيها النهر من الغرب ومن الشرق تحيطها مساحة ضيقة من الحقول ، ثم سلسلة جبال منخفضة ، سمراء ورمادية .

وظل يجرى .. قفزاته المرحة تفجر صمت الظهيرة بالحياة .. حتى لاح له البيت من بعيد .. بطابقه الوحيد ، والشجرة التى تظلله وتتدلى بعض فروعهـا الكثيفـة حتى تلامس السطح .. وأحس بحب جارف نحو هذا البيت الذى سيدخله اليوم منتصرا هدفان وحـدى ـ يا امى .. ويا ابى .. ويا اخى مصطفى .. ويا ... ما هـذا ؟ ! تباطأت خطواتـه .. بدا له انه يسـمع صوتا ، فتمهل وراح ينصت وهو يلهث .. والتقط الصـوت على الفور .. كانت نقرات طبلة .

طبلة فرقة من فرق الكشـافة لاحدى المدارس ، تقوم بجولة استعراضية ، وتخيل المنظر : أشبال الفريق وهم يضربون الأرض بأقـدامهم ، واجسامهم مشـدودة ، والشـارات الخضراء على أكتافهم .. وحامل الطبلة يتقدمهم .. أحس بالضيق .. ولوى

شفتيه بسخرية .. وماذا فى هـذه المشية ؟ ها .. فى امكان اى واحد أن يمشيها : شـمال . يمين . شـمال . يمين . هـذا هو كل ما فى الموضوع .. اما الكرة ، فشىء آخر .. حققت فيها هدفين .. وحدى .. الكرة أحسن الف مرة من الكشـافة .. وأصعب أيضا .. الكرة فيها محـاورة ، ومراوغة ، واهـداف ، أما الكشـافة .. مشى . . مشى .. مشى .. هـذا هو كل ما فيها ، غير انه أحس بروحه تهبط ، ودقات قلبه تسرع رغما عنه .. كان صـوت الطبلة يقترب ، وادرك لأول مرة ان الكشافة تسير على نفس الطريق .. قادمة من الاتجـاه المقابل .. وستظهر فى أية لحظـة .. وتجهم وجهه ، لو ظلوا قادمين من نفس الطريق، فسيمرون أمام البيت ، وسيجرى الجميع ليتفرجوا عليهـا ، لن يلتفت أحد الى .. سيغطى منظرهم على وعلى خبر الهدفين . لا . سأجرى بكل عزمى ، وألقى بالخبر ، قبل وصولهم !!

وانطلق يجرى .. وانفاسـه تتلاحق .. كان يدعو من اعماقه أن تتأخر الكشافة .. أو تأخذ اى طريق جانبى .. انه يريد لأمه الا تسمع الآن شيئا فى العـالم غير خبر انتصاره .. لكن ايقاع الطبلة كان يعلو ويقترب ، وامتلأ بالخوف من أن يصل صوت الطبلة الى البيت قبل أن يصل هو .

ـ لا .. لا .. ابتعدى أيتها الطبلة .. أيتها الكشافة خذى طريقا آخر .. يارب تفسد هـذه الطبلة .. افسدها يارب .

غير أنه لمح فريق الكشافة يبرز فجـأة من بين الأشجار ، مقبلا نحوه ، ونحو البيت ، وحامل الطبلة يتقدم خطوات منتظمة « مهما كان الأمر سأسبق هـذه الكشافة » ومضى يلهث .. ويجرى .

غير أنه لم يكد يقترب من البيت ، حتى رأى الباب يفتح بحركة مندفعة ، وأمه وأباه وأخاه مصطفى يتسابقون على الخروج

الى الشرفة وأصـواتهم تختلط بفرح ولهفة .. غاص قلبـه ، لقد وصلتهم دقات الطبلة ، فخرجوا جريا ليتفرجوا عليهـا .. فتر حماسـه .. وتوقف تماما عن الجرى .. وأحس بشىء ما يكتسحه ، ووقف خلف شجرة يخفى نفسه .

كان استعراض الكشافة قد اقترب جدا من البيت ، وأصبح منظرهم واضحا ، وحـامل الطبلة يخلى لهم الطريق بدقـاته المنتظمـة .

ولمح أخاه مصطفى يترك الشرفة ويهبط سلالم البيت قفزا ويدفع الى وسط الشـارع ليستقبل الاستعراض ، فنادى عليه بصوت خافت :

ــ مصطفى .. يا مصطفى ..

واستدار له مصطفى .. فصاح عليه وقد تجدد الحماس فى قلبه :

ــ احنا مش كسبنا ماتش النهارده ؟ اتنين لصفر ، وانا اللى جبت الجونين .. انا لوحدى ؟

وفرح حين رأى الدهشة ترتسم على وجه أخيه ويسأله :

ــ جونين ؟ ! انت لوحدك ؟ !

ــ آه .. انا لوحدى ..

غير أن الدهشة سرعان ما تبددت من على وجه أخيه ، وقال له بكبرياء وينفخ صدره :

ــ أنا كمان اصطدت سـمك النهارده بسنارتى ، اتناشر سمكة أنا لوحدى .. واسـأل ماما وبابا .. تيجى أوريهملك « وشوح بيده مستدركا » لا .. لمـا تفوت الكشافة أول يا عم ..!

وتركه وحده بجوار الشجرة ، واستدار يجرى نحو الكشافة التى كانت تقترب ونقرات طبلتها تعلو وتملأ سكون الطريق .. احس اسماعيل بغصة فى حلقه .. ونظر الى شرفة البيت فرأى أباه يشير لأمه على الكشافة ويقول لها كلاما بحماس ، ووجهه يضحك ، وأحس بالضيق من أبيه .

ـ أبى هذا يترك مصطفى يذهب الى النيل ليصطاد سمكا .. ولا يخاف عليه من الغرق .. انه لا يخاف علينا أبدا .. لماذا هو متحمس هكذا للكشافة .. امى..امى هى التى سأقول لها .

واجتاز الطريق دون أن ينظر الى طابور الكشافة المتقدم ، وخطف الدرجات الخمس الموصلة لباب البيت وللشرفة .. وبلا وعى هتف من أعماق قلبه ، يعلن خبر انتصاره .

لكن الكلمات توقفت على شفتيه ، امه لا تسمعه ، صوته يضيع فى دقات الطبول المتعالية . وأبوه يلف ذراعه حول كتفى أمه فى ابتهاج .. وأمه تضحك بسعادة وتشير على الصبى الصغير الذى يحمل الطبلة على صدره ويدق عليها ببراعة :

ـ الله .. شايف منظره جميل أد ايه .

وقف من خلفهما ينظر الى الكشافة باكتئاب ..

الكل ينظر الى الاستعراض بفرح ودهشة ..

أما هو .. فلا أحد يحس بوجوده ..

لا أمه .. ولا أبوه .. لا احد أبدا .. حتى هذه الوجوه التى تطل من النوافذ على جانبى الطريق .. وأحس بأنه غريب.

انه لاشيء على الاطلاق فى هذا البيت .. بل فى هذه الدنيا .. وازدحمت روحه برغبة فى أن يجرى ويجرى ..

ويخترق الحقول .. حتى يصل الجبل ، ثم يصعد الجبل حتى يصل الى قمته .. ثم .. ثم ماذا ؟ !

وأحس بدمعة تريد أن تطفر من قلبه وارتعشت شفتاه .. كان ثمة سؤال كبير وغامض يرتسم على شفتيه ، ويريد الجواب عليه من أى انسان .. أى انسان !

اختفت الكشافة من الطريق ، وتلاشى وقع طبولها تماما ، وعاد للبيت وللمنطقة هدوؤهما العميق المعتاد وجلس الصغير مع أبيه فى الشرفة يأكلان وحدهما .. كانت الأم قد قالت ، موجهة الحديث للصغير انها هى وأخوه مصطفى قد تناولا غذاءهما قبل أن يصل .. أما ابوه ، فقد فضل الانتظار حتى يعود ويأكل معه .

أحس الصغير لحظتها بحب دافق لأبيـه .. وخف قليـلا احساسـه بالحزن على انتصـاره الذى لم يحس به أحـد ، وفكر — وهو يجلس أمام أبيه والطعام بينهما — ان يحكى له عن الهدفين اللذين حققهما فى اللعب .. وعاوده هتاف الأولاد له .. فتحمس وأوشـك أن يفتح فمه .. غير انه تذكر أعجـاب أبيه بمنظر الكشافة ، وصيحة أمه الفرحانة وهى تشير بكل ذراعهـا على الولد حامل الطبلة .. ثم .. أخوه مصطفى الذى اصطاد سمكا من النيل .

لا .. لن يقول له .. يبدو أن لعب الكرة ، وحتى تحقيق اى أهداف فيها ، ليس له قيمة .. سوف يهجر هـذه اللعبة ، ويلتحق بفريق الكشافة ، ويصبح حاملا لطبلتها .. لا .. لا .. بل سيذهب من الغد الى النيل عند مرسى القوارب ، ويشترى سنارة من هناك ويصطاد سمكا أكثر من أخيه .

ولكن .. مصطفى سيقول انه غار منه .. وأحس باختناق

وبحيرة تعذبه .. ماذا يفعل .. ماذا يفعل الانسان .. ؟ وازدحمت روحه بالرغبة فى الانطلاق .. يترك الطعام ويجرى .. يخترق الحقول حتى يبلغ الجبل .. ثم يصعده حتى قمته .. ثم .. ثم ماذا .. ماذا يفعل الانسان فى هذه الدنيا ، ما هو اهم شىء فى هذه الدنيا ، ليفعله .. لينظر اليه الجميع .. الجميع.. ويشيرون عليه باعجاب وانبهار ؟ !

— بابا ..

وخرج السؤال من شفتى الصغير :

— ايه أهم حاجة فى الدنيا دى ؟ !

كان وقع السؤال مفاجئا على الأب .. فتوقف لحظة عن مضغ الطعام مخفيا استغرابه بابتسامة نبعت من قلبه .

يا للسؤال .. ما هو اهم شىء فى الحياة ؟ !

ما الذى دعا الصغير لأن يسأل هذا السؤال .. آه .. كبر طفلى واصبح يسأل أسئلة كبيرة .. فيها كلمة الدنيا .. وكلمة الحياة .. آه لو استطيع أن اعلم ولدى حب الحياة .. ليس أروع من أن يعلم الآباء أطفالهم حب الحياة .

— شوف يا اسماعيل .. مفيش فى الدنيا دى حاجة نقدر نعتبرها هى أهم حاجة .. اهم من كل الحاجات التانية .. الشمس دى مثلا .. مهمة جدا جدا .. الهوا اللى حوالينا ده .. برضه مهم جدا جدا .. الأكل اللى قدامنا ، مهم كمان .. جبل المقطم اللى هناك ده برضه مهم ، بيعملوا منه الأسمنت والبيوت والخزانات .. الشجر ، الزرع ، الناس ، الميه ، كل شىء .. كل شىء فى الدنيا لو فكرت فيه تلاقيه مهم .. ما تقدرش نستغنى عنه .. الدنيا على بعضها كلها مهمة يا اسماعيل !! وسكت لحظة ليأكل قطعة من اللحم أمامه ، ويرقب اثر كلامه على

طفله ، غير ان الطفل لم يبد عليـه أى حماس لمـا سمع .. ليس هذا هو ما يسأل عنه .

ــ والكورة يا بابا .. مهمة هى كمان .. ؟

فابتسم الأب وقد تذكر انه يتحدث مع طفل صغير .

ــ طبعا .. الكورة مهمة .. وكل الألعاب الرياضية مهمة.. بتقوى الجسم ، وبتحسن الصحة .. و ..

ولم يكمل .. مر من فوق الطعام ظل عابر لطـائر ، فارتفعت عيونهما الى أعلى ، فرأيا حدأة سـمراء كبيرة الجناحين ، تسبح فى دائرة واسعة من الفضاء ، فعاد الأب يقول بحماس :

ــ حتى الطيور مهمة يا اسماعيل .. انت عارف أبو قردان مثلا .. بيسموه صـديق الفـلاح ليه ؟ عشان بياكل الدود من الأرض .. كل شىء يا حبيبى فى الدنيـا دى لازم له حكمة من وجوده .. حتى لو احنا ما نعرفهاش ، فيه غيرنا يعرفوها .. العلماء يعرفوا !! ولاحظ الأب ان ابنـه لا يأكل .. وان طبق الخضار وقطعة اللحم لاتزالا أمامه ، لم تمسسهما يده .. فابتسم له وقال :

ــ تعرف المهم ايه دلوقت ؟ ! انك تأكل .. عشان تبقى ولد قوى .. ويبقى لك عضـلات .. شايف أنا خلصت أكلى بسرعة ازاى ؟ !

ونهض من على مقعده .

مرة أخرى مر ظل الحـدأة من فوقهما ، فنظر اليها الطفل فى فضول وقال :

ــ طيب والحدايات يا بابا .. لها فايدة كمان ؟ ..

فضحك الأب ضحكة مرحة وقال ، وهو ينظر برضا الى كل ما حوله من فضاء وسماء واشجار .

ــ لازم يا حبيبى لها فايدة .. كل حاجة فى الدنيــا دى لها فايدة ، والا ماكانتش اتخلقت .. انا قايم اغسل ايدى .

وترك مكانه ، وغادر الشرفــة ، وبقى الصغير يأكل وحده !

كان شىء ما لطيف قــد بدأ يتفتح فى نفس الصــبى .. احساس بالارتياح وبالرضــا عن نفسه ، بدأ يشمل كل كيانه . أبوه يقول ان كل شىء .. كل شىء فى هــذه الدنيا مهم .. هو معهم . ولعب الكرة مهم .. وتفتحت نفسه بالحب .. والطعــام أيضا مهم .. وابتسم لنفسه ، واقبل على الطعام بشهية .. فجأة وجد نفسه ينتفض من مقعده ويصرخ فى فزع .. لقد خيل اليه أن شجرة ضخمة تكاد تهوى على رأســه .. فصرخ مرتعبا ، واذا بالحــدأة التى كانت تدور فوقهما منذ قليل ، قد انتهزت قيام أبيه فانقضت على قطعة اللحم واختطفتها بمخالبها من الطبق وفى انقضاضها المفترس على قطعــة اللحم ، ضربتــه بجناحها ضربة هوجاء .. أسفل عينه ، فامتلأ بالرعب ، وراح يصرخ ويبكى .. ولم يكف عن الصراخ الا حين وجد أمه تصرخ هى الأخرى من الجزع وتحضنه وتربت عليه .

« ابنى حبيبى .. فيه ايه يا اسماعيل » .

وبكلمات باكية متقطعة :

« الحداية عورتنى .. وخطفت حتة اللحمة بتاعتى » .

واجهش بالبكاء .. ورأى أباه يقبل جريا على صرخاته :

ــ حصل ايه يا اسماعيل ؟ !

ازداد بكاؤه ..

ـ انت كنت بتكدب علي يا بابا .. الحداية مش كويسه .. الحداية وحشه .. الحـداية بتعور الناس .. عورتنى من غير ما اعمل فيها حاجة !

ودفن راسه فى صدر أمه .. وانخرط فى بكاء مرير !

أحس الأب بكيانه يتهاوى أمام طفله .. تزعزعت ثقته فى نفسه .. وامتلأت روحه بالكراهيـة نحو هذه الحداة التى كادت تصيب عين ابنه .. ومع بكاء طفله كان يسأل نفسه وهو يدور بعينيه فى الفضاء بحثا عن الحداة .. أحقا يجب على الانسان ان يحب كل الأشياء كما كان يقول لطفله ؟ ! والتقت عينـاه بالشمس فأجفل وهو يجز على أسنانه :

ـ النار تدفىء ، لكنـها تحرق أيضـا .. والنهر يروى ، لكنه يغرق أيضا .. كيف نحب كل ما فى هذه الحياة .. وفيها هذه الجوارح والوحوش التى تجعل من الانسان فريستها ؟

واحس بأنه هو الآخر طفل جاهل تعذبه الحيرة ، وخيم على البيت صمت عميق لا يتخلله الا نشيج الصغير .. ودخل عليهم مصطفى فى تلك اللحظة ، كان يحجل ويصفر ، ومعه فراشـة ملونة اصطادها من أحد الحقول القريبـة ، وحين رآها اسماعيل المجروح تأكدت الهزيمة فى نفسه ، ومن جديد ، عاد يبكى ، ولم يكن أحد فى بيته ، يعرف حقيقة الشىء الذى يبكيه .

كان كل شىء يمـكن أن يمر بعد ذلك بسـلام ويقف عند هذا الحد ، خصوصا وان الأب ظل جالسا مع طفله ، يربت عليه ويحدثه ، حتى خفف على نفسه وقع الحادث .

لابد ان الحداة كانت جائعة يابنى .. الانسان حين يجوع يسرق .. كذلك الحداة حين تجوع تخطف .. لم تكن تقصـدك

انت بالذات .. كانت تقصــد الطعام لتأكل .. هيا يا اسماعيل ، هيا اخرج والعب فى الشارع مع أصحابك .

الى هنــا ، كان كل شيء يمــكن ان يمر وينسى ، لولا أن اسماعيل وهو يلعب مع أصحابه الصغار ، سمع واحدا منهم يشير على الجرح التى أحدثته هــذه الحداة أســفل عينه ، والمغطى بضمادة ، ويقول ساخرا منه :

ــ ها .. الحدايــة شافته صغير ، ضربته وخطفت منه حتــة اللحمة وطارت .. ها ها ها ..

وقال طفل آخر باعتزاز :

ــ لو كنت أنا يا ابنى .. كنت ضربتها ضربة وقعتها .

وقال ثالث موجها له الكلام بسخرية :

ــ يا ابنى بعد كده ما عدتش تقعد لوحــدك .. أحســن الحداية تخطفك بحالك ، وتطير بك .. ها .. ها .. ها .

رنت فى رأسه قهقهاتهم .. فلم يرد بكلمة .

شردت عيناه بعيدا وبرقتا للحظة .. شاعت فى رأســه دماء حارة .. وتجدد الحقد مرة أخرى فى قلبــه نحو هــذه الحداة التى استصغرته فى عينيها ، فجرحته وخطفت طعامه وجعلتــه سخرية لأصحابه .. سيصبح جرحه هذا مذلة له طول العمر .

والتمعت ــ مع الدماء الحــارة فى رأسه ــ فكرة تتابعت لها أنفاسه .

سيرى هؤلاء الأولاد انه ليس صغيرا .

وانسحب فى سكون الى بيته .. ودخل حجرته .. لم يكلم

أحدا .. ظل وحيدا حتى هبط الليل ، ولم ينم الا بعد أن كان قد رسم الخطة في راسه كاملة .. سيضرب هذه الحداة .. « نعم سأضربها » .. اسماعيل الذى حقق الهدفين وحده فى اللعب ، سيضربها .. اسماعيل لم يعد صغيرا .. غدا سيعرفون هذا حين اذهب لهم بالحداة مضروبة .. مجرورة من رقبتها بأحد الحبال .. !!

فى الغد .. قبل الظهر بقليل ، كانت الخطة تسير بالضبط كما رسمها اسماعيل : قطعة من الجبن موضوعة فى طبق ومكشوفة فى عراء الشرفة ، وهو واقف يرقب السماء حتى حانت اللحظة ، واختبأ على الفور خلف الباب القريب من مكان الطعام ، وفى يده عصا : ساق أحد الكراسى القديمة ، وقد امتزج الغل فى صدره بالخوف .. لم تنقض دقيقة ، حتى كانت الحداة قد لمحت قطعة الجبن .. فدارت حول نفسها دورة تستكشف بها المكان ، ثم انقضت كالسهم .. لتخطف الطعام غير أن الصغير برز فجأة بالعصا ، فانتبهت الحداة وانحرفت بسرعة ، وارتفعت مرة أخرى فى الفضاء .. وابتعدت كثيرا .. غاص قلبه « لقد تعجلت .. لماذا تعجلت .. هل ستعود مرة أخرى » ؟ !

آه لو تعود .. مرة واحدة .. مرة واحدة فقط .. لابد سأصيب الهدف .. ستكون الضربة فى المنقار والرأس .

ووقف فى مكمنه يرقب الفضاء من كل الجهات ، وأحس برهبة .. السماء كبيرة .. واسعة وعريضة .. لو أن لى أجنحة لطرت وراءها ، حتى آخر الدنيا ، وانتقمت منها. .آه ! ها هى. . كم هى صغيرة فى كل هذه السماء .. وانكمش فى مكمنه ، وأسرعت انفاسه . انها تهبط وتقترب .. تكبر وتكبر .. شكلها مخيف وقبيح .. قد تجرحنى هذه المرة أيضا . لا ..

وقبض على ساق الكرسى بشدة .. انها تدور حول نفسها.. ترقب قطعة الجبن ..

وانقضت ..

وبكل الغل .. وبكل الخوف الذى يملأ قلبه ..

ـ طـــاخ ..

وشهق من الرعب وهو يرى الحداة ، ترتمى من الضربة على بلاط الشرفة وترفرف بأجنحتها تحـاول النهوض والطيران من جديد .. كان فى عينيها لمعة ألم ورعب مخيفين ، وأحس بهـا تريد أن تنهض لتنقض عليه وتنهش فيه لو استطاعت ، فانقض عليها بالرعب المتزايد فى نفسه ، وانهال على رأسـها بالعصا ، وراح يصرخ ويهتف :

ـ بابا .. بابا .. ماما .. ماما .. تعالوا شوفوا .

وراح وهو يضرب فى الحداة يصيح وقد تملكته نشوة النصر وانتفض ملتفتا على صوت الأب يصرخ عليه :

ـ ايه اللى بتعمله ده يا اسماعيل ؟

ـ ايه اللى بتعمله ده يا ابنى ؟ !

وبلهجة المنتصر :

ـ باضرب الحداية .

عاود الأب صرخته :

ـ ليه .. ليه تضربها ؟ ! .

ـ عشان هى اللى عورتنى امبارح .

وقفز الأب واختطف منه العصا ، وامسكه من كتفه وراح يهزه بغضب .

ـ ومين قال لك ان هى دى الحداية اللى عورتك ؟

قال الطفل وقد اكتسحه رعب هائل خفى :

ـ هى يا بابا .. هى ..

وهز الأب ذراعيه فى الفضاء .. كأنما يتمزق ، ويمزق الطفل معه ، لمنظر الحدأة الهامدة على الأرض تلفظ أنفاسها الأخيرة .

ـ فيه الف حداية فى السما .. اش عرفك ان دى بالذات هى اللى عورتك .

ودار رأس الطفل ، وغامت الرؤية فى عينيه ، وقفزت الدموع من حلقه الى عينيه ، وراح ينظر الى الحدأة الملقاه فى همود على الأرض .. والدماء تسيل منها .

ويبـكى ..

يبكى انتصاره !

((١٩٦٠))

الموتوسيكل

فى الوقت الذى كان فيه الصبى (ميشو) منطلقا بموتوسيكله « السهم الخاطف » على آخر سرعة ، عائدا من مدرسته بقصر النيل الى بيته بمصر الجديدة ، كان ابوه بطرس وهو رئيس قديم لاحدى الطوائف الدينية ، جالسا فى صالة البيت ينتظره ، وثورة من القلق والغيظ تأكل فى أعصابه .

كانت ثورة الرجل قد شملت كل شىء فى البيت .. والبيت لم يكن بيتا بالمعنى المألوف . كان قصرا فخما وضخما ، رغم أنه من طابق واحد وسلاملك .. ودون أن يصدر أمرا ، أقفلت جميع النوافذ وأسدلت الستائر ، وسادت الغرف والصالات والممرات ظلال كثيفة أشبه بلون الظلمة .

والى يمينه ، وتحت صورة كبيرة وقديمة للعذراء ، جلست زوجته الست أم ميشيل فى صمت ، منحنية برأسها الذى شاب شعره وتجمعت خصلاته البيضاء فى عقدة واحدة كبيرة ، وراحت تشتغل بابرتها فى قطعة من القماش ، وتتمتم ببعض كلمات فى سرها .

أما وكيل أعماله العجوز ـ عم عطا الله ـ فقد جلس أمامه ، لابسا طربوشه المخروطى الطويل الداكن واضعا بطن كفيه على ركبتيه فى امتثال وأدب ، وراح دون أن ينطق بحرف ، يرمش بعينيه الضعيفتين من وراء زجاج نظارته الطبية البيضاء السميكة .

كان الثلاثة ينتظرون عودة « ميشو » بفارغ الصبر ، وكلما نفخ الأب من أنفه ، أو تململ فى جلسته ، اضطربت الابرة بين أصابع الأم ، واضطربت أصابع عم عطا الله هو الآخر فوق ركبتيه، واختلس كل منهما من الآخر نظرة اشفاق وخوف .

لم تكن هذه أول مرة تثور فيها المشكلة ويكفهر جو البيت .

ثارت واكفهرت من قبل مرات ومرات .. عاد الرجل ذات يوم من زيارته لأرضه فى الشرقية ، فوجد ابنه « ميشو » قد اشترى موتوسيكلا .. ولم يكد يلقى على الموتوسيكل نظرة ، حتى راعته ضخامة حجمه .. ثم ما هذا أيضا ؟ ورقة ملصوقة على مقدمة الموتوسيكل ، ومكتوب عليها بخط اليد .. خط « ميشو » نفسه : « السهم الخاطف » .

تملكت الرجل ثورة ، وأصدر أمره بأن يخرج هذا الموتوسيكل من البيت فى الحال .. غير ان الثورة لم تلبث أن أطفأتها دموع الابن وتوسلاته .

ـ مش حاخرج بيه كتير يا بابا .. وحاسوقه على مهلى .. على مهلى خالص يا بابا .

لكن المشكلة لم تنته عند هذا الحد .. كانت مجرد بداية ..

ان عددا من أصحاب ميشو فى المدرسة يملكون موتوسيكلات .. حسنى وعزيز ومجدى وشيرين .. كل واحد

منهم له موتوسيكل .. موتوسيكل مجدى اسمه « النسر الذهبى » وموتوسيكل شيرين اسمه « الصاعقة » .. وحسنى « الذرى » .. اما هو ، فقد بات الليالى يتقلب فى فراشه ويفكر فى اسم لموتوشيكله .. اسم يمسح كل هذه الاسماء ويغارون منه جميعا .

آه : « السهم الخاطف » ! .

وينسى ميشيل نفسه ، ويركب السهم .. وينطلق به مع أصحابه فى الشوارع ويتلوى ويطوى الطريق فرحانا ، ويسابقهم ، ويسابق الريح .

أهناك سعادة فى الدنيا اكثر من هذا ؟ لكن الخبر دائما كان يصل أباه ، فتثور المشكلة كالعادة ، ويكفهر جو البيت من جديد .

غير انها حين ثارت هذه المرة ، كانت من أولها عنيفة تنذر بشىء خطير .

عاد الرجل فى ذلك اليوم بعد غيبة طويلة فى أرضه ، فصدمه خبر فظيع . ابنه ميشيل اشترك فى سباق للموتوسيكلات . ليس هذا فقط بل وصل به الجنون الى أنه ربح السباق .. وكان الفائز الأول .

جن جنون الرجل ، وتملكه هياج غريب ، وراح يشتم ويلعن ويسب ، وامسك الخدم بأنفاسهم وهم ينصتون من خلف الأبواب الى صوته وهو يصرخ فى وجه امرأته .

ـ انا ألف مرة نبهت عليكى قبل كده .. الموتوسيكل ده ما يخرجش بره البيت .. حضرته عامل بطل ويشترك فى السباق ؟ .. لو كان بيعمل لك حساب ، أو بيخاف منك . ما كنش ده حصل .. لكن انا حاعرف ازاى أربيه .

فى هذه المرة بالذات أحست الأم من نبرة صـوته وبريق عينيه العزم والتنفيذ ، وكالعادة لم ترد على صراخه بكلمـة . كان خبر اشتراك ابنها فى السباق قد صـدمها هى الأخرى ، وهبط قلبها وهى تتصـور .. لو ان كارثة كانت قد حدثت له فى السـباق .. وتمتمت فى سرها .. « ليه بس يا ميشـيل يا ابنى .. ليه » .

وفى خطوات غاضبة ، اتجه الرجل الى الصـالة ، وجلس فى نهايتها فى مواجهـة الباب ، وحتى يكون وجهـا لوجـه مع ابنه لحظة دخوله .

جلست هى عن يمينه ، وأمامه جلس الوكيل العجوز وخيم على فراغ الصـالة القاتم سـكون ثقيل وطويل ، وانعقد على الثلاثة صمت الانتظار .

فجأة .. تمزق الصمت .. ترامى الى اسـماعهم من بعيد أزيز موتوسيكل يقترب ، وفى حركة لا اراديـة .. اعتدل الأب فى جلسته وكأنه يتحفز لملاقاة عدو له ، وارتبك عم عطا الله فى جلسته ورمش بعينيه .. اما الأم ، فقد أحست بدقات قلبهـا تسرع فجـأة وتتلاحق . ان قلبهـا دائمـا يدق بالفرح كلمـا سمعت هذا الصوت .. معناه أن ميشيل عاد بالسلامة .

لكن احساسا آخر داخلها هـذه المرة .. تمنت الا يكون هذا الموتوسيكل هو موتوسيكل ابنها .. تمنت أن يتأخر بعضا من الوقت ، فمن الخير أن يدوم هـذا الانتظار القاسى طويلا ، على الا تهب العاصفة .

لكن أزيز الموتوسيكل كان يقترب ويتصاعد حتى ملأت ضجة قرقعاته حديقة البيت .. ثم فجـأة ، توقف الضجيج والصخب وعاد السكون يلف الحديقة والبيت من جديد .

وبدون كلمة .. نهض الأب من على مقعده واقفا ، واشار بأصبعه نحو الباب ونظر الى وكيله . فهم العجوز اشارته . كان عليه أن يخرج ليعود سريعا بالصبى .. وخرج .

وبقى الاثنان .. الأب يروح ويجىء بعرض الصالة . عاقدا ذراعيه على صدره .. متجهما وصامتا ومتحفزا .. والأم جالسة فى مكانها ، ترقبه من ركن عينيها وهو يروح ويجىء بصرامة ! .. منظره هذا .. ما اقساه .. وبشكل خاطف ولا ارادى تذكرت هيئة المرحوم حميها .. أبى زوجها .. المقدس سوريال .. الذى أورثهم هذا البيت وأرض الشرقية ، دائما كان منظره هكذا . يدخل البيت فيحاسب الجميع على أنفاسهم . كم كان صموتا ذلك الرجل ، لا يتكلم الا بعينيه . وان تكلم بلسانه فكل شىء يصمت ويرهف سمعه ويتوقف .. وآه من غضبته . هذه الغضبة لا تزال تعيش وتبرق فى عينى ولده .. بطرس .. زوجها هذا .. الذى تعدى الخمسين .. جاءت تضرع اليه وتقول : « لا تكن قاسيا عليه .. ميشو مايزال صغيرا .. استحلفك بالمسيح .. انه ابننا الوحيد .. الوحيد من كل عشرتنا الطويلة .. لكن النطق خانها ، وسرعان ما سمعت وقع أقدام تقترب من الصالة .. فراحت تتمتم فى سرها ، وتغرز ابرتها فى القماش بعصبية ، ولم تمض لحظات ، حتى رأت ولدها يدخل الصالة مع عطا الله ، ودون أن تدرى . شكت الابرة أصبعها ، فعضت على أسنانها فى ألم ، وانقبضت روحها .

كان ميشيل فى مشيته يتقدم الوكيل العجوز بخطوة واحدة .. فرحته التى كان عائدا بها انقلبت الى غم وكآبة .. وحين بلغ منتصف الصالة توقف ، فتوقف العجوز بجانبه حتى كاد يلتصق به .

كان احساس كل من الصبى والوكيل قد الهمهما أن هذا

الموقع الذى وقفا فيه ، هو خير مكان يمكن أن يقفا فيه أمـام الرجل . لا بالبعيد ولا بالقريب . وقفـا فى صمت ، وحين أحس بهما الأب يتوقفان ، توقف هو الآخر عن الرواح وعن المجىء . ثم استدار نحو ابنه فى حركة مباغتة ، ورمقه بنظرة طويلة .

شىء غريب أحس به فى تلك اللحظـة .. لقد خيل اليه انه يرى ابنه لأول مرة . لقد بدا فى عينيـه فجـأة ــ رغم انه لايزال فى السابعة عشرة من عمره ــ طويلا جدا .. هـذه هى رأسـه ترتفع عن حافة طربوش عم عطا الله .. وهو عريض .. أكتافه عريضة .. وعظامه كبيرة وأكمام قميصه مشمرة ، وخصلة من شعره ترتمى على جبينه .

الولد كبر يا بطرس .. بل ويكبر يوما بعد يوم .. وساقاه تطولان وتتفرعان .. وجسـمه يعرض يا بطرس ويهيش .. وذقنه نبتت وأخضرت .. الولد ينمو هـذه الأيام بشكل خارق ومخيف .. هيئته تأخذ هيئة الرجال .. لا يا بطرس .. لن يكون أبدا رجلا عليك .. آن لك من الآن أن تأخذ دور المربى .. وان لم تأخذه من اليوم ، وبهذه المناسـبة الخطيرة ، بشدة وحزم ، فسيفلت منك حتما ، بل وسيفلت من نفسه .. وينتهى كل شىء .

وانفجر .

ــ كلمة واحدة .. الموتوسيكل ده ما يقعدش فى البيت بعد النهارده .. فاهم باقول ايه ؟

ومال برقبته نحو ابنه كأنما يتحفز ليلاقى أى كلمـة تصدر منه .. لكن الصبى لم ينطق بكلمة .. ظل واقفا كمـا هو .. مطرقا برأسه .

ــ سامع يا عطا الله باقول ايه .. الموتوسيكل ده يخرج من البيت حالا .

ثم توجه بنظرته الى الصبى وقال بلهجة ساخرة لاذعة :

ـ وابق أشنرك حضرتك فى السبق بعد كده ! .. هه ؟ ! .. أنت ولد مستهتر .. مستهتر .. ماعندكش اى احساس المسئولية .. وهى دى المسئولة ، واشار الى الأم :

والتقت نظرة الأم بعينى ابنها بلا وعى .. وفى عينيها قرأ توسلا حارا .. « لا ترد عليه يا ميشو .. لا ترد » .

ـ وانت ما بتردش ليه ؟

عاد الأب يصرخ :

ـ هه ؟ .. مبسوط أوى انك كسبت السباق ؟ .. فاكر نفسك بقيت راجل ؟ .. عامل حضرتك بطل وبتشترك فى السبق ؟ .. كان نفسى أشوف البطولة دى فى المذاكرة .

وتدفق الكلام من فمه كالسيل .. أيضا لم يرد الصبى .. احساس عميق فى نفسه كان يقول له بانه اخطأ فعلا فى دخول السباق .. وان أباه بطرس عنده حق ، فيراوده شعور بالندم لكن صورة السباق كانت تعاود خياله وهو واقف أمام أبيه .. صورة جميلة وزاهية وسريعة مرت أمام عينيه .. وهو منطلق يومها بالموتوسيكل وأصحابه والناس يصفقون له .. ويهتفون .. برافو ميشو .. برافو .. فينتعش صدره .

« ثورة وتمرد يا ميشيل » .. وظل واقفا مطرقا فى خشوع.

ـ برضه ما بتردش ؟ ! .. أنا أصلى عارف اللى فى دماغك كويس .. لكن لا .. الموتوسيكل ده يا عطا الله ينقفل عليه فى المخزن .. ومن بكره الصبح تتصرف فيه .. بيعه .. توديه فى اى داهية .. فاهم بأقول ايه ؟

وهمهم عطا الله فى ارتبـاك : « حاضر يا فندم .. أوامرك يا فندم » .

ارتجت أعماق الصبى .. المسـألة جد لا هزل .. خيل اليه ان يدا ضخمة تطبق على رقبته لتسلب منه روحه .. وقفز الموتوسيكل الى خياله . رآه فى صـورة آسية حزينـة مركونا على الحـائط .. كالميت .. فى غرفه مظلمـة قديمة بالحديقـة مقفولة عليه .. ثم فى الصـباح سيأخذه رجل كريه الهيئـة ؛ أشعث .. ويركبه .. ويطير به .. ثم يختفى به عن عينيه الى الأبـد ! .

وناوشته الرغبة فى الصراخ : « لا .. لن تأخذه منى يا عم عطا الله .. لن تستطيع يا عم عطا الله .. لن يأخذه أحد منى .. ولو مت » .

لكنه عاد فكتم الصرخة ، انعقدت الصرخة فى قلبه ثم انفكت دموعا من عينيه .. دموعا صامتة أحستها الأم ولمحتهـا رغم ظلال الصـالة القاتمة ففزعت أعماقها وهى تحدث نفسها أن شـيئا ما فظيعا سـوف يحدث .. لابـد سيحدث .. مـاذا يمكن أن تفعل ؟ هـذا العملاق الواقف عاقدا ذراعيه على صـدره يوقف دائما الكلمات فى حلقها .. حتى كلمة .. « كفايـة » تريد أن تقولها له .. لكنها لا تستطيع .. لحظات صمت ثقيلة كل شىء توقف .. حتى الأنفاس خيل للأب بطرس انها توقفت.. وجذب من صدره نفسـا عميقا مسموعا .. ومط صـدره ورأسه الى أعلى فى شموخ .. وتحفز .. ان ميشيل لم يتكلم هـذه المرة .. لم يرد عليه .. لا .. ولم يجرؤ حتى ان يتوسـل له مثل كل مرة .. هـذا هو بالضبط ما كان يريده .. وهو بالضبط أيضا ما كان يحدث منه هو نفسـه مع أبيه « سوريال » .. أيام ان كان صبيا وشابا .. وحتى وهو رجل أيضـا .. أيام كان

الأبناء يعرفون كيف يحترمون الآباء .. فيقفون بين أيديهم ـ وعلى بعد كاف ـ فى خشوع وامتثال والكلمة لا ينطقونها .

ها هو ميشو بعيد الماضى الجميل . فيقف منه على بعد معقول ، مطرقا برأسه ولا كلمة .. أحس بلمسة من الحنان تهف على قلبه .

ـ أنا قلت لك قبل كده انى مستعد اشتريلك عربية .. أحسن عربية .. كاديلاك .. هدسون .. رولزرايس .. أحسن عربية مستعد اشتريها لك .. لكن الموتوسيكل .. لأ .

ودون أن يعى الصبى ، انفجر رغما عنه باكيا منهنها :

ـ وأنا مش عايز الا الموتوسيكل .

روع الأب .. « بتقول ايه » ؟ ..

وجمدت الكلمات على لسانه برهة .. وبرقت عيناه كأنما ترسل شررا .. ثم تحول صوته الى ما يشبه الفحيح : انت ابنى ؟ .. مش ممكن تكون ابنى أبدا .. انت كلب .. مستهتر .. انت حقير .. أنا ما اقبلش فى بيتى واحد زيك .. بره البيت فورا دلوقت .

ومع ذراعه الممدودة نحو الباب ، وجد الولد نفسه يستدير نحو الباب ويعطيهم ظهره فى خطوات سريعة .. كالملسوعة انتفضت الأم من جلستها وجرت خلفه لتلحق به وتوقفه ، ولكنها لم تلبث ان توقفت فى منتصف الصالة فى خوف ، وسقطت منها الابرة والقماش على الأرض .. كان زوجها يصرخ بأعلى صوته كالمحموم : خليكى فى مكانك .. فاهمه باقول ايه .. انت السبب .. انت اللى دلعتيه وخسرتيه .. الكلب المستهتر .. السافل .. لكن انا حاعرف من هنا ورايح ازاى أربيه .

قبل أن يجتاز « ميشو » باب الصـالة صكت سمعه كلمات أبيه « من هنا ورايح .. حاعرف ازاى أربيه » . رغبة عارمة تملكته فى أن يجرى ويجرى بآخر سرعـة .. يجرى وينطلق الى بعيد .. بعيدا عن هـذا الجو الظالم الكئيب .

وأسرعت خطواته وأسرعت .. وجد نفسه يجرى ويجرى ، وفى لحظات كان قد قطع ممر القصر الطويل ، وهبط السلاملك ، وتوجه الى الجراج ؛ ثم ألقى بنفسه على الموتوسيكل .. امسك ذراعيه بقبضته ووقف منحنيا عليه برهة .. يلهث .

كان قد قرر نهائيا ان يهجر البيت ولا يعود اليه أبدا .. دار بعينيه من حوله دورة خاطفة كأنما يودع كل شيء . الحديقة الكبيرة .. عم عبده البواب .. والقصر ذاته ، وشرفة حجرته التى كان يستذكر فيها وينـام .. والبيوت الأخرى المجاورة .. كم له فيها من أصحاب .. وقبل الأصحاب .. « فلورا » البنت الجميلة .. ذات الشـعر المفضفض والعيون السود والتى سكنت فى الشارع منذ شـهور قليلة وكان يحلو له أن يزهو أمامهـا وهى تطل من الشباك وقت الغروب ، فينطلق بموتوسيكله أمام بيتها ويأخذ منها نظرة ويطير .. وهز رأسـه بشدة ينفض عنه كل شيء . وركب الموتوسيكل واعتدل فى جلسته عليه ، واحكم قبضته على ذراعيه ، ثم ضغط على البنزين . وفى الحـال حدثت الفرقعة متتابعة عالية . وفى أقل من لمح البصر ، كان قد قطع ممر الحديقة وانطلق بالموتوسيكل الى الشارع ، تاركا خلفه ضجـة كبرى تلف وتدور كالدوامة فى فضـاء البيت ، هلعت الأم لسـماع الصوت ــ وانخرطت فى البكاء . بكاء ضاق به الأب فارتعشت عظام فكيه واصطكت أسنانه وصاح فيها كالمجنون « كلمـة واحدة مش عايز اسمعها .. يروح فى ستين داهية .. الكلب ده مش عايز أشوف خلقته بعد كده » .

كان ميشو قد ابتعد بالموتوسيكل كثيرا .. لم تكن له وجهة معينة .. كل همه أن يترك البيت ويبتعد عن المدينة بأكملها .. كان نسيم الغروب يئز فى أذنيه ويصطدم بوجهه بارداً ، ومنعشا .. ومع اندفاع الموتوسيكل ، تحول النسيم الى ريح واندفعت الريح من فتحات قميصه الى جسده ، فأحس بالرطوبة تنعشه ، وتملكته لذة غامضة فى أن يمعن ويمعن فى الانطلاق وانطلق .. خصلات شعره الطويل تتلوى وتتراقص وتتنافر على جبهته ، ورأسه منحنية الى الأمام فوق ذراعى الموتوسيكل .. وكأنه يناطح الهواء .

وأنوار المدينة بدأت تضاء وتتناثر فى كل مكان .. والعتمة بدأت تحتل قلب كثير من الشوارع وهو فى حالة انجذاب غريب نحو شىء غامض وبعيد . ظل يسرع بالموتوسيكل . تارة فى خط مستقيم وتارة يتلوى ليمرق من بين العربات والسيارات والناس .. كل أمنيته فى تلك اللحظة أن يصل الى مكان بعيد هادىء . خالى ، ليس فيه انسان . ثم يهبط من على الموتوسيكل ويركنه بجانبه ، ثم يجلس الى نفسه ويفكر على مهل .. كيف يبدأ الحياة من جديد . من الآن ، لن يتحكم فيه انسان .. خلاص . لقد كبر وأصبح رجلا . سيذهب الى بلد آخر . الاسكندرية مثلا . ويطوف فى شوارعها بالموتوسيكل ويبحث عن عمل . أى عمل . ميكانيكى سيارات وموتوسيكلات . آه ، تمام ، انه يفهم فى هذه الصنعة .. ويكسب .. ويعيش حراً .

بدت له الفكرة جذابة ومثيرة . وانبثق فى نفسه الشعور بحلاوة المغامرة وسحرها وغموضها فترك العنان للموتوسيكل . وانطلق على آخر سرعة .. آه ما أحلى الموتوسيكل . الموتوسيكل العزيز المفضض ، القوى الجميل « السهم الخاطف » كان أبوه يريد أن يأخذه منه ويشترى له عربة . أى عربة تلك التى تعادل

الموتوسيكل .. السهم الخاطف ؟ يتحكم فيه الانسان هكذا . بملء القبضتين هكذا . ويمرق به بين العربات كالريح هكذا .. تماما كما فعل فى السباق .. لو كان قد تذكر ـ فقط ـ وجه أبيه وهو يسابق لخسر السباق بالتأكيد ، أو لعمل صدمة .. هذا الوجه بحاجبيه الكثيفين وعينيه البراقتين الصارمتين . كم يود لو يخرجه من رأسه وحياته الى الأبد . وهز رأسه . ما هذا ؟ الوجه يتأرجح فى الفضاء أمامه . وجه أبيه بطرس . ينظر له بقسوة . كأنما يسد عليه وعلى الموتوسيكل الطريق . لا . لا . وهز رأسه مرة أخرى ليبعد صورة الوجه عن عينيه لكن الوجه ظل يخايله . يطارده كأنهما فى سباق . سباق سباق . لا .. لن يعود الى هذا الوجه أبدا . وفجأة .

بدا له فى عتمة الشارع وكأن جسما ضخما يبرز له فجأة ويختلط بالوجه ويسد عليه الطريق .. وقف شعر رأسه ، وتنبهت فيه غريزة الاحساس بالخطر .. وتركزت غريزته على قبضته وفى عينيه . ان الجسم يكبر ويقترب ، والوجه يكبر ويقترب . تملكه خوف كاسح واستماتت أصابعه على ذراعى الموتوسيكل وبكل ما يمتلك من قوة فرمل .

أوشك وجهه ان يشع بنور ابتسامة . لكن رجة عنيفة حدثت . انتفاضة مروعة هزت كل جسمه .. ولم يحس بنفسه وهو يطير من على الموتوسيكل . ثم سقط على الأرض . غائبا عن الوعى .

●●●

ـ ميشو .. ميشو .. ولدى ميشو .

والصبى يتقلب من الألم على فراشه .. ويهذى : الـ .. المو .. تو .. سيكل .. المو .. تو .. سيكل .

ــ ميشو .. ميشو .

وميشو غارق فى الغيبوبة .. يصعد مع الدنيا ويهبط .. ويهـذى .

ــ الو .. تو .. سيكل .. الو .. تو .. سيكل .

والأب بطرس يبكى .. وينهنه .. وكان صوته وهو يجهش بالبكاء أشبه بنشيج طفل صغير .

« ١٩٥٩ »

الكلب عض لطيفة

الكلب عض لطيفة ..

لطيفة عضها الكلب يا أولاد ...

وانتشر الخبر بسرعة فى القرية .. انتقل من « الكفر » حيث وقع الحادث ثم وصل الزراعية ، ومن الزراعية وصل الحقول ، وأخيرا .. بلغ عرفات .. !

كان عرفات يعزق بفأسه فى أرض طماطم فى أطراف أحد الحقول وما أن سمع بالخبر ، حتى تصلبت يده بالفأس فى الفضاء .. بدا شاردا للحظة ، كأنه لا يصدق ، ثم لم يلبث أن انتفض فجأة .. أسند فأسه على كتفه وأعطى وجهه للقرية وأطلق ساقيه للريح .

كان المشوار أمامه طويلا ، فمضى يعدو على الزراعية بآخر سرعة .. وود لو يغمض عينيه ويفتحهما ، فيجد نفسه هناك .

أيمكن أن يحدث هذا ؟ ..

لطيفة حبيبة القلب .. يعضها كلب ؟ ..

كانت الشمس قد انخفضت ومالت للغروب .. وخايلته أشعتها وهو يجرى .. ورأى وجهها ـ وجه لطيفة ـ شاحبا .. متألما .. وعيناها ، بخضرتهما التى يعبدها ، تقولان له فى عتاب .. وفى ألم .. « كنت فين يا عرفات .. لما عضنى الكلب » .

وراودته الرغبة فى البكاء ..

أهكذا الحب يا عرفات .. عذاب فى عذاب ! ..

وعلى المدى البعيد للبصر ، لم يكن للقرية أى أثر .. وأحس بأنفاسه تتلاحق من الجرى . كان طويل القامة ، فبدا منظرة وهو يجرى بجلبابه الفضفاض ، والفأس على كتفه مثيرا . ما من فلاح كان يمر عليه مهرولا ، الا ويصيح عليه بدهشة وفضول .. « حصل ايه يا عرفات .. سايب الغيط وبتجرى كده ليه » ؟ ..

لم يكن يتوقف برهة ليرد .. كان فقط يخطف نظرة منهم ، ويغمغم بكلمات غير مفهومة ، ويواصل الجرى .. بماذا يمكن ان يرد ؟ .. وخطر له أن ينفجر فى وجوههم ويصيح بأعلى صوته .. « لطيفة عضها الكلب .. لطيفة يا أولاد الكلب » .. !

ولكن .. أيمكن بعد كل هذا الصبر الطويل . أن يفقد عقله .. ويبوح بالسر ؟ ! .. السر الذى لا يعرفه غيره هو ولطيفة .. والذى تعاقدا معا ـ بالنظرات ـ على كتمانه .. ؟

وخرجت من صدره زفرة تعاسة .. وبدا الطريق أمامه الى القرية طويلا .. لا ينتهى ، وأن الانسان ـ كما يقول دائما الشيخ فودة خطيب الجامع بصوته المفجع الصارخ ـ لم يخلق على هذه الأرض الا ليشقى ويتعذب ! ..

أهناك فى الدنيا عذاب أكثر من هذا ؟ ..

اثنان يحب كل منهما الآخر بلا اى كلام .. ولأكثر من عام ؟ .. بل انه لحظة وصول الخبر كان يضرب الأرض بفأسه ، وصورتها أمامه . بعيونها الخضر النادرة فى هذه البلاد . لحظتها بالذات .. كان يتخيل نفسه واقفا معها بالقرب من مدخل البلد . يتحدى العالم كله ويكلمها .. يخرج لها كل ما فى قلبه من حنين .. « لحد امتى بس يا لطيفة ؟ من جمع القطن اللى فات واحنا على دى الحال .. يا لطيفة دوختينى .. انت عارفة دست الفول وهو بيغلى ؟ .. هو انا .. لا انت بتطفى النار من تحته .. ولا بتصبى عليه ميه يبرد .. لحد امتى بس يا لطيفة حنفضل خايفين من كلام الناس .. » وفجأة .. جاء الخبر .. فاختنقت كل افكاره ، ولم يعد يكلم نفسه .. نسى كل شيء .. نسى شغله .. نسى انه يريد منها كلمة .. كل ما يريده الآن الا يمسها سوء .. أن تظل لطيفة على قيد الحياة ، حتى ولو عاشت مع غيره ولم يتزوجها .. ولم تكلمه طول العمر كلمة .

وغص حلقه بالدموع ، وارتسم على وجهه الأسمر المجهد ، وهو يجرى ، حزن كبير .

انطلق يجرى ويلهث ، حتى لاحت له مئذنة القرية وبيوتها من بعيد .

قطع المسافة كلها جريا ، دون ان يتوقف لحظة ليلتقط انفاسه .. وحين اقترب من مدخل البلد ، كف عن الجرى .. مضى يمشى بخطوات بطيئة ، وحاول أن يبدو لا مباليا .. كانت الشمس قد اختفت خلف البيوت وانتشر ذلك اللون الرمادى الحزين فى الفضاء ، والذى يسبق دائما سواد الليل ، فأحس عرفات بالتعاسة .. « أحقا ما سمع ؟ .. » كانت الطرقات شبه خالية .. فعاد يستحث خطواته .. وما ان أشرف على الكفر ،

حتى فكر للحظة أن الخبر كذب .. كان المكان هادئا .. والناس يجلسون على المصاطب ويثرثرون .. و « فايقة » بائعة الجوافة تجلس تحت شجرة التوت ، أمام دكانها ، وبعض الرجال العزاب والشبان يأكلون الجوافة من يدها ويقهقهون ..

ربما لم يحدث شيء .. ربما ..

وأخرج من صدره زفرة وهو يتسمع ضحكاتهم ..

لماذا لم يعد يضحك مثل هؤلاء ؟ لماذا حتى قبل أن يصله الخبر ـ أصبح يسير فى شوارع القرية وحواريها هكذا مهموما . وكأنه يحمل على كتفيه الجبال ؟ ! ..

قبل أن يعرف الحب قلب عرفات ، منذ عام واحد ، وكان فى الثامنة عشرة ، كان ولدا مرحا وبحبوحا ، يحمل فأسه فى مواسم العمل ويذهب الى الغيط ليعزق أو يقلع أو يجمع ، يغنى لزملائه ويسبقهم فى الخط .. وفى مواسم البطالة ، يأخذ ذيله فى أسنانه ويجرى على الجسور ويتسلق الأشجار ويأكل التوت والجميز ، أو يذهب الى النهر ويصطاد السمك ويقذف نفسه ـ بجسمه الأسمر السرح ـ ضد التيار ويسبح ويزعق على زملائه ..

كان خليا .. مفتوح القلب لكل ما فى الحياة ..

ثم رآها .. رأى لطيفة ذات يوم ، فتغير كل شيء ..

كان جالسا مرتكنا بظهره على جذع شجرة صفصاف ، تتدلى فروعها حتى تلامس ماء الترعة ، والدنيا حر .. والشمس قرص نار ، يأمر بالصمت كل شيء .. صمت يرين على الحقول وعلى الأشجار ويمتد حتى الجسور البعيدة .. كان العالم كله فى لحظة صمت مطلق .. ومع هذا كان يغنى لنفسه ..

وفجأة ، سمع حركة .. التفت .. فوجدها .. تشير اليه ليساعدها على حمل الجرة .. ذهب اليها .. وحين رفع معها الكرة الى راسها ، واستوت قامتها بصدرها ، وجد عينيها الخضراوين فى عينيه .. اسرعت دقات قلبه .. واحس بحاجة لأن يقول شيئا .. خانته انفاسه .. ماذا يقول ؟ .. واستدارت عنه — والجرة فوق راسها — فى هدوء ..

قال لنفسه ، وهو يراها تمضى تطرقع بشبشبها فى صمت الظهيرة .

« يكونش ده اللى بيسموه الحب يا عرفات » ..

واختفت عن عينيه .. ومن تلك اللحظة ، وعرفات شخص آخر .. كف عن اللعب وعن الجرى ، عن الغناء الطليق لزملائه فى الحقول .. اصبح دائم الشرود ، لا تخرج من قلبه مثل هذه الضحكات .

ولمح واحدا من أصحابه مقبلا من بعيد ، فأسرع اليه .. وقبل أن يسأله عرفات . قال له « انت ماعرفتش ؟ .. مش كلب عمك أحمد أبو ريا عض لطيفة ؟ .. وسفروها فى قطر اربعة .. وودوها على مستشفى الكلب .. فى مصر .. ؟ !

احس بقلبه يسقط .. اكتسحه حزن غامر .. واحس أن الدنيا خلت عليه .. ومضى يمشى وكأن غشاوة على عينيه . لطيفة ليست موجودة فى البلد .. اذن لا أحد فيها .. هو نفسه ليس له وجود فيها .. كانت الدنيا قد اظلمت .. واستراح للظلمة .. لو بكى فلن يلمح دموعه أحد وتراءى له وجهها .. تغمض عينيها من الألم وتتأوه .. هناك .. فى مصر أخذوها فى القطار وسافروا بها الى مصر .. مصر ! ..

وبرقت الفكرة فى راسه : لماذا لا يسافر الى مصر ، ويزورها فى المستشفى ..

وتلقف الفكرة .. شع لها وجهه الأسمر بالفرح .. نعم .. هناك سيلتقى بحبيبة القلب ، ولأول مرة فى حياتهما سيتكلمان.. بعيدا عن العيون .. سيقول لها كل ما كتمه القلب سنة بأكملها.. وهى الأخرى .. ستكلمه .. بصوتها الخافت من شدة الألم .. ويتعاهدان هذه المرة بالكلمات ، وليس بالنظرات وحدها التى عذبته .

غير أن حماسه اختنق فجأة .. ماذا لو عرف أبوها أنه سافر الى ابنته وقابلها فى الغربة .. ؟ .. أى فضيحة .. ؟ .. ثم ان معظم شبان البلد دائرون على لطيفة .. فليكن هو - كما يحاول دائما أن يكون - فى نظر أبيها - شابا عاقلا ورزينا ، فيوما سيأتى ويتقدم اليه يطلب منه يدها !

وعاوده الوجوم .. ومشى يتخبط على السكة فى الظلام ..

أحس أنه حبيس .. وثقل عليه الشعور بالعجز .. وبالهوان .. لطيفة يعضها كلب وهو على ظهر الأرض .. ؟ لو لم يكن ساعة الحادث يعزق فى أرض الطماطم . لرآها على الأقل وهم يحملونها الى القطار ، وتبادلا نظرة وداع .. وآه لو كان واقفا لحظة الحادث ، ورأى الكلب يهجم عليها ، اذن لهجم عليه كالوحش وأطبق على عنقه وصرعه .. ثم حملها .. حمل الحبيبة على يديه حتى بيت أهلها ، كأشجع الفرسان .. !

ولكن .. يا ألف خسارة .. الكل رأوها .. كل شبان البلد رأوها .. ما عداه .. « ما عداك أنت يا عرفات .. ثم تقول لنفسك ان أحدا فى الدنيا لا يقوى على حبها مثلك ؟ ! ما هو دليل حبك .. ؟ !

وغشيت عينيه سحابة ضني .. ولولا انه يحفظ بالشبر كل شــوارع القرية وحواريها ، لتعثر من الحزن فى الحفر التى تملأ الطرقات .. وجز على أسنانه بشدة .. فجأة .. قفزت الى رأســه فكرة .. فتوقف عن السير .. « لطيفة عضها الكلب فسافروا بها الى مصر . فلماذا لا يعضنى أنا الآخر كلب .. نفس الكتب .. ويسافرون بى الى هناك .. آه .. وأصبح معها فى نفس المستشــفى ؟ ! » وتدافعت انفاســـه .. لم ينـاقش الفكرة .. ارتسم على وجهه فرح وحشي .. وأسرعت خطواته فى الظلام .

كان يعرف الكلب الذى عض لطيفة .. انه كلب شرس ، يعرفه بحجمه الكبير .. ولونه الأسود الفطيس والاشــارة البيضاء التى بين عينيه .. سيعرفه رغم الظلام .. ومضى يبحث عنه .. يعسعس بعينيه فى الظلمــة ويرهف أذنيــه . لكن الكلب لم يكن له أى إثر .. أيقن أنه هرب بعد فعلته . ! فليبحث اذن عن كلب آخر .. أى كلب . ! أى مفاجأة للطيفة . حين يذهب اليها هو الآخر معضوضا بعضة كلب . ! واكتسحه حمــاس ضار ، ومضى يبحث عن كلب فى الظلام ..

ولكن ، ولا كلب .. !

غاص قلبه .. !

هل هربت كل الكلاب الليلة من البلد .. ؟

وتذكر أن بعض الكلاب تتجمع فى العادة عند مدخل البلد ، فأسرعت خطواته الى هنــاك .. ودق قلبــه ، فقد رأى كلابا كثيره .. وسار ببطء نحوها حتى اقترب منها ، غير أنها ما كادت تحس به ، حتى فرت خائفة .. هربت كلها .. الى بعيد .. !

هل ستفشل الخطة .. ؟ وأثقله الحزن . إلا يوجد كلب واحد في كل هذا البلد يعضه .. ؟

ومضى يمشي في تعاســة .. فجأة تصلبت قدماه .. لمح رغم الظلام كلبا يرقد بجوار ضريح أحد المشايخ .. آه ، .. هذا الكلب لن يفلت مني ! وتلصص نحوه بحذر ، ثم فجــأة ، كالسهم انقض عليــه عرفات وأطبق على رقبته بيد ، ووضــع الأخرى على فمه .. ذعر الكلب من المفاجأة .. فراح يصرخ عاويا في فزع .. ورآه عرفات يفتح فمه .. تتابعت أنفاســه ، وما أن رأى أنيابه في الظلام ، حتى أسرع ووضــع يده في فمه ، بين أسنانه .. غير أن الكلب انتهز حركة يده ، فانتفض انتفاضــة مروعة ، وبحركة مذعورة ، تخلص من يده .. فقفز وولى هاربا يرتجف من الخوف ، وفي لحظــة كان قد اختفى في الظلام ..

وبقى عرفات في مكانه .. تعيسا .. مذهولا .. شــفتاه ترتعشان ..

كلب ..

كلب يا ناس ..

أي كلب يعضني ..

لكن الكلاب كانت تولى منه هاربة .. أحس بالحزن يقهر قلبــه ..

جلس بجوار الضريح .. وحيدا .. أسند خده على يده .. وراح ينظر بتعاســة ، الى وجه لطيفة في الظلام (*) ..

((١٩٦٢))

(*) عولجت هــذه القصــة كمشــهد كوميدى انســانى في مسرحيــة « المشخصاتيه » للمؤلف عــام ١٩٧٣ .. وأصبح واحدا من المشاهد الاثيرة التي يختارها طلبة معهد الفنون المسرحية ليتقدموا بها للامتحان .

حـد المحـراث

كان يدرك أنهـا الليلة الأخيرة له فى هـذا البيت .. ليلة الوداع .. الوداع المر .. ليس له وحده .. أخوه .. واخواته البنات .. وكل من يحيط بالجسـد المسجى وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة .. بعدها لن يعود البيت بيتا .. سيصبح مسرحا لأشباح الذكريات !

ورغم أنها كانت غائبة عن الوعى من يومين الا أن أخـاه لم يبعث له بالبرقيـة الا بعد أن فقد الأمل : أحضر .. حالا .. أمك تريد أن تراك ..

وحين وصل ، عرف أنها سقطت مغشيا عليهـا ، دونما كلمة ، لم تلحق حتى أن تنطق للذين هرعوا اليها بما تتمناه .. ولقد أدركوا على الفور أن هـذه لابد أن تكون أمنيتها الأخيرة .. أن تراه قبل أن تموت .. الصغير الذى مات أبوه وهو فى بطنها جنين عمره ستة شـهور ، وانكبت عليه طول العمر فاردة جناحيها عليه حتى وهو بعيد .. تسقيه الحنـان والحب والبركات .. لم يشعر يوما أنه يتيم الأب .. كانت هى الأم والأب على السواء.. وها هو يعود ، بعد غيبة شـهور ، ليجدها ممددة على ظهرهـا

بلا حراك .. مع بقايا انفاس تبدو للحظة قوية فيخيل اليه انها ستهب واقفة على قدميها وتستعيد موقعها العظيم فى الحياة . غير ان الأنفاس كانت سرعان ما تخفت وتتهافت . اشبه بأنفاس قاطرة نفد وقودها فتوقفت ؛ ومع هذا لاتزال تصدر أصواتا .. لا تريد أبدا الاستسلام !

كان وجهها وجه محارب . انفها المستقيم الحاد ، والوجنتان الناتئتان المحددتان ، ونظارتها البيضاء . لم يجرؤ احد على أن يخلعها ، وطرحتها الجورجيت السوداء ، لاتزال حول الراس ، اطارا مهيبا للموت كما كانت اطارا رائعا للحياة ؛ لم يهن على أحد أن يمس اللوحة العظيمة بشيء ؛ فليبق المظهر الشامخ حتى آخر لحظة .

كان قد أفرغ على طول الطريق ، فى القطار وعلى الزراعية ، كل ما عنده من دموع ، دخل جامد الوجه ، راى اخوته البنات ، وأخاه الكبير الوحيد ، ونساء قريباته ، وأخريات غريبات ، يجلسن حول الجسد المسجى ، يلبسن السواد ، كورس الأحزان القديم .. للكورس بقية فى الخارج ، حول البيت يقف الرجال ، جماعات أو متناثرون ، كلهم صامتون ، مطرقوا الرءوس .. حركة الأشجار ميتة ، صيف حار ؛ هل فى الصيف دائما تحل الأحـزان ؟ !

لم يتبادل كلمة مع أحد ، لم يأن بعد أوان العزاء ، واقترب من الجسد ، لم يصدق مع الأنفاس اللافحة القوية ، انها الأنفاس الأخيرة .. لا .. لابد فى اية لحظة ستنتفض وتستوى جالسة .. متحدية ، وتطرد كورس الأحزان .. لو ماتت حقا فسيكون فى العالم موت .

وسمع أصواتا هامسة تقول :

ـ يومان والروح تريد أن تطلع .. أى عذاب :

ـ لا تريد أن تفارق الدنيا قبل أن تراه . ها هو قد جاء اليهـا ..

ـ وشوشها يابنى فى أذنها . قل لها أنك جئت لتستريح ..

أحقا ستسمعه ؟ يعطيها اذنا بالرحيل ؟

لو مال عليها فسيصرخ فى أذنهـا مستجديا منها البقاء . الاستمرار فى الحياة . رغم كل العذابات .. اسمعينى يا أمى .. اسمعى هـذا الخبر : بالأمس فقط عينت : أصبح لى عمل ، بعد سـنوات التشرد ، ومرتب كل شهر .. وستحلو الحيـاة .. سأرد لك الدين مضاعفا .. اصحى يا أمى .. اصحى وسنبدأ معا الحيـاة .

ويرتفع صوت واحدة من أفراد الكورس :

ـ يا ناس . حرام . كانت تريح الكل . أريحوها من هـذا العـذاب ..

ـ حقنة تريحها .. لو تحبونها غيبوها عن الوعى ..

سيدة المعارك لا تلقى السـلاح .. لا تسـلم حتى الرمق الأخير ..

أحس بفشـله أن يبكى .. أن يتـكلم حتى .. خـرج من الحجرة مطرقا ..

وقف أمام البيت . الوسعاية . ملاعب الصبا والطفولة .. والكتكوت يجرى .. فى عز شمس الظهيرة .. والدجاجة تتبعه .. تشجعه تارة ، وأخرى تحذره من الغرق فى النيل ، ومن ذئاب الحقول ..

حر يونيو شديد .. وحول البيت لا ظلال .. الأقرباء الرجال واجمون ..

ـ ما العمل ؟ ! انها ستموت ..

ـ وهل بعد الموت عمل يستحق أن يكون ؟ ! اذكروا الله يذكركم ..

مع الوهج راح فى غيبوبة . تأخذ الأحداث أحيانا مواقيت عجيبة :

بالأمس فقط وجد لنفسه فى المدينة عملا .. بعد سنوات التشرد والضياع والمطاردات وجد عملا .. « كان يجب أن تنتظرى لكى تفرحى يا أمى بالخبر .. انى استلمت عملا .. أصبح لى مكتب .. وعنوان .. ومرتب أول كل شهر » ..

تراها أحست أنه بلغ شاطىء الأمان .. فلم يعد لها من مهمة فى الدنيا ، فقررت الرحيل ؟ !

ورأى حلاق القرية يأتى مهرولا ومعه حقنة .. وقف ينظر اليه وهو يغرس الحقنة فى الذراع الصغير .. تراخى اللحم الذى كان يوما مدملجا أبيض ..

ـ حرام يا ناس .. لا تعذبوا جسمها ..

ـ الحرام الا ترحموها من الألم ..

واحتشد صدره بصرخة : أيها الوحش .. ابعد سن الابرة عن ذراعها .. لكنه كان قد تحجر . وفى الذهول وهو يرى الرجل يغرس الابرة فى الذراع .. توجع .. دون أن يقول آه .. وداخلته رغبة عميقة فى التلاشى .. بعد دقائق سينتهى كل شىء . كيف ستكون حياته ؟ بدونها لأول مرة فى الحياة ؟ ! .. والثياب

السـوداء .. ايها الكورس القديم العتيد .. علامـة حزننـا الأزلى .. إنت اطار الخضرة الأسود .. ليس بعد الموت سر . ليس بعد الموت مأساة !

وخرج مرة أخرى الى الوسعاية . قرص الشمس جبروت رهيب ومرهوب .. لا نسمة هواء . كل ما فى الأرض والفضـاء والسماء هامد وغير قادر حتى على الأنين .

ـ ماتت ..

وانطلقت الصرخات .. بالتياع .. وجنون ..

انفجر قرص الشمس .. الشظايا متناثرة تملأ الجو .. انتهى عصر ..

بدات ايام اليتم . اجمع شظايا حياتك الثقيلة واحملهـا وحدك على ظهرك ، وامش محنيا بها ، الى أن تموت أنت الآخر..

حدث ما لم يخطر له لحظـة واحدة على البال .. المستحيل حدث .. ماتت .. اذن فقانون العالم هو الموت .

هرج ومرج . كان مذهولا . وبدا على الجميع أنهم يدركون حاله ، فتركوه ومضوا يقومون بالمهمة ..

الآن يخلعون عنها الوشـاح المهيب الأسود . يخلعون النظارة الدقيقة البيضاء . ملابسها الفضفاضة الغامقة الطويلة . المحفظة الجلدية القديمة المليئة بأوراق غالبا لا نفع فيها . كانت تؤمن بالكتابة ، كانت دائما تقول فى معاملاتها مع الآخرين :وهل العقل دفتر ؟ ! الورق والقلم يشـهدون . حد الله بيني وبين حقوق النـاس .

ترى : هل فى المحفظة نقود ؟ !

فليأخذها لصوص الموتى لو يريدون .

هو الآن يريد أن يهرب . لا يريد أن يمشى وراء النعش ويرى الجسد النبيل يغيبه التراب .. والظلام .. لو عليه ، لانطلق يجرى ويجرى حتى يصل الى الجسر العالى ويرسل صرخة .. عواء .. يملأ به فضاء النهر ووجه الحقول ، ثم .. ثم ينكفىء على الأرض .. تحت الجميزة ، ويغمض عينيه ، ويستسلم للأرض ، هامدا ، متحجرا ، بلا اي تفكير .. فالكل باطل وقبض الريح !

يبدأ الكورس أولى مهماته . سيخلعون عنها الطرحة السوداء ، وعصبة رأسها السوداء أيضا .. لكنكم لن تخلعوا عنها شعرها الجميل الناعم ، ولا « المقصوص » الطويل الرفيع الذى كان ينسدل دائما على جانب الوجه ، بجوار الأذن الدقيقة الصغيرة ، بقرطها الذهبى الدقيق ، المثلث الشكل ، والذى كثيرا ما كان يتأرجح مع حركة وجهها فيتذكر للحظات خاطفة أنها أنثى .. إجل .. نادرا ما كان يحس بها امرأة أنثى .. كانت تبدو دائما متحفزة للقاء عدو ما .. وفى عز نومها كانت تبدو وكأنها مفتوحة العينين متيقظة . مات الرجل والأولاد كتاكيت صغار ، وهى لم تزل جميلة وبضة وشابة .. دفنت معه الاحساس بالشباب وبالأنوثة .. وأخذت دور الحارس والمربى ، وخاضت الصراع ضد الثعالب والذئاب !!

ثم ماذا بعد كل هذا الصراع والكفاح ؟ ! الأولاد كبروا وتزوجوا ، ورحلوا الى المدن .. الا البنت الوسطى ، تزوجت من فلاح طيب ، وعاشت بجوارها فى نفس القرية .. هى الآن الرابطة الوحيدة الحية له بالقرية .. ها هى تصرخ وتولول بجنون .. تهرع اليه وترتمى على صدره وتنوح :

ـ أمك ماتت .. ما تسبنيش لوحدى ..

واحتواها فى صدره .. وأجهش بالبكاء . وفوجىء بالنعش خارجا من البيت محمولا على الأعناق .. أحس بنفسه شيئا كالرماد .. ليس أول نعش يراه فى القرية خارجا ليوارى من فيه فى التراب .. لكن الجثمان المحمول ليس أى جثمان .. انها أمه .. وأبوه .. لكن الموت حق ..

ـ حق من ؟ ! ..

ـ حق الله ..

ـ وحقى أنا فيها ؟ !

ـ انت من سنوات بعيد عنها هناك . فى مدينة الأنوار .. لم تكن تأتى لها الا وانت مثقل بالهموم .. وبألمك « العبقرى » .. فتمسح عنك ، وفى لحظة ، كل الهموم .

ـ هذا حقى .. وحق الصغيرة المسكينة . وحق هذا الأخ الذى يمشى مترنحا وراء النعش ، فى ذهول .. كلنا لنا عليها حقوق .

ـ حقوق . حقوقكم انتم . وحقها فى الراحة والهدوء ؟ !

ـ راحتها دائما كانت فى التعب .. « لذتها يا ابنى فى شقاها » .

ـ ذلك كان جيلها . عصرها ..

ـ اذن انتهى جيل . انتهى عصر .

وتحرك النعش . مضت قدماه وسط الجموع . وأخذته الغيبوبة من جديد . تنبه فجأة أنهم ربما يكونون قد غيبوها فى التراب وهو غافل . فانتفض يجرى . يشق طريقه وسط

المشيعين ليلحق بالنعش .. وعادت قدماه تزحفان .. كان الموكب يواصل مسيرته . وعبروا الكوبرى الخشبى الى الضفة الأخرى من الترعة . كانت المدافن وسط الحقول .. كيف ظلت هـذه الحقول خضراء حتى الآن ؟ ! لمـاذا تتلون بلون القبور ؟ ! وعند المقبرة ، عند الفتحـة المستديرة الظلماء ، وقف يرقب المنظر الغريب المروع . أهو وهم أم حقيقة . كانت الدموع قد جفت . وجحظت من الروع عينـاه . اللحاد الطويل الضخم ، الغـامق البشرة ، بجلبابه البلدى البنى القديم ، يدخل المقبرة .. يسوى التراب التسوية الأخيرة . يضع لرأسها وسادة صغيرة ـ اشكرك. من الأعمـاق أشكرك أيها اللحاد ! ورغيفا أيضـا من الخبز ؟ هل ستستيقظ ايزيس لتأكل ثم تنام من جديد وتستريح ؟ !

أجل .. انها لم تمت . ليست هى . وسأعود الى البيت فأجدها هناك ..

وقفلوا المقبرة .

انسل من الزحام ..

حول المقابر ، مقـابر القرية كلهـا كان يدور . وعلى حافة حدودها المتربة جلس شاخص العينين . كانت حقول القمح النابتة الصغيرة تترامى الى آخر الأفق البعيد . وخيل اليه أن أعواد القمح هى هكذا ، بنفس الحجم ، طوال العمر .. لم يحدث بذر أو حصـــاد جديدان منذ آلاف الســنين ! .. نظـر الى اليســار .. الى الضفـة الأخرى ، من حيث جـاء الموكب : أشــجار الصفصاف ، والتوت ، وأم الشــعور ، تحجب بيوت القريـة .. وقـام فى نفســه أن ينطلق بكل قوتـه ويجرى ويجرى .. يهرب .. لم يعد فى هـذه القريـة شىء عزيز يستبقيـه !! لكنــه تذكر .. السرادق الذى ســيقام .. والكلوبـات التى ستضيـاء .. وهو واقف ليتقبل العزاء ..

من كل البلاد المجاورة والبعيدة سيجيئون ليشدوا على يده ويعزوا انفسهم قبل ان يعزوه .. كانت لها شجرة الرجال الكرام العظماء .. وكانت تفرح اذ يكون فى البيت ضيوف .. وكانت تسعد باطعام الآخرين .. يا لجملتها العظيمة « كلوها تروح .. فرقوها تفوح » .. الآن سيرتك يا أمى هى التى تفوح !! اصمد أيها القلب واحتمل الليلة .. ستظل مستيقظا طول الليل ، فلم يعد لك مكانا هنا تنام فيه .. البيت القديم بدونها أصبح خرابة تسكنها الأشباح .. رغم انها هى التى علمتنى الشجاعة.. وانه ليس من جن ولا عفاريت .. وأن « البنى آدم يا ابنى هو العفريت » .. الآن .. هذا البيت بدونها هو الخوف ذاته .. محال أن يدخله أو يجوس فى ابهائه !

وهدأت الضجة .. لم يعد يسمع أى صوت . انسحب المعزون وعبروا الى الضفة الأخرى . وهو وحيد لا يزال جالسا على أطراف المقابر والحقول .. متى زرعوا هذه الحقول ؟ ! كم مرة زرعوها ، وكم مرة حصدوها ، ثم نبتت هذه الخضرة من جديد ؟ ! أو ربما لم تحدث بذر أو حصاد ، انما هى هكذا منذ آلاف آلاف السنين !

ونهض . مر على المقبرة . توقف أمام الفوهة المسدودة .. انتصب شعر رأسه . فتحت الفوهة . ورآها ممددة فى سكون تستريح . كانت متعبة ، ومع هذا ، حين رأته ، نهضت بجلال جلست نصف جلسة .. كان على وجهها صفاء عميق . وفوق شفتيها ابتسامة أبدية ، وبسطت كفها .. تستوقفه : لا .. لا تدخل . ابق عندك .. تذكر . لم اتركك الا وانت رجل كبير .. الآن احمل حياتك على كاهلك وامض بشجاعة !! تقول انك اخيرا وجدت عملا ؟ ! كنت واثقة . مبروك . ألف مبروك . سأزغرد لك.

وانتشر فى كيانه صليل زغرودة ذهبية ملأت جنبات المقابر

والحقول .. وانتابته رعشــة محمومة .. يريد أن يهجم على القبر ..

ــ أمي .. أمي .

وعادت تبسط كفيها فى وجهه .

ــ لا .. لا تتقدم . انسيت يا ولدى الحرام والحلال . اطمأننت الآن عليك .. امض الآن ودعنى أستريح . هل نسيت . تعبت كثيرا .. كثيرا .. آن لى أن أستريح .. عن أذنك .

ومالت بظهرها فى هدوء ، وأغلقت عينيها . وعــادت الى رقدتها فى سلام !

السلام عليك يا أمى .. وعلى الدنيا معك السلام .

وارتجفت شفتاه دون دمعة ..

أعطى القبر ظهره ، حمل نفسه وسار وحيداً ، يدب على الطريق الضيق المترب بين الحقول . ورأى أمامــه ، على بعد قليل ، فلاحا يسوق امامه بهيمتين تتودان محراثا ، والمحراث يشق خطا ثابتا فى الطريق .

تباطأ فى خطواته ، حتى يتفــادى اى لقاء أو كــلام مع الفلاح . يريد أن يغيب فى الصمت . كانت ظلال المســاء بدات تهبط على الحقول وعلى الطريق . لكنه كان يرى قدميه تسيران فوق خط عميق محفور بطول الطريق ، هو الخط الذى حفره فى الأرض ، سلاح المحراث ..

خط الحياة .. منذ آلاف السنين ..

« ١٩٦٤ »

بحــر الذنــوب

كان كل خوفنـــا أن يمضى الأسبوع الأخير من أجازتنـــا والبحر هكذا هائج يهدر ! .

وقد ظل البحر طيلة ثلاثة أيام متوالية ، عاليا مزبدا غير آبه بأن لحظـــة الوداع تقترب ، وأنه حرام أن نقضى معه أيامنـــا الأخيرة هكذا مكبلين بالرمال ، والراية السوداء من فوقنا تخفق وتتلوى مع الريح العاصفة ! وكان صديقى « سعد » الذى ترك بيته فى قلب الاسكندرية ، واستأجر « كابينة » بالمندرة قريبـــا من البحر ليقضى فيها أجازتـــه ، كان يتململ على الرمـــل ويقوم ويقعد ثم ينظر الى السحب المتلاحقة والطائرة برغم ضخامتها مع رياح الشمال الرطبة ، ويقول فى غيظ وأسف :

ـــ مستحيل .. مستحيل يكون ده جو أغسطس .. فى سبتمبر البحر أهدأ من كده بكتير ..

ثم جاء اليوم الرابع ..

كانت حدة الرياح قد هدأ نسبيا ، وبدا البحر وادعـــا

ولطيفا وكأنه يمد يد الصداقة للمصيفين . وكان أول من صاح مطالبا بالنزول الى البحر هم الأطفال !

ـ فلنسبح الى « الصخرة » ونصطاد !!

كان احتضانهم للموج قد أوحشهم مثلنا .. وأوحشتنا أيضا تلك الجزيرة الصخرية الماثلة هناك فوق سطح الماء ، بنتواءاتها البارزة ، وتشكيلاتها الجميلة الغريبة بفعل الرياح وضربات الأمواج على مر الزمان !

كانت هذه الصخرة والوقوف عليها أو الصيد منها قد تحول فى الأيام الأخيرة من اجازتنا ، الى رمز لذروة سعادتنا مع البحر . ! كانت لذة الوقوف والتمشى على هذه الجزيرة الصخرية تسبقها لذة أخرى . لذة اجتياز الموج ، سابحين على الصدر أو على الظهر ، صاعدين هابطين مع الموج .. من تحتنا أعماق وفوقنا أعماق .. وفى رفقة سباح قوى ماهر . هو الصديق سعد ، خير نجدة اذا لاح التعب لواحد منا . !

وفى دقائق ، كان كل واحد من الأطفال الأربعة ، يلوح فرحا بسنارته ، وقد علق فى وسطه جرابا صغيرا من النايلون ملأه بالطعم .. ثم .. القينا بأنفسنا جميعا فى البحر ..

ربما هى آخر رحلة لنا هذا الصيف !!

واندفعنا نشق طريقنا فى الموج !! .. فى كل مرة يقطع فيها الانسان هذه الرحلة ، رحلة الثلاثمائة او الأربعمائة متر الى الصخرة ، كانت تنتابنى مشاعر معينة بذاتها .. !

كثيرا ما كنت أدرك بومض الخاطر ، وأنا أخطو عبر الموج ، ذلك الشعور الاسطورى العميق الذى يربط بين انسان ما وبين البحر ، حتى يصبح هذا الرباط مصيرا وقدرا !!

وللصدفة ، كنت فى تلك الأيام أقرأ « حورية البحر » مسرحية العظيم « ابسن » ، واعيش مع « ايليدا » بطلة المسرحيــة ، تلك الفتاة الجميلة التى ربطت مصيرها ببحار غريب ، أثر لحظــة انسانية عميقة جياشــة جمعتهما امام البحر فارتبطــا ، وكان قسمهما خاتمين ربطاهما الى بعضيهما بخيط رقيق دقيق ، ثم القيا بهما فى الأعماق .

كانت كلمات « ايليدا » حورية البحر تعاودنى وأنا أسبح فى البحر الأبيض المتوسط .

« لو كان الانسان قد عود نفسه على البحر منذ البداية ، لكان أكثر سعادة » !!

وكلمات اخرى لها ..

هذه هى الحقيقة الخفية .. وهذا هو السر الدفين وراء مسحة الحزن التى تستبد بالرجــال أحيانا ، عندما يحنون الى المجهول .. الى الانطــلاق .. فى رحابة الكون الكبير !!

ومضيت أنظر الى الصـديق سعد وهو ينساب بخفة فى قلب الموج ، والى طفليه وطفلى وهم يدفعون سنانيرهم بأيديهم على الموج أمامهم وعيونهم على الجزيرة الصخرية : أليست هــذه هى روح حورية البحر تسكنهم جميعا ؟

وأنــا ؟ ! ..

ان ما يدور كالدماء فى عروقى ، تلك الرغبة الحارقة المشتعلة على الدوام فى الخروج والانطــلاق .. ولكن آه من كل هــذه القيود التى بات الانسان يخجل من ترديدها ! ..

ذلك هو سحر الاجازة .

هأنذا فى منطقة اللاقيود .. أمامى البحر .. كل البحر لو استطيع .

ومضيت أسبح .. سعد يسبقنى ، والأطفال يسبقونه ..

ودخلنا منطقة الأعماق ..

عند أول حدود منطقة الأعماق ، يهبط القلب للحظة ، ثم يرتفع الأوار من جديد ، مدفوعا بتلك البهجة الحسية المقترنة بزهوة الاحساس باقتحام الخطر ..

بعد الحدود ، هبت رياح رطبة ، فازداد ارتفاع الموج ..

تنبهت .. أهى بوادر عاصفة ؟ !

لا .. هى رقصة للموج يعلو فيها ويهبط ، فلنستسلم جميعا للرقصة !!

كنت قد تعلمت من سباحتى فى رفقة صديقى السكندرى وطفليه ، ما معنى تلك النشوة الحسية التى يملأ بها الانسان نفسه ويضمخ بها جسده وهو يسبح فى البحر ، على اعماق بعيدة الغور . فكثيرا ما كان يلقى بنفسه فى منطقة ما بعد الصخرة ويتوغل ويتوغل حتى يصبح نقطة صغيرة سوداء فى عالم رحيب واسع كله خضرة وزرقة ! كنت اجفل من الذهاب معه الى هذا البعد السحيق ، فيقول لى معاتبا : انت مش بتعرف تعوم ؟

فأهز راسى ضاحكا ، فيقول : كل ما العمق يكون اكتر ، كل ما العوم يبقى أسهل واجمل .

والمرة التى سبحت فيها معه فيما بعد الصخرة ، منحتنى لحظات سعادة لا تنسى .. كما أعطتنى كلمة السر الوحيدة التى يفهمها البحر :

جرأة القلب ..

ان لحظة خوف تهلك أعظم الأبطال ..

فلأفرح برقصة الموج ، ولا أخاف ! ..

وفقدت احساسى بوزنى ، وأنا أماشى رقصة الموج ..

والأطفال . ؟ ! ترى ماذا يفعلون الآن ؟ ! أليست مغامرة منا أننا صحبناهم معنا فى هذه الرحلة ! ؟ ماذا لو عدنا بدون واحد منهم ؟ !

غير أن نظرة سريعة منهم ، وهم يشقون طريقهم نحو الصخرة فى خفة ورشاقة ، دافعين سنانيرهم أمامهم أقنعتنى بأن أنتبه لنفسى .

ومضيت أواصل السباحة .

اجتزنا نصف المسافة .. الأعماق تزداد .. والرقصة تعلو . ماذا لو تعب الانسان فجأة ؟ ! .. لا .. ولماذا يتعب ؟ ! لست فى سباق .. لا عنف فى الضربات . بل واحدة واحدة !! ..

يا لها من متعة .. متعة محفوفة بالخطر .. !

هناك تقلص العضلات ، عضلات السيقان !

وهبط قلبى ..

لا .. لا .. ساقاى خفيفتان .. تذكر قصص الغرق هى بداية الغرق الحقيقى .. ! الرياح الرطبة تهب وتنعش النفس .. الموج يرقص .. وأنا مثل ريشة فوق جبال الموج .. سعادة تضمخ قلب الانسان .. احساس بالتطهر والاغتسال .. خفة فى الجسم وفى النفس .. جرثومة الجبروت لابد يقتلها ملح البحر .. !

كان الأطفال يقتربون بسنانيرهم من الصخرة . حمدا لله .. ومضيت أتبعهم .. !! يا للغرابة ، أهنـاك ثمة قربى بين الطفولة وبين البحر .. ؟ ! بالتأكيد .. هـذه الخفة وهذه الفرحة .. الأطفـال هم أصـدقاء البحر .. وخايلنى وجـه عبد اللطيف أبو هيف .. طفولة العـالم دائما أراها فى عينيه .. ! .. نعم .. أبو هيف .. طفل كبير برىء .. جسده أبدا لا يثقله .. وروحه أيضا .. أبو هيف بلا ذنوب .. كل أبطال البحر لا يمكن أن ينزلوا الى البحر ووراءهم ذنوب او اشباح تلاحقهم .. !

منذ عدد من السنين ، نزل أحد الحكام « العظماء » الى البحر .. مستعرضا قدرته وبراعتـه امام رجـال الحاشـية « أنا لا أحكم الناس فقط .. انا أحكم الموج أيضـا » .. وراح يتوغل ويتوغل .. فجأة ، أحس بجسـم ناعم يلمس ساقه . فانتفض .. ! لابد حوت .. ذعر فظيع أهوج اطبق عليـه .. اندفعت ذراعـاه تضربان فى المـوج يلتمس العودة .. طاشـت حركته .. تهدجت أنفاسه .. بدأ يبلع المـاء من انفه وفمه .. كان وجه ضخم يلاحقه .. وجه يعرفه .. يقول وعيناه متألمتان تقطران ماء مالحا « لمـاذا قتلتنى .. لمـاذا قتلتنى » .. ؟ !

كانت ضحيـة من ضحاياه ، بعثت حيـة له وهو فى قلب البحر ! وكانت نهايته !!

المثقلون بالذنوب لا يحملهم البحر أبدا الى غاياتهم ..

وأنـا .. ؟ !

فى رحلة الأربعمائة متر .. من تحتى أعماق واعمـاق .. ما هى ذنوبى ؟ !

وتلاحقت دقات قلبى ..

ها قد أصبحت وحيدا فى منطقة الأعماق .. سعد والأطفال

وصلوا الصخرة وامسكوا بسنانيرهم وبدأوا الصيد .

هل لى ذنوب معك أيها البحر .. ؟ !

ولم يخايلنى وجه للانتقام .. !

وجه واحد تراءى لى .. فيه الشحوب ، والم العتاب :
لم أرك من وقت طويل : أختى .. فى قريتى .. بل قريتى كلها ..
بلياليها الخرساء المظلمة فى النصف الأخير من القرن العشرين ..
تعاتبنى : إجازتك أصبحت تقضيها مرحا على الشاطىء ..
اجازتك كلها ، دون يوم واحد لنا .. !

أختى ..

قريتى ..

انا معترف بذنبى ..

ان لم أعد اليكم .. فالموت لى .. المغفرة !

كنت قد اصبحت وحيدا فى البحر .. غير أن منظر الصخرة ومن عليها كان يؤنسنى .. بعد دقائق قليلة سأمسك بصخورها واصعد اليها وانضم الى موكب الصيد المرح .. ولكن ما هذا ؟ ! لقد أصبحت على يمين الصخرة ، بعد أن كنت متجها اليها من اليسار .. انه اتجاه الموج .. سحبتنى رقصة الموج شيئا فشيئا بعيدا عن طريقنا الأصلى !! لا يهم .. فلآخذ أقصر الطرق .. ولأنشط قليلا ، ولأكف عن التفكير .. اى تفكير .. حسن انى وجدت نفسى بلا ذنوب .. لا ذنب لى غير أختى .. وقريتى .. وعما قريب سأكفر عنه .. ها هى الصخرة أمامى .. قريبة .. وانا لم أتعب .. أبسط تعب لم يصب ذراعى أو ساقى .. ولكن .. شيئا ما غريب يحدث .. اننى لا أتحرك والمسافة بينى وبين الصخرة ثابتة ..

وتنبه فى داخلى احساس عميق بالخطر ..

انا فى منطقـة تيار قوى ينحـدر نحوى مقبـلا من حول الصخرة ..

سباحة الصدر الهادئة هنا لن تجدى ..

بدأت أضرب بذراعى .. ضربات مسددة قوية .. غير أن التيـار أقوى .. الصخرة لا تقترب .. وكل ما تفعـله ضربات ذراعى انها تحمينى من الرجوع الى الوراء !! ضربتان وثلاث .. وستهن ذراعاى . ! انا واثق .. لن أصـل الى الصخرة ، عشرة أمتار .. ولكن أصبح من المستحيل اجتيازها . كلمـا ضربت بذراعى ، وجدت موجة ثقيلة مندفعة تقول لى : ابق عندك .

ستحدث الكارثة حتما !!

كنت أود أن أصـل الصخرة وحدى .. هـل إصر لكى أحصل على انتصارى ..

من جديد ، رحت أضرب بذراعى .

صدنى التيار .. ابق عندك .. وهنت تماما ذراعاى ..

اذن فهو الغرق لا محالة ..

عيناى على الصخرة .. سعد ينظر الى مستفسرا .. أدرك على الفور الخطر ..

قذف بنفسه فى المـاء ..

ـ خف .. تعوم ..

القيت نفسى على ظهرى فوق المـاء .. خفيفا بلا حراك ..

تاركا جسمى للتيار .. ذراعا سعد تضربان فى المـاء ..

اقترب منى ابن البحر ..

اعتدلت على صدرى ..

ــ ضع يدك على كتفى .. واضرب برجليك .. دقيقة واحدة وسنبتعد عن مجرى التيار . !!

لاشيء فى الذهن غير الوصول .. بأى ثمن لابد سنصل . ها هى الصخرة على بعد أذرع قليلة ..

ــ ابتعدنا عن التيار ..

عادت الى النفس السكينة .. رقصة الموج اللطيفة تحملنا ولا تصدنا .. والصخرة تقترب .. مصطفى الصغير يصيح فرحا ، وقد رفع سنارته فى الهواء وسمكة صغيرة وقعت فى الفخ راحت تنتفض فى الفضاء وهى تلمع وتلتمس الهروب ..

ــ دنيسة يا بابا .. دنيسة يا عمى ..

منحتنى صيحته القوة !!

على أية حال .. ها هى الصخرة ..

لمست يداى الصخرة .. تشبثت بها ..

نظرت الى سعد نظرة شكر .. أما هو ، فكان ينظر لى فى عتاب ثم قال : أرجوك لما تحب تسرح .. تبقى تسرح وانت فى بيتكم .. انما فى البحر ..

وضحك من أعماقه ..

وددت ان أبادله بضحكة .. غير انى لم أستطع .. كنت لا أزال أسترد أنفاسى .. وعينى على منطقة التيار .. رهيب ! ..

دنب أختى .. وقريتى ؟ !

ربما ..

ولن آتيك أيها البحر فى العام القادم ، الا وانـا متخفف من كل الذنوب ..

عماد .. الطفل الأكبر يصيح ..

ـ دنيسة تانية يا بابا ..

ولمعت سمكة فى الفضاء ..

وتقافز الأطفال فرحين بصيدهم العزيز ..

السمك يخرج حيا . ثم يموت . أهى بداية لذنب جديد ؟ !

ولمعت سمكة جديدة .. وانتفضت فى الفضاء .. مرتعبة ..

ستموت .. وسيضحك الأطفال .. وسنأكلها فى أمسـية بهيجـة !

« ١٩٦٨ »

النمـل الأسـود

بدت لها المسألة اشبه بالمفاجأة ، أو لعبة لطيفة من البحر يستقبلها بها ! .. كانت قد اخذت نظرة سريعة من وجهها فى المرآة ، وسوت شعرها ، غير انها لم تكد تفتح باب العشة لتخرج وتلحق بزوجها حتى استقبلتها دفقة هواء شديدة ، فتطاير شعرها بعنف وتراجعت الى الوراء خطوتين وكادت تنكفىء ، وتملكتها رغبة طفلية فى الضحك وهى ترى جهودها لتحافظ على نظام شعرها تضيع عبثا !

كان أول يوم لها فى رأس البر ، ورغم أن العشة كانت بعيدة بعض الشىء عن البحر ، والوقت ضحى ، الا أن الهواء كان يهب قويا ومنعشا .. وأحست بطراوته تنفذ من خلال ملابسها الخفيفة فتلامس لا جسدها فقط ، بل وروحها أيضا ، وابتسمت فى سعادة ، وراحت وهى تستنشق الهواء بعمق ، تحملق بعينيها فى لا شىء .. كأنها تدير شيئا فى رأسها .. شيئا غريبا لا تكاد تصدقه !

أحقا هو شعور بالسعادة ؟ !

لم تكن تتوقــع أن شــعورا مثل هــذا سيغمرها من أول صباح لها فى المصيف ، بل وتعجبت كيف أن الاحساس بالرضى يمكن أن يغمر قلب الانســان هكذا فجــأة ، لمجرد هبــة هواء منعشة ، وكأن أشياء كئيبة وتعسة لم تحملها فى قلبهــا وهى قادمة مع زوجها الى هذا المكان !

وحانت منها نظرة سريعة الى السريرين الصغيرين اللذين يشغلان الحجرة وتنهدت ، أى ليلة كئيبــة قضياها بالأمس فى هذه الحجرة بعد أن وصلا المصيف ووضعا حاجياتهما !

كانا قد هبطــا « راس البر » بالأمس فى الليل ، ولم يكن يعلن عن وجودها فى هذا المكان ســوى أقواس النصر المضــاءة بالكهرباء عند مدخلهــا والا صــوت البحر الذى كان يتنــاهى الى مسامعهما من بعيد ! .. وطوال الطريق من القــاهرة حتى رأس البر وهما صامتان ، كلاهمــا يفكر فى هذا الذى حدث ، هــذا الذى جعلها فى النهاية تصرخ فى وجهــه طالبة الطــلاق ثم .. كان هدوء العاصفة واتفاقهما الكئيب فى بيت أمهــا على أن يقضيا عدة أيام فى المصيف !

وهزت رأسها بشدة لتطرد الصــورة عن ذهنهــا .. « ربما تكون بداية جديدة لحياتنا .. كفانا كآبة » !

كانت موجــات الهــواء لا تزال تندفع داخــل الحجــرة : وابتســمت لنفســها مرة أخرى وهى تحس بأنفاســها نشــطة وقوية .. وضعت كل قواها فى ذراعيها الرقيقتين وجذبت الباب خلفهــا بقوة ، كانت صــغيرة ونحيلة ، وكانت أيضــا شــقراء وجميلة .. ذلك الجمــال الذى يعطى صاحبته سنا أصــغر من حقيقته ، والمضحك أن عمرها لم يكن يزيد بحــال عن التاسعة عشر ، فبدت وهى تهبط ســلالم العشة قفزا وتقاوم لعبة الهواء

مع شعرها وثوبها ، بدت أقرب الى صبية صغيرة تحتاج الى صبايا لتلعب معهن ، منها الى أن تكون زوجة ، وزوجة لهذا الرجل بالذات ، الواقف هناك عاقدا ذراعيه خلفه وسط الشارع فى انتظارها !

كان قد خرج وسبقها بعدة خطوات .. وبدا بكتفيه العريضتين ورأسه الكبير مكتظ الوجه والجسم ، ورغم أنه كان يرتدى بنطلونا طويلا الا أن ساقيه بدتا معوجتين ، وذراعيه المشمرتين يملؤهما شعر كثيف أسود وصدره بارز ومرتفع بشكل ملحوظ ، كأنه مصارع أو مدرب رياضى !

لم يكن هناك شيء فى الشكل يؤلف بينهما .. ولولا وقفته ونظراته المركزة التى تحمل معنى الانتظار ، انتظارها هى بالذات وهى تشق طريقها نحوه ، لما قال أحد أن هناك ثمة علاقة بينهما !

كان شاردا .. وعيناه مزمومتان على وجوم !

ومضت تمشى نحوه بخطوات مسرعة ، حريصة على الا تتركه وحده طويلا فى الشارع ! .. وأحست بالأرض الرملية تعوق سرعتها فنظرت اليه معتذرة بوجه ضاحك ، وتجولت للحظة بعينيها العسيلتين الواسعتين فى كل ما حولها ، كأنها تكتشف ولأل مرة هذا المصيف الذى دخلته بالامس — ولأول مرة فى حياتها — فى الليل ! .. كان الوقت ضحى . والعالم يغمره الضياء .. وبدا كل ما حولها خلاء فى خلاء ، رغم صفوف الكباين والعشش الصغيرة الممتدة فى نظام بديع حتى الشاطىء ، ولاحت لها زرقة السماء لا تختلف عن زرقة الفضاء ، وانطلقت نظرتها الى البعيد ، الى نهاية الشارع .. ولمحت تلك النقطة التى يلتقى فيها البحر بالسماء وأشباح المصيفين بملابس البحر

يروحون ويجيئون ويجرون . أحست بنشــوة تتملكهــا وجرفها حماس طفولى طاغ ، أن تقطع الخطوات الباقيــة على زوجهــا جريا . ثم تجذبــه من يده وهى تضحــك ، ويجريــان معــا ويظــلان يجريان حتى يبلغا الشاطىء ويضربا الموج بأقدامهمــا وهما يضحكان من قلبيهما !

كان قد مسها سحر الطبيعة فتفتحت كل الطفولة الكامنــة فيها . غير انها حين نظرت اليه ، وجدته لايزال شــاردا ، مقطب الجبين . فتنهدت : « أنه لم ينس بعد .. ولكن ، لابد أن ينسى » .. وقررت أن تبدأ هى بالكلام . لو اقتضى الأمر ان تعتذر له . فستعتذر رغم كل شىء ! .. يكفيها انه هو الذى عرض فكرة السفر الى هــذا المكان الجميل .

وحين وصلت مكانه لفت ذراعهــا بحمــاس حول ذراعه ، فتحرك من مكانه وسار بجوارها فى صمت فى اتجــاه البحر ، وفكرت .. ماذا تقول ؟ !

كان واضحا أن روحه معقودة على صمت ثقيل . وأيقنت ان الحاجز لايزال بينهما .. ومع هــذا فقد ظلت ابتسامتهــا على شفتيها ، وحلا لها وهى تسير بجواره أن تستنيم لايقــاع خطواتها البطيئة على الرمــال .. وفكرت بقلبهــا المفتوح ان المشى البطىء على الرمل له جماله أيضــا ، تماما مثل الجرى والانطــلاق . واغمضت عينيها لبرهــة تتسمع أزيز الهواء وهو يصطدم بأذنيها ، وصياح أطفال المصطفافين وهم يلعبون بمرح ، ان العالم منذ بدء الخليقة يسوده الســلام ، وأن تلك هى حقيقة الحياة .. ولابد أن تكون ايضا هى حقيقة علاقتهما معا .. وان هذا الذى حدث بينهما لم يكن الا كابوســا .. وانتهى ! .. « نعم .. كل الرجال يغارون على زوجاتهم . من فرط حبه لى ، يغار على .. يبدو انى فعلا تسرعت فى طلب الطلاق » .

وانتابها احســـاس عابر بالندم .. وضغطت بيدهـــا على ذراعه .. وهمت أن تقول له بكل جوارحها . « أنا متشكرة ، متشكرة أوى يا حسين على الفسحة اللطيفة دى » . غير انهـــا فوجئت بكرة صغيرة تندفع اليها . كان بعض الأطفال الصغار يلعبون بها .. وبلا وعى اندفعت نحو الكرة وقذفتها بقدمهـــا بشدة ، ثم انطلقت تضحك للصغار من قلبها ! ونظرت اليه لترى أثر لعبتها وضحكتها عليـــه ، صدمها جمود وجهه ، بل وخيل لها أنه يضغط على فكيه .. هبط شيء ما فى قلبهـــا واستدركت خطواتها التى كانت توشـــك ــ بلا وعى ــ أن تسرع وتفلت منها ، كما لو كانت تريد أن تجرى وراء الكرة وتلعب مع الأطفال .. وشردت ببصرها نحو البحر ! .. « تلك هى عقدته .. الكارثـــة أنك لازلت تتصرفين كطفلة .. لم تصـــدقى بعد أنك أصبحت زوجة !» . إليس هـــذا هو بالضبط كلامه ؟ ! .. لا .. سأتصرف كامرأة كبيرة وعاقلة ورزينـــة .. « نعم .. لن أفعل شـــيئا ولو تافها ربما يثير غضبه .. لابد أن أهيىء الجو لتصفو نفسه ، وبسرعة » ومرة أخرى لفت ذراعهـــا حول ذراعه ، ومضيا يقطعان الطريق الى البحر ، فى صمت وعلى مهل .

كانت كل أمنيتها أن تصـــل البحر وقد انقشعت هـــذه السحابة عنهما !..تلك أول مرة سترى فيها « بحر رأس البر » .. بعد دقائق ستكون هنـــاك . واكتسحها شـــوق لأن ترى أمواجه وتتمشى على البـــلاج وتستحم بنفس صافيـــة ، لقد راح تماما من نفسها كل شيء وانتهى ، فلماذا هو مصر على هـــذا الوجوم الرهيب ! ؟ .. ربما هو فى انتظـــار كلمة منها ترضى كبرياءه . واستدارت اليه بكل وجهها دون أن تخلى ذراعهـــا من ذراعـــه ، وقالت برجاء وهى تبتسم مداعبة :

ــ حسين ؟ ! .. مش حتضحك بقى ؟ !

وابتسم ، لكن ابتسامته كانت ساخرة . تقطر مرارة !

ولم تيأس .

ــ شـــايف قربنـــا من البحر ازاى .. يا الله نجرى لغايـــة هنـــاك !

ولم يرد . رأته ينظر الى رجل يخرج من احدى الكبـــاين ويمشى فى نفس الطريق متجهـــا نحوهمـــا .. كان الرجل يرتدى بنطلون شـــورت وفى يده مضرب ، ووجهـــه وســـيم لوحتـــه الشـمس ، وحين اقترب منهما رأته يســـدد نظراته اليها ! .. ارتجفت وسقطت نظراتها كالمذعورة الى الأرض لتتفـــادى عينيه . وما أن مر بهما وابتعد حتى رفعت بصرها عن الأرض وهى تلفظ نفســا عميقا ، وكأن كابوســـا انزاح عن صدرها .

كان الرجل غريبا لم تره من قبل أبدا ، لكنه كان يبحلق فيها بشكل وقح ، ولا يبـــالى بزوجها . وودت لو تختطف فى تلك اللحظة نظرة من عينى زوجها لترى أثر نظرة الرجل عليه ! ..

وغاص قلبها وهى تراه يخرج سيجارة من جيبه ويشعلها ، وأطفأ الهواء أول عود ثقـــاب ، فأشـــعل الثانى بعصبية ، ولمحت وجهه وقد احتقن !

أحست برغبـــة حارة تجيش فى نفســـها ، أن تبكى ، وأن تحس بطعم الدموع فى حلقهـــا ! .. أيمكن أن يطـــاردها ذلك الرعب حتى فى المصيف ؟ .. الرعب الذى كانت تعيش معه فى القـــاهرة ؟ !

واستبشعت الخـــاطر « مستحيل .. مستحيل أن يغـــار على أيضا هنا .. من نظرات المصطافين » !

لن يكون مصيفا ، بل سيكون الجحيم ، نفس الجحيم .

منذ أن تزوجته ، بل ومن أيام الخطوبة وهـذا عذابها .
غير أن غيرته هـذه كانت تبدو أول الأمر شيئا تافهـا ومحتملا ، أكثر من هـذا كانت تتقبلها بنوع من الزهو الأنثوى كشـاهد حي على جمالها ، وهو العاطل من كل جمـال .. لكن المسـألة كانت تستفحل مع الأيـام على نحو خطير ، فبالضبط كمـا يختار الميكروب نقطة ضعف فى جسم الانسـان ليمارس عليها حياته ويتغذى على مهل ، كذلك كانت غيرته ، تلمست لنفسـها نقطة فى حياتها ثم توقفت عندها : تلك هى قرابتها ، أو ما أسماها هو « علاقتها » بابن خالتها المسمى « صلاح » ، ذلك الذى يقطن فى الشقة المجـاورة لها بنفس المنزل ، وبنفس الدور مع عائلته .. والذى طالمـا ضحكت ولعبت معه وهى صغيرة .. وحتى بعد أن خطبها من أبيها المريض وتزوجها ، لم تجد فى الخطبـة أو فى الزواج ما يمنعها من أن تضحك معه من قلبها ! .. وكان هو يرى انطلاقها هـذا مع ابن خالتها ، فيحس ـ رغما منه ـ بشىء ما أسـود يأكل فى قلبه ! .. كانت غيرتـه فى أول الأمر مستورة وبطيئة ربما لانه كان يدرك أنه لابد أن يتحكم فى غيرته . فهو الذى اختارها صغيرة .. وهو الذى جعل الزواج منها معركة حياته فى تلك الفترة واستطاع أن يحصـل عليها بالتأثير على أبيها المريض قبل أن يموت .. حصـل عليها وهو يعلم أنه قد سلبها من كل أقربائها الشـبان .. فهى أجمل بنـات العائلة .. وعليه اذن أن يتحمل متاعب جمالها .. ويغالب غيرته .

غير أن غيرته الهادئة البطيئة هـذه ، كانت أفظع الأنواع ، عليها وعليه على السـواء .. كانت بالنسبة لها أشـبه بنقط ماء صغيرة دائمـة السقوط من صنبور غير محكم الاغـلاق .. تسقط نقطة بعد نقطة ، وبشكل رتيب بجوار رأس انسان مرهق يريد أن ينام .

أنها لا تنسى أبدا حين دعـا أحد أصدقائه على الغذاء ..

وجلس الثلاثة حول المائدة ، ثم قام فجأة متعللا بحجة واهية ، وأدركت بعد لحظات أنه يقف خلف الباب ينصت الى ما عساه يمكن أن يحدث ، أو يدور بينهما من كلام !

كان شكه هذا مقلقا لسكينة روحها ، بل أصبحت تحس أنها تعيش معه فى رعب دائم .. وشيئا فشيئا أتلفت غيرته أعصابها حتى انفجرت فى النهاية : تركت له البيت وصرخت لأمها .. « أريد الطلاق » .. ثم كانت جلستهم الصاخبة التى انتهت بذلك القرار الكئيب : أن يسافرا . ويقضيا عدة أيام فى هذا المصيف .

فهل يلاحقها ذلك الرعب هنا من جديد ؟

وتذكرت نظرة الغريب لها ، فغاص قلبها .. ما ذنبها هى فى هذه النظرة ؟ .. ثم ما الذى سيحدث حين يصلان الشاطىء ، ويدخلان الزحام ؟

ومرت بيدها على عينيها كأنما تزيل ضبابة تكاد تغشى بصرها . وكانا قد اقتربا من البحر .. وتناهى الى سمعها فجأة صوت الموج . ورأت انهما بدآ يدخلان منطقة زحام ، فهزت رأسها بشدة .

« سأعمل كل جهدى لأحافظ على شعوره .. سأمشى دون أن انظر الى أحد .. سأهبط الى البحر والاعب الموج دون ان تلتقى عيناى برجل . هذه الطبيعة الحلوة تكفى وحدها لأن أنظر اليها . يكفى ملمس الماء على جسدى . وانا لا أعرف العوم .. سأطلب منه أن يعلمنى ؛ وسنضحك .. سأجعله يضحك على ..

وتفتح وجهها مرة أخرى ، كأن خاطرا كئيبا واحدا لم يروعها منذ لحظة .. ورأت شابا وفتاة ، يسيران معا بين العشش

بخطوات مسرعة ، وراهنت فى نفسها انهما عريسان جديدان .. ورأت بعيدا ، هناك فى أقصى البحر ، نقطة صغيرة بيضاء تتأرجح ، وتراهنت مع نفسها مرة أخرى انها لابد مركب صيد .. يا لهم من شجعان ، هؤلاء الرجال ، وتصورت أن هناك عالما وراء هذا الأفق الأزرق البعيد ، وتذكرت ان الأرض كروية ، وان العالم رحيب واسع لا ينتهى .. تعبأت روحها دفعة واحدة بالاحساس بالحب . حب كبير يشمل كل شيء . وجرفها شعور بالحنين لأن تفجر احساسها هذا .. استدارت بوجهها اليه .

ـ حسين .. انت لسه برضه زعلان ؟

ـ ابدا .. حازعل من ايه ؟

قالها بلهجة أدركت معها على الفور أنه لم ينس بعد .. توقفت عن المسير . توقف هو الآخر . أمسكت بيده وعادت تقول ووجهها الحلو الصغير ينطق بالضراعة :

ـ انس بقى يا حسين .. اللى فات مات .. عشان خاطرى ..

كانت نظراته مركزة فى عينيها ، كأنما كل همه فى هذا العالم أن يسبر أغوار احساسها .. أهى حقا صادقة فيما تقول ؟ .. انه يريد اليقين . وبدت تلك الصغيرة الضارعة الحلوة ، التى لا يشغلها فى تلك اللحظة غير رغبتها فى ان تضحك للبحر وتفرح معه بالحياة فى المصيف ، بدت غامضة مغلقة ، جوانحها تنطوى على أشياء مبهمة تحيره بل وتعذبه .

قال وفكاه يرتعشان ، مركزا عينيه فى عينيها أكثر وأكثر ..

ـ نقدر نتكلم بصراحة ؟ ..

صراحــة ؟

ارتبكت وشــل تفكيرها .. كانت تريد أن تنهى الموضــوع . ولكن ها هو يريد أن يبدأه من جديد .

وأغمضت عينيها للحظة ، وقالت بلهجة تدعو للرثاء .. « صراحة ايه بس يا حسين .. عايزنى أقول لك ايه » ؟

وأربدت ملامحه . فى أعماقــه ذلك الشىء الأســود يأكل قلبه ، شىء أشبه بالنمل الأســود يرعى فى جوفه ، ويجعله دائما يتساءل فى قلق .. أكان من حقك أن تتزوج بنتا صغيرة وجميلة ؟

ما يدريك أنك من الأزواج المخدوعين !

وانفجــر .

ــ تقدرى تقوليلى طلبت الطــلاق ليه ؟ ! .. هه ؟ ! ..

قالت وقد شحب وجهها فبدت كالشهيدة ، كمن تريد أن تحمــل نفسها ذنوب العــالم ، لتحصــل بعد ذلك على الخلاص .

ــ غلطت يا حسين .. حقك على .. نبتدى من جديد .

ارتسمت على ركن فمه ابتسامة سخرية ؛ ووســع ما بين قدميه كأنما يثبتهما جيدا فى الأرض الرمليــة ، وقــال بلهجــة قاطعــة :

ــ انا شايف نصفى القديم أول !

أطرقت فى تعاسة .. قالت موافقة :

ــ نصفيه !

ــ تقدرى تقوليلى .. ايه علاقتــك بصلاح ابن خالتك ؟ !

وكما لو انه ألقى على رأســها بقنبلة .. فتراجعت مرتعبة

الى الوراء خطوتين وقد دوى انفجار وطاش فى رأسها . صرخت .. « أنت برضه اللى فيك لسه فيك .. مش عايز تصدق أبدا » .. واحست بالهوان .. وانفجرت تبكى .. « انا مش قلتلك قبل كده على كل حاجة » ! ..

وكمن التقط خيطا كان ضائعا منه ، فتشبث به بوحشية حتى لا يضيع منه .

ـ ايه هى الحاجة اللى قولتيها لى ؟ !

وضربت قدمها فى الرمل « ان مفيش أى حاجة .. ده ابن خالتى يا حسين .. ومتربية معاه من صغرى .. متربيين مع بعض لحد ما كبرنا » !

وارتعش ركن فمه بسخرية مريرة ..

ـ لحد ما كبرتم ؟ ! هه ؟ .. وبرضه مش عايزة تكلمنى بصراحة .

وبأحزان العالم كله .. « عايزنى أقول ايه بالضبط .. فهمنى .. انا مش فاهمة حاجة خالص » !

وجذب نفسا عميقا من صدره ، ونراجع برقبته ورأسه قليلا الى الوراء ، كمن يتهيأ لأن يقذفها بقنبلة أخرى .. وزم عينيه ليرقب جيدا وقع ما سيقوله عليها .

ـ أنت عارفه انه هنا ؟ !

ـ مين ؟ !

ـ حضرته .. صلاح ابن خالتك !

قالت وهى تبسط كفيها بدهشة واستغراب ، وخوف أيضا !

ـ لا ما أعرفش طبعا !

وارتعش فكاه ..

ـ لا تعرفى .. أنـا مش مغفل .. وانت اللى قلتيله اننـا جايين هنـا .

جحظت عيناها فى ذهول .. ولم تنطق بحرف . احسـت ببقية حماسـها للأشياء تنهار وتتداعى .. ونظرت اليه طويـلا وعلى وجهها الشاحب الصغير تموجت كل المعـانى وتعاقبت : الاحتقار .. الاحساس بالغثيان .. ثم التعاسـة واليأس اللذان لا حد لهما !

أحقا هذا الذى يحدث ؟ !

ربما .. ربما جـاء صـلاح فعلا .. احضرته الصـدفة الساخرة الى راس البر !

وكما تصل المهزلة أحيانا بالانسان الى قمتها فيندفع ضاحكا بتعاسـة على الموقف ، ارتعشت شفتاها بابتسامة مسكينة وشبه غشاوة تغطى عينيها !

وصرخ .. « قولى انك طلبت الطـلاق علشانه .. أنـا ما عندبش مانع .. بس تقولى الحقيقة » .. وهـدأ صـوته قليلا فبدأ رغم ما فيه من رنة رجاء ؛ أشـبه بالفحيح .. « ليه مش عايزة تقولى الحقيقة وتريحينى .. ليه » ؟ !

وبرقت عيناه بابتسامة وحشـية ؛ واقترب منها خطوة ؛ فارتدت مفزوعة الى الوراء خطوات .. لو تقدم منهـا خطوة واحدة ، فسـوف تصرخ ، وعبر بها خاطر مخيف ، أنه قـد جاء بها الى هنا لينفرد بها ويقتلها ، ويتخلص منها .. ربما او نزلت معه البحر لاغرقهـا دون أن يشـعر أحد . وخيل لها أن صوت

الموج يعلو ويعلو من ورائها ، وتمثل لها البحر أشبه بفم وحش مفتوح . وأمواجه أنياب فى انتظار أن يلتهمها .

وتملكتها قشعريرة خوف .. ونقلت عينيها ، بين البحر وبينه ، كان البريق الوحشى لايزال يطل من عينيه .. وعبر بها خاطر مروع .. انها لم تر وجه قاتل أبدا .. وها هى تراه !

ودق قلبها بسرعة .. كانت أمواج البحر تلطم فى بعضها وتزمجر من ورائها ! .. وهو .. واقف أمامها ، برقبته ورأسه ممدودة نحوها .

ـ قوليلى الحقيقة باقول لك !

وخطا نحوها خطوة .. قفزت من الرعب واستدارت تجرى فى اتجاه البحر .. كان عاليا يزمجر .

شهقت وأغمضت عينيها لبرهة ..

ارتدت مذعورة تجرى فى اتجاه آخر .. احست بوقع قدميه على الرمل يلاحقها ..

صرخت الصغيرة الجميلة من الرعب فى وجه الفضاء « .. ماما .. ماما .. يا ماما » ..

وكان صوت البحر يطغى على صرخاتها ، وضجة المصيفين وصياح الأطفال تشيع فى فضاء المصيف !

« ١٩٦٥ »

العاصفة

ضايفه وهو يمشى .. هدوء العاصفة .

غير انه منى النفس أن تكون مجرد لحظات ، تتجمع فيها السحب والرياح لتعود بعدها العاصفة وتزار من جديد .

وليت الأمطار أيضا تسقط .

كان يريد العالم فى ذلك اليوم بلا نظام ، على الأقل بغير نظامه المألوف . لكن العاصفة كانت قد سكنت . والغريب بمجرد أن نزل من القطار الى أرض الضاحية . عاد الهدوء فجأة ، عاد بشكل تسترخى معه الأعصاب والأنفاس .. وبدت أمامه « الضاحية » ببيوتها المنخفضة وكأنها فى عراء ..

الهمسة تكاد تسمع ، أى سر لابد أن يكشف .. وتأرجحت مقلتاه فى عينيه .. أيمكن أن يكشف سره أحد ؟ !

وللحظة أحس بالخطر ، غير أن الرغبة الجارفة أقوى .. تدفعه .. كالمجذوب كان يندفع ، بخطواته الكبيرة ، ورأسه الضخم ، يمتد منه الى الأمام ، كأنما يمشى اليها فى سرداب ،

لا يرى سواها .. جسدها .. لمعة عينيها .. صفى أسنانها وهى تضحك .. ضغطة يدها على يده فى آخر كل زيارة وتقول « وماتبقاش تغيب علينا كثير » .. وشكرى زوجها وصديقه واقف معهما يودعه هو الآخر .

اليوم يذهب الى البيت وشكرى ليس فيه .

شكرى الزوج والصديق .. مسافر .

منذ ساعتين فقط ، عرف عفوا بالخبر . كان فى مكتبه ، وحانت ساعة الخروج . وسمع العاصفة تعوى خارج المبنى ، من الصباح وهى تعوى . وفكر فى سهرة الليلة .. تذكر شكرى .. جلستهما فى المشرب التقليدى .. أو سهرة فى بيت الضاحية لو فضل شكرى . ومن زمن لم ير « نجوى » . هى الآن عاتبة عليه فى نفسها .

ورفع السماعة .. طلب شكرى فى عمله .. رد زميل « شكرى مسافر .. وحيرجع بعد يومين أو تلاته » .

لحظتها قفزت أمامه صورة نجوى . رآها بكل اشتهائه المكنون .. وحدها فى الضاحية .. ماذا لو ذهب .. والمفروض انه لا يعرف أن شكرى مسافر ؟ !

وخرج من مكتبه ، لاغيا فكرة القيلولة فى بيته .. وترك نفسه للعاصفة فى الشوارع .

هى الآن وحيدة . وهو وحيد . والرجل الذى ربط بينهما مسافر ! احقا لا لقاء لهما ولا كلام الا بحضوره ؟ ! لقد تعودها وتعودته ! أصبح هناك خيط خفى يربط بينهما ومع الأيام كان يقوى ، حتى أنه أحس فجأة وبالذات فى آخر مرة بالكراهية نحوها ، وأنه لابد من الهروب .. لقد أصبح احساسه بها مقرونا بالحزن وبالتعاسة !

بعد آخر سهرة لهم ـ الثلاثة ـ فى بيت الضاحيـة . القى بنفسه وحيدا فى الشـوارع ، متجها الى المحطه ليركب قطـار الليل ويعود الى بيته فى المدينـة . اكتسحه فجـأة شـعور بالضياع وبالوحدة . رأى قطة من قطط الليل فاخذها معه . وحين أضاء النور راى على وجهها بعض البثور . ومع البثور تعاسة ، ومن فمها رائحة خمر تفوح ..

وقارن بينه وبين شكرى ، ثمة حقد هائل انفجر فى نفسه : اية ميزة يستمتع بها هـذا الـ شكرى . ليمتلك الجسد الضاحك البض بين ذراعيـه كل ليلة بل وكل ساعة لو أراد ؟ ! بل هو الآن قطعـا محتويها . وهى بكل ذراتهـا مستسلمة له بعذوبة .. وباغـراء !!

وتحول الحقد من شـكرى اليها .. كم هى فى صميمهـا انثى بارعة ، وبالسليقة مدربة . لست بالنسـبة لها سـوى معجب عظيم تتغذى باعجابه ! .. ان اقصى ما تعطيـه لى نظرة أو ضغطة من كفها .. وهى الآن بكل جسـدها الوردى العـارى تتأوه بين ذراعيـه .. وانا ؟ ! مع قطـة على وجهها البثور ، ومن فمها تفوح رائحة خمر رخيصة !

ليلتها أحس بالقرف منهـا ومنه ومن نفسـه .. وصمم الا تطأ قدماه أرض الضاحيـة ! انها ـ يوما بعد يوم ـ تستعبده، رؤيتها أصبحت جزءا من برنامج حياته ..

والنتيجة ، ان علاقته بشكرى بدأت تتعقد وتدخل فى منطقة مخيفة وغريبة .. بل ومحزنة للغاية !

لا .. لابد أن يكرهها .. لتموت بذرة الحقد التى بـدأت تنمو فى صدره نحو صديقه .. اى مرارة أن تتحول الصـداقة الى حقد ؟ ! فلتخرج المرأة من بينهما ، ولتعد أيامهما الجميلة كما كانت .. أيام الصـداقة المصفاة . إيام ما قبل زواج شـكرى .

يتواعدان على الالتقاء فى مشربهما التقليدى . عالمهما الشوارع والمحلات العامة ، ويتحدثان عن عصر القلق .. هو يتساءل عن جدوى وجود الانسان فى هذا الوجود .. أما شكرى فيتكلم عن ضرورة أن يكون للانسان دور فى تحديد المصير ! ثم تزوج شكرى . ودخلت بينهما نجوى على هذا النحو الغريب .. كأنما كانت الضربة الحاسمة فى تحديد مصير صداقتهما !

ها هى العاصفة تجرفه الى المشرب التقليدى ، لكنه وحيد ، بدون صديقه ، وعواء العاصفة يتردد فى أذنيه « شكرى مسافر .. شكرى مسافر » .

بوضوح ، كان يحس بقبضة الشهوة تضغط على الجزء الأسفل من بطنه ، وشيئا فشيئا ، كانت النوبة تشتعل ، نوبة الدوار الغريبة التى تتملكه حين تغزوه الرغبة فى الخلاص بالانتحار أو فقدان الذات فيصبح الجنس هو الاعلان أو الضمان الوحيد للبقاء والاستمرار .. ان يغرق فى صوتها .. وفى جسدها ..

« وما تبقاش تغيب علينا كتير » . لابد انها تساءلت فى نفسها .. فترة القطيعة ، لم غاب كل هذه المدة ؟ ! لو ذهب اليوم ، ستفرح بالتأكيد لرؤيته ، وستسأله على الفور ، لم كانت كل هذه الغيبة . وربما سترتبك قليلا لأن شكرى غير موجود .. ولكن .. الى متى لابد من شكرى ؟ !

مرة واحدة بلا شكرى .. ونصف ساعة بالقطار ويكون هناك .. والناس لاهون بالعاصفة ، والمكنون ينفجر .. مرة فى العمر ينفجر !! وشرب كأسا ، وطلب ثان ليؤكد فى نفسه القرار !!

كان قد اتخذ جلسته خلف النافذة ، وراح ينظر الى

الشوارع من خلال الزجاج .. « شكرى مسافر .. شكرى مسافر » والرياح تعوى وتجرف أمامها كل ما فى الشوارع .. والناس يجرون مهرولين كأنما تطاردهم سياط ، مغلقين عيونهم كيلا يدخلها التراب !

كل العيون اليوم مغلقة ، ومنطق الحياة العادى لا وجود له .. صرخة فى أعماقه .. قم واذهب .. ومن يدريك أنها الآن لا تفكر فيك .. الجميلة النابضة .. وحدها فى الضاحية وحولها العاصفة .. وانتما وحدكما .. واى اصوات أو لهاث أو حتى صرخات مقاومة فى البداية سيصرخ فيها : أريدك .. ادغدغ ذراتك .. أغرق فيك . اغرق واغرق . وكل الأصوات .. كل الحشرجات . حشرجات الاستسلام .. ما قبل الغرق الجميل .. العاصفة فى الخارج وفى الداخل عاصفة .. وهم بالنهوض .. ولكن .. هل حقا شكرى مسافر ؟ ! أليس من الجائز أن يكون فى البيت ؟ ! كيف يعرف ؟ ! وومض فى رأسه الخاطر .. فليتأكد .. سيطلبه فى التليفون وسيغير من صوته .. وأدار الرقم ، أنها هى التى ترد .. وحين سألت من الذى يتكلم : قال بصوته الغريب الأجش : صديق لشكرى جاء من الاسكندرية ، ويريد أن يراه ! قالت بصوت رقيق آسف : آه شكرى مسافر .. من يومين فى الاسكندرية ! وضع السماعة . كانت أنفاسه تتهدج . واشتدت القبضة على الجزء الأسفل من بطنة . استعرت النوبة فى أعماقه . هى الآن وحدها . هناك .. فى البيت الواسع .. يكاد يكون مخبوءا وسط أشجار الحديقة الصغيرة .. والعاصفة تتلوى .. ربما هى الآن خائفة .. فيحتويها .. وكل ما يصدر من أصوات .. حتى ولو كانت أصوات المقاومة منها .. ستأكله العاصفة .. وأخيرا ستستسلم .. تتذكر رغبتها القديمة فيه ! .. نعم .. ياما التقت

عيونهما فى نظرة اهتز لها كل كيانه .. ولوجود الزوج كان يرتبك ويخفض بسرعة عينيه ؟ فلينفجر اليوم كل المكنون . ذات زيارة لهم رآها خارجة من الحمـام .. كاد يصطدم بها . كانت تلف رأسها بالفوطة ، وبعض خصـلات شـعرها مبلولة ومدلاة على وجهها .. والثوب الرقيق على جسدها : يفسر كل الخطوط والأجزاء .. شهقت فى خجل ، وجرت الى حجرتها .. حافية .

يوم واحد فى حجرتهـا ويموت . والعاصـفة تعوى .. فى الداخل والخارج تعوى .. محال هـذا الجسد أن يكون لرجل واحد .. وأى رجل .. هـذا المصفوط ، بساقيه النحيلتين كعودى البوص ، وأنفه المكور ، ونظـارته الطبية البيضـاء .. وانـا .. الرجل الجميل القوى .

وطلب كأسـا ثالثة .. جرعها مرة واحدة ، ثم خرج الى العاصـفة .. وركب القطـار : يتحـكم فى أنفاسـه وعينـاه تلمعـان !!

حين هبط من القطـار ، فوجىء بانتهـاء العاصفة : تسمر لحظـة . أحيانا يكون الصمت انذارا من الطبيعة لكى تراجـع خطتك ! .. ولكن لا .. ها هى الشـوارع لاتزال خالية ، وكأنما الناس يخشون الخروج حتى يستوثقوا من أن العاصـفة لن تعـود !

فجأة أحس برذاذ يسقط .. نظر الى السـماء الغائمة .. انها ستمطر .. وتتابع الرذاذ .. ولم يلبث أن انهمر .. ارتبك . وأسرع من خطواته .. وبحث بعينيه عن تاكسى .. قليل هو التاكسى فى مثل هـذه الضواحى .. لابد أن يجرى رافعـا كفيه كمظلة فوق رأسه .. كان المطر غزيرا . لابد أن يجرى بأسرع ما فى طاقته .. انه يغرق فى المطر .. يغرق ويغرق .. ويلهث ويلهث .. تعبت يداه فوق رأسـه .. هبطتا .. انهمر المطر فوق

رأســه .. نزلت السيول من شــعره على وجهه .. على عينيه ..
محال أن يستـمر هــكذا يجرى وسط المطر .. بعض الناس الذين
دهمهم المطر استظلوا بشرفات البيوت .. وهو يجرى .. إحس
بالمــاء البارد ينفذ من ثيابه الى جسده . اصابته رجفة . ووجد
كتفيه تنتفضان .. لم يعد الجرى شيئا باختياره .. لابد أن
يجرى ليطرد هــذه الرعشة من جسده .. البيت هنــاك ..
فى آخر الضاحية .. والشوارع . فى اطراف الضاحيــة لم ترصف
بعد .. لاتزال رملية .. أجمل ما كان يعجبه فى البيت أن الطريق
اليه مفروش بالرمال ! ما حال الرمال فى المطر ؟ !

واستمر يجرى .. يلهث ! ..

على نحو غريب كانت الرؤية تهتز فى عينيه .. خيوط المطر
أستار بعد أستار .. كالســهام تصفعه .. الشارع الرئيسى
الطويل ينتهى .. آن له أن ينحرف فى الشــوارع الرملية ..
اندفع حتى كاد ينكفىء .

انغرست قدماه فى الرمال المبلولة .. لابد أن ينزع قدميه
بسرعة وقوة .. المطر يشــتد .. الميــاه تدخل جســده ..
ازدادت الرجفة . يود لو يجرى ليقاوم .. انه ينزع قدميــه
بصعوبة من الرمل .. تعب فى ساقيه .. وانفاسه تتتابع ..
وغطى عينيه بيده ونظر الى الســماء .. معبأة لاتزال .. برق
وشرر .. السحب تنطح بعضــها وترعد . صــوت الرعــد فى
الضواحى رهيب مدوى . الى اين انت ذاهب .. لمــاذا انت
ذاهب . تعبت أنفاســك يا مسكين . ورأى طفلين يتعبــان تحت
المــاء ، ويتلقيان المطر فى ســعادة .. هو يذكر لعبته هذه تحت
المطر . يجرى ويضحك ويعطى فمه للسماء ويشرب !!

وهنت أنفاسه .. تباطأت خطواته .. تصلبت فى الرمــال

وقف تحت المطر يجيل بصره .. فى آخر الشارع كان البيت . أشجار الحديقة تغرق فى المطر . دقائق ويصل ، لكنه لم يعد قادرا ، سيظل هكذا واقفا .. يغرق .. نظر اليه الطفلان فى عجب .. رجل يقف فى الرمل تحت المطر ولا يتحرك .. وهمسا لبعضهما .

لابد أنهما يقولان « المجنون اهه » .

ليكن .. مجنون مجنون .

واندفع على الباب .. وراح يدق ويدق .. ولكن لا مجيب .

ـ افتح يا شكرى .. افتحى يا نجوى ..

ولا جواب غير أصوات الرعد والمطر !!

سقط رأسه على صدره للحظات .. ثم استدار عن الباب .. ينزع خطواته من الرمل ، والمطر لا يزال ، ليركب القطار .. ويختبىء . يختبىء من نفسه !

« ١٩٦٨ »

النفاحــــة

هو : أجمل يوم رايتـك فيه . طوال السـبع سـنوات التى عرفتك فيها .. لم أرك جميلة مثل اليوم .

هى : (فرحة ومندهشة) غريبـة . مع انى كنت خجلانة من منظرى ، وانا آتية اليك هكذا ..

هو : بالعكس .. هذا هو بالتحديد سر جمالك .. انك لم تمرى على « الكوافير » قبل مجيئك .. ليس فيك شىء واحد مرسوم ، أو محفف .. حتى الحـذاء الخفيف البسيط فى قدميك ، وبلا جورب .. لو كنت رايتك بهذا الشـكل مرة ، لطلبت منك تثبيت هذه الصـورة .. الا تغيريها أبدا .. على الأقل بالنسبة لى ..

هى : (بنشوة وسعادة) ليس الى هـذه الدرجة .

هو : واكثر .. صدقينى .. (ينظر فى عينيها بابتسامة ، متأملا ملامحها بشقاوة) الآن ، افكر أن أصف لك جمالك .. ولكن (يرفع كفـه كراية استسلام) للأسـف . انتهت اللعبة .. لم يعد من حقى .

هى : (بعتاب) تعتبرها لعبة ؟ .. ما بيننا .. كان لعبة ؟ !

هو : (مستدركا بسرعة) من باب المداعبة .. ليس أكثر (يتنهد) بالعكس .. أنا معتز جدا بالأيام التى كانت بيننا . انها بمثابة الرصيد .. رصيد الماضى .. رصيد طيب .. لا يصح أن ينفد بسرعة .

هى : الماضى ؟ . ! لماذا تدخل علاقتنا فى حكم الماضى ؟ ! هل لأنى سأتزوج ، تنتهى علاقتنا .. صداقتنا ؟ ! .. نحن تحدثنا كثيرا فى هذا الموضوع .

هو : (مؤكدا بحركة من راسه) لم أقل : انها ستنتهى . انما بالتأكيد ستتحدد أكثر .. ولنتكلم بواقعية أكثر .. كنا نعرف أن هذا اليوم قادم . وأنا فرحان جدا من أجلك . انك ستتزوجين انسانا تحبينه . غير أن هذا لا يمنع مما أقوله .

هى : ما هو ؟

هو : مهما كان حبيبك . فهو قبل كل شىء رجل . رجل مصرى وفى الغالب حمش ودماؤه شرقية حارة . من النوع الذى يغلى بسرعة (يتصنع الخوف) أحسن لى أن الزم حدودى (يضحكان) .. والا ..

هى : (نافية بثقة) أبدا .. حازم ليس من هذا النوع . متحرر جدا فى أفكاره .. من أول يوم ، وهو محترم لصداقاتى وارتباطاتى .

هو : (يضحك فجأة كأنما حبكته النكتة) من أول يوم فى الحب . خلى بالك . وليس من أول يوم فى الزواج ..

هى : لست أفهم ..

هو : فرق كبير بين اليومين . (يضحك مرة أخرى) اسمعى . سأعطيك بعض اسرارى . من اول يوم فى الحب نبدء نحن الرجال متحررين جداً ، متفتحين جداً . واسعى الصدور جدا .. فى شكل فرسان الحرية . الداعين لانطلاق المراة . اما من اول يوم تدخل فيه بيتى . فقد اصبحت فى حيازتى بوضع اليد . اصبحت زوجتى .. (تى) .. تعرفين معنى (تى) هذه .. فيها ضمير الملكية ، انها تصبح ملكى أنا وحدى . لا شريك لى فيها . (يبسط كفيه بحركة تراجيدية ساخرة) وهكذا ينتهى عهد التحرر الفكرى بالنسبة للمرأة مع أول يوم فى الزواج .

هى : (معترضة بشدة) لا .. ليس هكذا بشكل مطلق . ما معنى (لا شريك للرجل فى المراة) ؟ من اى ناحية ؟ هى ناحية واحدة فقط . أصبح ملك زوجى . انا كأنثى له وحده . أما بقية ما امتلك ، فهو ملكى إنا . لا شريك لأحد لى فيه .. اتصرف فيه باختيارى ، بأحاسيسى ومشاعرى .

هو : لم يدخل الرجل عندنا بعد ، هذا العصر الذهبى .. مازال الرجل منا يحاول أن يوسع من رقعة ملكيته .. ويزيد من عدد أتباعه :

بقايا العصر العبودى ، والاقطاعى والراسمالى .. الذى ساد العالم كله .

هى : (تهز كفها بثقة) من يخضع ، يستحق العبودية .

هو : موافق بشدة . هذا هو المبدأ (يضحك) معركة . الحياة كلها معركة . حتى الزواج . لكنه معركة ممتعة ومثيرة : الى اى حد يستطيع الواحد منهما أن يوقف

الآخر عند حده .. أو .. الى أى مدى يجب أن يتحررا من بعضهما .. رغم الارتباط الأبدى . هذا هو امتحان الحب الحقيقى .

هى : (ضاحكة) انت هكذا تخيفنى من الزواج . كنت فى أول الأمر تشجعنى .

هو : (مسارعا مثبتا عينيه فى عينيها بود) اسمعى . لو أن لى كلمة واحدة أقولها لك ، بمناسبة زواجك . فهى : « العطاء » .. رغم كل شىء أعط . اعطه بكل ما تملكين من قوة .. وصدق .. وشباب . ودماء . لا تبخلى عليه بلحظة صدق فى مشاعرك . لا تقتصدى فى اعطائه كل ما يمكن أن يسعده .. ما دمت قد اخترته من بين كل الملايين من البشر ، هبيه كل ما تقدرين عليه ، بالحب الصافى يزدهر الانسان ويزهر ويترعرع . بالحب يخضر عوده .. لا تخافى أبدا من العطاء .. الكرم فى الحب ليس مهانة ، أنا واثق انه سيبادلك العطاء . سيحس من خلالك بجمال العطاء . وسيعطيك لكى يضمن استمرار الأخذ منك . العطاء هو أول درس فى مدرسة الحب وأصعب درس فى نفس الوقت .

هى : (تتنهد وتسرح)ربنا يوفقنا .

هو : لابد سيوفقك . أنا واثق منك . وستنجحين بإرادتك . على فكرة . أنا سعيد بك . وفخور أيضا .

هى : أخجلتم تواضعنا .

هو : (بجدية) أنا أقول الحقيقة . لو كل بنات جيلك هكذا مثلك . بتفتحك . وصفائك ووعيك . تصبح الحياة فى بلادنا أكثر اشراقا .. وبهجة ، و ..

هى : وانت . لو ان كل الرجال . كل الشباب مثلك . فى نبلك ونظافة مشاعرك . انا ايضا فخورة بك ..

هو : ليس الىحد الفخر .

هى : واكثر .. سبع سنوات . سـنة بعد سنة . يوما بعد يوم . كانت ثقتى بالرجال من خلالك تزداد ، وايمـانى بالحب يتعمق . ليس بالرجال وبالحب فقط . بالحيـاة كلهـا .

هو : (مغمغما مع نفسه) الحمد لله .

هى : أنا ما بدات اتصالح مع الحياة الا من يوم أن عرفتك .. من يوم أن رددت على أول رسالة بعثت اليك بها . أنـا فخورة بك فعلا .. وبصداقتنا .

هو : آه . ربما لا تعرفين كم كلفنى هـذا . انى ابقيت على التفاحة نضارتها وبكارتها من أجل أول آكل شرعى لها . لزوجك . كثيرا ما كانت الأصابع تتحرك منى لتمسـك بالتفاحة واقضم فيها .. آكلها . أقرقشها .. واستمتع بها . لكنى كنت أجمد الحركة فى عروقى . لابد أن ننجح فى التحدى وتستمر الصداقة . المثل العظيم . أنا سعيد لانى انتصرت على نفسى . سعيد لانى أقدمك هدية مصونة لزوجك المحترم (يضحك) يجب أن يدرك ويؤمن انه حقا محترم . بشهادتى . (ينهض من جلسته ليصلب عوده ، ويواصل لهجته الضاحكة) ممتع جدا بالنسـبة للرجـل المصرى ، بل ولكل رجل فى العالم أن يكون واثقا انه الرجل الأول . أنت مريم العذراء قبل أن يحصل الحمل الالهى . (يضحكان)

(يدخل إحد زملائه .. يلحظ جو الانسجام . يخرج فى

الحال تاركا له الجو ، يخرج بشكل كاريكاتيرى ضاحك ، ويغمز له بعينه) .

هو : (يعاود الجلوس) مبروك . عليك وعليه .

هى : الله يبارك فيك . ومبروك عليك أنت أيضا .

هو : (مؤمنا برأسه بحماس) ومبروك على أيضـا . (تتسع ابتسامته) اننى اضحك مع نفسى كلما تصورتك جالسة فى الكوشـة ، بطرحة العروسة التل البيضاء الهفهافة ، والتاج على جبينك ، والزغاريد من حولك . .

هى : وتضحك لمـاذا ؟ !

هو : أضحك بسعادة . وأنا أقارن منظرك هذا ، بمنظرك أول يوم رأيتك فيه . من سنوات . كتكوتة . الآن . أصبحت عروسة ، ناضجة . وسأحضر عرسك . سأمتلىء فى هذه الليلة بالفرح ، وسأنسى نفسى وسأندفـع ، وأقبلك من جبينك فوق التاج . هكذا أمام الجميع . . بحماقـة . وأمام زوجك .

هى : وماذا فى هذا . لن يحدث أى شىء . قبلة بريئة .

هو : رائع . دفاع عظيم . براءة . هذا هو حكمى أيضا على حماقتى . أما « هو » فلا أعرف ماذا سيكون حكمه .

هى : (مؤكدة) براءة أيضا . أنا واثقة . انه سيعجبك . لابد ستتعارفان يوما . . « حازم » انسان معقول جدا . وثابت وجاد . نحن اتفقنا معا على شىء أساسى . أن يكون كل منا واضحا للآخر . الى أقصى حدود الوضوح . الا يوجد موضوع فى الدنيا نخاف أو نتردد فى أن نتفاهم حوله . ونتكاشف فيه .

هو : (يزفر بابتسامة) جيل عظيم . أنبتت الشجرة . وهذا هو ما يجدد فى نفسي الأمل . كرجل سياسى قديم . لم يعد له دور . عفى عليه الزمن (يهز راسه بشرود) فيكم العزاء . الدور أصبح لكم . اياك أن تتركى السياسة .

هى : تتكلم كرجل عجوز ..

هو : أنا عجوز بالفعل . وهذا هو الدليل (يشير على الشعر الأبيض فى راسه) .

هى : (مسرعة) لا . لا . الشيب ليس هنا . الشيب هنا .. (تشير على قلبها) واذن فانت شاب (وضاحكة) انت الشباب ذاته .

هو : (متجاوبا) الله الله مدهش . مزيد من التشجيع أرجوك .

هى : أبدا . إنا أقول الحقيقة . أنا أدركت من أين ينبع شباب الانسان الحقيقى ، قوته الحقيقية : من عينيه (تنظر فى عينيه) وأنت قوتك .. وشبابك .. فى عينيك ..

هو : (بابتسامة ساخرة) اذن فهو شباب متعب . هاتان العينان المرهقتان . أحيانا تتعبان الى حد أن تغيم أمامهما الرؤى.

هى : وأحيانا يطل منهما البريق (تضحك) وعلى كل حال فهذه رحمة بنا . البريق المستمر سيكون له ضحايا كثيرة .. حاسب من فضلك .

(يضحكان . فترة صمت . تلتقى عيناهما ، تبتسم وتخفض عينها فى حياء) .

هو : (باسطا ذراعه بشكل تمثيلى مرح) اذهبى . فأنت مباركة .

هى : (بنفس الشـكل التمثيلى) لا تذهب ، فانت صـديقى العزيز الأبدى .

هو : اشكرك ..

(ضحكة خفيفة . ثم صمت مفاجىء . يسرح هو . تتململ . تنظر فى ساعة يدها . تضع يدها على حقيبتها) .

هى : لا أريد أن أعطلك أكثر من هذا ..

هو : لم تعطلينى عن أى شىء .. الا اذا كنت أنت ..

هى : أبدا . قلت لهم فى البيت انى سأكون هنا .. وسأعود لهم على الغداء .

هو : عظيم . عظيم . (يعاوده الشرود . شىء ما يشغل باله . ينهض واقفا مرة أخرى) هناك موضوع أريد أن أتحدث فيه معك .. لابد هـذه المرة .. (تنظر اليـه بانتبـاه وفضول) لا أظن انى سأراك بعد هذه المرة ، قبل الزواج .

هى : نتركها للظروف . وبيننا التليفون .

هو : اذن آن الأوان . لم يعد من الممكن تأجيل الكلام فيه .

هى : (وقد اشتد فضولها) أى موضوع ؟

(يفتح درج مكتبه ويخرج مجموعة خطابات داخل مظروف كبير منتفخ ويضعه أمامها على المكتب) .

هو : رسائلك لى ..!

هى : (بدهشة) مالها .

هو : الم تفكرى فيها ؟ !

هى : فكرت طبعا .

هو : وانتهيت الى ؟ !

هى : الى لا شىء .. كل شىء سيظل فى مكانه (بجدية) تريد أنت أن تسترد رسائلك ؟

هو : (مرتبكا) أنا .. اطلاقا .. انما أفكر .. من أجلك أنت .. بالنسبة لرسائلى التى عندك . أخاف عليك منها .

هى : تخاف على من ماذا ؟ !

هو : هل ستعرضينها عليه ؟

هى : وماذا لو قرأها . ليس فيها ما يشين أو يسيىء . ومع هذا ، لا أريد أن أفتح معه موضوعا كهذا .. فى هـذه الأيام بالذات .. لا أريد ومضـة شـعاع تحجب بينى وبينه .. لا داعى على الاطلاق الآن هـذه الأيام .. ولكن ، مع الأيام ، قد تأتى اللحظة التى أجعله يقرأها فى هدوء .. وبلا انفعال .

هو : (ضاحكا) حين يكون الحب قد برد .. أقصد هذا ؟ !

هى : بالعكس .. حين يكون الحب قد تدعم .

هو : رائعة .. إنا واثق فى قدرتك على وزن الأمور .

هى : هى أوراق وسط أوراق .. أوراقى كلها سأخذها معى فى بيتى الجديد .. انما لن أخفيها ولكنى أيضا لن أظهرها .. سأترك كل شىء يمضى طبيعيا .. ثم .. مما أنا خائفة ؟ رسائلك مشرفة !

هو : (ضاحكا) أخشى الا تكون كلهـا . قد يكون فى بعضهـا حماقات (يتحسس فجأة فى الكلام) قبل أن تدخلى بوقت بسيط ، كنت أقلب فى خطاباتك بشكل سريع .. قلت فى

نفسي ربما (نسبة ١٪) تطلبهـا منك يا ولد بمناسـبة زواجها فلتتذكر ماذا كانت تكتبه لك .

هى : (بتشوق ولهفة) ماذا كنت أكتب ؟

هو : أشياء كثيرة . وجميلة . آخر رسالة وقفت عندها ، كنت تكلمينى فيها عن حبك للمشى فى الشـوارع بالليل .. وحيدة . قلت شجاعة . ورسالة أخرى تصفين لى فيها حياتك وسط منظمات الشباب . فى المعسكر الصيفى . وأخرى تقولين فيها رأيك فى مسرحية شاهدتها .. حلاق بغداد على ما أذكر .. كان من الممكن أن تصبحى ناقدة فنية خطيرة .

هى : (شبه صائحة بفرح) ياه .. تصـور .. نسيت فيما كنت أكتب لك .. كنت أكتب فى كل شىء .. ثمة طاقة غريبة كانت تدفعنى .. ما أجمل أن نتذكر .

هو : هذه هى عظمة الكتابة .. تخليد اللحظة .. تثبيتها ضد الفناء والنسـيان .. لو قرأت انت الآن بعض هـذه الرسائل .. ستشعرين بلحظات ممتعة وفريدة ..

هى : بالتأكيد .. بالتأكيد ..

هو : الآن أحاول أن أتذكر .. ما الذى كنت أنا أكتبه لك .. (وبلهجة من برق فى ذهنه خاطر جميل) جاءتنى فكرة .. ما رايك لو تبادلنا هـذه الرسائل .. مؤقتا .. تعطينى رسائلى لفترة محدودة .. اقرأها .. أعيشها .. كيف كنت أفكر منذ سبع سـنوات .. وانت أيضـا تأخذين رسائلك هـذه ، تقرأينها فى ليلة أو ليلتين ، قبل الزواج طبعا ، ثم ترديها لى .. وكأن شيئا لم يكن .

هى : موافقــة ..

هو : وأنا صاحب الاقتراح (يقرب رسائلها منها) تفضلى ..

هى : (تهز رأسها بالنفى) لا .. لن آخذها .. ان كنت انت تريد رسائلك لتقرأها فسأحضرها لك .. اما انا ، فلا .. أنا يسعدنى ان يكون معك دائما شىء منى .. اعد رسائلى الى الدرج كما كانت ، لو سمحت .

هو : (يعيد الخطابات الى الدرج) وأنا ايضــا لا اريد رسائلى . لا احب ان ندخل الآن منطقة ذكريات .. أجل .. ليس هــذا وقت بعث المــاضى . انت تبنين حيــاة جديدة .. قفى بقدمين ثابتتين .. كونى .. انت وهو .. مثل عمودى الهيكل .. واحملا السقف معا .. ولكن لا تأكلا من رغيف واحــد .. كل منكمــا له رغيفــه الذى يأكل منــه .. أتذكرين .. جبران العزيز ؟ !

هى : لا إنسى . أعيش به . سآخذه معى ضــمن أوراقى الى البيت الجديد .

هو : اما انا .. (يشرد بعينيه وينظر فى السقف) فمشروعى اليوم ركوب طائــرة والتنفس من على متن الفضــاء . ورؤية امنا الأرض .. من فوق .. انا ذاهب هــذا الشهر الى بغداد .. مدينــة السندباد . سأبدأ من الآن فى رحلة حول العالم لو أمكن .

هى : مستقبل عظيم وأعمــال أعظم واعظم . (تنهض واقفــة وتمسك بحقيبتها) .

هو : (يتناول كفها) شكرا .. كنت فتاة عظيمة .. وستكونين سيدة أعظم ..

هي : (ضاحكة وسعيدة) ياه .. هـذه الثقة أنا خائفة منها .

هو : لست خائفا عليك .. أنا واثق منك .. (يهز يدهـا) وحافظي على صحتك .

هي : (تضحك) الصحة خلاص .. عجزنا .. راحت علينا .

هو : لاتزال التفاحة ، التفاحة الالهية ، كما هي .. مبروك على حازم طعمهـا . ومبروك على أنا منظرها (يضحكـان) (تنظر في ساعة يدها) .

هي : جاء موعد الغداء .. مع اني لست جائعـة .. لكنهم في انتظـاري .

(يهز يدها مرة أخرى) مع السلامة ـ يوصلها الى الباب. يرقبها وهي تمضي . يعود بوجه باسم ، وخطوات هادئة . يقف بجوار المكتب في صمت وسـكون . يخرج حزمـة الرسائل من الدرج .. يضعها في كفـه .. يتأملهـا .. يبتسم ثم يعيدها الى الدرج . ويقفل عليها بالمفتـاح . يخبط فجأة على المكتب ، ويصيح بمرح ممزوج بأسى) .

هو : يا أرض السندباد . يا أرض السندباد .

(لحظة صمت ثقيلة) .

ووداعا تفاحتي الالهية ..

وداعا .. تفاحتي الالهية ..

(ويعاود الجلوس الى مكتبه صامتا) .

« ١٩٦٥ »

كوميديا فى أوتوبيس

رغم ان حكايتنا هذه بدات من اولها مليئة بالاثارة والمفاجآت الا ان أحدا من الواقفين أو الجالسين بالأتوبيس ، لم يخطر بباله على الاطلاق ، أن الأمر سيتطور ويتصاعد الى هذا الحد الصارخ فى الغرابة ؛ حين فوجئوا بالرجل . رجل الفضيلة يخلع ملابسه قطعة بعد قطعة ، متحديا كل من فى الأتوبيس ، ثم يصيح .. متحديا الجميع :

ـ أنا كمان حر ..

ويمضى فى خلع ملابسه قطعة بعد قطعة ؛ عملية « ستربتيز » مذهلة أمام خلطة هائلة من البشر المصريين ؛ وعلى الصباح وهم لايزالون يقولون : يا فتاح يا عليم ؟

والحكاية بدات هكذا ببساطة .

فى احدى المحطات الرئيسية .. كانت قد صعدت فتاة . كيف يمكن وصفها .. وبسرعة ؟

هل تعرفون شمس .. البارودى ؟ من منا لا يعرف أميرتنا

العربية السابقة ، ذات الشعر المنسدل على الجانبين ، والمفروق من الوسط ، والساقين الرائعتين ، وما فوق الساقين ـ وهذا هو بيت القصيد ـ أروع ، فالفستان ميكروجيب .. يكشف عن عظمة الصانع المبدع لحظة .. وعن همس الشيطان لحظة اخرى ..

الفارق بين فتاتنا والأميرة ان اميرتنا تخطر عادة فى عربة صالون ، أما الفتاة فمن راكبات الأتوبيس ، وأميرتنا تحمل فى يدها حقيبة رقيقة ودقيقة ومدندشة ، أما فتاة الأتوبيس فحقيبتها من ذلك النوع العملى الكبير الحجم ، والذى يعلق الى الكتف بما يوحى بأنها موظفة عصرية نشطة وغالبا فى احدى الهيئات او الشركات المفتوحة بحكم نوع عملها على بلاد العالم .

وجه الشبه الأكبر اذن هو فى « الميكروجيب » .. انما من المحال ان يقال ان فتاة الأتوبيس فقيرة الى الحد الذى رات معه أن توفر ثمن ربع متر من قماش الفستان ، لتشترى به ما هو أهم ، فلا أهم ـ فى رأى رجل الفضيلة ـ من ستر تلك المنطقة التى تعودت حواء ، أو عودناها على سترها منذ آلاف السنين .

فكيف يحدث هذا .. وفى أتوبيس ؟ !

كان حظ الفتاة حسنا اذ وهى تشق طريقها وسط الزحام ، عثرت على مقعد يخلو ، فأسرعت بخفة اليه وجلست . جلست فى سعادة ، انها انتصرت .. فلتت من جحيم الزحام . ستقطع الطريق الطويل جالسة مستريحة ، لا صلة لها بهذا العالم .. فلتسترح أكثر ، ولتسترخ فى جلستها ، وتتسلى برؤية الشارع ، والأفيشات ، والواجهات حتى تصل فى هدوء ! وحين استرخت بالفعل ممددة ساقيها بقدر ما تسمح به المسافة أمامها ، رأى الأفندى الواقف بجوارها حرف الفستان يتراجع

ويصعد أكثر مما هو صاعد . كاشفا عن مساحة اكبر ، وأسرعت رغما عنه ، انفاسه : من فرط العرى ، أم من فرط الجمال ؟ ! .. من هول الحرام ، أم من عظمة وسحر الحلال ؟؟ واختلس نظرة من حوله ، فرأى العيون وأقربها عيون ذلك الشاب النحيل الواقف بجواره تكاد تخرج من محاجرها لتنقض على اللحم العارى المشرب بورد الشباب وعلى الصباح ، وكأنما هو وجبة افطار شهية والفتاة غير شاعرة بأى شيء !

بشعور حار ، كأنما اللحم العارى هو لحمه ، ويجب أن يستره فورا ، اخرج منديلا من جيبه وفرده ثم بحركة سريعة خفيفة انحنى وغطى به المساحة العاربة ، ثم عاد الى وقفته في هدوء ، كأنما لم يفعل شيئا ، أو انه فعل ما لابد أن يفعل !

غير ان الفتاة كانت قد انتبهت منتفضه على الحركة وباحساس من أنها قد اهينت ، التقطت المندبل بأطراف أصابعها ، وبغضب رهيب القت بالمنديل من النافذة الى الشارع ، ثم لم تكلف نفسها حتى بالنظر لتعرف من يكون هذا الطفيلى السمج !

إحس الرجل وكأنما تلقى صفعة هائلة وبطريقة غير مباشرة ، تدفقت الدماء فى عروقه ، ورأى العيون التى رأت الحادث تنظر اليه مشدوهة ، خاصة ذلك الشاب النحيل ذو النظارة الطبية ، والذى راح يرمقه قائلا بعينيه اللامعتين الخبيثتين : هيه .. يا حامى حمى الحرمات ، ماذا انت فاعل ، بعد أن قذفت بمنديلك ألى الشارع ؟ ! الأفضل لك أن تبلع الاهانة وتحول نظرك عن المنظر المثير وتريح نفسك ، أو تنسحب وتنزل فورا من الأتوبيس ، وتدع الملك للمالك !!

غير أن المفاجأة الثانية كانت تحدث ، حين فوجيء الشاب ومن حوله بالرجل يخلع جاكتته ، ثم يفردها ، ثم ــ مرة

أخرى ــ ينحنى ويغطى بها المساحة العارية ، ويغطى الركبتين أيضـا .

احمر وجه الفتاة . لكنهـا بجهد هائل أمسكت أعصـابها ، قبضت على الجاكتة ، ثم ــ وبعنف بالغ ، ألقت بهـا على أرض الأتوبيس ، وواصلت النظر من النـافذة ، كأنما لم يحدث شيء على الاطلاق .

ارتج كيان الرجل . انحنى بسرعة على جاكتته ليلتقطها من على الأرض وينفض عنهـا التراب ، وفى نفس الوقت خرقت أذنه ضحكة مقهقهة سـاخرة ، ضحكة خيل اليه ان صاحبها يكاد يسقط من طوله من فرط القهقهة .. هو جاره الشاب ذو النظارة الطبية والذى كان ينظر الى ما يحـدث على انه أعظم نكتة ، وان شيئا كهذا لا يحـدث الا فى بلد مثل بلدنا ، بلد العجائب والمتناقضات .

صرح فيه الرجل وهو ينفض التراب عن جاكتته :

ــ بتضحك على ايه .. ده بدل ما تقف معـاى وتقول لها تستر نفسها .

انتقل الشاب فورا من الضحك الى الهجوم ، وقد بدا من عينيه انه سيتحول الى خصم خطير .

ــ وأنا أقول لها ليه ؟ ! بصفتى أيه أقول لها ؟ ! دى حرية شخصـية .

ــ حرية شخصية ؟ !

ــ طبعا .. مزاجهـا يا أخى .. ثم اذا كان ده تاعبك ، بص الناحية التانية !

ـ وحضرتك تاخد حريتك فى البص ؟ ! يا ناس حرام .. كده على جهنم .. جهنم الحمرا .

وجه الفتاة كان يرتعش ، لكنها كانت مصرة على تجاهل كل ما يحدث ناظرة عبر النافذة .. بترفع ، لكن اذنيها فى الحقيقة كانت مع المناقشة التى انفجرت حول « الحرية الشخصية » وارتباطها بالمجتمع وبالدنيا وبالآخرة وشظية من هنا وشظية من هناك ، حتى قارب الانفجار ذروته ، واذ رات الراى القائل بوجوب احترام حرية الانسان الشخصية ينتصر ، بقيادة الشاب النحيل ذى النظارة الطبية ، ارتسم على وجهها نوع من الرضا ، غير أن انفجارا آخر لم يلبث ان حدث ، حين فوجئت ، وفوجيء الجميع بالرجل يصيح غاضبا :

ـ كده ! ؟ طيب .. وانا كمان حر .

وراح وسط ذهول الواقفين والجالسين ، يخلع بنطلونه ، وفى ثوان ، كان قد خلعه ، ووضعه هو الآخر مع الجاكته على ذراعه .

ـ مش حرية ؟ ! انا كمان حر .

وبدا كأنما يستعرض ساقيه العاريتين الضخمتين المشعرتين ولباسه الفضفاض المهرول والواصل قرب ركبتيه .

بين عالم الضحك وعالم الجنون شعرة ! ورأى الشاب ذو النظارة هذا الذى يحدث ، واذا بالدهشة التى الجمته والجمت الجميع للحظة تتحول فجأة الى ضحكة ، ضحكة جماعية كبرى ، فالنكته فى رأيه بلغت ذروتها .. وراح وهو يتأمل منظر الرجل يضحك ويضحك ، حتى كادت الدموع تطفر من عينيه .. وحدث هرج ومرج فى الأتوبيس ، حتى ان السائق أوقف العربة وجاء هو الآخر يتفرج .. حتى الذين كانوا فى الدرجة الثانية

تركوا أماكنهم ، وهرعوا يزاحمون رجـالا ونساء وشبانا وبناتا .. يتفرجون على المنظر العجيب .

أما الفتـاة ، فقد أحست أنها دخلت مصيدة ، عالمـا من المجانين . وتولاها اذ لمحت سـاقى الرجل المشعرتين ولباسـه المهرول ، وكرشـه الكبير ، خوف داهم ؛ فانتفضت واقفة وراحت تدفع كل من أمامها ، لتصل الى الباب ، وتغادر الأتوبيس ..

على غير العادة ، ولأول مرة ، لم يأبـه أحـد بالميكروجيب النسائى . تحولت الأنظار كلها الى الميكرو الرجالى ، حتى الذين كانوا جالسـين فى الخلف تركوا مقـاعدهم وهرعوا يزاحمـون ليتفرجوا على المنظر المثير ، ورأى الشـاب ذو النظـارة الطبية أن الفاصل بين عالم الضحك وعالم الجنون مرهف ودقيق ، ومع ذلك ظل يضحـك ويضحـك مع الآخرين ، حتى اذا ما توقف الأتوبيس فى المحطـة .. وتوقفت أيضـا كل الضحـكات وان استمرت التعليقات .. ورأى الرجل الفتـاة تهبط ، ورأى فى نفس الوقت الشاب ذا النظارة الطبية يشق طريقه مسرعا الى الباب ، ليهبط هو الآخر .. خلفهـا !! هنا ، قفز الرجل عليه وأمسكه من جاكتته .

ــ تعال هنا .. رايح فين !!

غلى الدم فى عروق الشاب .. ضرب الرجل على يده بقوة .

ــ اوع ايـدك دى (ثم للسـائق بعصبيـة) ماتمشيش يا أوسطى من فضلك . دى محطتى .

صاح الرجل فى السائق .

ــ اوع تصدقه .. ده كداب .. توكل على الله يا أوسطى (ثم للشـاب وهو لايزال ممسـكا بجاكتتـه بقوة) لا يمـكن

حاسيبك تنزل فى المحطـة دى . آه تقلعنى بنطلونى ؛ وبعدين تنزل وراها . لا يمكن !

بين الكوميديا والمأساة خيط رفيع .. انفجر ذو النظـارة رغما عنه ضاحكا مقهقها .

ـ انا اللى قلعتك بنطلونك ؟

ـ مش حضرتك بتاع الحرية الشخصية ؛ قاعد تغنى على البنت من الصبح .. لكن ده بعدك .

واستماتت على جاكتته .. فجـأة . انفجر غيظ الشاب . صوب لكمة الى فك الرجل ، فازداد هذا استماتة على الجاكتة ، وهو يصرخ متوعدا . اندفع الركاب يحولون بينهما ؛ غير انهم فشـلوا فى ان يجعلوا الرجل يتخلى عن جاكتة الشاب خوفـا عليها من أن تتمزق .

فجأة راوا الأتوبيس يتحرك ، وفجـأة راوه إيضـا ينحرف عن اتجاهه الطبيعى ، ويأخذ طريقا آخر .

صاحوا جميعا عليه :

ـ رايح على فين يا أوسطى .. السكة كده غلط .

ولم يرد السائق . بل ظل منطلقا .

بعد دقائق قليلة وأمـام باب أقرب قسم للشرطة ، كان السـائق والكمسارى وبعض الركاب يهبطون ، ومعهم أفنـدى ضخم وسمين ، بدون جاكته ولا بنطلون ، وفى وجهـه كدمـة زرقاء .. وشـاب نحيل يرتدى نظـارة طبية لكن زجاجها ملىء بالشروخ .

واتجهوا جميعا ، الى ضابط القسم للتحقيق .

وبدأت قمة جديدة فى الكوميديا .

أم أنها تراجيديا من الأصـــل ، وأنا اغالط ، لأجـذبكم .. وأسليكم قليلا .. ثم بعد ذلك تفكرون على مهل ؟ !

« ١٩٧٦ »

على المقعد الرخامى

فى ليلة من ليـــالى الصيف . وكانت ليلة عيد ميـلادى ، خرجت وحدى لأتمشى فى احدى الحدائق المنتشرة على كورنيش النيل . كان الهواء رطبا ومنعشا ، والناس فى الشـــوارع كثيرون ، لكنى كنت احس وأنا أمشى بينهم انى وحيد ..

هبطت من الكورنيش الى ارض الحديقــة . وعقدت ذراعى خلف ظهرى ورحت أتمشى فى ممراتها على مهل .. كانت الأنوار فيها متناثرة خافتة ، والعتمة تسود الفضـــاء .. لم يكن هنـــاك الا نفر قليل جدا ، اثنان او ثلاثة على الأكثر ، متناثرين متباعدين ، يبدون فى الضـــوء الخافت كالأشباح .. ساعة يظهرون وســـاعة يختفون ..

حتى الأشجار كانت صغيرة ونحيلة ، تتمايل فى العتمــة بهدوء غامض مع نسيم الليل ..

كانت الدنيا من حولى ساكنة صامتة .. فقط أصـــوات كالهمهمات تأتى من بعيد .. وخيل لى اننى فى عالم ، والمدينــة كلها فى عالم آخر ، كان الصمت يطن فى أذنى ، واحسست أن

هناك فى الدنيـــا كائنات حية كثيرة غيرى تعيش مستوحدة فى هذا الليل ، لا يحس بها أحد ، لكنهـــا تشترك فى تلك الجوقة الضخمة التى تصنع هذا الصوت الغامض المرهوب .. صوت الليل !!

لا بأس أن أحتفل وحدى بعيد ميلادى ..

وقد ظللت طول النهار أدير أسماء أصـــدقائى وصديقاتى فى رأسى ، وابحث فيهم عن واحد أحتفل معه بعيد ميـــلادى ؛ لكنى لم أجد اسما واحدا يثير فى نفسى اى حماس .. حتى اسم « نبيلة » وقفت عنده هو الآخر كثيرا .. وتخيلت وجهها اللطيف المستطيل ، وعينيها الحلوتين الباسمتين ، برموشهما الطويلة ، لكنى لم البث أن هززت راسى بأسى .. لقد راحت من حياتى .. لمـــاذا .. ؟ .. لم أشأ أن أرهق نفسى للمرة العشرين أو الثلاثين ، بالبحث عن الجواب ..

وهبت من سطح النهر نسمة شديدة ، فمال شبح شجرة قريبة منى .. احسسـت برهبة ، وظللت وحدى ماشيا فى العتمة ، مطرقا رأسى .. !

ثقل على من جديد ، الاحساس بالوحـــدة .. لمـــاذا أظل هكذا وحيدا .. وفى ليلة مثل هذه ، ليلة عيد ميلادى ؟ النهر نفسه ليس وحيدا .. البيوت تطل عليه من جانب ، والحـــدائق من جانب .. ومن بعيد .. بعيد جدا ، كوبرى تعبر من فوقـــه العربات ، ومن تحته تتدافع الأمواج .. ليس من موجة وحدها أبدا فى هذا النهر الكبير .. !

فجأة ، وجدتنى أتوقف ، وأحملق فى العتمة ..

لمحت جسما صـــغيرا مكوما وراقـــدا أمـــامى فى الممر .. تجمدت فى مكانى ، ورحت أمعن النظر ..

انه كلب ..

وجدته يضرب فى الأرض بذيله ، ويمد راســه برقبته نحوى ، وينظر لى . التقت عيناه بعينى . كانت عيناه تبرقــان فى الظلمــة ..

خفت ..

فى مرة من المرات ، سافرت الى قريتنا ، فوصلتها بالليل . وكان لابد لكى أصل بيتى أن أقطع مسافة على الطريق الزراعى . وكنت أفرح بهذه المسافة القصيرة ، أحس فيها أننى انتقلت من المدينــة الى الريف فأشم الهواء واغسل به رئتى ونفسى أيضا . وأتأمل الحقول والشجر ، وأشم رائحة الزرع وأتسمع الصمت الذى يلف الكون .

غير انى فوجئت ليلتها بكلب يظهر فجأة أمامى فى الطريق .. لم أهتم .. ظللت ماشيا .. لكنى وجدته يقف فى عرض الطريق ، ويمنعنى من المرور . ولمــا حملقت فيه ، تبينت الشر فى عينيه .

كان ذئبــا ..

عدت بظهرى الى الوراء خطوة ، فتقدم نحوى خطوة .. خطوت نحوه خطوة ، فتراجع خطوة .. نفس الخطوة ..

لم ينقذنى منه ليلتها الا القدر . جاءت عربة لورى . كانت كشافات انوارها قوية ، وما أن أحس الذئب بالنور ، حتى قفز كالسهم واختفى وسط الحقول ، ورحت أعدو أنا الآخر جريا ، حتى وصلت بيتى ..

تذكرت كل هــذا فى لحظة وانا واقف فى ممر الحديقة المظلم ، والكلب ينظر لى بعينيه .. ويمد راســه نحوى ، ويضرب فى الأرض بذيله .

لمــاذا لا يكون ذئبا ؟ ! أو على الأقل كلبا مسعورا وشرسا ؟

لكننى سرعان ما راجعت نفسى « لا توجد ذئاب هنا » وحاولت أن أهدىء من روعى .. تابعت مسيرى فى اتجاه آخر .. !

كنت لا ازال خائفا من لمعة عينيه وهو ينظر لى فى العتمة ، نظرت خلفى لأطمئن ، فوجدته يمشى خلفى .

أسرعت دقات قلبى .. ما الذى ينويه هـذا الكلب ؟ لمـاذا لا يتركنى وحدى ؟

توقفت من جديد .. فتوقف هو الآخر .. وراح ينظر لى..

عاودتنى عيون الذئب .. تعالت دقات القلب .. لو تقدم منى خطوة واحـدة فأصـوب الى فكه ضربة مجنونة بمقدمـة حـذائى ..

استدرت .. وواصلت المسير ..

بعد خطوتين نظرت خلفى .. وجدته لايزال يمشى ورائى ..

صرخت .. « امش »

ومشى ..

تنفست الصعداء . لم يكن لدى أى استعداد لأن أعانى أى خوف من أى نوع فى مثل هـذه الليلة .. مشيت .. وعلى مسافة بعيدة جلست على أحد المقاعد الرخامية ..

رأيت الكلب فى العتمة يرقد .. ويمد رقبته على الأرض .. « ما الذى كان يريده منى هذا الكلب » ؟

لم تمر دقيقة ، حتى لمحت من بعيد ، شابا يسير على نفس الممر ، مقبلا فى اتجـاه الكلب .. ولم يكد يقترب منه ، حتى رأيت الكلب ينهض من رقدته ، ويقف له وسط الطريق ، ولمحت ذيله يضرب فى الأرض ..

توقف الشاب ..

ابتسمت .. سيحدث له بالضبط ما حدث لى .. لكنى فوجئت بالشاب يواصل سيره ، وحين اقترب من الكلب وجدته ينحنى عليه .

ـ هيه .. عايز ايه ..

وراح الكلب يهز له راسه ويمسح ذيله فى الأرض ..

جلس الشاب على حافة العشب ، وخرجت من فمه اصوات أشبه بالصفير .. رايت الكلب يدخل فى صدره ، فراح يمسح على رأسه ويقول له بود :

ـ لكن انت جاى منين ورايح على فين .. ؟ .. هه .. ؟ ! قاعد لوحدك ليه ؟

شب الكلب فجأة ، ووضع ساقيه الأماميتين على كتفيه .

ـ ها ها ها ...

ضحك الشاب ..

ـ انت باين عليك نبيه قوى .. طيب .. تعرف اللعبة دى ؟

ونهض واقفا ، فبدا طويلا نحيلا ، وخصلة من شعره ملقاة على جبهته ، ثم اخرج من جيبه منديلا وراح يدليه نحو الكلب . قفز الكلب نحو المنديل . أسرع الشاب فأبعده .. وبدات بينهما لعبة لطيفة ..

ـ تبقى جدع لو حصلته .. هه .. خد .. !

ومن جديد وثب الكلب نحو المنديل .. وانتابت الاثنين نوبة نشاط مرحة ، وراحا يلعبان معا ويجريان ..

أحسست بفرحة دافقة تسرى فى عروقى .. ها أنذا أتفرج فى ليلة عيد ميلادى على لعبة مسلية وجميلة ، وتمنيت لو قمت واشتركت معهما فى اللعبة ، لكننى ظللت جالسا فى مقعدى الرخامى . خيل لى أنى لو ذهبت ، فسيرانى الكلب وينظر لى نظرة عتاب .. وربما يتوقف عن اللعب أيضا ..

ظللت جالسا فى مكانى على المقعد أتفرج .. تمنيت لو تظل اللعبة دائرة بين الكلب والشاب حتى الصباح ..

وسمعت دقات لنش بخارى فى النهر يتجه الى بلاد مجهولة، التفت الى النهر . كان كل شىء فيه تلفه ظلمة الليل ..

نظرت من جديد ، فوجدت الشاب يمر بى بخطوات سريعة مرحة والكلب يثب خلفه ويتبعه .. ظللت أتبعهما بعينى ، الى أن غابا فى العتمة ..

أما أنا فقد بقيت جالسا وحدى ..

على المقعد الرخامى ..

« ١٩٦٦ »

جرح .. فى وجه المدينة

للحظ الجميل ـ أو هكذا بدا أول الأمر ـ كان الجو دافئـا ومنعشا وحبيبا الى القلب .. أى قلب !

والسعادة بالطبع مسألة نسبية . غير ان موجة عاتيـة من البرد كانت قـد اكتسحت المدينـة بأكملهـا ، حتى لم يعد لأهلها ـ بما فيهم اللصوص والحراس ـ الا ان يلتمسوا الدفء فى أى مكان له سقف وجدران !

وقد طالت هـذه الموجة اياما واياما ؛ حتى خيل للبعض من دارسى التاريخ أن عصر الجليد قد عـاد ! .. لكن القرن العشرين سرعان ما قال كلمته .

انتهت الموجة العاتية فجـأة ذات صباح ؛ وحل محلهـا هواء دافىء أزرق بكر ، وحينذاك حـدث على الفور رد الفعـل الطبيعى . غشى المدينـة نوع من الحماس ، واندفع الناس جميعا فى رغبة عارمة تصل الى حد الشبق يفتحون النوافذ والأبواب ويخرجون ليروا الحيـاة ، ويتغنوا بها ، مهمـا كان بؤسـهم وتعاستهم ، ولو للحظات !

غير أن « سوسن » لم تكن تعسة . العكس هو الصحيح ، وان كانت طبقة عميقة من الحزن باتت ترقد فى أعماقها ، فهى قد تصالحت معها على وجه ما .. باعتبار إن ذلك جزء من الماضى .. انهته بيدها .. ولن يعود !!

شاركت « سوسن » أهل المدينة فرحتهم بانتهاء الموجة ، حين فتحت الشرفة العالية ونظرت الى حركة الشارع وهتفت لنفسها : يا له من حظ جميل . اعتقد أن « صفاء » ستجىء فى موعدها ..

كلمتنى بالأمس فى التليفون .. أكدت الميعاد فى حالة انتهاء الموجة .. سيشجعها دفء الجو .

وربما كانت سوسن هى الوحيدة فى مدينتنا فى ذلك اليوم ، التى لم تكن متحمسة للخروج الى الحياة .. كانت تريد الحياة أن تدخل اليها ممثلة فى زيارة صفاء .. واحدة من صديقات العهد القديم .. بل هى الوحيدة من بينهن ، رغم ما اعترى هذه الصداقة من مرارة انتهت يوما بالقطيعة .. هذه الصداقة آن لها أن تعود !

أبدا لن تخاف على حياتها من صفاء !

منذ أن حصلت سوسن على الطلاق من محمود وتزوجت من كمال ـ وكان ذلك قبل موجة البرد العاتية بشهور ـ وهى مختبئة فى عش الحب معه .. ولا أحد من أهل المدينة ، حتى أصدق الأصدقاء ، يعرف مكان هذا العش .. ! وكان ذلك اتفاقهما وهى بين ذراعيه .. يومها قال كمال :

ـ فلنولد يا سوسن من جديد .. وبأصدقاء جدد ..

قالت سوسن وهى تخفى فزعا هب من أعماقها « لا .. ولا حتى أصدقاء .. لا قدامى ولا جدد .. انا لا أريد من هذا

العالم غيرك . وانت ؟ ! اتريد غيرى ؟ ! » .

ـ ما اريده .. قبلة .

ـ قبلة نسيان ماضينا .. كم تألمنا يا حبيبى .. كم اكره كل يوم مر بى قبل أن اعرفك !!

وبهذه القبلة التى اشعلت الحريق فى جسديهما المشتاقين فالتحما لاطفائه : انفق الحبيبان على اعتزال الماضى . فأمام قسوة التجربة الخطيرة التى اجتازها كل منهما (سوسن تركت زوجها وابنتها .. وكمال ترك زوجته وابنه) أمام قسوة هذه التجربة التى تحديا فيها سلطة المجتمع وعواطف الأبوة والأمومة : اندفعا نحو بعضيهما ملتحمين فى وحدة نفسية عارمة أفقدت احساس كل منهما بنفسه واذابته فى الآخر . وقد زاد من التحامهما تلك الموجة العاتية من البرد ، حتى تحول عشهما المختبىء فى قلب المدينة الى ما يشبه الجب المسحور فى روايات الف ليلة وليلة .

غير انه فى لحظة من لحظات هذه الوحدة ، وهى غارقة فى حضنه تكاد تدخل بكل كيانها داخل كيانه :

ـ كمال ..

همهم لها مبتسما بعينيه :

ـ لقد كلمت « صفاء » فى التليفون .. وستزورنى بعد غد !

هب من رقدته ، واتسعت المسافة بين عينيها وعينيه .

ـ هذا اخلال بالاتفاق .. تريدين اثارة الماضى ؟ !

أسرعت دقات قلبها فزعة .

ـ الماضى ؟ !

أى ماض يقصد ؟ .. هل عرف شيئا ؟ ! .. لا .. لا اظن .. انا اقرأ عينيه .. مستحيل .. لقد كان هو ختام هذا الماضى .. ختام التخبط المر من أجل البحث عن حبيب .. هذا التخبط الفظيع ، والذى يبدو لى الآن بشعا ، لا يدرى ، ولا يصح أن يدرى عنه شيئا .

اهى لعنة الماضى تثور بهذا الاتفاق مع « صفاء » لتأتى وتزورها فى بيتها . .فى مخبأ حبها ؟ ! .. لا .. ولا حتى صفاء .. لابد أن يبقى الماضى ميتا بكل أشباحه .. حتى الشبح الطيب « صفاء » .

ــ انا آسفة يا كمال .. سوف ألغى الميعاد .. مازال أمامنا وقت !

ونهضت من جواره على السرير قاصدة التليفون .. غير أنها توقفت على صوته .

ــ كيف اخذتما هذا الميعاد ؟

ــ بالتليفون !! انت تعرف صفاء . حدثتك عنها كثيرا . انا اثق فيها وأحبها . قلت لنفسى ، لتكن صفاء صديقتى الوحيدة . انت يا كمال تخرج الى عملك .. ترى الناس ، وتتحدث معهم ، يحكون لك وتحكى لهم .. أما انا ..

وكما لو أنها أدركت فجأة ، ذلك المعنى الخطير الذى يطل من كلماتها لأول مرة منذ أن تزوجا ، فاستدركت بسرعة .

ــ لا .. ولا حتى صفاء .. سألغى الميعاد الآن .

امتدت يدها الى التليفون ، غير أنه اعترض قائلا :

ــ لا .. لا داعى .. فلتأت صفاء . ما دامت هذه رغبتك .

وقبل رغبتك ، مادمت تثقين فيهـا ، أهلا وسهلا .. انا لا امانع أن تكون لك صديقة ! ..

حينذاك سطع وجهها بفرحة رآها كمال تلتمع فى عينيهـا وكل خلجات وجهها ..

ـ الحقيقة أن هـذا الموضـوع مهم .. يجب ان نتحدث فيه ، ننتهى منه أيضا !

قالت وقد عاودها الفزع الخفي ، وبكل طاقتها حاولت أن تتحكم فيه :

ـ أي موضوع ؟

ـ خوفنا من أصدقاء المـاضى بل ومن المـاضى كله ! لقد وجدتنى منذ أيام افكر : اى ماض هـذا الذى نخاف منه ؟ .. ماضيك مع زوجك .. وماضي مع زوجتى .. ما الذى يخيف فى هذا ؟ القصـة انتشرت ولاكها الناس جميعـا حتى ملوها .. ما الذى بقى حتى نخافه ؟

لا يا عزيزتى .. نحن اقوى من هذا المـاضى ، بدليل اننا واجهناه وتجاوزناه .. ذبل الجرح يا عزيزتى ومات .. ماذا بقى على موعد صفاء (ونظر فى ساعة يده) كلميها .. واكدى عليهـا المجيء .. اما انا فسأرتدى ملابسى وأخرج الى عملى .. وربمـا أعود قبل أن تنتهى من زيارتك ، واقضى معكما بعضا من الوقت هيا .. كلميها !

وربت بكفه على خدها ، ثم مضى نشطا الى حجرته ليرتدى ملابسه .. أما سوسن ، فقد بقيت واقفة بجوار التليفون وقد امتلأت روحها بخوف فظيع !!

كلمـة واحـدة تدور فى رأسها وتلف كاعصـار هائج ..

« المـاضى .. المـاضى » كم ترتعب من نطقه لهذه الكلمة !!

هو يقول : يجب ان نكون اقوى من المـاضي ، أحقـا هو قادر على هذا ؟ !

ندت عن صـدرها تنهدة حارة .. سـاخرة .. مسكينة « لو أن الانسان منا يولد على السعد والهناء من أول يوم » ! قلبى يحدثنى أن شيئا ما مروعا يمكن أن يحدث ! سـوف ألغى زيارة صفاء .. صفاء هى الجانب الحلو النقى .. من المـاضى .. سيثور الجانب الآخر .. من يدرى !! بشكل ما قد يثور .. أمينة .. وفاقى ، وكاميليا ، ومرفت .. وبقية الشلة . أخطرهن مرفت .. يكفى أن يعرف أنى كنت صـديقة لمرفت ، لتبدأ أول طوبة فى بيتنا تنهار ! انها الآن تبحث عنى .. أنا واثقة أنها تسأل الآن عن بيتى كل الناس !! .. الم تكن صديقتى ؟ !

وغاص قلبها ، أحست به يهبط مع أنفاسها فى بئر عميقة . هذه الفضيحة التى طلقت مرفت على اثرها ، وقرأها الناس بما فيهم كمال ! يومها أشار لها على الجريدة قائلا وقد انقلبت سحنته « حادث فظيع . أيمكن أن تصـل البشاعة الى هـذا الحد بالانسـان ؟ ! »

وهزت رأسها بشدة تطرد أشباحا تلاحقت فى رأسها !! كم كان حظهـا عاثرا .. المسكينـة .. ضبطها زوجهـا متلبسـة بخيانته .. طلقة المسدس أخطأت قلبها ، واستقرت فى ذراعها . فضيحة بشعة . كان يمكن أن تحدث لى ، وأنـا فى تخبطى فى البحث عن حبيب .. عن حبيبى !

وشهقت رغما عنها .

ـ الحمد لله .. الحمد لله .. المـاضى يجب ألا يثور ..

ولا حتى الجانب النقي الحلو منه . ورفعت سماعة التليفون ؛ وطلبت صفاء .

ـ صفاء .. أنا آسفة جدا جدا يا صفاء .. ظرف ضروري وطاريء اضطرني ..

ـ ......

ـ ماذا ؟ ! (وقفز الرعب من عينيها وتلفتت حولها لتطمئن أن كمال لا يزال في حجرته) عرفت ؟ ! في الطريق الى بيتي .. الآن ؟ ! مستحيل .. مستحيل يا صفاء . من أعطاها العنوان ؟ انت الوحيدة في هـذا العالم التي اعطيتها عنواني ..

وتهاوت يدها بسماعة التليفون وقاومت حتى لا تسقط من الدوار .. نعم .. لابد أن تتماسك .. وبسرعة .. لم تسمع شيئا . لم يحدث أي شيء . لو لمحها الآن كمال بطرف عينه من بعيد ؛ لقرأ كل ما في نفسها دون أن تنطق بحرف .. أنه متخصص في قراءة عينيها وأفكارها ، بداية الكارثة .

لو عرف طرفا من ماضيها قبل أن تلتقي به .. « آه .. يا طفلتي النقية الندية » هـذا هو نداؤه الحبيب لها باستمرار .. « أنا فعلا نقية .. وندية . أنا لم يعلق بجسمي ولا بروحي شيء ممن عرفتهم قبلك ، من نوبة الهستيريا يستيقظ الانسان ، خفيفا ، نقيا ، ناسيا كل شيء ، كانت نوبات هستيريا وأصابتني ذات يوم معك ، لكن بعدها كانت اليقظة الأبدية ؛ وعلى يديك ».. لا .. سأقاتل بوحشية . ستستمر اليقظة .. أبدا لن تضيع مني يا كمـال !

سمعت وقع أقدامه ؛ فبرقت عيناها بفكرة ، فكرة ذكرتها بأساليب تلك الحياة السرية والفوضوية التي كانت تحياها قبل أن تتعرف به ، انفلتت الى الحمـام ، وقفلت على نفسها الباب .

ـ سوسن .. أنا نازل يا حبيبتى .

ومن وراء باب الحمام ، وبكل حبها الذي تخاف عليه من الضياع .

ـ مع ألف سلامة يا حبيبى .

ـ كلمت صفاء ؟

بلا إبسط لجلجة ..

ـ نعم .. وفى الطريق الآن .

ـ جميل .. وربما أعود قبل أن تخرج .. سلام .

لم تخرج من الحمام ، الا بعد أن سمعته يقفل خلفه الباب. كانت انفاسها تتدافع ، ودقات قلبها تتوالى .. حمدا لله أنه خرج ولم يرها .. ماذا بالضبط سيكون الموقف بينها وبين مرفت ! ؟ .. باختصار ـ يجب أن تقطع أمامها مثل هذه الزيارة مرة أخرى . انتهى الماضى . انتهت أيام الشلة والهستيريا والجنون . لم يعد من شيء يجمعهما « اتركينى لحياتى يا مرفت .. أرجوك .. انسى ان لك صديقة اسمها سوسن . أنا لم .. أنا أقصد .. أنا حياتى بدأت ..

اما انت ..

وانتفضت فجأة على صوت الجرس يملأ رأسها ويملأ البيت . اندفعت الدماء فى عروقها . انفاسها تحولت الى لهاث .. خطت الى الباب . لا يصح أن يراها أحد واقفة ببابها . أمسكت مزلاج الباب .. جذبت نفسا عميقا .. يجب أن تتمالك أعصابها .. من الممكن أن تصل الى ما تريد بالحسنى ، وان لم تصل ..

ومرة اخرى رن الجرس .

وفتحت ..

كانت مرفت تقف بالباب .

الماضى كله يقف بالباب !!

ـ اهلا يا مرفت

ومدت لها يدها بالسلام .

كل حرف من كلماتها ، وكل مليمتر من حركتها كانت بحساب . لا صد ولا ترحاب . غير انها وجدت دموعها تتساقط منها بلا وعى ، وهى ترى مرفت تلقى بنفسها على صدرها . كل القديم بينهما فى لحظة واحدة ثار .

واشتبكا فى عناق .

ـ قلبت عليك المدينة ، سألت عنك امينة ، وفافى ، وكاميليا ، والتى لم اسألها عنك ، وجدت عندها العنوان . صفاء !

ـ قالت لى الآن . بالتليفون . كنت (وخطر لها خاطر تعلقت به ، ووجدت فيه ـ مؤقتا ـ بر الأمان) كانت ستزورنى الآن (ونظرت فى ساعتها) غير أن ظرفا طارئا حدث .. ويجب ان اخرج الآن .. زوجى كمال فى انتظارى ..

« تعالى » وأشارت لها بالدخول .

قالت مرفت وهى تطوى مدخل الشقة الجميل بنظرة :

ـ حسن أنى رأيتك .. يكفينى من هذه المرة اننى عرفت بيتك ، والأيام طويلة .

(وتنهدت) أنعرفين . بيتك جميل . وهـذه ألفازة .. آه .. من يوم أن عرفتك وانت تحبين الجمال . كمال لابد جميل .. سمعت انه جميل !

وضحكت سوسن ضحكة متهافتة ولم تعرف على أى جملة مما قالته ترد ! الجملة التى علقت بذهنها :

ـ يكفينى من هذه المرة أنى عرفت بيتك ، والأيام طويلة !

معنى هـذا انها تعتبر صداقتهما مستمرة ! وهـذا هو المستحيل .. فالتدخل فى صميم الموضوع .

ـ منذ متى خرجت من السجن يا مرفت ! ؟ ..

ـ انا لم أسجن . كانت أياما على ذمة التحقيق ، وتنازل محمود عن دعـواه . وحين خرجت طلقنى . العـالم كريه .. سيىء .. لم يعد لى فى العـالم الا أنت .. انت التى تفهميننى جيدا يا سوسن !

ـ تشربين شايا .. أم ..

ـ لا .. ولا أى شىء .. يكفينى أنى رأيتك ! بالأمس كنت أفكر فى الانتحار (وضحكت ضحكة مرهقة) ولكنى قلت : فلأؤجل الانتحار حتى تنتهى موجـة البرد الفظيعة .. وهـذا الصباح خرجت الى الشارع ، فاذا بالجو دافىء ولطيف .. والشـارع حتى الناس ، منظرهم فيه جميل .. ومرة أخرى وجدتنى أؤجل الانتحار ، وقلت لنفسى (وضحكت ضحكتها المسكينة مرة أخرى) سأنتحر بعد أن أرى صديقتى سوسن وأهنئها . ثم نهضت واقفة فى عصبيـة ، وعيناها تنتقـلان بين الفريجيدير الذى يتصـدر الأنتريه ، واللوحات التى تزين الجدران .. والستائر الحمراء الغامقة التى تعطى العين راحة وسلاما .

ـ يبدو أننى لن أنتحر يا سوسن .. بيتك هـذا جدد فى نفسى الأمل .. ! وعاودت الجلوس ! انت محظوظة .. فليزدك الله . كان من الممكن . وسكتت ! ..

رغم أن سوسن كانت تفهم ما تعنيه وسكتت عنه ، الا انها ارادت أن تستوثق من دخيلتها ..

ـ كان من الممكن ماذا .. ! ؟

ـ كان من الممكن أن يحدث لك ما حدث لى . .الم تكونى تفعلين ما فعلته ؟ !

المـاضى يهب .. ها هى تتكلم بصراحة .. لا .. فلأقفل الباب فى وجهها بشدة ومن الآن .

وبنبرة حاسمة متزنة :

وما الذى كنت أفعله ؟

ـ يا سوسن .. لا داعى لتقليب المـاضى . جميل منك أنك نسيت كل شىء . هـذا فى مصلحتى كما هو فى مصلحتك .. بيتك الجميل الهادىء هـذا لا يصح أن يدور فيه مثل هذا الكلام !

وجالت بعينيها مرة اخرى فى المكان .. وبدا أنهـا استنامت للجو وللظلال ..

ـ بيتك هذا ، هو الذى ربما يمنعنى من الانتحار !

ارتج على سوسن . كان الخناق من حولها يضيق ، وأمام عينيها صورة كمال ، لا تبارحها .. ماذا لو جاء الآن ورآها ، وعرف انها تصادقها .. صاحبة الفضيحة التى نشرتها الجرائد فى صـدر صفحاتها فى احد الأيـام ! هـه : ماذا تعنى هـذه الصداقة التى كانت معقودة بينهما .. قبل ان تعرفه ؟

ـ مرفت يا حبيبتى . أريد أن أقول لك شيئاً .. ولكن .. ولكنى لا أعرف .. كيف أقوله لك ؟

وتحمست مرفت للهجتها .. الصداقة ستعود ..

ـ وهل بيننا سر !! ؟ ..

ونهضت سوسن ودارت حول نفسها .

ـ لا أدرى كيف .. أنت .. ربما لا تعرفين أن كمال قرأ حادثتك مع ..

ـ كل الناس قرأوها .. وأنا مفترضة أن كمال قرأها قبلك !

ـ اذن ماذا سيقول حين يراك معى هنا .. فى بيته .. ويعرف أننا كنا صديقتين ؟ !

ـ سيقول ماذا ؟

ـ قولى أنت .

ـ لا .. قوليها أنت . كونى صريحة يا سوسن . لا تريدينني أن أدخل بيتك مرة أخرى .. أليس كذلك ؟

وطأطأت سوسن برأسها .

ـ أنت تعرفين مدى حبى لك يا مرفت . ولكن .. ها هو الوضع أمامك .. تصرفى كما تشائين !

على شفتى مرفت ارتسمت ابتسامة ساخرة متوحشة ، والتمع فى عينيها بريق رهيب ..

ـ حتى أنت يا سوسن .

ـ أنا لم أقل شيئا !

ـ لا .. قلت كل شيء ! لقد فكرت في هـذا وأنا في الطريق اليك .. كانت كل البيوت قد أقفلت أمامى .. قلت هـذا هو البيت الوحيد الباقى .. اذهب الى سوسن .. سوسن هى التى تقدر ظروفى .. سوسن كان يمكن ان يحدث لها ما حدث لى ، لولا الحظ خدمها وضحكت فجـأة ضحـكة سـاخرة مريرة ومخيفة ارتعبت لها اعماق سوسن) ولكن .. ها هى المعلمة .. معلمتى فى الخيانة . تطردنى من بيتها !

صدمت الكلمة أذن « سوسن » .. فتحفزت لكى تلطمها بكلمة توقفها عند حدها ؛ غير أن منظر تحفزها أثار مرفت . فاقتربت منها وفى عينيها بريق الجنون .

ـ أريد منك كلمـة واحـدة : نعم ، او لا . أنا .. قبل أن أعرفك . هل كنت قد خنت زوجى ؟ !

ـ ليس لى الآن شأن بهذا الكلام .. كل انسان مسئول عن نفسه .

فقهقهت مرفت فى سخرية .. قهقهة عالية هستيرية .

ـ تهربين الآن بنفسـك .. هه ؟ بعد أن خربت بيوتاً .. انت التى حرضت كل من عرفت على هدم حياتها ، ولم تفلت منك غير صفاء ، ولهـذا كنت تسخرين منهـا .. الآن تريدين صداقتها .. أنسيت موقفك منهـا والذى تبعناك جميعـا فيه « صفاء هذه لا تنفع فى شلتنا .. انها تحب زوجها .. العبيطة .. الآن هى صديقتك .. تعرف بيتك ونمرة تليفونك اما نحن .. اما أنا بعد أن فتحت لى الطريق .. بعد أن قضيت على تطردينى من بيتك .. هاهاهاها .. ولكن ما أبعد هـذا عن شاربك الذى

كنت أنتفه لك بالحـلاوة وأنت تختلسين المواعيد مع كل من كانوا قبل كمال .. المسكين المخدوع فيك ؟ ..

هنا انشق قلب سوسن عن صرخة وحشية بشعة : اخرسى يا حقيرة .. هـذا البيت لو اقتربت منه فسأقطع رجلك .. أتسمعين .. أنا لست خائفة منك .. ولا من تهديدك .. كل ما عندك قوليه .. أنا لا أخاف .. لا أخاف .. ولا حتى من كمال . أتفهمين ..

واشتعلت عيناها بغضب الوحوش .

ـ قلت لك اخرجى .. اخرجى .. اخرجى ..

●●●

خرجت مرفت من هنا ، والتفتت سوسن خلفها ، وأنفاسها، تلهث أثر حركة خيل اليها أنها سمعتها ، واذا بكمـال ، واقف بالباب . باب الصـالون .. بنفس ملابسه .. ! كيف حدث هذا ، كيف عاد ودخل دون أن تحس به .. لابد نسى شيئا ، وعاد ليأخذه .. ليس هذا هو المهم ..

كان واقفا متخشبا كتمثال .. صفرة الموتى دبت فيه .. لا حركة ولا كلمة .. فقط ينظر فى عينيها .. ومن نظراته ، وارتعاش فكيه .. أذركت أنه سمع كل شيء ..

انكشف السر ..

وتبارزت نظراتهمـا . صـليل صـمت عاصف يقترب .. عيناه تقولان ألف شيء .. أولها « يا خادعة » أبدا لست طفلتى النقية الندية » .

عيناها مع اللهاث المتتابع المتصاعد بجنون من صـدرها : هيا احسم موقفك .. قل ما تريد .

ونطق بوجه جامد صارم :

ـ أنا خارج ..

وأشاح بنظراته عنها ، واتجه نحو الباب .

طاش عقلها . قفزت واعترضت طريقه .

ـ ابق هنا .. لا تتحرك .. العذاب البطيء محال !

أيضا لم يتكلم .. عيناه فى عينيها تصعقان النور المرتعش فى نظراتها .

صرخت .

ـ قبل أن تخرج ، طلقنى .. ألم تعرف كل شيء !!

وارتسمت على ركن فمه ابتسامة وحش مطعون ..

ـ هكذا ببساطة ؟ أطلقك .. بعد هذه الخديعة الكبرى ؟ (وهز رأسه بسخرية ميتة) استريحى قليلا .. وفكرى فى نفسك .. ثم .. أطلقك .

وكوحش يهجم على وحش آخر :

ـ اسمع . لا انت . ولا اى انسان آخر فى هذا العالم ، سأمكنه من تعذيبى ! أتفهم ؟ قدمى من الآن على قدمك .. ننفصل .. يكفينى منذ أن تزوجتك .. لا .. بل منذ أن عرفتك لم أنظر الى رجل واحد .

وبابتسامة ساخرة مريرة ..

ـ الخداع مرة أخرى ..

صرخت فى وجهه :

ـ اخرس .. اياك أن تنطقها أمامى .. وان شئت محاسبتى فمن يوم أن عرفتك !

ـ من يوم أن عرفتك وأنت تخدعيننى .. نعم .. لماذا لم تقولى لى شيئا عن ماضيك هذا ؟ هه ؟ لماذا لم تقولى لى آن زواجنا بدأ بلعبة الخداع ؟

وصوبت عينيها فى عينيه :

ـ تعتبر حبنا كان خداعا ؟ من كان فينا يخدع الآخر ؟ هه !

تكلم يا من تريد أن تأخذ دور الطاهر النقى .. ألم تكن تعرف انى أخون زوجى وأنا بين أحضانك ، وقبل أن يتم الطلاق ؟ هه .. ألم تكن خائنا أنت الآخر لزوجتك وأنت بين أحضانى وقبل أن تطلقها .. !

ماذا تسمى كل هذا ؟ أنا الخائنة . وأنت الشريف .. القديس .. !!

انعقد لسانه وجحظت عيناه .

ـ ما فعلته معك قبل طلاقى لم يكن خيانة .. أليس كذلك؟! لكنها الحقيقة .. لقد بدأت حياتك معى بالخيانة . وكنت سعيدا بذلك .. لقد كنت أتخبط .. وأوصلنى التخبط اليك .. ألقيت بشبكتك البارعة فاستسلمت لك ودون حب . نعم .. هى الحقيقة .. الأيام الأولى ، لم يكن بينى وبينك حب . لكنى كنت أقول لنفسى : ربما .

وحين تحققت المعجزة ، وحدث الحب ـ سواء اعترفت به الآن أم لم تعترف ـ اعتبرت أن المعجزة معجزتك .. انك الرجل الوحيد الذى انقذنى .. (واقتربت منه أكثر وأكثر) هل نسيت ؟ ألم تكن تسهر مع زوجى ؟ ألم تأكل معه ، كما يقولون ، عيشا

وملحا .. وويسكى ايضا .. ومع هـذا كنت تختلس النظرات منى وهو بجانبك .. كنت تضغط على يدى بشدة فى كل سلام وهو يقف معنا يودعك !

وبعد هذا .. أنا الخادعة ..

أنا الخادعــة .. أيهـا القديس .. الشريف .. هيا .. طلقنى .. لقد حدث ما كنت أتصــوره مستحيلا .. لا مفر !!

كانت دماؤه قد هربت تماما منه .. الدوار لف رأســه .. ولا جملة استطاع أن يجدها لينطق بها .. دخلت حياته بشكل كاسح ، وها هى تخرج من حياته كعاصفة هائجة .. وكلماتها كاللطمات ؛ تلطم بها نفسها قبل أن تلطمه ، كما لو أنها الانتفاضة التى تسبق الرقاد الأخير .

نعم .. لا مفر ..

الطـلاق .. الهزيمة الكبرى .. زوجهـا .. زوجته .. الناس .. المدينة .. ولكن ..

أى خداع ؟

حدث هذا كله قبل أن أعرفها .

وبعد أن عرفتها .. ما يدرينى ؟

وصرخت : لن أحتمل أبدا صمتك معى لحظة .. هـذا السكين الذى تذبحنى به وتذبح نفسك .. محـال .. لم يعد أمامنا ســوى الانفصال . انظر الى عينيك فى المرآة .. هـذا الشك الذى بدأ يلعب ببريقهما سيصبح أبديا .. هو المـوت بالحياة .. وأنا لا أحتمل أبدا ، أبدا ..

وأجهشت بالبكاء .

أما كمال ، فقد انهار على نفسه . لم تحمله ساقاه . جلس على أقرب مقعد . لم يكن يستطيع .. الكلام .. ولا الحراك ..

واغمض عينيه ..

نعم .. الطلاق ..

مهما يكن من شيء .. فهو الطلاق .

واحس بدقات قلبه تضعف .. وانفاسه تتباطأ .. وفتح عينيه ورئتيه .. لكن ذلك لم يجد فى شيء ..

ـ سوسن ..

ونظرت اليه من خلال الدموع .

ـ ارتدى ملابسك ..

وحين استدارت ، انفتح جرح فى قلبه .. جرح سيظل طول العمر يبحث عن طبيب .

« ١٩٥٩ »

ما نملكه نحن الفقراء

لى طريقتى الخاصة من أجل أن أكون ثريا .. واسع الثراء..

طريقة تمكننى من امتلاك أكبر قدر من ثروات هـذا العالم وروائعه ومدهشاته !! .. وقد اكتشفت هـذه الطريقة لنفسى بعد أن ثبت وبشكل قاطع ، أنى فاشل فى عـالم المـال والأسواق، وأن جوادى دائمـا فى هـذا السباق خاسر .. وقـد أسر لى جوادى معزيا ومشجعا : لا عليك أيها الصديق .. ان كنت قد خسرت بى فى هـذا المجال ، فمن الممكن أن انطلق بك فى مجالات أخرى وتكسب . أجل . لا تحبس قدراتى فى مجال واحد ..

وصحت فلسفته ..

فقد بدات انطلق واحلق ، شاعرا بأنى امتلك واحدا من جياد الأساطير !! .. فى الصباح الباكر ننطلق الى الأطـراف لأرى قرص الشمس يبزغ بتؤدة وجلال من خلف الجبل ويغمر العالم وقلبى بأشعته الذهبية .. أهرع الى نهر النيل ، أجمل انهار العالم واغترف من موجه وأنسامه ، فأحس بالحيـاة تدب فى الصدر بعد الموات !

آخذ حبيبتي خلفي وانطلق بهـا الى غابة « الأورمان » ونجلس على ضفة بحيرة صغيرة تموج بزهرة اللوتس .. زهرتنا المصرية الفاتنة العتيدة !

أنام فى السادسة أو السابعة مساء ، واصحو فى منتصف الليل بتوقيت القاهرة، فاذا بالمدينة عالم آخر مختلف تماما عن عالم النهار .. فسيحة الشوارع .. مهدهدة للأعصـاب ، تسمع فيها حتى الهمسات .. وأركان وشواطىء لموسيقى البرنـامج الثاني والأحلام ، وتصيح حبيبتى بالنشوة ، لو كانت معى : ما أكثر ما فى هذه الحياة من أشياء رائعة الجمال !

ثم نتشنى ــ ان كنا فى آخر الشهر ــ نتناول سندويتشات من الفلافل ، وبعد دقائق مع انسام الليل تكون المعدة قد هضمتها، واضحك واقول لها : ان من أعظم وأروع ممتلكات الانسان ؛ أن يكون لديه معدة سليمة .

وقد علمنى جوادى ايضا ، حقيقة هامة من حقائق الملكية : ليس شرطا لكى تكون المـالك أن تكدس ممتلكاتك كلها فى بيتك أو فى خزانتك ، بل الأفضل والأجمل أن تكون موزعة على مساحات أوسع وأرحب من هذا العالم .

وقد كان من حظى إنا وحبيبتى أن سكنا فى أحد الأدوار العالية . ولذلك ؛ فيوم أن استقبلتها فى « بيت العمر » وبعد أن طفنا معا بأشيائنا وممتلكاتنا الصغيرة ، أخذتها الى الشرفـة ، وقلت لها وأنا أشير على قباب القلعة وجزء من قمة الجبل ، وسحابات مشعة وملتهبة بألوان الشفق : وهـذه أيضـا من ممتلكاتنا !

وقد انفعلت لحظتهـا حبيبتى (ولحسن الحظ انهـا هى

الأخرى رومانسية ! وقبلتني من خدي وقالت : وهـذا الخد أيضا لي .. فقبلتها من فمها وقلت : وهاتان الشفتان ملكي ..

وامتزجنا ..

أجـل يا جـوادي العزيز .. ما أكثر ما يمكن أن يمتلك الانسان في هذه الدنيا !!

وقد علت ضحكاتنا السـعيدة ذات ليلة ، حين فوجئنـا بممتلكاتنا الجميلة تزداد واحدة ، كنا نجلس في شرفتنا الصغيرة.. في الظلمة نرى بالقلب ملامحنا ، حين فوجئنا بنافذة أمامنا ـ كانت دائما مقفولة ـ تفتح وتضاء .

ومن الوهلة الأولى أدركنا أن ساكنين جديدين قد استأجرا هذه الشقة فوق السطح ، وأنهما « عروسة وعريس » ابتهج قلبانا .. ها قد أصبح المنظر أمامنا يضم حياة جديدة . فالسطح الذي كان فارغا دبت فيه الحياة ، بهجة اثنين يبدان بالحب والفرح طريقهما في الحيـاة .. كانت المسافة بين نافذتنا والسطح بعيدة لا تسمح بالتعارف ، فاكتفينا برؤية المنظر الجميل !

كان المشهد يزداد جمـالا يوما بعد يوم ، فقد رأيناهمـا يزرعان حديقة على السطح ويبنيان تكعيبة خضراء ، وحين هل الربيع ، ماج السطح أمامنا بمختلف ألوان الورود والزهور !

قلت لحبيبتي ونحن نستمتع بالمنظر الجميـل : وهـذه الحديقـة من ممتلكاتك أيضا .. هل يستطيع أحد أن يمنعنا من الاستمتاع بجمالها كل صباح !

قالت ضاحكة : دون أن ندفع مليما واحدا .. ليتنا نتعرف عليهما .. لنشكرهما !

كنت أعشق منظرهما ، وهما يرويان الزرع كل صباح ،

ويقطفان الزهور ويجريان خلف بعضهما ، ويتواثبان . وفى بعض الليالى ، كانا يدعوان أصدقاء وصديقات ، وتزدان التكعيبة فى الليل بأنوار حمراء وزرقاء وصفراء . ويموج السطح بأغان وضحكات تصلنا من على البعد ، فنحس بها دعوة لنا لتجديد الحب .. وللتفاؤل وللثقة بالنفس وبالحياة .

وذات ليلة ، انتفضت انا وحبيبتى على صرخات الم تمزق سكون الليل .. فتحنا النافذة ، نتسمع ملهوفين فى ظلام الليل البهيم .. كانت الصرخات تتوالى وتتصاعد ..

قالت : امراة تلد .. يارب تقوم بالسلامة .

وانكمشنا فى بعضينا ، كأنما نلتمس من بعضينا الأمان وقد شممنا من نوع الصرخات رائحة خطر يحوم حول المكان .

أجل .. فحين حل الصباح ، كانت الصرخات قد توقفت ، لتحل محلها أصوات ملتاعة أبشع .. هل يكن أن يصدق العقل البشرى ما يحدث ؟ كانت حبيبتى تدق على صدرها وتنشج .

لقد ماتت .. ماتت العروس وهى تلد .

فلتنطفىء شمس هذا العالم ..

وبالفعل .. حل الظلام على النهار ..

لم نر النافذة تفتح بعد ذلك . ويوما بعد يوم ، كانت أشجار الحديقة تجف والألوان تذبل هى الأخرى وتموت .

وأحسسنا أن أشياء جميلة فى نفسينا هى الأخرى تموت .. ضاعت منا أجمل الممتلكات .

واننا أصبحنا .. فقراء .

((١٩٦٦))

قــوة الجــذور

ــ معايا الفل والياسمين ...

طرق النداء سمعها وهى تسير .. بدا لها غريبا ، ومدهشا وله رنين . لكنه بدا فى نفس الوقت كخدعة ، او كأغنية جميلة قد تضلل القلب الوحيد . الحزين .

ــ يا عاشقين الفل والياسمين ..

كان المنـادى بائع زهور يدفع امامه عربـة خشبية صغيرة بعجلتين ، مليئة بأصص فخارية مزروعة بمختلف انواع الأزهار ، ما أن رأتها حتى تذكرت على الفور حوض زرع فى شرفة شقتها خاليا منذ شهور . كان منظر هذا الحوض الخالى يعمق الحزن فى قلبها لهذه الغيمة الســوداء الثقيلة التى هبطت على حياتها مع زوجها . أصبح كل منهما يحس ان حياتهما معا باتت كهـذا الحوض الخـالى . كان ذلك كئيبا ومروعا ، بعد أن كان مزروعا بالأشجار يفوح بالخضرة ويطرح الأزهار ، أصبح خاويا الا من الطين الذى جف وتشقق . لم يعد أحد يهتم أن يسقيه بعد أن خلع هو بيديه شجرة الفل التى كانت مزروعه فيه !

لقد فوجئت بذلك ذات يوم ، فأحست كأنه قطع شريانا من جسمها .. كأنه يرمى بها هى نفسها بعيدا عنه وعن البيت وعن حياته كلها ، قالت لحظتها بمزيج من الحزن والغضب : لماذا خلعتها ؟

ببساطة شديدة وكئيبة قال : لم يعد فيها فائدة . لم تعد تزهر . سأبحث عن شجرة جديدة أزرعها .

لم ترد بكلمة . لم تدافع عن شجرتها التى كانت .. قالت ى نفسها : ليست الشجرة فقط هى التى كانت . كل شىء كان . (وشدت نفسا من صدرها بتحد وكبرياء) وليكن بعد ذلك ما يكون .. لقد جفت شجرة حياتنا هى الأخرى .. فلنكن واقعيين !

كان الوقت صيفا .. وفاتت شهور الصيف دون أن يأتى بشجرة جديدة ، وبقى الحوض خاويا .. جافا .. تزداد الشقوق فيه وتتعمق فيتعمق فى روحها الحزن والتشاؤم والاكتئاب . غير انها كانت سرعان ما تطرح رأسها بشعرها الطويل الناعم إلى الخلف فى ثقة وتحدى : لم لا ؟ كل شىء يتغير . لا يصح أن يخيفنى ما يحدث . لا يصح أن نخدع انفسنا أكثر من هذا .. هو نفسه قالها مرة : « نحن لم نعد نحيا الا بقوة دفع الماضى . اما الحاضر .. فقد جفت شجرته » . كان شجاعا فقالها .. سأكون أشجع وأقولها : الطلاق . نضع الحقيقة فى عين الشمس . وفى عيون كل الناس . ولن أعبأ بأى شىء غير الصدق..أن نذهب بالموقف الى أبعد حد .. نتفق على الفراق.. ذلك هو الامتحان : اما أن يكون الفراق أبديا .. واما أن نتزوج من جديد .. وأزف اليه مرة أخرى ، بكل العشق القديم والجديد .

ــ يا عاشقين الفل والياسمين .

مين يشترى مين ؟!

ــ بكم شجرة الفل دى يا عم .

ــ ما تغلاش على الناس الطيبين .

لم تشأ ان تساومه على الثمن . شجرة فل مثل هذه مترعة بالزهور فى وقت مثل هـذا لا تقـاس قيمتها بالمـال . انهـا تسـاوى الكثير . أكثر مما يتصـور هو .. لو طلب منها أكثر مما معها ، فستطلب منه تأجيل الباقى . لا .. لا . النقود لن تكون المشكلة . المشكلة من يحملها ، ويذهب بها الى البيت . الى الشرفة .. ويزرعها .

غير ان القدر حين يعد ، يحقق وعده بيسر وسهولة . فلم يأت عصر ذلك اليوم ، حتى كان ذلك البستانى المتجول قد جـاء البيت بالشجرة فى الميعـاد الذى اتفقا عليه وزرعها فى الحوض . واختلج قلبها بالفرح وهى ترى لأول مرة بعد شهور طويلة ، الطين الجاف وقد ارتوى بالمـاء واختفت كل الشقوق ، وانتعش قلبها بالأمـل .

فى ذلك اليوم كان زوجهـا مسافرا .. سفرة قصيرة .. وحين عاد فى اليوم التالى ، راته يدخل صامتا ، جامد الوجه كالعادة . وتبادلا كلمـات السلام التقليدية .. ثم اتجه مباشرة الى حجرته الخاصـة ليقفلهـا عليه .. ويواصـل كل منهما حياة التفرد والاعتزال التى اتفقا عليها .. لكنها وجدت نفسها تقول له :

ــ فيه حاجة جديدة .. جبتها البيت .. من غير اذنك !

ــ حاجة ايه ؟

ـ ادخل البلكونة شوف .

من الوهلة الأولى ، خمن ما فعلتــه . وصح تخمينه .. فرح فى سره . فرح لأنــه مازال ـ رغم البعد ـ يفهم ما يدور بأفكارها .. وفرح ايضــا أنها لاتزال تحمــل فى قلبها ، حس الأمل .. وحب البيت والمحافظة على جماله .

« هذا البيت لا يهون على واحد منا أن يهدمه » . استيقظت عواطفه . قاوم بشدة . اكتفى بالابتسـام :

ـ شجرة جميلة فعلا . كويس انك جبتيهــا فلة . بدل الفلة اللى ماتت .

قالت : هى الحقيقة ما ماتتش .. انت اللى قطعتها !

هل تدينه ؟ لكن لهجتها كانت هادئة ، فيها الود اكثر مما فيها من عتاب .. ومع هذا فقد أحس بالاتهام .

قال : يعنى أنا اللى بأقطع .. وانت اللى بتزرعى ؟ !

بدا على وجهها الألم : لا .. مش قصدى .. دى صدفة .. وأنا ماشية فى الشارع ، لقيت راجل بيبيع فل وياسمين اشتريتها منه . منظر الحوض فاضى ومشقق ماكنتش طايقاه !

ـ وأنا كمان طبعا .

التقت عيونهما فى نظرة سريعة هربا منها الى الشجرة ..

كان بدء الربيع .. موسم تفجر الحياة .. ورأيا الشجرة الجديــدة المزروعــة تموج بعشرات الزهور .. رقيقــة ناعمــة بيضاء .. وعطرها يفوح .

انتعش الحنين فى قلبيهما . ربما شىء بسيط مثل هــذا يحرك الركود ويروى الشقوق .. غير أن خفقة الأمل هــذه كانت

مثل طائر غريب مر مسرعا فوق صحراء وسرعان ما خافيا وراءه لوحشة الصمت وجفاف الحياة !

يوما بعد يوم كانت الفلة تتراجع ومعناها يذوب .. وعاد الصمت والخواء يثقلان على البيت بشد مما كان . وسرعان ما أيقنت من خدعة الرموز .. « كثيرا ما تضللنا الرموز . لقد زرعت هذه الشجرة رمزا لانعاش الأمل . ولكن ها هى نفسها - مع فصل الخريف نسير بالتدريج فى طريق الجفاف . وبعض أعوادها تعرى من الأوراق وتموت » !

غار فى نفسها الاحساس بالتشاؤم ، وتأكدت الغيمة السوداء !

يومها .. وقفا فى الشرفة ، بلا اتفاق ، وحانت منهما نظره الى الشجرة .. حينذاك أدرك كل منهما نفس المعنى الذى أدركه الآخر دون أن يتحدث به . كانت الطبيعة تؤكد الموقف بينهما وتعريه مع سحب الخريف .. وقتامة الألوان . وقال كل منهما لنفسه فى لحظة واحدة : أجل .. حتى الحب يمر بالفصول الأربع .. الحب أيضا يشيخ .. الحب كائن حى .. يسرى عليه ما يسرى على الكائنات من ميلاد ونمو .. وفتوة .. ثم شيخوخة يعقبها الفناء .. لم لا نعترف بالواقع .. ونعلن الانفصال ؟ قد يكون فى الانفصال الشفاء . الانفصال ولو لفترة .. هذا الالتصاق الطويل الطويل .. التصاق الجلد بالجلد ، والأنفاس بالأنفاس .. يسد المسام ويورث الاختناق . فلنتحرر . نفصل الجلد عن الجلد ، والأنفاس عن الانفاس . ولكن : هل لديهما الجرأة على اتخاذ القرار ؟

شهور عصيبة مرت .. تتراوح بين لون كآبة الخريف ، ولون وهج النار الذى يشعلها التمرد على أن يكون الحنين الى الحب الذى كان ، هو قاتل الانسان .

مرت شهور الخريف .. وكان كل منهما يرقب وحده الشجرة فى السر .. ويرى فيها طالع العلاقة بينهما .. كأنما يستشيران النجوم .. ماذا يفعلان ؟ هل يصرخان ويفعلانها ، ويحققان الانفصال .. بل صراحة : الطلاق ؟

وتجمعت كل كآبة الخريف ذات يوم واطلت من الشجرة . كانت معظم الفروع قد جفت وتحولت الى أعواد جافة ينطق لونها بالموت .

ورأيا ، فى هدوء شديد ، ان الشجرة والطبيعة تشير عليهما بالحل السليم :

الطلاق .

وفعلاها فى هدوء .

ازمة المساكن ؟ .. ليكن .

البيت الواحد أصبح بيتين .. الجلد انفصل عن الجلد .. والأنفاس ابتعدت عن الأنفاس .. وبدا لكل منهما أنه يتنفس بشكل أقوى وأعمق .. حقا .. لقد كان فيما فعلا انقاذا لهما .. كان الحب بينهما على وشك أن ينقلب الى كراهية .. ليس أبشع فى العالم من ان ينقلب الصديقات الى خصمين .. والحبيبان الى عدوين .. وحينما كانت جرثومة الكراهية تتحرك ، كان جمال الماضى وروعته يقفان بقوة ضد الجرثومة ليقضيا عليها .

تنفصل المسام عن المسام ، والأنفاس عن الأنفاس .. لكن الأرواح لا تنفصل . أتاحت الحرية لكل منهما أن يطير بعيدا .. بعيدا .. يعود أو لا يعود .. يغير الحب بآخر أو لا يغير .. أصبح المالك لقلبه فلمن يعطى القلب الجديد .. مع العام الجديد ؟

كان شهر ديسمبر يتجه مسرعا الى نهايته . قادتها قدماها

الى الشرفة ذات صباح ؛ تريد أن تملأ صـدرها بهواء طازج . انها منذ حوالى أسبوعين لم تخرج الى هـذه الشرفة . وتذكرت فجأة .. صاحت تعاتب نفسها .

ـ آه .. لم أرو الشجرة .

وتوجهت بنظراتها اليها . ندت عنها صيحة فرح عظيم .. فوجئت بمنظر غريب أبهج قلبها : كان فرعا جديدا قد انبثق منها .. نبت من قلب إسفل الجذع وانطلق يشق طريقـه الى الوجود .. كان قويا وممتدا وفياضا بالخضرة والحيـاة .. كأنما يتهيأ لأن يصبح جذعا مع الجذع القديم .

وجرت اليه .. تحتضنه بعينيها .. بقلبهـا .. آه .. وما هذا أيضا ؟ عدة فروع أخرى تبزغ وتطل .. وتتهيأ بدورها للنمو والانطلاق .

هبت انسام منعشة .. تحركت مياه البحيرة الراكدة .. واحست بالميلاد فى كل شىء .. فى الزمان .. وفى الأشجار .. وبدا لها أنها تقف على اكتشاف رائع .. ها هو الميلاد يحدث فى الشتاء حيث يظن الناس أنه فصل الجفاف والموت !

ترى .. هل رأى هو هذا الفرع الجديد ؟

وأحست بثمة حركة خفيفة . كان واقفا ينظر .. إشـارت بلا وعى على الفرع الوليد وقالت .. بابتهاج هادىء :

ـ هل رأيت ؟

أسرع مقتربا من الشجرة .. أحس أن فروعا تنبثق فى قلبه .. وتصبح شرايين خضراء .. وقال بفرح كبير : ليس فرعا واحدا .

وراح يعدد الانبثاقات الكثيرة الجديدة فى الشجرة :

كأنها زحف الحياة ..

والتقت نظراتهما ..

قالت : لأن الجذور سليمة .. وقوية .

قال مؤكدا بثقة : كنت أوالى ريها .. رغم البرد الشديد .
امتزج بريق عينيها ببريق عينيه .

ــ تحب هذه الشجرة ؟

ــ ألست انت التى اشتريتها ؟

ــ وانت الذى رويتها .

تحرك فجأة كل الحنين .. منذ متى لم يلتق الجلد بالجلد . والمسام بالمسام .

امتدت يداهما الى بعضهما .

قال : أعظم الأشجار هى التى تولد فى الشتاء .
قالت : شجرة الحب أبدا لا تشيخ .

غمغم : انها تغير جلدها .. لحاءها .. ولكن لـ ..

غمغمت : لتولد فيهـا الخضرة من جـديد .. وقريبا .. ستمتلىء بالزهور .

قال : أوحشنى العطر الجميل .

واندفعا الى عناق عظيم .

الجلد فى الجلد .. والأنفاس فى الأنفاس .

« ١٩٨٤ »

البحر يكشف كل الأقنعة

بشكل لا ارادى ، وبقوة عدم التصديق لامكان ان يحدث هذا ، وجدتنى بالخيال ، إخلع عن المراة ثيابها . كان ذلك هو الشيء الوحيد لكى اتأكد انها هى ! فقد بدا الأمر لى أشبه بالصدمة ، أو اننا فى دنيا الحواديت والخرافات ، حيث نرى الكائنات وهى تتشكل وتتحول من نوع الى نوع ببساطة : البنات يصبحن جنيات ، والجنيات يصبحن بنات . وقد ساعد على ذلك وجودنا على شاطيء البحر . على البلاج . ومهرجان الصيف قائم على قدم وساق . أقول رحت بسرعة الخيال أنزع عن المرأة ثيابها الغريبة .. البالغة الغرابة ، لكأنها طبقة قشرية نبتت لها وأدخلتها فى عداد الكائنات الأخرى ، فلم يكن يبدو منها — وهى السائرة على البلاج ، غير عينيها الواسعتين ، وانفها الدقيق ، وبالكاد فمها . أما الباقى فقد اختفى : ثلثا الوجه على الأقل ، مع الوجنتين والشعر الكستنائى الطويل والأذنان الجميلتان وعنقها البض حين كانت ترفع الشعر ، واختفى أيضا بقية الجسد الطويل المتناسق المشدود ، ذلك الذى كان بالمايوه كل صيف ، يشع حياة وجمالا وانطلاقا .. على الرمل .. وفى البحر .. أمام عيوننا ..

هذا الجسد الآن ، يغلفه ثوب طويل فضفاض يتدلى حتى يتلامس مع الرمل مخفيا القدمين ، وان كان القدم بعد الآخر يظهر ـ بالضرورة ـ عاريا واضحا بكل جماله ودقته ، وهى تنزع خطواتها من الرمل ، متقدمة نحونا ، ثم تقول لى معاتبة ..

ـ أهكذا .. لا تعرفنى على الفور ؟

وانقذت الموقف صديقتى المتمددة على الرمل بجوارى ، صائحة بى ..

ـ نانى .. أهى أول مرة تراها بهذه الملابس ؟

صحت غير مصدق : نبيلة ؟

وأوشكت أن أقول .. رافضا : مستحيل . غير أنى أمسكت نفسى عن جرح مشـاعرها ، غير قادر فى الوقت نفسه على كتم دهشتى ..

ـ او لم تكن عيناك لمـا عرفتك (ثم متعمدا الاسراع بلدعة سخريـة خفيفـة ـ كتسجيل لموقف) ما هـذا الذى فعلتـه بنفسك ؟

شدت قوامها الطويل الرائع ، بوجهها نصف المقنع ، أو شبه الملثم ، وقالت معتزة :

ـ ألم تعرف انى حججت هذا العام والحمد لله ؟

ـ آه . عظيم . مبروك ، ولكن ، هل مـن الضرورى أن يخفى الانسان نفسه بعد أن يحج الى بيت الله ؟

شمخت بوقفتها ونظرت فى صميم عينى ..

ـ انـا لا أخفى نفسى . انا أخفى المنـاطق الحـرام من جسـمى ..

قلت باسما : لكنك لم تستطيعى اخفاء اجمل ما فيك . عينيك .

اهتز شعاع عينيها واضطرب . غير انها سرعان ما تجاوزت ضعفها الأنثوى والانسانى ..

ـ العينان ليستا عورة . العين نافذة الانسان على الدنيا ليرى منها الحرام والحلال .

ـ ليس بالعين فقط نعرف الحرام والحلال . بالقلب ايضا نعرف ..

هزت رأسها ، ضائقة بكلامى ، بل بدا لى انها ضائقة بأى كلام ..

قلت : ستكون لنا جلسة .. أرجو .. نناقش فيها .. ما الحرام وما الحلال !

عاودها الشموخ الممزوج بالتحدى ..

ـ مستعدة . وان كان الايمان لا يحتاج الى مناقشة .

قر فى نفسى ان جلسة نقاش أو جلستين لن يجديا معها ، فهذا الذى حدث فى حياتها انقلاب ضخم ، ولا يمكن أن يغير منها الا انقلاب آخر مضاد . « نانى » التى ما كنت آراها على البحر الا وهى تجرى وتقفز وتلاعب الموج . هوايتها التصدى للموجة العالية ثم الروغان منها بالمروق داخلها كأنها سمكة « دنيس » طويلة ممشوقة ، ثم الاستمرار فى السباحة غوصا تحت السطح لمسافة طويلة ، ثم نفاجأ بها خارجة من تحت الماء بوجهها المشع المندى وخصلات شعرها المبتلة المتناثرة ، وتضحك وتلوح لنا بذراعها الجميل الأبيض . وأحيانا كنت أخاف الذهاب اليها خشية الغرق فى المناطق البعيدة العميقة ، وانا فى

رحاب جمالها ، لكنى كنت اتذكر براعتهـا فى السباحة ، وانهـا لن تتركنى اغرق .. سيعطينى جمالها طاقـة كبرى للحيـاة وللنجاة ، فأسرع ـ أنا والآخرون ـ مستجيبين لاشارتها وننطلق اليها ونسبح ونمرح فى البحر جماعة ، لكنهـا دائمـة واسطة العقد ، وقائدة اللعبة المرحة ،لعبـة السباحة فى المناطق العميقة، حيث اغراءات العمق والصفاءوالبعد عن ضجة الشاطى والبلاج . ثم حين نتعب ، ولم تكن هى تتعب أبدا ، نعود . تتقدمنا « نانى » مسرعة بحنين رائع للعودة الى الشاطىء . ورغم أنها كانت فى الثامنة عشر ، وزوجة ، ولها طفل ، الا اننا كنا جميعا ـ وأولنا زوجها ـ نعاملها كطفلة ، حتى فى عرى جسـدها ، وما أغرب الجسد الانسانى الجميل المتفجر بالشباب وبالحيـاة حين يعطى البراءة ..

ها هى البراءة تدخل قفص الحرام والحـلال . من الذى ادخلهـا ؟

وتذكرت زوجها . قلت وانا أشير على قناعها ..

ـ اعتقد أن الأستاذ « سيد » راض عن هـذا وسـعيد جدا به !

ران الغضب على الجزء الظاهر من وجهها وقالت :

ـ ليس هـذا هو المهم . أنا .. سعيدة بهذا . أنا التى أريد هذا ..

ضغطها على كلمة « أنا » أفهم معناه : ليس زوجها هو الذى فرض عليها ارتداء هـذا الزى ، انما هى .. التى قررت .. هى .. مازالت ـ كما كانت ـ مالكـة أمرها وصانعة حياتهـا وما يحدث فيها من تغيرات !

قلت مثيرا القضية التى تهمنى فى تلك اللحظة : معنى هذا انك لن تنزلى معنا البحر اليوم لتستحمى !

ندت عن عينيها نظرة استنكار : اعرى جسمى ؟ إمام كل هؤلاء ؟ (واشارت بنظرتها على زحمة المصيفين) حرام .

مرة اخرى دوت فى اذنى كلمة « حرام » دخلت منطقة « التابو » . والتابو الآن هو جسدها الجميل . وتنقلت عيناى بين جسد صديقتى الممدد بجوارى على الرسل ، مرتدية مايوهها « الهيلانكا » المحبوك عليها ، وقناع نانا وعباءتها الطويلة .

ـ افهم ان تطيلى ثوبك بعض الشيء . ان تجعليه فضفاضا ، ولكن وجهك ، ما ذنبه . تخفينه وتحرمين بشرتك من الشمس والهواء .. من النعمة ..

ـ الشمس والهواء فى بيتى ، حيث لا يوجد احد غريب . أمشى عارية فى الشقة لو اردت .

ـ وحبك للبحر . وبراعتك فى السباحة ، ولعبك مع الموج . انتهى كل هذا ؟

اتسع الاستنكار فى عينيها : من قال هذا ؟ لا احد يستطيع أن يأخذ منى البحر او يحرمنى منه . ولكنى حين احب ان اعوم ، آخذ قاربا أنا و « سيد » . ونذهب بعيدا عن الشاطىء .. الى ما بعد الصخرة (واتجهت بعينيها الى جزيرة صخرية صغيرة وبعيدة بعض الشى) هناك ، اقفز من القارب واسبح .. لا احد الا إنا وسيد .. والماء هناك .. فى المناطق العميقة جميل . السباحة هناك متعة .. انت تعرف ..

قلت بحماس ، مستعيدا الذكرى : آه كم عمنا هناك ، وكم ضحكنا . وكنا دائما جماعة . كنا نستمتع بالسباحة العظيمة

هناك . هذه حقيقة . السباحة فى المناطق العميقــة رائعــة .. بالتأكيد .. ولكن ..

ولم أعرف بماذا اكمل . فقد حدث فجــأة ثمة اختلال فى تفكيرى ، وفقدت تتابع الصــور ، وتناثرت الأشياء وتجمعت دون أن يحدث لها ترتيب جديد . والأكثر من هــذا أن خيــالى الجامح رسم صــورة رهيبة تخلصت منها بقوة وسرعة . فقد رايتها ــ نانى ــ وهى تغرق فيما بعد الصخرة ، فى المنطقة العميقة ، و « سيد . ف » زوجهــا واقفا فوق الصخرة ، ممتلئا بالرعب . غير قادر على انقاذها ، أو ربما هو راغب فى حقيقة أعماقه أن ينتهى منها .

ولوحشية الصورة ، كففت عن الاستمرار فى الحديث معها ، وربما أيضا ــ وهى الذكية اللماحة ، أحست من خلجات وجهى ، انى غير راض عن هــذا التحول . ورغبــة منها فى تجنب اثارة ما قد يزعج سلامها النفسى ، ردت على دعــوتى بالجلوس .. معتذرة ..

ــ اننى أبحث عن « حودة » تقصــد « أحمد » .. طفلها الصغير .

ومضت مبتعدة ، تخب فى الرمال بقدميها الحافيتين وثوبها الطويل ، ثم اختفت فى زحــام المصيفين . وقالت صديقتى وهى تعاود التمدد على الرمال الدافئة :

ــ ارأيت كيف تتطور الأحداث ؟

قلت : النتيجة الطبيعية . ومازلت أذكر أول مرة رأيتهما معا فيها . أوشكت لحظتها ان أسأل : أهى ابنته ؟ !

قالت صــديقتى : مازال الرجــل فى بلادنا يملك أسـلحة

الخديعة ، كى يستمر فى السلطة . فبعد ان احس « سيد . ف » انه بنفسه وامواله وعربته لم يعد قادرا على مواصلة سلطانه . وان الزمن ضده ، فالعمر يتجه به الى الغروب ، اما هى فشبابها يزداد تفجرا .. فقد لجأ الى ..

ولم تكمل ، فقد وجدتها تهمس لى : ها قد جاء .

ورأيته قادما يرتدى بنطلونا صيفيا وقميصا من الحرير وقد شمر عن أكمامه . وفى قدميه صندل ينزعهما من الرمل مع كل خطوة ، ويبحث بعينيه .. طبعا عن نانى ..

وعادت صديقتى تهمس فى اذنى :ارأيت الرجل . ماذا صنع فى نفسه . لقد صبغ شعره !

استثارتنى الملحوظة والمفارقة . فقد بدا الرجل بالفعل ، مع شعره الأسود اللامع ، ووجهه المتفجر بالحمرة ، كأنه قد صغر عشر أعوام . وهى « نانى » كبرت عشرة او عشرين عاما . اذن فقد اكتملت اللعبة : اخفى هو الآخر وجهه الحقيقى ، واصبحت الآية معكوسة !

وتمنيت لو أصيح عليه : أيها الألعبان . لعبتك مكشوفة !

ولمحنى انا وصديقتى فأقبل نحونا بحماس ، ينزع قدميه ، وقبل أن يصل الينا كان يسأل ان كنا راينا « المدام » ، واجبناه ونحن ننهض ونسلم عليه بأنها كانت معنا منذ دقيقة ، واشرنا له على اتجاه سيرها . فاستأذن ومشى مسرعا ليلحق بها ..

ثعلب ماكر . علمه اللعب فى السوق وصفقات الاستيراد والتصدير كيف يلعب بنانى ويصوغها كما يريد .

قالت صديقتى : مايغيظنى منها أنها تدعى أنها فعلت ذلك

باختيارها .. (وببسمة سخرية) وهل يدخل أحد الصندوق باختياره ؟

قلت مؤكدا : اوزوريس .. دخل الصندوق باختياره . رغم انه كان مليئا بالشكوك !

شوحت بيدها : هل ستحولها الى دراما .. نحن لن نحمل أوزار الآخرين على أكتافنا . قم وانهض . هيا . نسبح بعض الوقت . أوحشنى الماء .. ها هم الأولاد والبنات يلوحون لنا فى البحر . ينادون علينا .. (وقفزت واقفة على الرمل بقوامها الممتلىء الرشيق وفردت ذراعيها) : الحياة للحياة . وتسابقنا الى البحر .

هكذا انسلخت « نانى » عن مجموعتنا المرحة ، أصبحت سيدة هادئة وقور ، تجلس تحت المظلة ، بتلافيف ثوبها وقناعها . لا يبدو من وجهها غير العينين والأنف ، وبالكاد الشفتين .. وبشكل تلقائى ، فقدت هذه الأجزاء مقاييس جمالها فى نفسى ، وتخيلتها امرأة مصابة فى حادث وربطوها فى الجبس ، لكنهم لن يفكوا الرباط إبدا ..

أخرجتها من فكرى . بل كنت أحيانا أتعمد اشعارها انى أهملها . تمنيت لو اننى املك توقيع عقوبة ما عليها . جزاء لها على أنها باعت حياتها ، وانها ــ دون أن تدرى ــ خانت أخطر معركة يخوضها الانسان فى بلادنا ، وهى معركة التطور . لكنى أعذت نفسى من القسوة . فصفقة بيعها تمت من يوم زواجها . أنها فى الحقيقة لم تفقد حريتها ، لأنها لم تكن يوما حرة فى صنع حياتها ..

وخفف من وقع « حادثتها » ان البلاج كان قد ضم أجيالا جديدة منطلقة ومحبة لحياة الصيف والسباحة فى البحر والانطلاق

الى المناطق العميقة ، ولم تختف روح البهجـة من مجموعتنا .
وفكرت : ان التطور اقوى . واذا كان البعض يسقط فى الطريق ،
فلا أهميــة كبرى لذلك . ها هم شبابنـا وبناتنـا ، فى عمر
الورد ، معرضين اجسامهم للهواء وللشمس ، والصبيان بعضهم
شعره أطول من شــعر البنات . وبدا التناقض واضحا بشدة .
وأنا أنقل بصرى بينهم وبينها ، وهى جالسـة على الرمل ، فى
القوقعة ، تنظر بعيون شـاردة ذاهلة .. وانطلقنا فى البحر نسبح
ونضحك ونملأ الفضاء ببهجتنا .

بمرور ذلك الصيف ، فقدت حكايتها غرابتهـا فى نفسى .
لا سيما ان ظاهرة النساء والفتيات المقنعات بدات تتزايد . ولم
أكن أفسر هـذه الظاهرة الا بأن دولة الرجـال تخشى من دولة
النساء القادمة الزاحفة . وقلبتها كوميديا ساخرة مع صديقتى
وتركنا البحر وعدنا الى القاهرة لأعمالنا . كان شبحها يعاودنى
بين الحين والآخر ، ثم نسيتها تماما . الى ان عدنا فى الصـيف
التـالى ، الى نفس منطقـة البحـر والبـلاج التى تعودناها .
فوجدتها .. كما هى .. بالقناع والثوب الفضفاض . وفى تلك
المرة ، خيـل لى انها ولدت هـكذا ، ونسيت تماما صـــورتها
الأولى .. بالمـايوه . وقر فى نفسى ان « نانا » الأولى ماتت فى
صباها أو غرقت فى البحر ، فى المنطقة العميقة وانتهى الأمر ،
بل وفقدت أى انفعال بها . اللهم الا اننى كنت اتجنب النظر
اليها ، فقد كانت تمثل لى الهزيمـة والاستسلام للثعالب الماكرة
العجوزة !

غير أن أكثر ما كان يثير حزنى وأسفى ، هو ابنها الصغير
« حودة » أو « أحمد » كان هو أكثر الخاسرين من هذا الانقلاب
الذى حدث فى حياتها . فكم رأيتهـا تصطحبه الى المـاء وتعلمه
كأنها أخت كبيرة تلعب معه . وقد تعلم السباحة مبكرا ، وأصبح

« مجنون بحر » ، ومع هـذا فقد اتفقت معه اتفاقا صارما الا ينزل المـاء الا مع أبيه . ولهذا فقد كان الصغير معظم الوقت جالسا الى أن يأتى أبوه الذى كثيرا ما كان يسـافر بعربتـه لمتابعـة أعمـاله .

أقول تراجعت من نفسى تماما مع الأيام ، الى أن كان هـذا الصيف ، على نفس الشاطىء . وجدتنى أسـأل عن كل الأصدقاء والصديقات ، الا هى .. لم تخطر على بالى . غير أنى فوجئت بصديقتى تقول لى وفى عينيها فزع :

ـ سمعت شـيئا غريبا وفظيعـا الآن ـ « سيد . ف » غرق .

صحت بفزع : تقولين غرق ؟

احسست بشعر رأسى يقف . اختلطت المشاعر فى نفسى : بشاعة الاختناق تحت المـاء .. الرعب .. والنجدة .. حيث لا نجدة ..

ـ كيف .. حدث هذا ؟

ـ تفاصيل لا اعرف . يقولون انه غرق منها بعد الصخرة . ذهب بها الى هنـاك كالعـادة ، لتستحم بعيدا عن العيون ، غرق منها .

ـ غرق منها ، أم هى التى أغرقته ؟

ورأيت نظرات اللوم فى عينى صديقتى ..

ـ حرام عليـك . هـذا اتهام فظيع . ارجوك لا تنطق به أمام أحد ..

هزنى هذا النبأ هزا عنيفا ، حتى أنى بقيت عدة أيام أخاف النزول الى البحر وشبح سيد . ف يطـاردنى وهو يصـارع

ويختنق ويغوص بالتدريج الى اعمـاق البحر . وسـيطر على خيالى المشهد التراجيدى الرهيب . ابيع عمرى واعرف ما الذى حدث فيه .. وكيف حدث ؟ لا احد يعرف تفاصيله الا هى .. فهى الشاهدة الوحيدة على ما حدث فى منطقة المياه العميقـة البعيدة . وفكرت فى زيارتها فى بيتها . لكنى لم اجرؤ . ان يقوم الانسان بدور المحقق فى موقف مفجع مثل هذا .

واذ كنا فى الصيف كالعادة ، طلاب لحظات مرح وسعادة ، وكرنفال المصيفين والمصيفات على الشاطىء . وأجيال جديدة نتتابع .. صيفا بعد صيف .. سخاء الحياة وعنفوانها .. فقد تراجع من نفسى شبح الموت ، وانطلقت مع اصدقائى وصديقاتى نعب من بهجة الحيـاة على البحر بكل ما نملك من شغف وحنين .. فكلنا يأتى هـذا الشهر من الصيف ليبعث من جديد . يغسل نفسه من ركامات التعب ، واللهـاث ، والاختناق داخل المدن ، ويتمنى لو يصبح هذا الصيف بداية جديدة على نحو ما لحياته ..

وكنت قد تعودت فى العصارى أن اخرج وحدى واقطع مسافة طويلة على الكورنيش ، املأ صـدرى بأمواج الهواء ، وأرى قرص الشمس وهو يغرب . كانت تلك قمـة متعتى . وكانت متعـة دراميـة . فقـد لاحظت ان أعظم مهرجـان من الألوان للشمس .. إلوانها الحـادة والصريحة والمتوهجة ، هو الذى يسبق غرقها فى البحر . ثم بدأ شىء غريب يحدث لى مع هـذا المنظر كل يوم ، والشمس تغوص امامى : كنت أجدنى اتلفت فى اتجاه الصخرة إياها ، ويعاودنى منظر « سيد . ف » وهو يغوص ويغرق . ونانى فى القارب ، أو تسبح بجواره ولا تستطيع أن تنقذه ، أو هى التى تغرقه .. فيغوص الى القاع .. مع الطحالب والأسماك . وبدأ هـذا الخاطر يزعجنى . وكان هـذا الانزعاج يتصـاعد فى نفسى الى حد القشـعريرة ، حين أمر على مكان الصخرة فى الليل .. فى الظلام ..

وأفكر : هنا جريمة قتل لم تكتشف بعد ! ونانى هى القاتلة ! لو قابلتها فسوف ألمح لها بهذا الاتهام وأرى وقعه عليها . سأراه فى عينيها اللتين لم تخفهما وراء القناع . .

وما أغرب ما يحدث أحيانا فى الحياة . أن تفكر فى انسان وترسمه بخيالك ، فاذا به هو نفسه ، بلحمه ودمه أمامك .

تسمرت قدماى اذ فوجئت بها . . نانى . . مقبلة فى اتجاهى فستان أسود طويل . . والوجه . . قمر فى حداد .

والتقت نظراتنا . أدركت انى وقفت من أجلها . ران على شفتيها ظل ابتسامة امتلأت بالأمل . . وانا أسلم عليها .

ـ هل تصدقين اننى كنت أفكر فيك فى هذه اللحظة .

ـ فى أنا ؟ (وتنهدت) جميل أن يكون فى هذه الدنيا أحد يفكر فى .

قلت مندفعا وبحماس :

ـ انت . . يا نانى . . تستحقين أن يفكر العالم كله فيك . . أنا شخصيا لا أكف عن التفكير فيك . لم أقل لك « البقية فى حياتك » . كنت أضعف من أن أقولها لك . لا أدرى لماذا . وللحظة أحسست بالندم . فقد أربد الهدوء الذى كان يكسو وجهها ، وأغمضت عينيها للحظة ، كأنما تبعد صورة . . وزفرت : مرسيه . الله يبقى حياتك .

واذ بدا أن لقاء الصدفة على وشك أن ينتهى ، قلت متشبثا :

ـ لم نجلس معا منذ وقت طويل . منذ كم صيف !

ـ هذا صحيح . زمن طويل (وشردت بعينيها)

قلت متشجعا : ثانى . اذا لم يكن وراءك الآن شىء سيحول مجرى التاريخ ، فأرجوك . اقبلى دعوة منى على فنجال شاى ، أو قهوة .. تغير طعم الصيف كل تلك السنوات بدونك .

ابتسمت بمرارة : أنت روائى .. وخيالك أحبه .

ـ اذن فقد قبلت دعوتى . هيا الى أقرب كازينو .

تنهدت . واشارت بيدها موافقة . وسرنا صامتين على مهل . ما كان يخطر ببالى أو ببالها ، أن أقرب كازينو ، هو ذلك الكازينو الذى يطل على الصخرة ومنطقة المياه التى غرق فيها زوجها .. كان قريبا جدا منا .

وخيل لى ونحن نتجه اليه انها ستصرخ فجأة فى وجهى ، حين تتنبه الى ذلك : أيها المخادع . أيها المتوحش . لماذا هذا المكان بالذات . ثم تجرى منى هاربة !

غير انها كانت تصعد سلالم الكازينو فى هدوء وصمت بجوارى . وكانت ترفع ذيل فستانها الطويل كى لا تتعثر فيه . وأوشكت ان اقول لها : كفى هذه الملابس .. حركتنا فى الحياة ، يجب أن تكون منطلقة وخفيفة .

غير انى امسكت نفسى . يجب الا أتسرع بأى كلام يمس صلب الموقف .

فقد كانت قضية خلع القناع مرتبطة فى نفسى بحادثة الغرق على نحو ما .. اننى داخل على غابة انسانية ، وليس على جلسة بحرية رومانسية ، وبعد لحظات ، بعد هذه الانحناءة الأخيرة فى السلم الصاعد ، ستجد نفسها للفضاء وللبحر ، وبالذات المنطقة التى حدثت فيها المأساة ، وسأضع عينى فى

عمق عينيها وأكشف كل الأسرار .. وأسرعت دقات قلبي : تراها نسيت الموضوع ، أو ألفته .. وخف أثره في نفسها والزمن أبو النسيان ؟ !

وفوجئت بها ، أول ما انتهت من السلالم ، تستند على حاجز خشبي ، ثم تعطي وجهها لموقع الصخرة في منطقة المياه العميقة .. مكان الحادث .. ترى أي شريط من الصور يتراءى لها .. الحقيقة التي لا يعرفها شخص في العالم غيرها . وتفرست بقوة في وجهها .. بروفيل وجهها ، لأعرف بالضبط بأي مشاعر تواجه الموقف . ذكرى الموقف . لكن قناع الوجه ، مع وقفتها الجانبية كان يساهم في اخفاء الحقيقة عني . وللحظة راودتني فكرة ان المجرم يحب أن يحوم حول مكان جريمته . قلت قاطعا الصمت ، لكي تنظر لي بكل وجهها وأكتشف الحقيقة من عينيها .

هنا وقع الحادث . أليس كذلك ؟

أغمضت عينيها . وأمسكت الحاجز بيديها ، كأنما تخشى السقوط . أسرعت فسندت ظهرها بأطراف أصابعي .

ـ تعالي نجلس في الشرفة . أو ان شئت نترك هذا المكان . نذهب الى كازينو آخر .

ندت عنها زفرة طويلة .

ـ بالعكس . أنا أحب أن أجلس هنا . وانظر الى هذا المكان الذي غرق فيه .. هل كان يمكنني انقاذه من الغرق ؟ .. لم يكن ممكنا .. أبدا .. لم يكن ممكنا !

كانت تكلم نفسها أكثر مما تكلمني . وتوقعت أن تنفجر باكية ، لكنها أخرجت ـ بديلا ـ تنهدة حرقت قلبي بصدقها .

ـ هو الذى أغرق نفسه . هو الذى اغرق نفسه (وفجأة انفجرت باكية) كان يريد أن يغرقنى معه . لو كنت اعطيته يدى لكان أخذنى معه الى القاع وغرقت معه . وكان يمكن أن أغرق معه . كان يمكن . ونغرق معا .. ولكن ممدوح الصغير .. لمن أتركه فى هذا العالم المتوحش .. العالم البشع !

وانسالت دموعها ..

ـ عالم بشع .. هذا العالم بشع ..

ـ لا .. لا يا نانى .. واسمحى لى . فالله لا يخلق عالما بشعا . البشر .. بعض البشر هم الذين يصنعون هذه البشاعة .. تعالى نجلس قليلا .. هنا ..

وأمسكت عفويا يدها ، أسلمت يدها ليدى . وسرنا الى الشرفة .. جلسنا .. طلبنا كوبين من الشاى .. الصخرة أمامنا .. والشمس .. يا لها من صدفة غريبة .. كان قرص الشمس يغطس فى البحر .. يغوص ..

ـ كنا نسبح كالعادة . ربطنا القارب فى الصخرة . فى ذلك اليوم كانت انتابتنى حالة حماس غريب للسباحة .. رغبة عارمة للانطلاق فى البحر .. اود لو أذهب الى الشاطىء البعيد الآخر .. فعلى قدر حرمانى من السباحة معكم بالنهار .. كنت اضرب وحدى فى الموج وأدخل فى الأعماق . اعماق الأعماق .. وكان يصيح على وهو يتبعنى : كفاية يا نانى .. كفاية . فأقول منتشية : ليس أجمل من السباحة فى المياه العميقة .. أنا استمتع بما لا يستمتعون به .. هؤلاء الخوافون الذين يسبحون بجوار الشاطىء . فى المياه الضحلة .. تعال .. تعال واستمتع معى ..

وفجأة .. اذ به يصيح على . والذعر فى عينيه ، ويلوح بيديه .. شيء ما يمسكنى من قدمى ..

وانطلقت اليه ..

كان يفهق : انقذينى .. هاتى يدك .

وصرخت فيه مشجعة : امسك نفسك . لا شيء يمسك بك .

ـ بل وحش يمسك بى ..

انتابتنى قشعريرة خوف رهيبة : انت تتوهم . استلق على ظهرك وارخ اعصابك واترك نفسك للموج . انت تعرف .

ـ أنا غير قادر . انه يجذبنى الى أسفل . هاتى يدك .. الا تريدين أن تنقذينى ؟

واعطيته يدى . فاذا بى فى لحظة واحدة تحت سطح الماء والماء يدخل فمى ، وهو متشبث بى . ورأيت الحقيقة واضحة أمامى تحت السطح ، فلا وحش ولا شيء على الاطلاق يمسك به . وكنت أحاول الصراخ عليه : أنت تتوهم .. لكن الماء كان يندفع الى فمى ، ويداه تتمسكان أكثر بى .. فاختنق وأغوص معه .. يريد أن أغرق معه .. لا .. وبالفزع من الموت اختناقا نزعت يدى من يديه .. نزعتها بعنف .. خلصت نفسى منه . اصبحت خفيفة ، واستطعت أن أطفو الى السطح . حيث لم يكن غيرى فى البحر . والقارب بعيد لايزال مربوطا الى الصخرة . رحت أسبح بقدر ما بقى لى من قوة ـ حتى وصلت القارب . وارتميت فيه .

وسكتت . فخيل لى أن الموج فى البحر أمامى سكن . ثم عادت الأمواج تضرب وتزمجر حين قالت : البعض يقول اننى

الذى اغرقته : ولو كنت أنا التى غرقت . وهو الذى عاش لقالوا إنه هو الذى أغرقنى ؟ كأن أحدا منا كان لابد أن يغرق الآخر . ما رأيك أنت لا !

ــ رايى :

ولم اجد كلاما . بل لم يكن لى اى رغبة فى الكلام . كنت مأخوذا بالحكاية .. المشهد .. واللهجة . والصدق الطافح من وجه جميل معذب يطمح للخلاص .. وأحسست برعدة اذ رأيت القرص فى تلك اللحظة .. قرص الشمس .. القوس الأصفر الأخير منه .. يغوص فى الماء ..

قلت ، مشيرا على القرص : اترين ؟ الشمس اختفت .. لكنها فى الصباح ستطلع من جديد .. اكيد ستطلع من جديد ..

واختلج شعاع عينيها ، بل وكل وجهها بفرحة . وهمت أن تقول شيئا ، لكن موجات هواء قوية هبت من البحر ورايتها ترفع يديها وتمسك بالقناع لتمنعه من الطيران . أما انا ، فقد رأيت ــ بعين الخيال ــ رايت القناع الذى لم يكن مثبتا جيدا وقد طار مع الهواء وظل يطير حتى سقط بعد الصخرة .. فى نفس المكان وغرق فيه .. بينما خصلات شعرها الكستنائية الناعمة تحررت وراحت تتراقص مع موجات الهواء . وعادت فى عينى .. طفلة البحر الرائعة .. قائدة مجموعتنا المرحة أيام الصيف ..

« ١٩٧٨ »

هولاكو .. والطفلة

كل شيء واى شيء فى هـذا العالم كان يمكننى احتمـاله فى تلك الليلة الا دموع « زينب » زميلتى فى العمل ، وهى تنظر لى بعينيها الجميلتين المحمرتين ، تنظر لى معاتبـة وهى تنشج ، كأنى أنا المذنب .. كأنى أنا الذى أصـدرت القرار الرهيب بكل ذلك الخصم من مرتبها البسيط المحدود .. دفعة واحدة .. كأنى انا الجزار الذى هو بسكينه الباتر بلا رحمـة ، وقد تركزت كل سعادته فى أن يرى الدماء تنزف أمامه .. وضميره فى غاية الارتياح والسكينة .

كانت تنظر الى أنا بالذات ، من خـلال دموعها ، نظرة ساخرة تقطر مرارة .. مرددة أمام كل الزمـلاء والزميلات ، كلماتى التى كنت أرددها بثقة وقوة ، ونحن نتحدث فيما بيننا عن مظـالم هـذا الرجل : « فلنثق بالعدالة الطبيعية .. وأنها لابد يوما آتية » .

وقد خطر لى لحظتها أن أندفع عليه مقتحما مكتبـه ، واتحول أنا الآخر الى جزار وأشهر عليه سكينى ونتبارز .. غير

أني كنت أعلم سلفا إنى فى هـذه المبارزة سأكون انا الخاسر . فأحد امرين : اما أن اوجه اليه ضربة واحدة صائبـة اتوجه بعدها من تلقاء نفسى الى السجن لأدفن فيه بقيـة حيـاتى ، وأما أن اتعقل فى المبارزة ، فيطعننى هو فى النهـاية بسـلاح السلطة الباتر : فصلى .. أو وقفى عن العمل ؛ حينذاك سيكون الجنون وتغطى الدماء وجه العالم !

طأطأت راسى امامهـا خجـلا . ان طوفانا من الكلمـات المتحمسة المتفائلة لن تمحو روح الشر من العـالم ، والعـدالة الطبيعية لابد لها من سلاح عات تشق به طريقها ، وتعيد الصفاء الى العيون الباكية !

وطالعتنى عينـاها الواسعتان برموشـها الطويلة المنـداة بالدموع .. والتى ياما تغزلت فيهما ببراءة .. ممجدا فيهـا روح البطولة والمرح التى تواجه بها مشـاكل حياتهـا كزوجـة بسيطـة تناضـل مع زوجها ـ البسيط ايضـا ـ كى يحققـا لنفسيهما ، ولطفلتهما الصغيرة ، معجزة ايجـاد شقة صغيرة .. وحياة شبه آمنة فى غابة هذه المدينة . انما الرائع فيها ، إنها كانت ماضية فى تحقيق المعجزة بروح المرح . كانت مثل زوجها تعمل فى الصـباح . وكذلك فى المسـاء ، دون أدنى شـكوى أو ضجر .. وكانت بطولتها تتبدى لى فى المساء .. كل مساء ، وانا أراها قادمة للعمل ، وفى يدها ابنتها الصغيرة .. اذ كيف تتركها وحيدة فى البيت ولا شغالة او قريبـة . لا حل أمامها الا أن تصحبها معها كل مساء ، وتجلسها بجوارها على أحد الكراسى ، فتمتثل الصـغيرة لجلستهـا ، وتتفرغ الأم لآلتهـا الكاتبـة .

كان أروع ما فى الطفلة ، أو اغرب ما فيها ، وهى ابنـة السادسة .. الهدوء الذى يطبع تصرفاتها ونظراتها الرزينـة

العاقلة .. كأنما هى الأم ، والأم بمرحها هى الطفلة . كانت تدرك جيدا أن وجودها فى هـذا المبنى وفى هـذا الوقت خطـأ وظيفى ، وعليها اذن أن تلزم غاية العقل والهدوء ، وتميت فى نفسها كل رغبات الطفولة فى الجرى واللعب والصياح والقفز من مكان الى مكان !

اذن ما الذى جعل طفلتنا العاقلة فى تلك الليلة تتحرك من مقعدها دون أن ينتبه اليها أحد ، ثم تخرج من الحجرة بهدوء شديد ، وتترك نفسها لقدميها تتجولان بها على غير هـدى .. ثم لتجد نفسها ـ بحجمها الدقيق الصغير ـ دون أن ينتبه اليها أحد .. تدخل احدى الحجرات الفخمة الواسـعة .. دون أن تدرى أنها حجرة مكتب الرئيس الأعلى للعمل .

كان الرجل جالسا الى مكتبـه يقرأ فى بعض الأوراق ، وكالعادة ، كانت اباجورة المكتب هى الوحيدة المضـاءة . اما بقية الحجرة فمعتمة ، وأطنان من الصمت تثقل جو الحجرة . أحس الرجل فجـأة بثمة حـركة خفيفـة فى الحجرة ، كيف لم يدق السكرتير قبل أن يدخل ؟ رفع رأسـه ، واذا به يرى فى العتمة كائنا صغيرا دقيقا يتحرك فى اتجاهـه . ومن المؤكد أن الطفـلة كانت تنظر اليه والى عالمـه بابتسامة ممزوجـة بالاسـتغراب والفضول ، الا أن رعبا ساحقا غزا نفسه ، فتراجـع فزعا فى جلسته . وتصور الطفلة فى العتمة جنا أو عفريتا اخذ شـكل قزم صغير . فوقف شعر رأسـه وتلاحقت أنفاسـه ولم يتمالك نفسه فمضى يصرخ ويصرخ مستغيثا بصوت عال . واذ فوجئت الطفلة بمنظره المفزع وصرخاته المرتعبة ، انتقل الرعب اليهـا هى الأخرى ومضت تصرخ وتصرخ . وامتزجت صرخات الاثنين وعلت على نحو جـذب كل العـاملين والعامـلات فى المبنى الى الحجرة ، ودخلوا جميعا .. مروعين ليروا المنظر العجيب !

وما أن رآها الرجل ، وفى مقدمتهم سكرتيره الذى أسرع وأضاء بقية الحجرة ، حتى احس بالأمان . وبدأ يسترد انفاسه الذاهبة . أما الطفلة . فقد كانت ماضيـة فى الصراخ وفى البكاء ، ولم تتوقف حتى رات امها تندفع اليها وتصرخ فى وجهها . تكاد تمزقها ـ ايه اللى جابك هنا يا مجنونة ؟ !

حل صـمت مروع على الجميـع : تركزت النظرات على الرجل الضخم الكبير ، كان شاحب الوجه .. مفكك الاوصـال ، متداعيا ، أسرع سكرتيره ليساعده على الجلوس . اشار معترضا بكفه .. وبصوت كالفحيح ، أمر الجميع بالخروج .

ـ اتفضلوا .. كلكم .

وفى الصباح بعد ليلة مليئة بالتعليقات على ما حدث ، ومحـاولة تفسير كل ذلك الرعب الذى ملأ قلب هذا العمـلاق من تواجد طفلة صغيرة معه ، فوجئنا وفوجئت (زينب) وهى محملة بأطنان من الاحساس بالخوف والندم ، بقرار الخصـم الرهيب من مرتبها الضئيل ، وانذار للجميع بعدم تواجد أى عنصر غريب ، حرصـا على حسن سير العمل ، وكانت دموع زينب ، ونظراتها المعاتبة لى ، ساخرة من كلماتى المتحمسـة عن العدالة الطبيعية ، الا اننى لم البث ان عدت اقول فى نفسى : أجل . ان ما حدث دليل على وجود العدالة الطبيعية . الا أنها لا تقتص من امثال هؤلاء الرجـال ، الا على مراحل ، وأحيانا على صورة طفلة صغيرة أو كائن صغير ، يظهر لهم فى العتمة .. فينكشفون على حقيقتهم ..

حقيقتهم الهشـة !!

« ۱۹۷۱ »

أغنيــة اليمــام

شقتى لها نافذة تطل على سطح الجيران · على السطح تسكن يمامتان كنت استمتع بمنظرهما كل صباح · استيقظ كعادتى قبل طلعة الشمس ، فى غبشة البكور ، والهواء لا يزال نقيا نديا ، املأ صدرى بالهواء الطازج ، وأرقب مطلع قرص الشمس من خلف جبل المقطم ، فأرى اليمامتين تتلاعبان على السطح ، تقفزان ، تطيران تحطان ، تتوشوشان ، تتطاردان ، تتناقران ، تتناغيان ، تتماسكان ·· الانثى تتدلل وتراوغ ، والذكر يصر ·· يترصد ويلف ويدور · ثم فجأة ومن الخلف .. من فوق .. ينقض ، يحط على الظهر ، تستسلم الانثى ، تحلو لها لعبة الاستسلام · آه : ما أجمل الحب بعد طول المطاردة ·· ثم ينطلقان محلقين فى فضاء المدينة ·

وكثيرا ما كان يحل عليهما أصدقاء آخرون ، يمام وعصـافير وحمام ، فيتحول السطح أمامى الى ملعب صباحى مرح سـعيد لتشكيلة جميلة من الطيور ، ثم لا يلبث هؤلاء الاصدقاء ان يرحلوا ، وتعود اليمامتان الى ثنائيتهما وقد ازدادا اقترابا وتوحدا ·· !

كنت أعتبر سكن هاتين اليمامتين احدى نعم الحياة على ،

وكنت ادعو فى سرى الا يغيرا هذا السطح ، فأسطح المدينة كلهـا مبسوطة أمامهما ، وتستطيعان التغيير لو شاءتا ، لكنى ادركت أن اليمام من أكثر الطيور وفاء للمكان وتمسكا به !

وكثير ما كنت أسمع صوتيهما ، بالذات اوقات الضحى ، وأنا داخل شقتى ، اسمعهما يهدلان بنغم شجى رقيق . فأعود ذاكرتى الى أيام طفولتى فى القرية ، حين كانت امى تنبهنى الى صوت اليمام قائلة :

ـ هل تعرف ماذا يقول ؟ وحدوا ربكم · وحدوا ربكم ·

منذ طفولتى وأنا أحب جدا أغنية اليمام ·· الا اننى فوجئت فى ضحى أحد الايام ، بصقرين يتواجدان على السطح · نفس السطح الذى تسكنه اليمامتان ، هبط قلبى خوفا عليهما ، خاصة وأنى لم أر أحدا من الطيور الاخرى أصدقاء لعبة الصباح · وقدرت أن هذه الطيور ، حين فوجئت بالصقرين ، تركت السطح على الفور هاربة من شرهما ، وبقيت اليمامتان بجوار عشهما ·· لا مفر !

تصاعد خوفى عليهما · اننى أعرف طبع الصقور ، انها مغرمة بالنهش ولها مخالب تجرح · واليمام وديع ورقيق ، ومشغول بالحب وبدعوة التوحيد ، ولن تنبت له مخالب يدافع بها عن نفسه !

وددت لو معى بندقية وأطلق عيارا أخيف به الصقرين ، لكنى فكرت ان الفزع سيعم السطح ، وستكون اليمامتان أول الراحلين !

قلت لنفسى : قد يتعايشون · فالخلاء وهذا السطح مثل كل السطوح ملك لجميع الطيور ، ثم لماذا أكره الصقور ؟ انها رواسب منذ أيام الطفولة ، حين كانت لعبتى صيد أفراخ الصـــقور من أعشاشها فتعضنى ، وهى صغيرة ، بمناقيرها الحامية دفاعا عن

نفسها !! الآن على ان اتخلص من هذا الشعور ، فأحب الصقور كما أحب اليمام ، وأوسع من دائرة الحب فى قلبى !

وقد أسعدنى هذا الفكر المتفائل ، حين لاحظت شيئا غريبا ومثيرا يحدث · الصقران واليمامتان بدءوا يتقاربون ويتعايشون · أكثر من هذا ، بنى الصقران لنفسيهما عشا على السطح وسكنا فيه دون أن يحدث شىء يعكر صفو المكان !

هتفت فى سرى : يا للمعجزة ، وتمنيت لو تأتـــى الطيور الاخرى ، أصـــدقاء لعبة الصـــباح ويتفرجون على المعجزة التى تحدث ، ويجربون مع اليمامتين معايشة الصقور ، الا أن الطيور ظلت على تباعدهـــا وحذرها ، وبقيت اليمــامتان وحدهمـــا مع الصقرين !

لكنى مع الايام ، كنت الاحظ شيئا غريبا يحدث ، كان لعب اليمامتين وغناؤهما وتواجدهما معا بدأ يقل ، والاغرب أن أنثى اليمام أصبحت تتواجـد مع أنثى الصـــقر · تنجذب الاثنتان الى بعضهما وتتبادلان الحديث بحماس وشغف !

تمنيت لو أوهب معرفة لغة الطيور ! ترى ماذا تقول كل منهما للأخرى ؟

وابتسمت فى نفسى : لابد أنهما تتناقلان الاخبار والمعارف والخبرات ، وبذلك تزداد الالفة وروح التعايش !

وقد توقعت أن تنشأ صداقة مماثلة بين الذكرين ، ذكر اليمام وذكر الصقر ، الا أن التقارب بينهما لم أره أبدا يدخل فى مرحلة الصداقة ، وفكرت : لابد أن هذا يرجع الى حذر ذكر اليمام واحساسه بمسئوليته عن تطور الموقف ! أو ·· ربما الى عقدة النقص النابعة من احساسه بضعفه ويماميته أمام قوة الصقر وشراسته ، كان ـ

فى بعض اللحظات ـ يغمرنى احساس عميق بأن ثمة معركة مقبلة بالحتم ، وان على اليمام أن يستنبت لنفسه ، مقابل مخالب الصقر ، أسلحة أخرى يضرب بها وقت الحاجة ·· ولكن ·· أية أسلحة يمكن أن يتسلح بها هذا الطائر الوديع الرقيق البـالغ الرقة ·· أيـة أسلحة ؟!

كنت أراه يأخذ جانبا ويرفع منقاره الصغير ويصيح بأغنيته أو بدعوته : وحدوا ربكم ، فتسرع اليمامة وتصيح معه حتى وهى بجوار الصقرة : وحدوا ربكم ، وحدوا ربكم ·

أيمكن أن تكون هذه الاغنية هى سلاحهما ؟؟ !

ويبدو ان الصقر لم يكن يحب هذه الاغنية ، فقد كانت تند عنه حركة عصبية ، وينبش فى الارض مثيرا بعض التراب ، فتسرع اليه أنثاه منبهة ، فيتوقف فى الحال عن النبش وينظر فى وجوم وعيناه تلمعـان · ترى ·· هل هنـاك فرق بين اناث الصـقور وذكورها ؟؟!

كنت كثيرا ما أستغرق فى عالم الطيور هذا وأراقبهم وهـم يتصرفون وأتخيلهم أيضا يتكلمون ويتحاورون ! والطريف أيضا أنه كان عندى منظار مكبر ، كنت أستعمله بحذر شديد لارى تفاصيل ملامح الصقرين واليمامتين ، فأرى بالفعل ان الطيور تفرح وتحزن وتغضب وتبتهج وتنفعل وتتخاطب أيضا مثلنا نحن البشر !!

وقد فوجئت ذات يوم بحادث غريب يحدث : فقد رأيت اليمامة واقفة على سور السطح مع الصقرة ، ثم فجأة طارتا معا ·· أما الذكران فقد بقيا وحدهما على السطح ، متباعدين كالعادة !

شغلتنى هذه الظاهرة : كيف تترك اليمامة وليفهـا وتطير مبتعدة عنه مع صقرة ؟! قلت باسما : انها قدرة الاناث على التعارف

والتحالف ضد الذكور ، يلتمسن القوة من ترابطهن ، ويروحن عن النفس أيضا !

غير ان المسألة تطورت فيما بعد الى ماهو أخطر · كان ذلك أحد أيام الصيف الحارة ، ساعة من ساعات القيلولة ، تلك التى تتجبر فيها الشمس فتهمد الكائنات وتدوخ وتسكن حركتها وأصواتها · وأصاب المدينة مس من هدوء شامل عميق · فجأة سمعت الاغنية : وحدوا ربكم ، وحدوا ربكم ·

آه ·· ما أجمل صوت اليمام مع هدوء المدينة الشامل العميق ! شرعت منظارى ورحت أرقب خفية ، وجدت الذكر هو الذى يغنى ويدعو ·· أما اليمامة فكانت راقدة بجواره فى العش ، ومنقارها فى صدرها ، تكاد تخفيه داخل ريشها · انها لا تغنى معه !

ويبدو أن ذكر اليمام أحس ـ مثلى ـ بغرابة صوته منفردا ، فنظر اليها ·· كانت مغمضة العينين ساكنة ، لابد أنها من شدة الحر فى غفوة · توقف عن الغناء احتراما لراحتها وحرصا أيضا على صحتها ، فهى أصبحت تجهد نفسها كثيرا فى الطيران والتجوال مع انثى الصقر ، غير أنه لمحها فجأة تفتح احدى عينيها نصف فتحة · حينذاك فكر انها استيقظت فعاد الى الغناء بحماس : وحدوا ربكم ، وحدوا ربكم ·· لكنى فوجئت بها تنظر اليه بعينيها الاثنتين ولا تغنى معه ·· نظر اليها مستغربا مستنكرا :

ـ لم لا تغنين معى ؟

نظرت اليه بنصف وجه : انى متعبة !

ـ الغناء يمسح عن القلب التعب ، وقد انتهزت فرصة هذا الهدوء لنغنى ويسمع الكل دعوتنا ·

بدا عليها الضجر : وما الفائدة ؟ كليا ساعة ويعود الزئير · أريد أغنية يسمعها الكل رغم الضجيج ·

بدا عليه الاستغراب : ايـــة أغنية تريدين ؟ نحن نغنـــى ما نستطيع ·

ـ بل نستطيع الكثير ، لكنا فقدنا الرغبة فى التغيير ، فقدنا الطموح ·

ركزت منظـــارى أكثر عليهما · يا لها من معركة تحدث بين أنثى اليمام وذكرها ، مثلما تحدث كثيرا بين اناث البشر وذكورهم ·

ولأننى مع ثورة المرأة فى عالم البشر ، ومع التمرد والتغيير بشكل عام ، فقد تعاطفت لحظة مع موقف اليمامة · أجل ·· هذا العصر ·· عصر الضجيج والزئير يتطلب أغنية أقوى ·· أغنية تجلجل وتدق اجراس الخطر ·· غير أنى مع اكتئـــاب مـــلامح اليمامتين ، تذكرت أن موقف اليمامة الجديد هذا ، جـــاء مقترنا بمصاحبة الصقور ! لابد اذن من التوقف والتحذير : انت تدخلين فى منعطف خطير · وارتباطك الزائد بهذه الصقرة هو السبب !

ند عنها صوت غريب · هو خليط الموار والقرقرة : اسمع ·· اياك أن تمس صديقتى بكلمة ·

ـ أو تصادقين الصقور ؟

ـ وأصادق الجن والعفاريت ·· أنا أكثر ذكاء وعقـــلا ·· وعيناى وسط رأسى ·

ـ انت لا تعرفين ماذا تريدين ·

ـ بـــل انت المغرور ·· انت الذى تريد أن تظل محتفظـــا بسيطرتك وعلويتك من فوقى ·· ولكن لا ·· انتهى هذا الزمن !

كانت تقرقر بحدة وعصبية • وراعنى انى رأيت ملامحها وقد اتخذت للحظة ، شكل الصقور •• هل يمكن يا الهى ؟ !

ورايتهما فى لحظة يكادان يشتبكان ويتنافران ، ثم اذا باليمامة تطير مبتعدة عنه وتحط على السور • طار وحط بجانبها ، ضاقت بوجوده بجانبها وابتعدت عنه فى غضب •

ـ لم تعودى تطيقين وجودى بجوارك ؟ اذا سأترك لك العش وأمضى •

ـ بل أنا الذى سأتركه •

ـ لا أنا الذى سأتركه ، لتعيشى فيه بحريتك •

واندفع طائرا مبتعدا •• ولم يلبث أن اختفى ! ورأيت اليمامة تترنح للحظة كأن زلزالا أصاب قلبها ، وأن أركان حياتها توشك على الانهيار ، وأوشكت على الصراخ : لا يا يمامى •• عد الى •• فلا حياة لى من غيرك •

غير انها تماسكت وقاومت صرختها ، ثم شمخت بصدرها ومنقارها : لا •• لن أموت بدونه •• أنا قـــادرة على الحياة من غيره •• سأثبت هذا له وللجميع •

وجهت منظارى الى الصقرين فى عشهما • كانا ينظران اليها بتعاطف شديد ، واقتربت منها الصقرة وقالت •• بهدوء وسخرية :

ـ يالهم من مغرورين هؤلاء الذكور • يحسبون اننا لا شىء بدونهم •

قالت اليمامة وقد بدا عليها عدم الموافقة :

ـ لا اظن ان القضية هى قضية ذكور وأناث •• ولا أظن أن

صقرك هذا يعاملك بمثل هذا التعالى والعنجهية ·· القضية هى الاحساس المتبادل بين الاثنين بالمساواة ·

قالت الصقرة مقرقرة بضحكة ساخرة : لا يايمامتى الرقيقة ، ان حب التسلط والوصاية شىء فى دم الذكور . كل الذكور ، فى اليمام أو الحمام أو الصقور ، ولا تؤخذ الحرية منهم الا هبشا وبمعركة (ونظرت الى صقرها) أليس كذلك ياصقرى الحبيب ؟

قال الصقر مداريا غيظه بابتسامة : لكنك لم تفرضى على شيئا ، وحريتك فى التنقل والطيران بكامل رضاى ·

ـ آه ·· ولكن لاتنسى ان رضاك هذا لم يأت الا بعد معارك كثيرة بيننا ، حتى اقتنعت انت بحريتى الكاملة فى الطيران ، وفى المبيت أحيانا بالخارج ·

ـ تقصدين انك أقنعتنى بالقوة ؟

فأسرعت الصقرة وقالت برقة خبيثة : القوة لك يا عزيزى ·· لا نقاش فى هذا ، انما الميزة التى فيك عن بقية الصقور انك متقدم فى فكرك ، متحرر من تلك العقد التى تملأ الذكور . أنت صقر ولا كل الصقور ·

شمخ الصقر بمنقاره وقال لها بلهجة آمـــرة : اذا طيــرى واحضرى لى شيئا اتغدى به ، فانا اليوم متعب ، واحس بثقل فى جسمى ·

ندت عن الصقرة قرقرة ساخرة وقالت مبتسمة :

ـ ألعب غيرها ··

قال الصقر مستغربا :

ـ ماذا تقصدين ؟

قالت وهى تنقل نظراتها بينه وبين اليمامة :

– تريد أن تبعدنى لتنفرد بهذه اليمامة الجميلة ·· بعد أن تركها صاحبها ·

فوجئت اليمامة بهذا الذى سمعته ، تولاهـــا خوف ممزوج بالاشمئزاز ·

قالت للصقرة بغضب : هل تتهمين زوجك ، أم تتهميننى أنا ؟

– مالك أنت وهذا يا عزيزتى ؟

– ان كنت لا تثقين فيه ، فالمفـــروض ان تثقى فى أنا · ان المسئولية فى هذا كما تعرفين تقع على الانثى ، أكثر مما تقع على الذكر ·

قرقرت الصقرة بضحكة

– ذلك قد يصح يا عزيزتى فى دنيا اليمـــام ، أما فى دنيا الصقور ، فيوجد عندنا شىء اسمه الاغتصاب ·

وفجأة اذا بذكر الصقر ينتفض ويفرد احدى جناحيه بغضب ويهوى به على الصقرة ، فصرخت من شدة الآلم · غير انها لـــم تلبث أن نفشت جناحيها وأطل من عينيها بريق مخيف ، ثم انقضت عليه وراحت تكيل له ضربات متوحشة مجنونة ، واشتبك الاثنان فى معركة رهيبة تعالت فيها صرخاتهما وصياحهما ، تملك اليمامة احساس بالهول وبالفزع وهى ترى المعركة الوحشية بين الزوجين تتصاعد والدماء تسيل منهما ، ولم يتوقفا الا بعد ان عجز كلاهما عن الحركة !

كان قلبى مع اليمـــامة · وتمنيت لو يجهز الصـــقران على بعضهما فى هذه المعركة ويخلو السطح منهما الى الابد ، الا أننى فوجئت بالصقرة تبتسم لليمامة وتقول لها وهى تلهث : لا تنزعجى

يا حبيبتى • هى معارك خفيفة نبدد بها الملل . الحياة تحتاج دائما الى تغيير ، اليس كذلك يا صقرى الحبيب ؟

قال بصوت متحشرج : هو كذلك •• ياصقرتى الحبيبة •• لقد حركت هذه المعركة اطرافى التى كادت تتيبس من قلة الصراع وانعدام المعارك ،

ــ هل سمعت يا يمامتنا الرقيقة ؟

وفوجئت باليمامة تنطلق طائرة مبتعدة . رحت اتابعها بمنظارى حتى اختفت • تراها انطلقت لتبحث عن وليفها وتعيده الى عشها ؟

عدت بمنظارى الى الصقرين ، فوجدتنى امام مفاجأة اخرى أكثر بشاعة • فقد انتهز الصـــقران غياب اليمامتين عن عشــهما وراحا ، رغم جراحهما واجهادهما ينبشان فى العش ويذروانه فى الهواء •

قالت الصقرة وهى تعانى من آلامها : اننى متعبـــة ، وانت مازلت تعرج • فلنؤجل العملية حتى شغائنا •

ــ لا تضخمى من العملية . نظرة واحدة منى او منك اليها تجمد الدماء فى عروقها • هيا نواصل الهدم لنبنى مكانه عشا آخر يناسب أولادنا القادمين •

ــ قد تعود ومعها زوجها •

ــ هو ذكر جبان • وسيرضى بالامر الواقع ، بل سيفرح بذلك ويأخذها ويبحثان لنفسيهما عن سطح آخر وعش آخر ••

هيا •• لا تترددى •• ان السعادة تنتظرنا وتنتظر أولادنا فى العش الجديد •

عاودها الحماس : نعم ·· وسنبنيه على طريقتنا · يصبح عشا للصقور ·

وراحا رغم أوجاعهما يذروان أوراق العش وأعواده الطرية الرفيعة · امتلأ صدرى بالضيق وبالغضب · لسوف أبحث عن طوبة أو حجر أو أى شىء والقى به عليهما فيبتعدان خوفا وتتوقف العملية الكريهة ·· الا أننى ويا للفرحة ، لمحت اليمامة عائدة ترفرف ملهوفة على عشها ، وما أن رأتهما يذروان العش فى الهواء حتى صرخت فيهما :

ـ ما هذا الذى تفعلان ؟

التفتا اليها ، دون أن يبدو عليهما أى أثر لصرختها ، ثم مضيا فى عملهما · اندفعت عليهما لتمنعهما ، رمقتها الصقرة بنظرة غاضبة وفردت احدى جناحيها مهددة : هذا السطح كان سطحنا ، قبل أن تبنيا عشكما فيه !

ـ كذب ·· كذب ·· أنتم لصوص ·· مغتصبون ·

ـ اصرخى كما تشائين ·· والافضل أن تغنى لنا أغنية اليمام !

ـ أنتم وحوش ، مخربون · مغتصبون ·

ولم يأبها لصرخاتها ، بل مضيا يذروان ويهدمان ، وفجأة ، رأيت ذكر اليمام وقد عاد وحط على أرض السطح وراح ينظر الى ما يحدث بغضب وارتعاب ·

صرخ وهو ينبش فى الأرض : كفا عن هذا الذى تفعلان ·

توقف الصقر لحظة عن الهدم ، ونظر اليه ساخرا متلمظا : انت لا تعرف ماذا حدث أثناء غيابك ، لقد استضافت وليفتك ذكرا آخر ، فغضبنا لكرامتك ·

صرخت اليمامة : كذاب ·· لا تصدقه ·· انهما يدعيان ملكية السطح ، انهما لا يريدان هدم عشنا فقط . بل وحياتنا ايضا ·

اندفع ذكر اليمام نحو الصقرين · مبقيا مسافة قصيرة بينه وبينهما ·

صاحت اليمامة :

ـ خذ حذرك منهما ·

ـ اننى احذركما من نتائج ما تفعلان ·

ـ ها ·· وما الذى ستفعله ايها الطائر النزيل · ياطائر الحب والتوحيد ·

ـ سوف نهدم عشكما مقابل هدمكما لعشنا ·

توهجت عيون الصقرين ببريق مخيف :

ـ اذن لا مفر من محوكما من الوجود ·

قالت اليمامة : هذا خير من أن نفقد عشنا ونحن أحياء · هيا يا يمامى أتركهما يهدمان العش ، ولنهدم نحن عشهما ·

وطارت اليمامتان وحطا على عش الصقرين وراحا ينكشان فيه بمخالبهما الصغيرة · حينذاك انتفض الصقران غضبا وتركا عش اليمامتين وطارا عائدين الى عشهما ، فى نفس اللحظة طارت اليمامتان ثم حطا على السور ووقفا يترقبان أى هجوم آخر · كان الصقران ينظران اليهما وقد بدا الاجهاد واضحا عليهما ·

قالت اليمامة ليمامها ·· هامسة منبهة : انظر كيف يلهثان ، انهما خارجان لتوهما من معركة كادا يقتـــلان فيها بعضـــهما · فلنرهقهما · نحاورهما ونستنفد قوتهما ·

ـ حذار أن يمسك أحدهما بواحد منا ·

ـ المهم ان نبقيهما بعيدا عن عشنا ·

كان الصقران قد تحاملا على نفسيهما واندفعا طائرين في هجوم غاضب على اليمامتين الواقفتين على السور ، غير ان اليمامتين ، في آخر لحظة ووفق الخطة ، أنطلقا كالسهم مبتعدين ·· فحط الصقران على السور وقد ازداد لهاثهما ·

قال الصقر وانفاسه تتوالى : حسن انهما تركا السطح نهائيا، فلنواصل هدم عشهما ولن نبقى منه هذه المرة أى أثر ·

قالت الصقرة : لكنى مجهدة · وانت ، لقد عادت جراحك تنزف من جديد ·

قال بغضب : اياك ان تظهرى أية علامة للضعف · لو عادا فسيكون مقتلهما ·

واذ راحا يواصلان هدم العش ، فوجئا باليمامتين وقد حطا من جديد على عشهما وراحا يهدمان فيه ·

صرخ الصقر : لن تفلتا منا هذه المرة ·

واندفع الذكر منقضا على الذكر ، والانثى على الانثى ، الا ان اليمامتين كانتا منتبهتين ، واستطاعا فى آخر لحظة أن يراوغا ويفلتا ، وان مست كليهما ضربة قاسية ·

ـ احتملى يا يمامتى ·

ـ لو مت ، لن أتراجع ·

وحطا مرة أخرى على السور ، وراحا يرمقان الصقرين

اللذين بدا عليهما الاجهاد · كانت انفاسهما متدافعة ·· ولهاثهما يكاد يسمع ·

قال اليمام : أرى انهمـــا لم يعودا قادرين على مطاردتنا بالطيران ·

قالت اليمامة : سيطاردا ننا على الارض ·

ـ جاءتنى فكرة · اذ لو نفعلها ·

ـ نفعل ماذا ؟

ـ كومة التراب هذه · نقف فوقها · ثم نستدرجهما اليها ، وبمجرد أن يقتربا منا ، نملأ عيونهما بالتراب ·

ـ فكرة عظيمة ·· ليتها تصح ·

ـ هذا يعتمد على يقظتنا · هما بالقوة . ونحن بالحيلة ، أن نصيبهما بالعمى ، ثم ننهال عليهما !

كان اجهاد الصقرين وضعفهما . وجراحهما النازفة ، مشجعا لليمامتين على أن يواصلا التحدى ، فراحا يناوشان الصـــقرين ويسخران منهما ثم يروغان كالبرق الخاطف ·

ـ فلننفذ الخطة ·

وحطا فوق كومة التراب وراحا ينظران الى الصقرين بسخرية وتحدى · امتلأ الصقران بالغضب . وهما بالطيران لكنهما احسا بأجنحتهما تخونهما ·

قالت الصقرة : انهما يستنفدان قوتنا بالطيران ، لم أكن أدرى ان اليمام له كل هذه السرعة ·

قال الصقر فى غيظ وهو يلهث : كلما صغر حجم الطير ، كلما ازدادت سرعته فى الطيران ·

- وفى المراوغة وفى المحاورة فى الجو ٠

- اذا فلنستدرجهما الى الارض ،ضربة واحدة قاضية تجهز عليهما ٠

قال الصقر لذكر اليمام : انت يمام جبان ، لو انك حقا شجاع، ابق فى مكانك ولا تطير ٠

- بل انت الجبان ٠٠ انت وهـى ٠٠ ونحن نتحداكما ٠٠ سوف نبقى فى مكاننا ولن نطير ٠٠ فلتأتيا الينا ، لو كنتما حقـا شجاعين ٠

اندفع الصقران يحجلان ويعرجان ٠٠ حتى اذا ما اقتربا من كومة التراب ، انهالت عليهما اليمامتان بالتراب وقد سددتاه الى عيونهما ٠ صرخ الصقر من الالم : عيناى ، عيناى ، لم أعد أرى ٠٠ وصرخت الصقرة متخبطة : لا ٠٠ لا تستخدما هذا التراب ٠٠ هذه ليست طريقة شريفة فى الحرب وفى النزال ٠

لم ترد اليمامتان ، بل تشبث كل منهما بموقفه ، وكلما حاول أحد الصقرين أن يفتح عينيه ليخلصهما من التراب أسرعا وملآها بحفنة جديدة ، حتى عجز الصقران عن الحركة ، وراحا يترنحان ويصرخان وهما لايريان أى شىء ٠

وعلى الفور انقضت عليهما اليمامتان ، وراحتا - بحذر - تنقران فيهما بكل الغضب الذى يملؤهما ، متجنبين خبطات أجنحة الصقرين الهوجاء العمياء ٠٠ فى تلك اللحظة كان زوج آخر من اليمام يمر فوق السطح ، فنادت عليهما اليمامتان : تعاليا ساعدانا ، كانا يريدان أغتصاب عشنا ٠٠ فضربناهما ٠٠ أنظرا ٠

واذ رأت اليمامتان الوافدتان حالة الصـــقرين تشجعتا ٠٠ وبكل الكراهية القديمة فى صدور اليمام نحو بطش الصـــقور

وعدوانها ، انقضا مع اليمامتين . وراحا ينقران فى الصقرين حتى أعجزوهما عن آية حركة ٠٠ ثم بعد قليل توقفت أنفاســـهما عن الخفقان !

شعت البهجة فى العيون ٠٠ كانوا جميعـــا يلهثون ٠٠ لكن السعادة سرعان ما امتصت كل التعب ، وكل الاجهاد ٠٠ وكل الحزن أيضا ٠٠ ومضى الجميع يبنون عش اليمام ويعيدوه كما كان ٠٠ وأجمل ٠٠

وتماست الاجنحة والمناقير ٠٠ كل وليف مع وليفته ، وراحوا يغنون معا أغنيتهم الجميلة ومناقيرهم الى السماء : وحدوا ربكم وحدوا ربكم ٠

وعاد السطح أمامى ملعبا ومزارا للاصدقاء من اليمام والحمام والعصافير ٠٠ وامتلأ قلبى بالبهجة ٠٠ والحكمة ايضا ٠

« ١٩٧٧ »

الطبقات العليا والطبقات السفلى

لابد أن العنوان ·· عنوان الدرس ·· هو الذى أوحى للبنت أن تلقى فجأة على مدرسها هذا السؤال الذى بدا خارجا عن الموضوع ، وهو يشرح للفصل درسا فى الجغرافيا كتب عنوانه على السبورة منذ قليل : الطبقات الهوائية العليا للجو ·

ورغم ان الاستاذ يحيى – وهو اسم المدرس – كان فى تلك اللحظة يحلل طبقات الجو فى المناطق العليا ويرجعها الى عناصرها الأولية من اكسوجين وأزوت وعناصر أخرى ، الامر الذى كان يذهب بشاعرية العنوان ، الا أن الطالبة وهى فى السابعة عشرة من عمرها وجدت نفسها تحلق فى عوالم بدت جميلة وغامضة ومثيرة · وفكرت بنشوة ممزوجة بالحيرة : ياله من كون عجيب · كيف أفهم هذه الدنيا ؟

كان المدرس مستغرقا فى شرح الموضوع · والبنات يتابعون شرحه · كان فياضا · وكان مرتبا فى كلامه مثلما هو مرتب فى هندامه · بعوده المتوسط النحيل · وعينيه الواسعتين بالمعرفة وبالتجربة · وبعض شعيرات بيضاء فى الفودين ، وتذكرت أنه

تزوج هذا العام واشتركت مع زميلاتها في شراء هدية له ..
وفكرت : لابد أن الاستاذ يحيى هذا يفهم الحياة على الأرض مثلما
يفهم الحياة في الطبقات العليا للجو .. و .. وفجأة . رفعت
أصبعها واندفعت قائلة له بحماس وود : أستاذ يحيى .. ايه رأيك
في الحياة ؟

كان السؤال مفاجئا . أحدث نقلة كبرى في مسار تفكيره ،
غير ان المفاجأة الأكبر له كانت في البنت نفسها . تلك التي لم يكن
يحس بها من قبل الا كوجه من الوجود . أو كرقم من الارقام .
فلقد جاء الدرس الذي جعل صوتها ينطلق ، ووجهها يتحدد في
عينيه أكثر من بقية الوجود . بل ويصبح أكثر جمالا وتعبيرا .
انتابته دفقة سعادة . كل الآبار تتفجر . ولكن لكل بئر لحظة
وميقات . وطريقة للاكتشاف .. وفكر . مع ابتسامة ملأت كل
وجهه ، ان يقول لها : « نحن في حصة جغرافيا ، ولسنا في حصة
فلسفة . فلنؤجل الكلام عن الحياة الى ما بعد الحصة » . الا ان
الحماس واللهفة على وجه الفتاة . وشيئا آخر رآه يحدث لبقية
البنات حالما القت عليه السؤال .. كأن موجة هوائية منعشة هبت
على الفصل ، وكان اليوم بالفعل حارا والنوافذ مفتوحة .. وباب
الفصل أيضا .. على أمل نسمة .. تفتحت الوجود واشرأبت
الاعناق وتركزت العيون عليه . ومع اللهفة والحب اللذين أحسهما
في هذه النظرات ، أحس بالخطر التقليدي . ذلك الخطر الذي يحسه
المدرس أو الخطيب أمام التلاميذ أو الجماهير . فاما ان يرتفع
بكلماته في عيونهم الى أعلى ، أو يسقط في نظرهم ويخيب الرجاء
.. هل هو حقا له رأي في الحياة ؟ والمهم هل يستطيع التعبير عنه
لهؤلاء البنات .. وكلهن في الربيع .. من سن السابعة عشرة الى
سن العشرين أو أكثر بقليل .. كيف يقول .. والى أي مدى يمكن
أن يقول . وتنبه ــ كأنما لاول مرة ــ ان باب الفصل مفتوح . ومرت

بخياله صور لوجوه كئيبة ·· قديمة وحديثة ·· لكنه أبعدها بقوة : لن أغير منهجى فى الحياة !

طوال السنوات التى عاشها مدرسا ·· وفى كل المدارس التى تنقل بينها ، ومنهجه الذى يتبعه ، والذى جر عليه كثيرا من المشاكل، هو ربط دروسه بالحياة ، وعقد صداقة بينه وبين الاولاد ·· بنين وبنات ·· « ولقد تزوجت · لم انجب بعد · لكنهم مثل أولادى ·· كلهن بناتى · ومن حقى ومن حقهم على أن يعرفوا رأيى فى الحياة » ·· داخله احساس بنشوة · وأن بئرا بداخله يريد أن يتفجر ·· يقول لنفسه مثلما يقول لهم ·· كانت النظرات متركزة عليه فى لهفة ·· فاندفع قائلا ·· بلا أى تحضير :

ـ رأيى فى الحياة ؟ (واستعان على البداية باشارات من يديه وايقاعات جسده الرقيق النحيل) أنا شخصيا أحس أنى محظوظ أنى جئت الى الحياة · حتى لو كنت جئت الى الحياة على شكل طائر ·· أو ·· حتى على شكل سلحفاة ·· المهم أنى حى وأمتلك عناصر الحياة · فما بالكم وقد جئت على أرقى صورة وهى الانسان ·· أن يكون الواحد منا انسانا ، هذا فى حد ذاته شىء عظيم · أن نحس بالسعادة أننا ننتمى الى بنى الانسان · ولأن أجمل وأرقى ما فى الانسان هو عقله ، فان سعادتى ، أعظم سعادة لى ، هى الأوقات التى أعيشها بعقلى · أما الأوقات التى أعيشها بحواسى وغرائزى ، فمهما كان فيما من سعادة ، فهى سعادة تشترك معى فيها الحيوانات والنباتات · لكن السعادة الاعظم أن نحيا كانسانيين ·

من اتساع نظرات البنات الى المدى الأخير ·· ومزيج التعبيرات التى رآها على الوجوه الغضة ·· الاعجاب والدهشة والاستمتاع بالمتابعة ·· أحس بطاقة كبرى وبرغبة أكثر فى أن يواصل ·· ويستمر ·

انما (ولوح باصبعه محذرا بجدية) يجب الا يكون الانسان مسرفا فى التفاؤل ·· لقد علمتنى تجربتى مع الحياة ان كل شىء له مقابل · كى يحدث التوازن · ذلك التوازن والتناسب الذى رأيناه منذ قليل (وأشار على السبورة) يحدث فى الطبقـــات الجويـة العليا ·

اننى حين أحس بالبهجة فى وقت من الاوقات ، اقول فى نفسى : سوف يأتى وقت الألم · واذا أصابنى الم ، اقول : سوف يأتى وقت البهجة · الحياة قائمة على الاضداد وعلى المتناقضات ·· وهذا سر حيويتها وديناميكيتها ·· انما (ولوح مرة اخـرى محذرا باصبعه) يجب ألا نكون نحن مصدر الألم للآخرين · بـل بقدر الامكان مصدرا للسعادة والبهجة وتخفيف الألم · انما ايضا ، وهذه نقطة أخرى بالمقابل · يجب ألا نخاف الألم أو نكرهه بشكل مطلق ·· هناك ألم عظيم ومقدس ·· مثل ألم الأم وهى تعطى للحياة مولودا جديدا · ومثل الألم الذى يحس به المحارب الجريح وهو ينزف فى معركة يدافع فيها عن وطنه · هى الحياة كما رأيتها ·· أعظم الأعمال والانجازات تأتى دائما مقترنة بالآلام · فهل نخاف الآلام ؟ ان جمال السكون لا نحس به الا بعد انتهاء العاصفة ·· صحيح أم لا ؟

وازداد النبع فى داخله تدفقا : « المهم ·· ان نحيا الحياة ··

وبصوت جماعى موحد : صحيح يا أستاذ · صحيح ·

ـ نحياها كيف؟كل بطريقته·والعظيم هو من يكتشف لنفسهطريقا جديدا · سكة جديدة · وألا ·· فما الفائدة للحياة اذا كان الجديد يأتى بنفس شكل القديم ؟! لا تصدقوا أن التاريخ يعيد نفسه ·· واذا أعاد التاريخ نفسه فى بلد من البلاد ، فان هذا يعنى أنه يعيش فترة تخلف وارتداد الى الوراء ·· لا تصدقوا أن التـكرار يعلم

الحمار ·· الحمار يظل حمارا ·· لأنه يقبل التكرار ·· نحن نستعبد الحمار بالتكرار » ·

أسعدته الضحكة العالية التى انطلقت عالية من صدورهن ، وبدأ الجو أكثر انعاشا ·· والمهنة أكثر جمالا ·· ماذا يقول أيضا لعمر الورد ؟ ·· « ان ندرب انفسنا على اكتشاف المجهول ، والا نخاف ·· ان ننمى فى أنفسنا روح المغامرة من أجل الاكتشاف ··

أما الخـــوف ·· وأما التجمد الذى يعمق روح الجبـن فى الانسان فهو ·· » ·

ولم يكمل ·· لقد أحس بشىء ما غريب يحدث لنظرات بعض البنات · وأدرك على الفور من اتجاه النظرات أن هناك شخصا ما عند الباب ·· ونظر ·

كانت الناظرة واقفة ·· شبه متخفية ·· وتتسمع باهتمام ·· وحين وجدته كف عن الكلام ، دخلت الفصل بهدوء شديد ·· ورغم أنها لم تلق بأية تحية ، فقد وقفت لها الطالبات كتحية تقليدية ·· أشارت لهن بالجلوس · كانت تقاوم رعشة فى فكيها ·· وقالت بنظرة ينطلق منها الشرر :

ــ اذن فهذا هو الذى تعلمه للبنات ؟ تحرضهن على القيام بالمغامرات · (وضغطت على أسنانها) اذن فكل ما سمعته عنك صحيح ·

كان قد افاق من المفاجأة · قال وهو يتماسك ، وقد داخلته روح التحدى : ما الذى سمعته عنى ؟

ــ لم أسمع عنك شيئا · لكنى الآن سمعت منك ·· بأذنى هاتين ·· وهؤلاء أيضا يشهدن (وأشارت على البنات) ·

وأوشك أن يقول شيئا لكنه فوجيء بالبنت التى كانت قد القت عليه بالسؤال تنتفض واقفة وتصرخ فيها برجاء :

ـ لا ‏·· لم يحدث شيء · انا التى سألته : ما رايك فى الحياة ؟

ازداد الشرر فى عينى الناظرة ، وقالت للبنت متهكمة :

ـ ورأيه فى الحياة ان تقوم البنات بمغامرات ؟

ـ ثم صرخت فيه بكل قوتها ، عامدة متعمدة كى ترهب البنت وتخرس أى لسان ·

ـ اننى أمنعك من التدريس · ليس فقط فى هذا الفصل · بل فى مدرستى كلها ·

قالت هذا وفوجئت بنفس البنت تضرب الدرج بيدها بعنف وتصرخ : لا ·· واذا تركنا الاستاذ يحيى فلن أبقى فى هذه المدرسة !

وانتقلت صرختها الى كل البنات الأخريات :

ـ نعم · لو ترك الاستاذ يحيى المدرسة ، فسنتركها نحن أيضا ·

ـ واذ رأت البنات ينهضن واقفات ، أحسست كأن جيشا سيهجم عليها ويفتك بها ·

ـ وتحرضهم أيضا على التظاهر ضدى ؟ اذن سترى ·

وخرجت مسرعة ·

حط على الفصل هدوء ثقيل الوقع · البنات عاودن الجلوس والنظر بعيون دامعة الى الاستاذ يحيى · قوة هائلة ملأت نفسه · قوة الحب والصدق تهزم قوة الظلم والجهل ·

لكن ملامح الناظرة ·· وكلماتها ·· وأشباح الهوة الجديدة

بدأت تلوح له ٠٠ وشد نفسا عميقا ٠ لو حدث فسيقفز فوقها مثلما قفز من قبل على كل الهوات السابقة ٠٠ ألم يكن يقول لهن هذا ٠٠ ؟!

وفوجيء بالبنت الاولى تقول وهى تمسح دموعها ؟

ـ أكمل لنا يا أستاذ ٠٠ أكمل ٠٠

أرتسمت على شفتيه ابتسامة نابعة من القلب ، وان اختلطت بالمرارة ٠٠ قال وهو يمر بعينيه على وجوههن جميعا : بعد ما حدث (وهز رأسه مع تنهيدة) على أى حال ٠٠ عظيم هذا الذى حدث ٠ لقد رأيتن بعيونكن كيف يخاف البعض من أن تتفتح العقول على حقائق الحياة فيفقدون السيطرة على الناس ٠ فلتبق عقولنا مفتوحة على كل ما يحدث فى الحياة ٠٠ وما يحدث فى الطبيعة ٠

ألا نخاف من أى شيء ٠٠ حتى من الشر ٠ ألم أكن أقول لكم اننى ساعة البهجة ، أكون فى انتظار لحظة الالم ؟ (وابتسم) فلنعد الآن لو سمحتم ـ الى درسنا الأصلى (واتجه بعينيه الى العنوان المكتوب) الطبقات العليا للجو » ٠

(وأتسعت أبتسامته) ننسى الطبقات السفلى بعضا من الوقت ٠ انتبهن معى لو سمحتن ٠

وعاود شرح الدرس ٠٠

٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

وكان يدرك أنه الدرس الأخير له ٠٠ مع عمر الورد

« ١٩٧٩ »

هو الذى سـقط

يحكى أن سلطانا منحته الحياة خاتما مثل خاتم سليمان ، فامتلأ بالفرح والنشوة وانطلق يمارس قدراته الخارقة . فاجتاح فى أيام قليلة بلادا كثيرة وضمها الى ملكه ! لم يعد سلطانه بفضل هذا الخاتم مقصورا على البشر وما فوق الارض ، بل امتد أيضا الى الجن والطير حتى بلغ متن السحب !

صحا سلطاننا هذا من نومه ذات صباح ، فوجد أن خاتمه قد سقط من أصبعه ! حينذاك ندت عنه شهقة كاد قفصه الصدرى ينخلع معها ، وقفز من رقدته وراح يبحث عن الخاتم ·· أولا بين ثنايا الفراش والاغطية ثم فى كل الأركان وجنبات الغرفة ، فلم يجد له أثرا !

وقد خطر له من أول لحظة أن يصيح بأعلى صوته : «خاتمى ، خاتمى » ·· فيهرع الكل من انس وجن وطير ونمل ويبحثون معه عن الخاتم ، لكنه سرعان ما تنبه الى معنى خطير ، فما يدريه أن هؤلاء جميعا ما زالوا حريصين على بقاء الخاتم معه ؟! · أليس من الجائز أن ينتهزوها فرصة ويعلنوا تمردهم عليه ·· يسترد الكل

حريته ·· بل وقد يحدث الأكثر هولا : لو أن واحدا من الشياطين عثر على الخاتم ·· لسوف يخفيه فى أقصى بقاع الأرض أو فى أعمق أعماق البحر ، ثم يطلق ضحكاته المجلجلة ساخراً من السلطان الذى فقد مصدر قوته ! ثم يبدأ فى استعماله ضده !

لا ·· لن يصيح ولن يهمس ·· ولن يجزع هكذا بسرعة · ان مجرد الجزع على وجهه سيكشف السر للطيور حين تأتيه بعد قليل لتلقى عليه تحية الصباح وتضع نفسها تحت أمره ·· وفى مقدمتها الهدهد ·· ذلك الصديق العزيز حقا ، لكنه الثرثار المغرم بحكى غرائب وعجائب القصص ·· وهل هناك قصة أعجب وأكثر أثارة من هذا : ان يفقد سيده السلطان العظيم خاتم ملكه ؟!

فليهدأ نفسا ، ويفكر على مهل : كيف حدث هذا ؟! أيمكن أن يكون قد فقده ليلة الامس فى تلك السهرة الحافلة الرائعة عند لاميس ·· فى جناحها ؟! (ومر برأسه خاطر كئيب مفزع) أيمكن أن تكون هى التى فعلتها ؟! تسلبه قوته وتنتقم مما كان فى البدايات الأولى معها ·· حين اجتاحت جيوشه بلادها ، وكان أسر أبيها ، ثم استقدامها على بساط الريح ، وفى غمضة عين بنى لها جناحا ذهبيا فى بستان قصره ·· ثم اطلاق أبيها من الأسر واعادته الى بلاده حاكما كما كان ·· مقابل بقائها معه مليكة وعشيقة ؟!

أيمكن أن تكون قد حانت ساعة الانتقام ؟! غير أنه هز رأسه نافيا بشدة : لا ·· لا · وليلة الأمس بالذات تساقينا أروع كئوس الحب ، وكنا نطير سويا من فرط النشوة ؟! ثم الأهم من ذلك أننى خلعت الخاتم من أصبعى قبل أن أدخل جناحها ، وأعطيته لوصيفتى المخصصة لتلك المهمة المقدسة ·· ثم بعد أن انتهت الليلة أخذته منها ولبسته · أذكر ذلك جيدا ·· والأكثر من ذلك أنى وأنا أدخل أصبعى فيه كنت أحس بصعوبة ، حتى أن الوصيفة قالت لى

باسمة : يبدو انك سمنت بعض الشيء يامولاى .. فكيف اذن يكون قد سقط من أصبعى ؟ ولقد عدت مباشرة الى جناحى وصعدت الى سريرى ونمت على الفور .. فأين يمكن أن يكون سقط ؟!

« تراه سقط فى الممر الواصل بين جناحها وجناحى ؟! وحين استعاد منظر الرمال التى تفرش الممر ، غاص قلبه وهو يتصور الخاتم وقد غاص فى قلب الرمل واختفى .. فهل يجمع كل رمال الممر ويكومها ثم يغربلها ؟! انه بذلك يكشف السر ويذيعه .. ثم ، ما الضمان أن الخاتم سقط منه فعلا فى هذا المكان ؟!

وأحس بخلط فى ذهنه وأطرق فى تعاسة .. ما العمل ؟! كيف أتصرف ؟!

ــ مولاى لا تجزع . ان لك أصدقاء يظهرون وقت الشدة !

رفع رأسه بلهفة : من ؟ الهدهد ؟

ــ أجل .. صديقك الذى عاصر مجدك ، ويعز عليه زوال هذا المجد ! اطمئن يا مولاى . فالخاتم لم يضع !

اصطفقت فى قلبه أمواج الأمل وصاح به : أين هو . ياصديقى العزيز ؟

ــ فى مكان أمين . لا تخف .

ــ اذن فأسرع باحضاره . لا تضيع وقتا . أنت تقدر معنى ما أقول .

ــ مولاى لا أحب هذا القلق على وجهك العظيم . ففى دقائق سيكون معك !

بذل السلطان طاقة كبرى لكى يبدو متماسكا .. فرك كفيه من السعادة وقال : لا أعرف كيف أشكرك أيها الهدهد . لسوف ترى

حين تعيد الى الخاتم أى خير سيغمرك · بل تستطيع من الآن أن تطلب ما تشاء ·· مهما كان هذا الطلب ·· سوف أحققه لك · أطلب أيها الهدهد ·

ـ ولسوف أطلب يامولاى ، لكن ليس الآن · انما بعد أن يعود لك الخاتم · وأنت فى عز إحساسك بسلطانك وقوتك !

ـ أعرف انك لست انتهازيا أيها الهدهد ·· ومن أجل هذا إعتبرتك أصدق أصدقائى من بين كل أهل المملكة · هيا لا تضيع وقتا · طر واحضر لى الخاتم ·· هيا أيها الهدهد قاوم حبك للكلام · سوف تتكلم كثيرا بعد ان يعود لى الخاتم ·

ـ نعم أيها السلطان · بيننا كلام كثير لابد أن يقال ·· فلنؤجله كما سأؤجل طلبى · استأذنك ·

وفرد جناحيه فجأة وطار ·· ولم تمض أكثر من دقيقة بدت كالدهر بالنسبة للسلطان ، حتى كان قد عاد والخاتم يبرق فى منقاره ·

هلل السلطان فرحا وتناول منه الخاتم وعلى الفور ادخله فى اصبعه ·

واختلطت سعادته بنوع من القلق حين رأى الخاتم لا يدخل أصبعه الا بصعوبة ، لكن ذلك على أية حال ادعى الى الطمأنينة ·

وما أن دخل الخاتم بالتمام وأحس به ملتفا باحكام حول اصبعه حتى صاح واثقا منتشيا ·

ـ الآن أطلب أيها الهدهد · مهما كان طلبك · تعال أولا أعانقك وأشكرك ·

واذ رفع كفيه ليتناول الهدهد ويعانقه ، فوجىء بشىء رهيب

انخطف معه قلبه ·· ووجد نفسه يصيح على الهدهد فى فزع وهو يريه لكفه ·

ـ الخاتم سقط ·· مرة أخرى سقط · مرة أخرى سقط ·

***

كان لسقوط الخاتم على هذا النحو الغريب والمثير وقــع الزلزلة ·

اكتسحه خوف ساحق ممزوج بالتشاؤم وفكر بأن هناك بالقطع روحا شريرة تسعى لسلب الخاتم منه ، واسقاطه هو نفسه من على عرشه !

ومع ان الخاتم كان واضحا يبرق على البساط قرب قدميه ، الا أنه خشى ان تجذبه الروح الشريرة وتبتلعه الى جوف الأرض · فأسرع منكفئا بكل وجهه ويديه على البســـاط ، وفى ثوان كان الخاتم فى يده ·· يقبض عليه بقوة · لكنه لم يفكر هذه المرة فى الاســـراع بلبســه ·· فما الضــمان ألا يسقط مرة أخــرى · وقد يكون فيها الضياع الابدى ؟! فهل يظل ممسكا به ·· أم يضعه فى أحد جيوبه أو فى أحد ادراجه ويقفل عليه ؟! ولكن ما معنى هذا ؟ هل سيتخلى عن لبس الخاتم ؟!

واستهول المعنى فتوجه الى الهدهد مستنجدا ·

ـ أرأيت أيها الهدهد ماذا حدث ؟ ! ثمة روح شريرة تتآمر ضدى ·

قال الهدهد بهدوء : بالقطع يا مولاى هناك روح شريرة تسعى، والكثيرون يقولون بهذا من زمن !

تنبه السلطان : « كثيرون » ·· ومن زمن ؟ اذن فكنت تعرف وتكتم عنى ؟!

ـ أعرف يا مولاى ٠٠ لكنى كنت أنتظر وقوع البرهان !!

ـ أى برهان ؟!

ـ البرهان الذى يقنعك انت يا مولاى قبل ان يقنع الآخرين !

ـ يقنعنى بماذا ؟ تكلم بسرعة !

ـ سوف أتكلم يا مولاى ٠٠ ولكن بشرط ٠٠ عفو مولاى ، ليس شرطا وانما هو طلب ٠ الطلب الذى وعدتنى به أثناء الضياع الأول للخاتم ، لكنى أجلته حتى يعود الخاتم لك ٠٠ فهل يمكن أن أتقدم به الآن والخاتم معك ؟ !

ـ بالتأكيد أيها الهدهد ، أطلب ما تشاء ولا تتردد ٠

ـ حريتى يا مولاى !!

ـ حريتك ؟ (كان وقع الكلمة غريبا على اذن السلطان) وهل أنا عاملتك أنت بالذات كعبد ؟ ومع هذا فلن أجعـــل من ذلك الآن موضوعا للنقاش ، من الآن أيها الهدهد أنت حر ٠

صفق الهدهد بجناحيه سعيدا طروبا : أشـــكرك يا مولاى أشكرك (ثم ضم جناحيه وقال بجدية) الآن أستطيع أن أتكلم دون خوف أو وجل ٠ أجل يا مولاى ٠٠ فالاحرار وحدهـــم هم الذين يقولون الصدق والحقيقة مهما كانت مرارتها على النفس ٠٠ أما العبيد والاتباع فلا يقولون الا ما يتجاوب مع غرور أسيادهم وملوكم، حتى ولو كان فى ذلك مصرعهم والقضاء عليهم !

ازداد توتره ٠

ـ اذن فأسرع بهذا الصدق ولا تخفى شيئا ٠

ـ كنا نتكلم يامولاى عن وقوع البرهان ٠ الحق ان الانسان هو الذى يسقط أولا ، ثم بعد ذلك تسقط منه أشياؤه !

تنبه السلطان لخطورة ما يقال ·

ــ ماذا تعنى أيها الهدهد ؟ تكلم بشكل واضح ومباشر ·

ــ وكذلك فى دنيا الابطال يا مولاى · البطل يسقط اولا ، وبعد ذلك يسقط منه خاتمه !

اصطفقت أمواج الغضب فى صدر السلطان . ومع هذا جاهدها ·

ــ هل تعنى أنى سقطت أيها الهدهد ؟!

ــ مولاى أطمح فى مزيد من رحابة صدرك ·· اننا الآن بصدد انقاذ المملكة ·

ــ تكلم أيها الهدهد · هات كل ما عندك ·

ــ لقد تغيرت ، فأحس الخاتم بالاغتراب معك · لم يعد يحس بالطمأنينة معك !

تسارعت أنفاسه :

ــ الى هذا الحد أنا تغيرت ؟! كيف ؟!

ــ مولاى أدارت الانتصارات والنجاحات رأسك . فأصبحت تمشى فخورا فى موكب ذاتك ، ولم تعد تتحمس الا لمن يدورون حولك ، يسبحون بعظمتك وبعجائب قدراتك !!

تصاعد الغضب مرة واحدة الى رأس السلطان وقال مستنكرا :

ــ هراء وادعاء هذا الذى يقال ، أننى لا أكف عن التحدث والتسبيح بعجائب الاله وقدراته ·

ــ مجسدة فيك أيها السلطان ، فأصبحت عجائب الاله هى

عجائبك أنت ، ومن صنعك ، وليتها بقيت كما كانت فى البدء ، من أجل مسرة أهل المملكة · لكنك حولتها الى مسراتك انت ·· وبعد ذلك لا يهم أى شىء · الشرير يا مولاى يفتخر بشهواته !

قاومَ السلطان بشدة غضبه ·· بل من بشاعة الاتهام احس أن ركبتيه تتخلخلان ، فأصبح كل جهاده ان يتماسك ·

ـ أنا شرير أيها الهدهد ؟ اذن فأقم الدليل على هذا ·

ـ كنت يامولاى خاشعا متواضعا ·· تخـالط المســاكين وتجالسهم ·· وكنت أسمعك تقول : مسكين يجالس مساكينا · الآن فلم تعد تجالس الا أصحاب وصاحبات العروش !

ـ آه تقصد لاميس ·· أليس كذلك ؟ لاميس لم تعد صاحبة عرش · لاميس أصبحت زوجة وجارية لى باختيارها ·· هى وشعب أبيها !

ـ ليس بالاختيار يا مولاى · دعنا لا ننسى البداية · لقـد حاربت أباها وهزمته · ثم استقدمتها بسحرك وتزوجتها وفرضت الصداقة على شعبها ، فتظاهروا بالاستسلام وبالرضا ·

ـ تقول تظاهروا ؟! كل هذه السنين يتظاهرون ؟!

ـ الشعوب يا مولاى غضبها مستتر وطويل المدى ·

ـ انت تخرف أيها الهدهد · وليتك كنت بالامس معى عند لاميس لترى السعادة التى كانت تسبح فيها معى وأغنيتها الحزينة على الايام التى لم ترنى فيها ·

ـ ربما يا مولاى ·· انما ··

ـ ليس هناك ربما ·· بل هو اليقين أيها الهدهد · انما هو عيبك الذى أعرفه عنك · ثرثار محب للكلام ولتأليف الروايات ··

لكنى احذرك . أتريد أن تقنعنى بأن هناك فى المملكة من يردد كلامك هذا ؟! لو كان هذا حقا ، لكنت قد سمعته . انت تعرف أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشىء الا وتنقله الريح لى على الفور . (وتذكر فجأة ان خاتم الملك ما زال فى قبضته . فأسرع بلبسه واطمأن لاحكامه حول أصبعه) اننى أسمع كل شىء أيها الهدهد . اسمع حتى دبيب النملة على بعد ، ولهذا فكل ما قلته هو من أوهامك .. ومع هذا ، سوف التمس العذر .. لأن ..

وتوقف فجأة عن الكلام ووجد نفسه يصرخ متأوها من ألم شديد داخل أذنه .. فاندفعت يده ، مادا أصبعه الى مكان الألم ، غير أنه سمع صوتا يدوى داخل اذنه : مولاى . استحلفك بالله ان تبعد بطش يدك عنى !

أحس بدوار فى رأسه ، وقاوم احساسا بالترنح .

ـ من الذى يتكلم ؟

ـ أنا النملة يا مولاى !

لم يصدق ما يسمع .. رغم انه واثق من انه يسمع . كيف تجرؤ نملة ؟!

ـ وما الذى جاء بك الى داخل أذنى أيتها النملة ؟

ـ لتسمعنى يا مولاى . فمنذ زمن طويل ونحن النمل نشكو أليك وننادى عليك لكنك لا تسمعنا ، فقرر أخوتى النمل وفادتى اليك حتى نضمن وصول شكوانا !

أزداد الدوار فى رأسه ، وتملكه احساس بالمهانة .. أيصل به الأمر الى هذا الحد أن يقرصه النمل فى أذنه لكى يسمعه ؟

والتقت نظراته بنظرات الهدهد .

كان حال الهدهد يقول : ذلك برهان آخر يا مولاى · لكنه لم ينطق بها !

– والآن لم يبق لى شىء يقال يا مولاى · استأذنك · (وفرد جناحيه استعدادا للطيران) ·

– الى أين ؟!

– الى حيث تشاء حريتى ·

اضطرب السلطان ، وداخله حزن عميق مختلط بالغضب ·

– وتتركنى أيها الهدهد ؟ فى موقف كهذا تتركنى ؟

– مولاى لقد ظهر كل شىء ، ولم يعد لى أى دور ·· الدور الآن هو دورك أنت وحدك ·· استأذنك · لقد أوحشتنى حريتى ·

وتجمع فى ذاته ناشرا كل جناحيه استعدادا للانطلاق ، غير ان السلطان صرخ عليه بغضب ·

– لا أيها الهدهد · لن تطير الآن · واياك أن تفعلها ·

تجهم الهدهد ، وتجمد فى وقفته ·

– مولاى يسحب عنى حريتى ؟

– أنا لا أسحبها · لكنى أؤجلها ·

– اذن فأنت تنقض وعدك يا مولاى ·

أحس بالاهانة ·· صرخ فيه :

– أو تجرؤ على قولك هذا ؟! أهذه هى أول تباشير الحرية ؟! لا أيها الهدهد · ولا تحسب انى وصلت الى هذا الحد من الضعف والاستسلام والبلاهة · نعم · فأنا أعرف ما هو أول شىء ستفعله

بحريتك ٠ ستدور فى البلاد وتحكى عن النملة التى قرصت السلطان فى أذنه ٠٠ السلطان الذى لم يعد يسمع الا صوت نفسه ٠٠ أليس هذا هو كلامك ٠٠ لا أيها الهدهد ٠٠ لن تبارح هذه الايام قصرى ! هذا أمر ٠ هل تسمعنى ؟

أطرق الهدهد برأسه حزينا ممتثلا وغمغم فى سره :

حتى حرية طائر صغير أصبح يخاف منها ٠ (ثم رفع صوته بعض الشىء) ذلك برهان آخر يا مولاى ٠٠ لماذا أصبح الخـــاتم لا يبقى فى أصبعك !

صرخ فيه مستنكرا ، ومشيرا بكل ذراعه ، عارضا عليه كفه المزين بالخاتم : لن يسقط الخاتم منى بعد ذلك أبدا ٠ هل تسمعنى ٠ لن يسقط أبدا ٠ وسأضرب كل روح شريرة تسعى للتآمر ضدى ٠٠ سأخرج الآن وأعلن هذا لكل أهل المملكة ٠

لم ينطق الهدهد بحرف ٠ تذكر الجملـــة : الشـــرير يفتخر بشهواته ٠٠ تداخل فى نفسه خوفا ٠ غير أنه لم يلبث أن لمح شيئا مثيرا يحدث بينما السلطان ينزل ذراعه الى جانبه ٠ رأى الخاتم ينزلق من أصبعه ويسقط دون أن يحس به ٠٠ صاح رغما عنه :

ــ مولاى ٠ مولاى أنظر الى أصبعك ٠

واذ نظر السلطان الى كفه فلـم يجد الخاتـــم تملكه الذعر والهلع :

ــ ما هذا ؟ الخاتم سقط ٠ مرة ثالثة سقط ؟!

وفى تلك المرة ، لم ينكفىء بسرعة ليلتقطه ، بل ظل يحدق فيه وهو ملقى على الأرض دون أن يقوى على النطق بكلمة ٠٠ كان يحس من أعماقه بأن الذى ســـقط ليس الخاتم ٠٠ بـــل هو ٠٠ هو الذى سقط !

« ١٩٧٨ »

سباق مع القدر

لا شىء فى تلك اللحظة كان يستطيع أن يوقفنى ، ألا حادثة تطيح بحياتى ، أو جنية تصعد من قلب النهر ملوحة لى بذراعيها تنادينى ، أو موكبا لشخصية كبيرة توقف بمرورها حركة المرور كلة فأتوقف أنا الآخر بالتالى ! شىء من ذلك النوع لم يحدث ، ومع هذا، فقد وجدتنى ، اذ لمحتهما فجأة يسيران على الكورنيش ، قرب مرسى « الفونتانا » للقوارب ، اليد فى اليد ، اكعروسين ، لا بل كخطيبين ، وكانفجار النبع ، شع فى رأسى « الحادث » ·

أحمد ·· وكاميليا ؟!

صحت فوراً على السائق ·

– اقف هنا ياأسطى ·· لحظة واحدة من فضلك ·

على صوت الفرملة ، التفتا ، وما ان رآيانى ، حتى هتف الاثنان فى لحظة واحدة بأسمى ·· وعناق حار لأحمد ، وسلام أكثر حرارة ، يعوض العناق ، لكاميليا ·

– رغم أنى مستعجل جدا ، قلت لايمكن ·· لازم أسلم عليكم ·

فى عينيها الصافيتين العسليتين وكانفجار النبع أيضا ، شع الحادث ، مازال السر بينى وبينك ياكاميليا محفوظا بين الجوانح ٠ لم أبح لأحد ٠٠ ولن أبوح ٠٠

- تسمحوا تاخدوا نمرة التليفون ٠ لازم نقعد ٠٠ كام سنة دلوقت يا أحمد !

- مَن سنة ٥٥ ٠ شوف يبقوا كام ؟!

وأنا أعطيهما رقم التليفون ، ضاحكا وسعيدا ، ثم ألوح مودعا ٠٠ وأعود الى التاكسى ٠

●

حقا ٠٠ كم سنة ؟!

يغمض الانسان عينيه أحيانا ليرى ! مهما بدت الايام أحيانا مجدبة ، فقد عشنا أيها الأصدقاء زمنا ! كأننا مررنا بعصور وعصور ، انما فى ذلك اليوم بالذات ، حيث بدا القدر مؤلفا لأعقد المواقف ، وليتصرف الانسان ٠

ذلك اليوم ، والمشهد تحت سفح القلعة ، داخل قفص كبير مهول من الحديد ، هو « سجن مصر » انما القفص فى ذلك اليوم كان فى عيوننا جميعا بلا قضبان ، سواء الذين جاءهم فجأة ، أمر بالافراج أو الذين اشتد بالتالى عندهم الرجاء ، كنا جميعا نغنى ونرقص وننشد ٠٠ وأنا وأحمد ، نتبادل نظرات الفرح ، وعهد باستمرار الصداقة : لمدة عامين فى حجرة واحدة عشنا ، وفى ليلة واحدة قبض علينا ، وفى ليلة واحدة يفرج عنا ، وحتى وهم يحتفلون بنا ، جلسنا بجوار بعضنا !

أكذب ان قلت انى كنت فرحا لأحمد ، أكثر مما كنت فرحا

لنفسى ، وانما فرحتى بخروج أحمد كانت فرحة مضاعفة فما أكثر ماخايلنى وجه كاميليا ، مشعا بالفرح ، وهى تراه ــ فجأة وعلى غير انتظار ــ داخلا عليها : أحمد ‧‧ عريسها التى لم تعش معه أكثر من شهر واحد ، ثم جاء ‧‧ زوار الليـل ‧ واختطفوه ، وفى الغياهب ضاع منها زمنا ‧ كانت مثل ايزيس تبحث عنه فى كل مكان ولا مكان ! ‧ وفى آخر مرة رأيتها فى احدى الزيارات ، من خلال الاسلاك ، كان صفاء عينيها العسليتين قد شابته حمرة البكاء: ضيق فى العيش ، وضيق مع الأهل ، واليأس فوق بعضه أمواج وأمواج من الظلمات ‧

ما أروع شعاع الشمس ينبثق ثاقبا من قلب الغمام ‧ وانظر لأحمد من جديد ،جالسا كالعريس فى قلب الاحتفال وقد ارتدى ــ لأول مرة مثلنا ــ بدلته التى كان قد خلعها على باب السجن منذ سنتين ، ومع النظارة الطبية التى تزين وجه الدقيق الجميل الحليق عاودنى منظر « المعيد » بكلية الآداب ، الأنيق الوديع ‧ واضغط على يده ، مؤكدا فرحتى من جديد : ستخرج الى الشـــوارع ‧‧ والزحام والمسارح والسينمات ‧‧ ونهر النيل ‧‧ و ‧

ــ ولا تنسى ان تدعونى ، على أكلة سمك مشوى ، من صنع يد كاميليا بالذات ‧

ــ وعد منى أيها الصديق ‧‧ أول اكلة سمك ، ستكون لك ، وبك وقبل ان ينقضى أول اسبوع (ويضحك) ايها الاعزب الشريد على الدوام ! اطمئن ‧‧ سنزوجك فى الحال ‧

ونضحك ‧

ــ رقصة اخيرة ايها الاصدقاء ‧

ونحن نصفق على ايقاع الرقصة مع المصـــفقين ، ونغنى ،

فوجئت بيد أحد الزملاء تضغط على ذراعــى ، ثـــم تجذبنى برفق وهدوء ، ثم ، بصوت هامس اثار هواجسى ، فضلا عن ملامـــح وجهه المنقبضة ٠٠

ـ تعال ٠٠ عايزينك بسرعة ٠

ـ فيه ايه ؟! الغوا أمر الافراج ؟

ـ أحمد جاله جواب من مراته ، وطالبه منه الطلاق !

كمطرقة نزلت على رأسى ٠٠ وجدتنى اترنح ٠٠ وعلى وشك السقوط رافضا التصديق وقد تملكنى رعب فظيع ٠

ـ مستحيل ٠٠ مستحيل ٠٠ كاميليا ، مش ممكن ٠

(وفى سخرية مرة) ـ حتقرا الجواب دلوقت ٠٠ مش عارفين نقول له ، أو مانقولوش ؟!

انتابتنى رغبة جارفة فى أن أعود الى « أحمد » واحتضنه فى حناياى احميه من الضربة التى جاءته من أقرب الاقربين ٠٠ واتلقاها بدلا منه ٠٠ غير ان زميلى كان يحث الخطى ويقول : لازم نناقش الموضوع بسرعة ٠٠ قبل ما تخرجوا ٠٠ نعطيه الجواب أو مانعطيهوش ؟

من تقاليد الحياة المعترف بها فى السجن فى تلك الايام ، ان جميع الخطابات كانت تفتح بمعرفة اثنين « موثوق بهما » يقرآنها قبل ان يتسلمها أصحابها حرصا على « الأمان » !

أى فاجعة ، أو ضحكة مجلجلة ساخرة يطلقها القدر فوق رءوسنا فى هذا اليوم ٠٠ بل وفى هذه الساعة بالذات ٠٠ ساعة الفرح ٠٠ ليضعنا فى الامتحان وليرى : كيف يتصرف الانسان !

غامت عينـــاى ٠٠ كيف يا كاميليا ٠ كيف توجهين كل هذه

الضربة لأحمدك الوديع الرقيق ؟! أما لكنت قـــادرة على مقاومة اخطبوط اليأس ولو بضع ساعات اخرى ويتأخر الخطاب ؟

ودون حتى ان اقرأ الخطاب ، صحت : لا ٠٠ مستحيل نقول له ٠ مستحيل نقلب الفرح محزنة ، مش بالنيسبة له بس ، بالنسبة للجميع ٠

كان الزميل الثـــالث يجلس فى أحـــد الاركان ، جلســته القرفصائية المعتادة ، نقطة الارتكاز فى وجهه شارب كث غزير ، وعينان صقريتان يتكلم بهما معظم الاحيان ، ويقول ما لايريد ان ينطق به اللسان !

نطق فى هدوء : اسمع يا زميل ٠٠ الموضوع ده موضوع خطير ٠٠ قبل ما نتناقش فيه ٠٠ لازم نرمى العواطف بعيد !

ادركت على الفور رأيه ، هممت بالاعتراض ٠٠ اسرع معترضا بكفه :

ـ اعطنى فرصة أقول رأيى أنا كمان ٠٠ أنا عارف اد ايه وقع الخبر حيبقى مؤلم ٠٠ لكن حياتنا ايه غير الألم ومواجهـة الصدمات ؟! دى دروس لازم نتعلم منها ٠٠ ودرس النهاردة من أخطر الدروس ٠ لازم يتعلم منها الجميع : المكافح لا يصح أنـــه يتجوز إلا واحدة بمكافحة زيه ٠ لازم أحمد يواجه نفسه بالحقيقة دى قبل ما يخرج ٠٠ أحمد انسان نادر وعظيم وما يصحش يربط نفسه بانسانه ضعيفة زى دى ٠٠ ثم مين عارف (والتمعت عيناه) يمكن تكون متآمرة مع البوليس عشان تحطمه !

اشحت بوجهى من فظاعة الاتهام ومن قسوة المنطق ٠ كرهت « رتم » صوته الهادىء المثير ٠٠ شحبت رومانتيكية الكفـــاح فى نفسى ، صحت رافضا ، ومعترضا : ايا كان ٠٠ أنا شخصا غير

موافق انكم تعطوه الجواب ٠٠ نسيبه يعرف الحقيقة منها عى ٠٠ أو ٠٠ سيبونى اتصرف انا ٠٠ انا خارج معاد ، مش حاسيبه ٠ حاروح البيت معاه !

رفع الزميل الآخر يده مؤيدا وقد راى شبح الفاجعة ينزاح عن جو الاحتفال ٠٠ وقال :

ـ أنا موافق ٠٠ وبناء عليه ، نقطع الجواب !

قال ذو الشارب الكث ٠٠ وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة الخاضع على غير اقتناع :

ـ اتنين ٠٠ ضد واحد ٠٠ اذن فأنا خاضع للاغلبية ٠

ورحنا نمزق الخطاب نتفا صغيرة بينما كانت ضجة الرقصة المرحة الأخيرة تصل الى ذروتها ، فاندفعت الى جـــوار أحمد ، أصفق مع المصفقين والمغنين لكن قلبى من الداخل كان يدمى بالسر الحزين !

فى الشوارع كان أحمد مبهورا بالحرية ، وكان يقول : لو ان لى جناحين واطير بهما لأرى كاميليا بسرعة ٠٠ وكنت أقول له فى نفسى لو ان لك جناحين لفكرت فى قصهما ٠٠ اذ يجب ان يحدث شيء قبل ان تراها وتراك ٠

ونبتت الفكرة :

ـ ايه رأيك يا أحمد ٠٠ آجى معاك ٠٠ اسلم على كاميليا ونشرب فنجال شاى بيتى وبعدين ٠٠

ودون ان أكمل ، وبحماس شديد وهو يحتضـــننى بحنان : يا سلام ، ونسهر الليل مع بعض و ٠٠

ـ لا ·· سهرتك الليلة معاها ، وأنا سهرتى ·· فى القاهرة العظيمة ·· الليلة القاهرة كلها حتبقى ملكى ·· أنا العازب الشريد على الدوام ·

وضحكنا ·

حين دخلنا الشـــارع واقتربنا من البيت ·· كانت خطواته تسرع ·· أما أنا فكان قلبى يخفق ، وازدادت الخفقات سرعة ·· وانا أرى طفلة صغيرة تطل من احدى النوافذ وتصيح بل وتصرخ فرحة مهللة :

ـ ابيه أحمد ·· ابيه أحمد ·

ولوح لها بذراعه ·· لكنها فى لحظة كانت قد اختفت ·

قال أحمد : دى اخت كاميليا ، كويس انها تقول لها ·· عشان تخفف وقع المفاجأة !

وبدأنا نصعد السلالم ·· ودقات القلب تتصاعد وتتصاعد ·· فى منتصف السلالم فوجئنا بالصغيرة قد وصلت الينا قفزا ·· واحتضنها أحمد ، ومضى يقبل فيها بل ويقفز بها فى الهواء · هنا انتهزت الفرصة ·· ومضيت اصعد ودقات القلب تزداد تصاعدا ·· وعلى باب الشقة ، رأيت كاميليا واقفة شاحبة الوجه مصفرة تكاد تسقط ·· اسرعت هامسا : اطمئنى · الجواب ماوصلوش ·· قريته ·· وقطعته !

اتسعت عيناها ·· فرحا ، وبمعجزة هائلة قاومت نفسها من أن تعانقنى ·· !

بعد لحظات ، كان أحمد يصعد حامـــلا الطفلة ·· ورأيت

كاميليا تقفز اليه فاردة كل ذراعيها ٠٠ كل نفسها والدموع تنهمر من عينيها ٠

ـ أحمد ٠

ـ كاميليا ٠

وعناق ٠٠ يندر ان يحس بجماله وبهجته ، اثنان من البشر !

وفى لحظة ، كنت قد اختفيت ، تاركا لهما الليلة ، ومضيت احوس وحدى ٠٠ انا الشريد الأعزب ٠٠ فى شوارع القاهرة ٠

« ١٩٧٦ »

الخروج من المربعات الضوئية

حين قذفوا به الى الزنزانة وأغلقوا عليه بابها ، ظل واقفا يتسمع وقع الأحذية الثقيلة ، وهى تبتعد بالتدريج ، تصك فى رأسه اضعاف ما تصك الكعوب الحديدية فى بلاط صالة العنبر الجهم الكبير وعادت الكلمات تطرق فى رأسه وتدوى .

ــ سنتركك لنفسك ساعة ونعود . خير لك من الآن أن ترحم نفسك . ساعة ونعود .

تحسس « الحبة » فى جيبه السرى ، أعلى سرواله الداخلى . الشىء الوحيد الذى أبقوه من كل ملابسه ، ثم ألبسوه بدلة السجن . ذلك هو المهم : فلتت « الحبة » الصغيرة .. حبة الخلاص . انها من الدقة ، بحيث فاتت عليهم فى التفتيش ، وانها أيضا من النعومة بحيث لاتحتاج الى ماء لبلعها . لحظة واحدة ، وبحركة خاطفة ، وينتهى كل شىء ، كل شىء !

ــ أجل . لن أمكنهم لحظة من تعذيبى . لن أمكنهم منى .

وفكر ان يخرج « الحبة » من مكمنها ، ويتأملهـــا .. يتهيأ نفسيا للانتحار .. للحدث العظيم : أن يقتل الانسان نفسه بنفسه

•• باختياره ، لكنه أجفل • سقطت يده الى جانبه • لم تأت اللحظة الحاسمة بعد •• بقيت له فى الحياة ساعة بلا تعذيب ، فليعشها •• وبهدوء ، كانت انفاسه لاتزال تتدافع ، وأحس بخلخلة فى ركبتيه ، وتنبه ـ كأنما يرى لأول مرة ـ أن الزنزانة بها سرير • جلس على حافة السرير •

عاوده الصوت : أجلس واسترح على السرير • مدد ساقيك واسترخ بأعصابك ودعك من هذا الجنون • فكر على الأقل فى ابنتك الصغيرة •• اللطيفة •• نحن لا نريد بك أنت شخصيا أى سوء !

هب واقفا كالملسوع • التصق بظهره بالحائط ، وراح ينظر الى السرير :

ـ هذا أول اعدائى : هذا جزء من الخطة اللئيمة لاضعافى • لن أنطق بحرف مما يريدون • والموقف فى يدى • (وعاد يتحسس الحبة) •

وحانت منه لفتة حذرة الى العين السحرية التى تتوسط الباب الضخم الكالح • ربما يتجسس الآن أحدهم عليه • اعطـــى ظهره للباب • وقعت عيناه على الكوة العالية الصـــغيرة ذات المربعات الحديدية السوداء ، تتسلل منها أشعة ضوء باهتة ومتهالكة لاتكاد تصل الى أرض الزنزانة السوداء •• الأسفلت •

جال بعينيه فى فراغ الزنزانة • فراغ يمتد مستطيلا الى أعلى والى أسفل •• كجب عميق محفور لدفن الاحياء الموتى ، وســرت فى جسده قشــعريره • عاد ينظر الى الكوة • خلف المربعـــات الحديدية السوداء مربعات ناعمة زرقــاء • هل يمكنهم أن يحبسوا السماء هى الاخرى ؟ اختفت المربعات السوداء والزرقاء ، ورأى شوارع وميادين وحدائق ونافورات وبيوتا •• بيوتا دافئة بالحنان • استقرت عيناه هناك على شقة صغيرة •• لها شرفة أصــــغر ••

لكنها على أية حال كانت تسع وقفتك مع الصغيرة وانت تشير لها على اسراب الحمام ، وقت العصارى ايام الصـــيف ، وتحكى لها بحنين عن الطيران ·· لسوف تطيرين معى يوما الى بلاد العالم ·

ــ فكر على الأقل فى ابنتك الصغيرة · تستطيع ان تكون معها بعد ساعة ·

سقط الطائر فى الفخ ووقع ·

هز رأســـه بعنف · أسراب مذعورة من الحمــام تتخبط · ورأى بقية الرفــاق بعد الضــربة ، مذعورين لحظات ، يغيرون مواقعهم بسرعة · ثم ·· لابد أنهم الآن لائذون باحدى مكامنهــم السرية ، وأيديهم على قلوبهم فى جميع الاحتمالات · بل فى احتمال وحيد ·

ــ ماذا لو ضعف واعترف ؟!

ــ وهم يحسون بالأرض تهتز من تحت أقدامهم ، وسيلجأون معه بالتأكيد الى التعذيب الرهيب ·

وينطلق صوت « عاكف » مستنكرا ·· ومدافعا ·

ــ لا · لن يعترف · انا واثق بالذات هذه المــرة · انتـم لاتعرفون · أنا الوحيد الذى يعرف · لقد حســـب حســـاب هذه اللحظة ، فأخذ معه سلاحه !

ثم يخبرهم بالسر العجيب · السر الذى ضحك عليه أول الأمر ثم عاد بايمان يباركه وهو يخبطه على ظهره بود : رومانسى حتى فى الكفاح لقلب نظام الحكم ·

سيخبرهم بالحكاية من أولها : حين ابلغته التكليف بالمهمة لم يتردد للحظة ، بل تلقاها بفرح · قلت انتظر قليلا · وشرحت له

خطورة العملية · أن هناك احساسا بعدم الطمانينة على المطبعة · ان ضرب المطبعة يعني ضرب قلب الحركة فى الصميم · لابد من تغيير مكانها بسرعة · لم نجد خيرا منك ليقوم بالمهمة · هل تساعدك ظروفك هذه الأيام ، أم نسندها لغيرك ؟ فكر الليلة . وقل لنا غدا فى الصباح ·

ـ لماذا الصباح · المسألة لا تستدعى · انا الذى ساقوم بها ·

الغريب أنه ، وهو يؤكد قبوله للمهمة ـ لايـزال يذكر ، فى نفس تلك اللحظة ، داهمه احساس عميق بانه هذه المرة واقع · من فترة غير قصـيرة ، وهو يحس بذبذبات غريبة فى الجـو من حوله · هل بدأوا يتنبهون اليه ؟ ام هى غريزة الدفاع عن النفس ولابد مع تصاعد العمليات والصدام ان يتصاعد ايضا حذره ؟

وحين شد « عاكف » على يده ثم مضى عنه وانفرد بنفسه ، وراح يستعد نفسيا للمهمة ، وجد الخاطر مرة اخرى يداهمه·· ويلح عليه : ماذا لو وقعت فعلا هذه المرة ولجأوا معك الى التعذيب ؟ لقد حرقوا المدينة ، فهل يصبح كثيرا عليهم حرق انسان ؟ كيـف بالنار · التعذيب البشع البطىء · اقشعر جسده · مرت بخياله قصص التعذيب البشعة ·· ثم قصص السقوط الابشـع : الذين كانوا أبطالا ، ثم بالتدريج ، ومع نقطة الماء النازلة بهدوء وانتظـام فوق الرأس ·· الرأس المحلوق الأخضر . بالضبط فوق المـخ · نقطة ، نقطة ، الى ان يتم التفكك والانهيار فالاعتراف الكامل أو ·· ·· فالجنون المطبق !! وهؤلاء الذين أرقدوهم ممددين بظهورهم على الأرض ، وبالشوم الضخم على بطونهم · ضربة واحدة على البطن ، على الامعاء · شهقة واحدة ويعقبها الصمت الأبدى ·

هل تعجلت فى قبول المهمة ؟ وتذكر فجـأة نوبة الآلام التى

تنتابه فى « الغضروف » بين الحين والآخر : اذن فالضـــرب على البطن أهون ٠

وأحس كأنما الضربات نازلة بالفعل مرة على بطنه ، ومرة على ظهره ، وراح يتلوى ٠

ــ لا ٠٠ لا على الظهر ولا على البطن ٠ لن أسمح بشىء من هذا ولو للحظة ٠ هنا الموت انتحارا أفضل ٠٠ ينقذ الانسان نفسه وشرفه ٠ لحظة واحدة وينتهى كل شىء !

وقرر ٠

نظرات الدهشة وعدم التصديق التى ارتسـمت على وجـــه صديقه الطبيب ، حين ذهب اليه فى بيته لا فى عيادته ٠٠ وفاجأه يطلبه :

ــ أريد نوعا من الحبوب ، اذا تناول الانسان منه حبة واحدة سقط على الفور ميتا ٠٠ فى هدوء ٠٠ بلا ألم ولا ضجيج !

مازال يذكر النقاش الحاد الذى جرى بينه وبين صـــديقه الطبيب ، الى حد تهديده الجاد بالقطيعة : أنت تعرف جيدا حبى للحياة ، حبى لابنتى وامرأتى ٠٠ حبى للوجود فى حد ذاته ٠٠ هل تتصور انى سأفرط فى حياتى بسهولة ؟ ولكن افترض انهـــم لجأوا معى الى التعذيب وأنت تعرفهم ٠ وتعـــرف أيضا مأســاة الغضروف عندى ٠٠ ماذا لو انهالوا عليه بالضرب ؟ تظن انى سأحتمل عليه ضربتين ؟ هنا الخوف يا صديقى ٠٠ فأنا بشر ، بشر وقد انهار ٠٠ وتتساقط منى الكلمات والاسرار ٠٠ ويضـــيع كل شىء ٠ يضيع الرجل بضياع شرفه ، عند تلك النقطة تصاعد بينهما النقاش وازدادت حدته : الحياة أم الشرف ؟ لو تعارض الاثنان : حياة الانسان مع شرفه ، أيهما تفضل يا صديقى الطبيب ؟! ثـم

أن المسألة ليست مسألة شرفى فقط ·· الكفاح ·· لابد أن يتصاعد وأن نضمن استمرار صعوده ·· أنت نفسك لا تكف عن السخط والشكوى · أنت نفسك قلتها أكثر من مرة : الحل الوحيد هو الثورة ·· هاهى قوى الثورة ماضية ولكن فى الخفاء ·· اذن ساعدنا على أن نبقى أقوياء ، أو نموت شرفاء !

رائع يا صديقى الطبيب انك اقتنعت فى النهاية ، ولو أنك لم تعطنى سوى اسم الحبوب ، ثم قمت أنا ـ بطريقتى ـ بشرائها ·

الآن ·· لابد أنك تعانى حالة ندم ، لو حدث وتناولت «الحبة» ومت ، ستحس ، أمام حزن الصغيرة وأمها ، انك أنت القاتل · وربما أنت الآن أيضا خائف · أن يأتى ذكر اسمك على نحو مافى القضية : لا ياصديقى الطبيب العزيز ، ذا الوجه الوسيم الأبيض المضىء · اطمئن واهدأ بألا · لو حدث · فاعلم أنك أنت الذى ساعدتنى على أن أموت رجلا ، فما الرجل ياصديقى ·· يارجل التشريح ؟! هل هو مجموعة خلايا وغدد وعروق وشرايين وأمعاء وعظام وكيس من الجلد الرقيق يجمع كل هذا ؟!

الرجل قيمة ياصديقى ·· الانسان قيمة يا صغيرتى التى كنت دائما احدثك عن الطيران ·· وحكايات البطولة ! لو حدث ، فسيحدثك الرفاق من بعدى عن طيران الروح ، فليست المادة فقط هى التى تطير ، بل الروح أيضا ، وتحلق ·

ـ ولم لا تضع كلامك هذا تحت بند « الانانية » ؟ أتظن أن هذا سيكون عزاء للصغيرة ·

ـ نعم يا بابا ·· أريدك أنت · أريد كفيك وحضنك وكلماتك ولعبك معى فى الحديقة الواسعة المطلة على نهر النيل !

ـ أنا أيضا أريد يا صغيرتى · بل أشـتاق ·· أشـتاق · ولكن ··

ـ تستطيع أن تكون معها بعد ساعة · استرخ ·· وفكر على مهــل ·

عاودته وجود العسكر الخشنة الفظة الجهولة · والضـابط الطويل النحيل ، ذو الأهداب المنتوفة · العينان ثعبانيتان ، ومع هذا فى حركة الجسد رقاعة كريهة توحى بشر مستطير ، ثم وهو واقف على الباب ·

ـ تذكر ان الملك شخصيا يتتبع القضية ، ولابد أن يعرف كل من له صلة بهذه المنشورات ، وأين تطبع ·

ـ ضربة كبرى للكفاح وللرفاق سـتكون ، وسـأكون أنا الضارب لا الملــك ·

ـ ساعة ونعود ، لقد اعذر من أنذر ·

ورأى أبواب جهنم تفتح ، صرخ فى أعماقه ·

ـ ألا التعذيب الجسدى · الا الضرب على الغضروف ·· نقطة ضعفى ·· آه لولا الغضروف ·

وتقلص كل كيانه فى وقفته ، كأنما التعذيب الحقيقى بدأ · لا ·· لن أحتمل ·· لا مفر من أن ··

فجأة · شد قامته وارهف أذنيه ·· الكعوب الحديدية مـرة أخرى ، وثمة همهمات تقترب · الوحوش قادمون · فلأخرجهـا بسرعة · أتناولها فى لحظة وينتهى الأمر ·

تخشـبت يداه الى جانبيه ·· ذهبت نظراتـه الى مربعات الضوء ·

ـ لا ‥ ليس هكذا بسرعة ‥ انه الموت يحدث مرة واحدة ، أجله الى اللحظة الحاسمة ، الى اللحظة التى تحس فيها انك غير قادر على الاحتمال ‥ وانك أصبحت تماما على شفا الانهيار . فى تلك اللحظة تستطيع أن تقفز طائرا منهم الى هوة الموت بارادتك ‥ والموت فى يدك ‥ الموت فى جيبك ٠ تستطيع أن تستدعيه فى أية لحظة ‥ بمشيئتك ‥ و ‥ وبعد أن تكون قد صببت عليهم اللعنة ، نعم ‥ وأعلق دمى فى رقبتهم ‥ لا يمكن أن أعفيهم من مسئولية موتى ٠

الخطوات تعلو وتدوى ‥ كل شىء هنا يضاعف من بشاعة الصوت : الاسلاك والبلاط والاحجار والأسفلت واسياخ الحديد ، والعنابر الثلاثة القريبة ٠ كل عنبر بثلاثة أدوار ومئات الزنازين ٠ لكنهم القوا به فى زنزانة بعيدة منفردة ‥

الخطوات وصداها تعلو وتقترب تدتلط فى رأسه وتتخبط ، ورأى الباب يفتح ٠

ودخلوا عليـــه ‥

الضابط ومجموعة العسكر ٠

●

بحركة تلقائية ، كمن يتحسس سلاحـــه ، وضـــع يده على موضع الحبتين ٠

ـ هل أنت متعب ؟

قالها الضابط وقد لمح حركة يده بنظرة صقرية ‥ مستريبة ٠

ـ لا ‥

وأسقط يده فورا الى جانبه ‥ وأسرعت دقات قلبه اذ رأى

الضابط يقترب منه ثم يمد يديه ويتحسس حول خصره بحذر · هل سيكتشف الأمر ؟

ـ أنتم قوم خطرون · لا أمان لكم ·

ـ فتشناه جيدا يا سعادة البيه ·

أحس بارتياح عميق ··

كان يظن انى أخفى مسدسا ، نعم ·· أنا أخفى مسدسا ولكن من نوع آخر ·· وأحس بلسعة حزن · سأقتل به نفسى ، ولاأستطيع للأسف أن أقتلكم به ··

ـ هل استرحت جيدا ؟

ـ نعم ·· (غمغم بها) ·

ـ اذن فأنت مستعد !

ـ لمــــاذا ؟

ـ تقول لنا ·· كل شىء !

ـ أنا لا أعرف أى شىء ·

ولمح فكى الضابط يرتعشان رعشة خاطفة · والعسكر ، ندت عنهم حركة الاستعداد للانقضاض · كلاب صيد تستعجل صــدور الاشارة ··

ـ لآخر مرة أقولها لك ·· أعقــل وتكلــــم ·· أنت لاتعرف ما الذى سيحدث لك ·

ـ أرح نفسك وأرحنا ، يا مغفل ··

صرخ أحد العسكر فيه ·· ورأى شومة تهتز ·· وأخـــرى

ترتفع فى الفضاء · وأحس بأنفاسه تذهب ، ماكان يجب أن أؤجل · كنت زمانى انتهيت · ومع هذا فالموقف فى يدى ·

ـ ماذا قلت ؟ ·· لاتريد أن تتكلم ؟

ـ قلت لك لا أعرف أى شىء ··

وبابتسامة بشعة ، مع رفعة حاجب ·

ـ هل تظن نفسك بطلا ·· أو زعيما ؟

ـ أنا لم أقل أى شىء !

ـ لم تقل ، ولكنك تتصرف ·· هه ؟ لقد حاولوا من قبلك وخروا ساجدين ·

قال فى عمق نفسه ، الآن أريد أن أموت · الآن حل وقت الموت ··

ـ يبدو أنك من الصنف اللئيم · لكننا نعرف كيف نتعامل مع صنفك !

هل يمد يده ويخطف الحبتين ؟ فى نفس اللحظة كانت الاشارة قد صدرت ، وحدث الانقضاض ، أحس بذراعيه تلتويان فجأة الى الخلف بشكل وحشى ، وخيل اليه مع الألم الصارخ أن الذراعين ستنفصلان ، أو انفصلتا عن الكتفين ·· ثم بضربة يد هائلة ـ بسيفها ـ على عنقه ·· خرجت منه شهقة ·· كأنها النفس الأخير · أحس أن العنق طار من فوق الكتف ، وانسان العين قفز من محجره ، ودارت به الدنيا رأسا بلا جسد ، أو جسدا بلا رأس · غير أن الدورة سرعان ما توقفت · وأحس بارتجاجة ضخمة فى بطنه ، ضربة حذاء فى البطن فانكفأ صارخا على الوجه ، غير أنه عاد فوجد نفسه يرتد الى الخلف اثر ضربة فى الظهر ، تبددت معها شظايا الوعى الباقية · وسقط على الأرض بلا حراك ·

ـ أنه يتنفس . أليس كذلك ؟ رشوا عليه بعضا من الماء ، من هذا الجردل .

ومع اندلاق الماء على الوجه الملتصق بالأرض .

ـ هذه عينة أولية .. يا بطل !

ومع احدى شظايا الوعى التى كانت تروح وتجىء : لا خلاص الا بالموت السريع أو أتكلم وينتهى الأمر . لابد أن ينتهى هذا العذاب على أى وجه . وفكر أن يدس يده بسرعة ويخرج الحبة ويبتلعها ، لكن العيون الشرسة واقفة له بالمرصاد .. سيحولون دون أيـــة حركة من اليد ، بل ان اليد نفسها والذراع .. أين هما ؟ وحاول أن يجرب الاحساس بوجوده الجسدى ، ليتأكد من انه لايزال على قيد الحياة .. ومضى يتأوه .

ـ اذن فقد أفقت .. عظيم .

وفوجىء بقبضة تجذبه جذبا من شعر رأسه الى أعلى ، ووجد نفسه معلقا يتطوح .

ـ هذا الشعر الناعم لن نحلقه لك ، بل سنقتلعه من جذوره . خصلة خصلة .. أيها المسلول الابله .

وعادت الركلات واللكمات والضرب بالهراوات .

ـ كل هذا فتح شهية لا غير .. أما الأكلة نفسها ، فلم تبدأ بعد .. أنت لا ..

ولم يسمع بقية الكلمات . أصبح جثة فى أيديهم تروح وتجىء وفق ايقاع الضربات .

ـ ابعدوا عن الرأس . انزلوا الى أسفل .

ـ اتركوه .

تركوه • سـقط •

ـ شيلوه •• وارموه على السرير •

ورفعوه من على الأرض ، وألقوا به على السرير •

ـ هذا يكفى الآن •

ثم خرجوا • وقفلوا عليه باب الزنزانة •

شيئا فشيئا كان يعود اليه وعيه • أولى علامـــاته أنه رأى سقف الزنزانة ، والحوائط ، ثم المربعات الضوئية • وخيل اليه أول الأمر أنه فى قبضة كابوس ، أو حلم فظيع ، لكنه أحس بسيخ محمى يخترق غضروفه والألم يخرج من الرأس•• بل من العينين • صرخ ! وحاول أن يرتفع بظهره قليلا عن السرير ، فقد يخف الألم • انبعثت منه صرخات الألم • ترك نفسه ذرات مفتتة على السرير •• وانتابته رغبة شديدة فى البكـــاء وفى النواح • لقد انهالوا على نقطة ضعفه • على عموده الفقرى • كم فقرة من الفقرات بقيـت مرتبطة باختها ؟ وأحس بشىء ما ثقيل على الشفتين ، عند ركنى الفم • رفع يده بجهد هائل يتحسس فمه • أحس بشىء لزج • وحين نظر فى يده ، رآها ملطخة بالدم • استبشع المنظر •

ـ متوحشين •• متوحشين •

ـ قلت لك اعقل وتذكر ان الملك شخصيا يتتبع القضية • ولو فشلت أنا معك ، فسيبعث لك برجال من عنده • رجال مخصصون لهذا • رجال خرس •• مخصيون • هل تعرف ما الذى سيفعله معك هؤلاء المخصيون ؟

وانتابته رعشة ، مع رغبة فى الغثيان • يعرف ماذا يفلعه العجز الجنسى عند بعض الرجال •• لا •• ليس عجزا •• بـل بترا •• يتحولون الى اكلى لحوم البشر كتعويض •

ـ لا ·· لم يعد لى احتمال ذرة من التعذيب أكثر من هذا ·

وتملكته رغبة فى النواح : المخصيون يا امراتـــى ·· وقد لا أصلح معك ان عدت لك حيا · انهـــم يودون ابادة الرجولة فى البشر ، بعد أن أفقدوهم اياها ··

هل يصبح للحياة طعم بعد ذلك ؟!

أحس بالمهانة ·

وان لم يفعلوا بى هذا ، فسأخرج محنى الظهر · تفتت عمودى الفقرى · لن اصلب عودى وأنا أسير مثلما يفعل الرجـــال ، بل والأطفال ! سأمضى بقية حياتى طريح الفراش ، وان سرت فمحنى الظهر ، واذن ما معنى الحياة · ومضى يتأوه ·

ـ اهناك حقا شىء فى العالم يستحق أن يعذب الانسان نفسه من أجله كل هذا العذاب ؟ (لكلمات الطبيب تعـــاوده) أكان عنده حق ؟ ·· « ·· ولماذا تتحمل أنت أوزار التاريخ ·· لماذا ؟ وأنت كنت تؤمن حقا بالتطور التاريخى ، وأنــــه قانون الحياة الطبيعى وان النصر فى النهاية للشعوب ، فلماذا هذه العجلة ؟! لماذا تضع نفسك فى منطقة الاحتراق ، بينما الآخرون يتفرجون ثم فى النهاية يأخذون هم الثمرة والضوء ؟ ·· تقول انك تتعجل التاريخ ؟ بل قـــل انك تتعجل موتك · ولن تخلف ضوءا للصغيرة وأمها ، بل حزنا مقيما ·· أجل ياصديقى الطبيب · وكنت ضحوكا معهـم ، فرحا بالحياة ، سعيدا بتلك الهناءات الصغيرة ، تصنع بعرقك ويديك عالما جميلا · وكانت الحياة يمكن أن تمضى جميلة وبســـيطة ، وتطور الحياة يمضى الهوينا ، لو لم أقابلك يا « عاكف » · فى البدء قاومتك بعضا من الوقت ، ثم أخيرا وجدتنى أنا الذى أجرى وأبحث عن مناطق اللهب · استهوتنى حياة الخطر العظيمة ·· أصبحت تلك هناءاتى السعيدة · أجل ياعاكف ·· لست انت المسئول · بالعكس · انت

فتحت لى بعض الأبواب المقفولة منذ الاف السنين ، فمضيت افتح باقى الأبواب ·· بانبهار ·· بابا بعد بـــاب ·· مفتونا بســـحر الاكتشاف ، وان عالما جديدا رائعا ، يمكننـــا صـــنعه لا لصغيرتى فقط ، بل لكل الصغار ·· بل ولكل الناس ·

الكان كل ذلك غرورا ·· ووهما بالبطولة ؟ ·· (ومضى يتقلب فى حمى الألم) وبعد قليل سيبتعدون وربما يأتى المخصـيون ·· لو فشلنا معك فسيأتى لك الحرس ·· المخصيون » !

سوف يأتى الدور عليهم ·· لم أعد بقادر · لم أعد بقادر ·

أسياخ الألم · وسقطت من عينيه دمعتان ·

ـ اما الاعتـراف الفورى ويكفـون عن هذا الجنون ـ أو الانتحار الفورى وقبل ان يجيئوا ، فيجدوننى جثة هـــامدة بــلا احساس ·

القرار السريع · لابد من قرار سريع ·

الانتحار هو الخلاص الوحيد · وبجهد هائل كاتما صرخات الألم ، استطاع ان يدس أصابعه فى المكمن السرى ، واخرج الحبة · أحس بها ملفوفة داخل ورقتها الصغيرة المرهفة · تدافعت انفاسه · أطبق كفه على الورقة ووسد ذراعه بحركة سريعة الى جانبه · ربما رآه واحد منهم يراقبه من العين السحرية · وضع كل وجوده فى اذنيه ، لم يسمع صوتا ·· الآن ·· فى هذا الهدوء العميق الشامل، سينتحر !! حل الوقت · لحظة واحدة وينتهى كل شـىء · ورأى نفسه ممددا محمولا داخل نعش ، ورجال من أهل الحى يحملونه على اكتافهم متجهين الى المقابر ·

ـ لاحول ولا قوة الا بالله · يقولون انـــه انتحر من كثـرة التعذيب ·

ـ بل يقولون انــه انتحر قبــل ان يبدأ التعذيب ، ليتجنب التعذيب ٠

ـ أما كان قادرا على أن يتحمل ! تعــالوا وانظروا نــوع التعذيب ٠

ورأى الصغيرة وأمها فى السواد ٠ الصغيرة أيضــا تلبس السواد ، وتصرخ مع امها فى التياع ٠

ورأى الرفاق يسيرون وسط الجنــازة ، منكســى الرؤوس بالحزن الجليل ٠

ـ بابا ٠٠ لماذا تركتنا يا بابا ٠ لمن تركتنا يا بابا ؟

اما كان قادرا على أن يحتمل ٠ كان لابد ان يحتمل ٠

ـ لكنه لم يعترف ٠٠ قلت لكم انه لن يعترف ٠

يا عاكف ٠٠ يا صديقى قبل ان تكون رفيقى الحبيب ٠٠ لماذا لاتبتسم لى ! هل انت غاضب منى ؟

عاكف يصرخ ٠

ـ أجل ٠٠ لا تنتحر ٠٠ اياك من الانتحار ٠٠ لابد أن تحتمل ٠٠ أو على الأقل أجل انتحارك الى لحظة اليأس المطلق ٠٠ آخر ذرات اليأس الكامل ٠٠ مازلت قادرا على الاحتمــال ٠٠ مازلت قادرا ٠

ـ والخرس يا عاكف .. والمخصــيون .. الآن الموقف فى يدى ٠ قد يفلت الأمر منى بعد هذا ٠٠ بعد قليل قد افقد القدرة عليه ٠٠ ويتم السقوط ٠٠ أنا لا أهرب ٠٠ أنا أحافظ عليكم ٠٠ أنا ٠

واحس فجأة بكل وجوده المتهالك ينتفض وتعالت دقات قلبه كالطبل ٠ سمع وقع الكعوب الحديدية تصك فى بلاط العنبر ٠ ها

قد عادوا ٠ وستفتح أبواب جهنم من جديد ٠ أسـرع ورفـــع يده بالورقة ٠٠ الى مستوى عينيه ٠٠ رمقها بنظرة ذاهلة ٠ أحس بها ترمقه : ولماذا تتعجل ؟ لماذا ؟ الآن أصبحت فى يدك ٠ بين أصابعك اصبحنا الآن مسيطرين على الموقف ٠ فى أية لحظة يمكن ٠ واذن فانتظر ٠ وأنا معك ٠٠ سأرحمك فى الحال ٠ وقتما تشاء ٠٠ المهم ان تكف عن الرعشة ، شدد قبضتك على ، أكـــاد أســـقط منك على الأرض ٠

ـ وتسقط جميع الأشياء ٠٠ بل انى موشك على السقوط ٠٠ لم أعد بقادر ٠ (وازدادت الرعشة) ٠

ـ عظيم ٠٠ احس بقبضـــتك تزداد قوة ٠٠ وحينما ينتهى التشريح ويكتشفون ذراتى ، سأقول لهم : قاوم حتى المنتهى ٠٠ حتى النهاية ٠ اياكم ان يلومه أحد على الانتحار ٠

ـ لم ٠٠ لم ٠٠ لم أعد قادرا ، أخاف ان ٠

وانقطع هذيانه ٠ فتح الباب ودخلوا ٠ نفس الوجوه ٠ لــم يأت المختصون ٠٠ سوف يأتون بعد ان يفشل هؤلاء ٠٠ ولكنهـــم سيأتون ليجدونى ميتا ٠

واستطاع أن يرى ابتسامة كريهة متزلفة على فم الضابط ٠

ـ هل أخذت راحتك ؟

لم يرد ٠

ـ أمازلت مصرا على انك بطل ؟ (وصرخ) انطق ٠ ليس عندنا وقت !

ـ ماذا اقول ؟ !

ـ اعترف بكل شيء ٠

ـ أنا ٠٠ لا أعرف ٠٠ أى ٠٠ شيء !

ارفعوه من على السرير ، وارموه فى الأرض ٠

وأحس بمخالب تطبق على بطنه ٠ ثم بجسده يرتفع فى الفضاء ويسقط على الاسفلت ، اشتعلت النار فى بدنه ٠٠ تأوه صارخا بلا وعى ٠

ــ اقفل فمك هذا ٠٠ النجس ٠ اياك ان تخرج اى صوت ، أربطوا رجليه ومدوه ٠

ــ لا ٠٠ لا ٠٠ لاتفعلوا هذا ٠

ــ تكلم ٠٠ ونحن لانفعل أى شىء !

ــ أنا ٠٠ أنا ٠

واستماتت يده على الحبة ، بل ان كل وجوده تركز فى كفه ٠ فليتداعى كل جزء فيه الا هذا الجزء ٠٠ يجب ان يظل محتفظا بها حتى اللحظة الأخيرة ٠ مازال فيه بعض عروق قادرة على الاحتمال ٠٠ والاهون ان يضربونى على قدمى ٠٠ بدلا من الضرب فوق الغضروف ٠٠ لكنهم كانوا قد انقضوا عليه وربطوا رجليه بحبل ورفعوا قدميه الى أعلى ٠

لم يأت الألم طافحا من القدمين ، بل من كل ذرة فيه ٠٠ طفحت منه صرخة العذاب ٠

ــ متوحشين ٠٠ متوحشين ٠

قهقة الضابط : نحن متوحشون ؟ نحن ارحم من غيرنا بكثير ، لم يأت لك المخصيون بعد !

صرخ : بل انتم المخصيون ٠٠ وانت المخصى ٠ نعم انت المخصى !

كأنما حدثت صاعقة فى الجو . ارتعب لها الضابط وارتعد معه كل اتباعه ، وتوقف الضرب رغم انه لم يحدث أمر بذلك وبصوت كالفحيح ، انما اختلطت به غنة رقاعة ٠

ــ ماذا تقول ؟! نحن ٠٠ مخصيون ؟! أنا ٠٠ مخصى ؟ ٠

وفجأة ندت عنه قهقهة بشعة ، تبعها قهقهة اتباعه ٠٠ كانوا جميعا يقهقهون ساخرين ٠

ــ نحن مخصيون ؟ ٠٠ ويقهقهون ٠

ورأى الضابط يضع يده فوق أعلى فخذيه ٠

ــ هل أخلع ٠٠ وأريك ؟

ــ ليس شرطا ٠ ان تكون ذكرا ٠ انما ٠٠ انت ٠٠ مخصى الرجولة ٠ مخصى الرجولة ٠ كلكم مخصيو الرجولة !

ــ كأنما ارتجاجه كبرى حدثت فى الكون ٠٠ لم ينتظروا الأمر انهالوا عليه مرة أخرى بجنون ٠

ــ مخصيون يا أولاد الكلاب ٠٠ مخصـــيون ٠٠ مخصـــيو الانسانية ٠

واستمات على الحبة ٠

كان قد بدأ ينسى الضربات ، ويركز بقدر مايستطيع فى الحبه وطاف به للحظة شعور سعيد : لقد قال مالم يريدوا ان يقوله ٠٠ والآن سيفسد عليهم ايضا متعة التعذيب ٠٠ يا حبوب الخلاص ٠ يا حبوب السعادة ٠٠ الآن حل الوقت ٠ سابتلعك فى لحظة وينتهى كل شىء ٠٠ وشرع يحرك يده ، أحس فجأة بشعور غريب ٠٠ حتى انه لم يصدق ٠٠ الضربات لم تعد تؤلم ٠ حدث خدر عجيب فى كل جسده ، هل ماتت الخلايا فلم تحس بالضرب الا كايقاع بعيد ٠٠

واحس برأسه ، وكله ، يطير ·· وان له أجنحة ·· هل عبرت جسر الألم ، جسر العذاب عبرته ·· وراح يتتبع الضربات تنهال عليه ·· أجل ·· لا ألم ·· واذن فلماذا الانتحار ·· وانفرجت اصابعه عن الحبة ·· كان يخيل اليه انه لايزال محتفظا بها ، لقد سقطت منه من زمن بعيد ·

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ، جن جنون الضابط واتباعه فمضوا يلهثون وهم يضربون ·· وخيل اليه انه يطير من المربعات الحديدية ، ليست حديدية ·· بل ضوئية ·· السماء فسيحة وعريضة وارض البشر تمـوج بالحياة ·· والصـغيرة ·· والحبيبة ·· والرفاق ·

واختفت المربعات الضوئية ·· واطبق الظلام ·

لكن حبة صغيرة على الأرض ·· كانت تشع بالنور وبالحياة وسط كل هذا الظلام ·

((١٩٧٩))

الأمــل .. والجــرح

خرجت من بيتى أعــدو فى الشارع بكل سرعتى ، كنت أرتدى بيجامة النوم ، لكنى لم أعبأ . لم تكن هناك لحظة تحتمــــل تغيير ملابسى . كان المهم أن الحق به .

كنت قد رأيته فجأة وأنا راقد فى سريرى ، مستيقظا لتوى من النوم . يمر مسرعا أمام النافذة . كتلة مجسمة . برداء فضفاض كأنه أجنحة . وكان لحركته خفق طائر مهيب من طيور الاساطير . أحسست بصوت قدميه المسرعتين على أرض الشرفة ، كأنه موجة بحر فى لحظات المد .

دق قلبى بالفرح ، وانتفضت من على السرير ورحت أعدو فى الشارع كى الحق به ، أمسكه بكل ذراعى وأتشبث به . اعانقه بكل الحنين والشوق . ألا يعرف انى من زمن طويل وأنا فى انتظاره ؟! فلماذا لم يتوقف لحظة عند نافذتى .. بابتسامة لا أكثر ، وتلويحة بالذراع : الى اللقاء .

ويواصل جولته فى المدينة .

مضيت أعدو . كان الشارع طويلا .. وخاليا . تراه وصل

الى نهايته ودخل شارعا آخر ·· أم دخل أحد هذه الشوارع الجانبية الصغيرة التى تفضى بدورها الى شوارع أخرى كثيرة ؟

لم يكن هناك وقت للتردد · فلأتبع احساسى · لمـــع خط من الضوء فى رأسى · هو بالقطع سيمر على نهر النيل · أول شىء يفعله العائد الى مصر بعد غيبة طويلة يذهب الى ضفة النهر ويأخذ نظرة يروى بها عطش الغربة الطويل ·· آه لو ألحق به هناك ·· آخذ يده فى يدى ونهبط جريا ·· نضحك مرحا ·· ونغسل وجهينا سويا بماء النيل · نغترف بقبضاتنا ونشرب ·· ما أحوج اجسامنا وأرواحنا الى طمى ·· الحياة ·

انحرفت مندفعا فى اتجاه النهر ·· أعدو بكل قوتـــى حتى وصلت الكورنيش · لم يكن هنـــاك أحد على الاطلاق · ليس غير الاشجار ·· وضوء ما بعد الفجر الفيروزى يكسو الفضاء ، ومجرى النهر ، والعمارات العالية المطلة على الجانبين ·

وفكرت : هذا هو غرب المدينة · ربما فضل ، بقوة الشوق · أن يبدأ جولته بناحية الشرق : القلعة والمقطم وزينهم وباب الشعرية والمقابر ·· مقابر الخفير والوزير والسيدة نفيســـة ·· لا ·· لا أظن أنه يتذكر الموتى أول لحظات الوصول · أم أنه الوعى بالتاريخ يولد فى النفس أيام الاغتراب ؟ يقولون أن جذور الوطن تمتد أكثر فى قلب الانسان وهو بعيد عنه · وكلما طال البعاد كلما نمت وامتدت فى قلبه الجذور ·

فلأواصل العدو فى أى اتجاه ·· سوف أترك حركتى لقدمى ·· أدخل أكبر عدد من الشوارع والحوارى والميادين · ولو استدعى الأمر أن أدق على أبواب بعض البيوت سأدق عليها واسأل عنه ·

مضيت أعدو ·· توقفت فجأة وأنا أتأوه وانحنى على قدمى وأمسك بها · أخرجت قطعة زجاج صغيرة مسنونة · ورأيت الدماء

تنزف من قدمى · لم أعبأ · ليس هناك وقت أضيعه فى تضـــميد الجرح · لو قابلته فهو الذى سيضمد جرحى · وجميل أن يعرف أنى نزفت دماء لكى أراه · ليس دماء فقط ، بـــل نزفت شـــهورا وأعواما من عمرى · ومضيت أعدو · خفت سرعتى بعض الشىء · وكنت أعرج ناظرا فى كل الاتجاه · بشبق الشوق · لو اصطدم به فى أية لحظة ، وأعيش زخم العناق · أملأ به روحى ، وخلاياى ·

انتبهت فجأة على يد تمسك بى من الخلف بقوة وعنف

ــ أعطنى بطاقتك ·

كان واحدا من عسس الليل ·

قلت وأنا أحاول أن أخلص نفسى من قبضته ·

ــ بطاقتى ·· تركتها فى البيت ·

ــ اذن أمامى الى قسم الشرطة ·

لم أكن أريد أن أجرح اللحظة · قلت متجاوبا :

ــ أمامك الى قسم الشرطة ·

وسرنا · فى الطريق سألنى : اسمك ·· وعملك ؟

حين قلت له أسمى وعملى · توقف عن السير وارتسمت على وجهه الدهشة الممتزجة بالريبة · أسرعت قائلا :

ــ لا تظننى مجنونا · كان الأمر لابـد أن يســير على هذا الوجه ، لم يكن هناك وقت لاغير ملابسى ولا حتى لارتداء حذائى · كان لابد أن أجرى بسرعة لألحق به ·

سألنى ودوائر الشك تتسع فى عينيه : من هو ؟

بماذا أجيبه ؟ لو قلت له الحادث بالضبط لن يفهمنى · فليكن كلامى معه ·· بالرمز ·· قلت له : انه ·· ابنى · منذ سنوات وهو

غائب عنى · ولم أكن أعرف له أرضا ·· واليوم رأيته · لمحته يمر مسرعا أمام النافذة ، فجريت ملهوفا فى الشارع لألحق به ·

قال مستنكرا بغضب : أى ابن هذا الذى يمر على بيت أبيه بعد غياب طويل كما تقول ولا يدخله ؟

اختلط الخيال بالواقع ، والحقيقة بالرمز ·

قلت متنهدا من أحشاء القلب : الحق انى أنا المسئول · لقد ربيته على انه ابن للعالم أكثر من كونه ابنا لى ·· كما أفهمته أن تحولات رائعة تحدث للكائن الحى ، وان الانسان يمكن أن يوهب قدرات الطيور · وصدحت معه المعجزة · انطلق يعيش أولا كابن للعالم ، وليس فقط كابنى · وها هو اليوم بعد أن عاد بعد الغياب ، يعيش أولا كابن لمصر ·· يجوب آفاقها · يحتضنها ·· يحتويها · ثم بعد ذلك يأتى الى ابيه · ويحتضنه ·· يا له من عناق سيكون ·

وزادنى الشوق انفعالا : اننى ·· منذ لحظة رؤيته ، وأنا اتنفس ببساطة · أحس أن عنصرا جديدا حلوا أصبح يسرى فى الجو ، وأن الهواء خف وزنه ·· وأن ··

ولم أكمل ·· كان قد بلغ بى التأثر ان تهدج صوتى ، وقاومت دمعة أحس بها الشرطى ·· فقال لى :

أسمع · أنت فى حالة غير طبيعية · وستتعذب كثيرا لو ذهبت بك الى قسم الشرطة ، وسأتعذب أنا أيضا معك ! امض الآن الى بيتك · فلو كان اسمك وعملك حقا كما تقول ، فماذا سيقول الناس عنك ؟ ·· ها هى المدينة صحت والناس ملأوا الشوارع ·

وانتبهت · كانت المدينة قد بدأت ملحمتها الجهنمية اليومية المألوفة · وأدركت حالى ، وأنى بالبيجامة ، وحافى القدمين ·· والقدم اليمنى تنزف ·

تداخلت فى بعضى · سحبت نظراتى عن الناس والاتوبيسات والعربات والموتوسيكلات ·

التمست طرقات جانبية · سرت بجوار الجدران · وصلت بيتى · لحسن الحظ لم يكن البواب موجودا · ولا أحد من السكان ، لحظة دخولى ·

دخلت حجرتى · ربطت جرحى · عدت الى سريرى · واصلت رقدتى كما كنت ·

كان جرح قدمى يؤلمنى · لكن ثمة نشوة كنت أحسها فى الألم ، وأنا أنظر عبر زجاج النافذة ، مستعيدا ومثبتا المنظر فى حدقة عينى ·

أجل ·· من هنا مر ·· بعينى الاثنتين رأيته ·· يا لمنظره المهيب · بردائه الجليل ·· كالومض ·· كخفقة طائر من طيور الأساطير ·· أو كموجة البحر ساعة المد ·· أما كان عليه أن يتوقف لحظة بنافذتى لحظة واحدة أتملى فيها وجهه ، وتلتقى البسمتان ·

ابتسمت وحدى متنهدا ·

ليس هذا هو المهم ·

المهم أنه عاد ·

المهم أنه الآن يجوب المدينة ·

وضعت يدى على الجرح ·· ورحت أنتظر ··

« ١٩٧٩ »

ذو القــرنين

وقع « الشيطان » فى حب رسامة جميلة ، فماذا يفعل كـى يكسب قلبها ؟

ذهب الى شيطان الفن ورجاه بأسم الأخوة الشـــيطانية ان يمنحه موهبة الرسم كى يرسم لها لوحة تدير رأســـها ويكسب بها قلبها ٠٠ غير أنه فوجىء بشيطان الفن يضحك مقهقها ساخرا ويقول: أو تظننى شيطانا بحق مثلك ؟ لا ٠٠ ياذا القرنين ٠ حقا ان عنصر النار هو الذى يجمع بيننا ، لكنك النـَــار التى تحـــرق وتدمر ، وأنا الجذوة التى تضىء وتشع وتلهم ٠ لقد أسمونى شيطانا من باب التجاوز ، من فرط دهشتهم لما أوحى لهم به من روائع ٠ انما أنا « ملك » (بفتح اللام) ملك عظيم أيها الشيطان ٠٠ تذكر هذا ٠

أحنى له الشيطان رأسه خشوعا وولاء وعاود رجاءه : اذن فتكرم على أيها الملك وأعطنى من جذوتك ٠ لسوف تفعل بهذا فعلا عظيما ٠٠ ستقلل من عدد الشياطين شـــيطانا ٠٠ وتزيد من عدد المحبين ٠٠ محبا ٠٠ عاشقا ٠

ابتسم الملك وقال له منبها : وماذا انت فاعل فى قرنيك ؟ اعلم أنك تجيد اخفاءهما مثلما أنت الآن فاعل ، فماذا لو ظهرا فجأة فى جبهتك وأنت واقف معها ؟

قال الشيطان وهو يدعك جبهته الناعمة اللامعة بشدة : لا ٠ لن يظهرا بعد اليوم ٠ فقد اجتثثتهما من جذريهما ٠ اطمئن ٠ سوف أبدأ بالحب حياة جديدة ٠ فقط امنحنى هذه الموهبة ٠

قال الملك : ولكن لماذا موهبة الرسم بالذات ؟ الانها رسامة ، تريد أن تكون رساما مثلها ؟ أن الناس لايستهويهم الا الأشياء التى لا يملكونها ٠

قال الشيطان بحماس وتوتر : هذا صحيح ٠ فلتعطنـى ٠٠ ماذا تعطينى ؟ آه ٠٠ اعطنى موهبة الشعر وأصبح شاعرا ٠ الشعر ساحر القلوب الأعظم ٠

ابتسم الملك ابتسامة ذات مغزى وقال له :

ـ اذهب ٠٠ فأنت شاعر ٠٠ ولنرى ٠

***

للحظ كانت الرسامة قد أقامت معرضا لرسومها فى احدى صالات العرض المعروفة وســـط المدينة ٠ واليوم يقيمون احتفالا بمناسبة افتتاح معرضها ٠ وعلى الفور رسم خطته وشـــرع فى تنفيذها : انتظـــر حتى انتهت كل الكلمـــات التى قيلت تحية لها ولأعمالها ، ودخل هو مستأذنا خجولا ٠٠ بقصيدته ٠ فأحدث جوا رائعا فى الحفل ٠ ووجدت الرسامة نفسها مندفعة اليه لتشكره ٠ فقال لها أنه هو الذى يشكرها فهو من زمن كان قد توقف عن قرض الشعر وجف احساسه بالجمال ، واذا بجمال خطوطها وألوانها وتعبيراتها ، يفجر فيه النبع الراقد ، والشعر يخرج منه بلا شعور ٠ ازداد انفعالها وأمسكت بكفيه متأثرة ! حينذاك نظر فى عينيها وقال

بصوت مرتعش : أن قصيدة أخرى تولد الآن فى قلبى ، فهل تتكرم الملهمة العظيمة بسماعها بعد انتهاء الحفل ؟

- ولماذا بعد الحفل ؟ تعال بعيدا عن هذه الضجة واسمعنى أياها ٠

وخرجا من صالة العرض ٠

***

لم تمض أيام حتى كانت قصة الحب بين الرسامة المشهورة الجميلة ، وهذا الشاعر الموهوب المجهول ، هى حديث أهل الفن ٠٠

فهى لم تنس فقط معرضها ، بل نسيت أيضا أصدقاءها وصديقاتها ٠ فرح البعض لها ، لأنها وجدت الحب الذى يروى قلبها وحزن البعض الآخر لأن هذا الحب جاء على حساب فنها ٠٠ وصداقاتها ، لكنها لم تكن تشعر بهؤلاء وهؤلاء ٠ كانت تعيش فى الحب بكل ما تملك من صدق وحنين واشتياق مع هذا الذى يتفجر شعرا من مجرد لمسة من يدها ، أو من نظرة من عينيها ٠ ابهجها هذا الشعور الذى لم تحس به من زمن طويل ٠٠ الشعور بالبهجة وحب الحياة ٠٠ وأن طاقات بداخلها تدعوها للجرى والرقص والانطلاق ٠٠ وكأنما ارتدت الى أيام الطفولة ٠٠ آه ٠٠ كم هى الحياة حلوة وجميلة معك يا شاعرى الحبيب ٠

أما هو ٠ فكان يمارس مع نفسه نشوة الشعور بالانتصار ٠ لقد استطاع أن يحتويها الى الحد الذى نسيت معه كل شىء ٠٠ حتى فنها ٠٠ وراحت تتعبد فيه ٠

قال لها : انت من زمن لم ترسمى ٠ أوحشنى منظرك وأنت ترسمين ٠

احتضنته بحنان وقالت : سأعود الى الرسم · وسأبدأ بك ·· سأرسمك ·

وشرعت تعد أدواتها بحماس ·

بلا وعى ، رفع يده ومر بأصابعه على جبهته · يطمئن لعدم وجود القرنين ، ثم قال منتشيا سعيدا : هذا مجد عظيم لى ·

– اجلس هنا · أمام النافذة · فى الضوء ·

ارتعشت أعماقه لكلمة « الضوء » · عاوده الخوف من أن تكشف الاشعة آثارا قديمة خفية لموقع القرنين فقال لها :

– عيناى تتعبان من الضوء · (وأستدار بوجهه عن النافذة) أرسمينى فى لوحة يكون عنوانها : الرجل فى الظل ·

قالت وهى تمسك برأسه وتدير وجهه نحو النافذة ·

– لا ·· بل سيكون عنوانها « الحب فى الضوء » ابق هكذا أرجوك ·

جلس وكل وجهه مغمور بالنور · غمست ريشتها فى ألوان الزيت،وبدأت ترسمه·فوجئت باحساس غريب ينتابها · كانت تحس بأصابعها تفتقد خفة الحركة وليونتها وانطلاقها · وجدت نفسها ترسم ببطىء · ومشاعرها وهى تختار الألوان غير مؤكدة · أحست بالحزن ·· ان يحدث لها هذا من أول لوحة ترسمها لحبيبها : يبدو أننى نسيت الرسم ·

وألقت بالفرشاة جانبا وبدا عليها الاحباط الشديد ·

أحس بانزعاج هائل · واستدار سريعا بوجهه عن الضوء · تراها أحست بشىء ؟

لقد سمع أحد المحتفلين بها يوم افتتاح معرضها يقول عن

فنها : انها لا ترسم ما ترى · انها ترسم ماتحس · انها لا تتوقف بريشتها عند بشرة الانسان ، بل تدخل الى أعماقه وتكـــاد تحس بشرايين دمائه ··

تراها احست بالقرنين اللذين أخفاهما فى أعمق أعماقه ؟

قال لها وقد قرر أن يتخلص من حكاية رسمها له : فلنؤجلها عدة أيام ··

قالت بحزن ممزوج بالغضـــب وبالتحدى : لا ·· بل عــدة ساعات فقط · هيا نخرج ونقابل بعض الاصدقاء والصديقات · ذلك ما سيحرك الريشة والألوان فى يدى · من يوم ان انقطعت عنهم ، وأنا لم أرسم خطا واحدا ·

تجهم : أم من يوم ان احببتنى ؟

ــ مـــا هذا الذى تقول ؟ أنت أيضـــا منذ ان انقطعت عن أصدقائك الذين لم أرهم حتى الآن ، وقصائدك بدأت تقل · الفــن يأخذ لهيبه من الاحتكاك بالآخرين ·

ــ بدأت تضجرين منى ·

ــ لا تقل هذا أرجوك · اياك ان أسمعها منك مرة أخــرى · أنا أجدد حبى لك بالخروج الى الحياة · عندى اقتراح ·

ــ ماذا ؟

ــ ان نزور بعضا من أصدقائك انت ·· ليس ضــروريا أن نزور أصدقائى ·· وأصدقاؤك سوف يصــبحون أصـــدقاء لى · ما رأيك ؟

أحس بضبابة تملأ رأسه ·· قال مســرعا ·· راسما على شفتيه ابتسامة حماس مفاجئة :

ـ لا أعرف مكانا الآن لأحد من أصدقائى · فلنزر أصدقاءك انت · تهلل وجههـــا : سنزور اســـتاذى الذى اكتشفنى وقدمنى للحركة الفنية · لابد أن أعرفك عليه · انا واثقة أنك ستحبه ·

***

كان الاستاذ يعيش وحده فى بيته · كتب وأوراق ولوحات وأضواء هادئة مرسلة من أباجورات متناثرة فى الاركان · وحين رآها أول ما فتح لهما الباب تندفع فى حضنه وتقبله ، ويقبلها هو أيضا ، أحس بالغيره تلسعه · وبثمة صهد يخرج الى حلقه من جوفه · فرغم أن الأستاذ يكبرها بما يقرب من عشرين عاما الا أنه بدا له بشعره المفضفض الهائش وصدره المفتوح ، ووجهه المشع بالثقة والمرح والفرح ، بدا له كثور وحشى ضخم ·

« كان يجب أن يعمل حسابٰ وجودى فلا يقبلهـا أمامـــى · حيوان » · وتزايد الصهد فى جوفه « هذه العلاقة الحميمة بينهما يجب أن تنتهى · تبتر ! » ·

وأحس فجأة بالنغز فى جبهته · نغزات أوشكت ان تتحول الى طرقات فامتلأ بالفزع من أن يندفع القرنان ويظهران أمامها وأمام أستاذها فأسرع بسحق مشاعره · أنه يعلم جيدا أن ظهور القرنين مرتبط بتحرك الكراهية بداخله ·

رسم على شفتيه ابتسامة واسعة وهى تقدمه الى استاذها ، فسلم عليه بحرارة ·· وقبله أيضا ·· ثم لم يلبـث ان فوجـــىء بمجموعة من الاصدقاء والصديقات يأتون الى الاســـتاذ ويملأون البيت ضجيجا وضحكا ومرحا ·· ليس هذا فقط بل رآهم كلهـم يأخذونها بالاحضـــان ويقبلونها وتقبلهـــم · واذا بوجهها يتورد وحركتها تشع بالانطلاق والحيوية · أحس بالخطر · أن تجد كل هذه السعادة والبهجة مع آخرين غيره · هو يريدها له هو وحده ·

لسوف يعيدهـــا الى حظيرته من جديد · ولكن بعد أن تنتهى هذه الزيارة · سوف أبدا عملى ·

كان يدرك خطورة المهمة التى هو مقبل عليها · انها مهمة بذر الكراهية فى نفسها نحو أستاذها وأصدقائها وحتى أيضا صديقاتها · كان كل نضاله ان يستثير فى نفسها الشعور بالكراهيـــة نحو من تحبهم دون أن يتحرك القرنان فى داخله ·

وبدا له أنه نجح فى ذلك حين وجدها تقول له ذات مســـاء باكتئاب ··

ـ لم أعد أستريح مع هؤلاء الناس · لم أعد أحس بأنهـــم يحبوننى مثلما أحبهم · خلاص · قررت الا أرى أحدا منهم · يكفينى من الحياة أنت والرسم · لن يكون لى عمل فى الحياة ســـوى أن أحبك ·· وأرسم ··

هيا أرسمك ·

رغم أن قلبه زغرد بالفرح لنجاح خطته ، الا أنه أحس بالخوف وهى تقول له :

ـ اجلس كما كنت ، فى الضوء ، أمام النافذة ·

ـ ليس هذا وقت الرسم يا حبيبتى ·

قالت مقاطعة ، وقد تلبستها شهوة عارمة لكى تضرب بفرشاتها وترسم ·

ـ بل هو الوقت · والضوء فى أشد حالات حدته · أريد أن أرى حتى أدق شعيرات أنسجتك · كل ما بداخلك أريد ان احسه · أريد أن أعوض فشلى السابق فى رسمك · اجلس ·

وصاحت فيه الى حد الصراخ) اجلس أرجوك · واترك نفسك على طبيعتك · فقط أنظر لى · أريد أن أرسمك وعيناك فى عينى ·

وإذ مضت تضرب بفرشاتها بقوة على اللوحة ، راسمة فى البدء محيط الوجه الخارجى ، كانت تنظر فى وجهه وقد احتشدت كل طاقاتها الروحية · فجأة · وهى تنظر فى عينيه · اذ بها تحس بأن أصابعها تتوقفان منها ، واحساس غريب يداهمها ، ثمة تموجات غريبة فى عينيه·ليس معنى واحدا مؤكدا · ليس فقط فى العينين ، انما ثمة تقلصات تحدث فى الجبهة ، كأنما ارتفاعات وانخفاضات ·· مرة تظهر ومرة تختفى ·· واستنكرت مع نفسها ما ترى : أهى أوهام الفن ؟ أم انها فقدت لياقتها الفنية وانتهت كفنانة ؟!

وصرخت فى أعماقها : لن أفشل أمامه ·· كرسامة · الموت أفضل · لن أفشل معه ·· وارتفعت يدها بقوة الفرشاة وكأنهـــا تشهر سيفا تقاتل به ضد الفشل ·

ـ أرجوك · أعطنى عينيك · خذ راحتك تماما ·

ـ أنا مستريح ·

وراحت تضرب بألوانها بقوة · كان خليطا هائلا صاخبا من المشاعر · واخافه منظرها وهى تنظر فيه · لا حب ولا كراهية · بل حالة غريبة · تراه شيطان الفن · أو « ملكه » قد تلبسها ؟ هذا اللعين سأهزمه ·· وأحس بنظراتها تخترق عينيه لترى الاعماق وعاودته المقولة « انها لا ترسم ماترى ، بل ترسم ما تحس » ·

وجز على أسنانه : لا · القرنان فى الداخـــل · فى أعمـق الأعماق · استعملهما فى الوقت المناسب · لم أجتثهما كما قلت لك أيها الملك اللعين · أنا لا أرمى بسلاحى الوحيد الذى انتصرت

به · لقد خلصتها من أصدقائها ·· وأحبابها ·· وأصبحت لى أنا وحدى ·· ولسوف انتصر أيضا هذه المرة ·

ورسم على شفتيه ابتسامة يدارى بها آلاما فى داخله ·· أما هى · فقد توقفت على الرسم وراحت تنظر اليه وهى لاتصدق · وتعالت دقات قلبها · كانت ترى شيئا رهيبا يحدث · نتوءان تبرزان لحظة بلحظة من جبهته ·· وهو لا يحس بشىء ·· ما هذا ؟

وكتمت شهقة : انهما يكبران ·· يكبران ·· اصبحا قرنين · امتلأت بالهلع · رمت بالفرشاه وهى تصرخ · وولت هاربة ·

« ١٩٨٠ »

الميـــلاد

رأيت نفسى حاملا نعشى وسائرا نحو القبور · كنا فى غبشة البكور ، ولا قـدم انسان أو حيوان تدب على الأرض · الكـــل فى هجعة النوم الأخيرة · لم أكن أقصد ألا يرانى أحد بنعشى · أننى لا أتصرف فى الخفاء · لكنى قصدت ان أنفذ قرارى بسهولة · ألا يناقشنى أحد فيما اتخذت من قرار !

كان سور المقابر يلوح من بعيد ·· هناك على الضفة الأخرى من الترعة وسط الحقول · مضيت أغذى الخطو بثبات وهدوء !

لفت نظرى فجأة ، قرص الشمس الذهبى وهو يبـزغ ويطل وليدا على الوجود · ابتسمت فى نفسى وشددت من قبضتى على نعشى : أننى أموت مع ميلاد يوم جديد · ذلك هو المغزى العميق !

كان ضوء الشمس حادا ، لكنه غير مؤلم ، والافـــق ممتدا ورحيبا وناعم الزرقة ، وحقول القمح المزروعة منذ وقت قريب ، ما رأيتها أبدا بكل هذه الخضرة الصافية المترعة ، وهذا التماوج الراقص لأعواد القمح مع النسيم ، وفكـــرت أن الطبيعة تودعنى بمنظر جميل ، قلت : شكرا ايتها الحياة التى انطلقت فى رحابك كل

كل هذه السنين ·· شكرا ·· ووداعا ·· فلكل رحلة نهاية ·· هذا هو القانون ·

كنت أود ان أقول كما يقول المحبون لحظة الفراق : « والى اللقاء أيها الأحباب » ·

لكنه الفراق الأبدى هذه المرة ، والصـــمت العميق الهادىء المريح ·

وداعا اذن ياحقول القمح ، ويا أشعة الشمس ، ويا بروتينات الأرض ، ويا ذئاب البر ويا عرائس النهر · وداعا يا كل شىء ·· وداعا يا قانون الجاذبية الذى ينتظم ويضم كل عناصر الكون ، فلقد حاولت أن أبقى جزءا من الدورة · حاولت بكل ما منحتنى الحياة من قدرة · لكن القدرة نضبت مرة واحدة ولـم أعد قـــادرا على الحصول حتى على شرف المحاولة · بل أن المأساة وصـــلت الى قمتها حين رأيت الدورة نفسها فقدت حيويتها ومعناها ·· أصبحت الحركة تأكيدا للثبات وللسكون · ليس الآن أعظم من شرف الموت · وداعا فقد سئمت وأصبحت فى حاجة الى الراحـــة العميقة ·· الراحة الأبدية بجوارك أيتها الحقول ، ويا ايتها الأشجار الشاخصة الهاجعة ·

وتنبهت فجأة الى أننى واقف بنعشى وأتكلم مع عناصـــر لا تنطق · ولأننى كنت قد تعودت الحديث مع النفس طويلا فى الأيام الأخيرة فقد جذبت نفسا عميقا وقلت بحزم : هذا هو آخر الانفاس ، وآخر الكلام مع النفس ··

لقد انتهت الرحلة !

وعدلت من وضع النعش على كتفى ، ومضيت مواصلا السير فى اتجاه القبر · غير اننى فجأة وجدتنى أتوقف على صوت :

ــ دقيقة ·· لو سمحت ·

رحت أنظر حولى باحثا عن مصدر الصوت ، لكنى لم أر أثرا لانسان غيرى ·

وهم اذن ما سمعت · واندفعت مواصلا السير · غير ان نفس الصوت عاد ·· بغضب وحسم : قلت لك انتظر · مثلما استمعنا اليك ، يجب ان تستمع الينا ·· !

واذ أيقنت أن الصوت ليس وهما ، بل بالتأكيد حقيقة ، واذن فهو صادر من عالم الخفاء ·· تجمدت فى مكانــــى ·· هاجمنى خوف كاسح غريزى أوقف حركة جسمى وعقلى · لكنى ســــرعان ما تنبهت لسخرية الموقف وخطورته وقلت لنفسى : انت سائر الى الموت · فلماذا ·· ومن ماذا الخوف ؟!

يا له من تراث ثقيل وكريه ذلك الذى اسمه الخوف ·· يظل يلاحقنا حتى ونحن سائرون الى قبورنا · (وازدادت قبضتاى قوة على نعشى) هذه هى اللحظة التى يجب أن أرى فيها نفسى فوق الخوف · ان الذين اختاروا الموت ، لا يصح أن يخيفهم من الحياة أى شىء !

ــ نشكرك انك استجبت ووقفت · (واحسست بابتسامة ود فى الصوت) وما دمت قد قررت الموت ، فهى ليست بكارثة أو جريمة لو أضفت الى عمرك بضع دقائق ·· نتكلم فيها ·

كان القمح النابت هو الذى يتكلم · لم أتعجب · فقد كنت منذ قليل أكلمه وأناجى خضرته وأودعه ·

ــ وفيم تريد أن نتكلم ؟!

ـ أنزل نعشك أولا الى الأرض ‥ كى تتكلم براحتك ؟

ازددت تشبثا بنعشى وقلت :

ـ لقد أصبحت لا أتكلم براحتى ، الا اذا كنت حاملا نعشى ٠ وأحب أن انبهك الى حقيقة هامة عنى ، وهى أن عهد المناقشات قد انتهى من حياتى ‥ وشيئا آخر أكثر أهمية : فلو كنت تفكر فى اقناعى بالعدول عما أنا ذاهب اليه فالافضل أن توفر جهدك ‥ وشكرا على مشاعرك الرقيقة ٠ لقد حسمت القضية ٠

قال ساخرا :

ـ حسمتها بالهروب ‥ أليس كذلك ؟ الحق كان يجب أن تكون خجلا من نفسك !

استفزتنى العبارة ‥ واللهجة ‥

ـ ومم اخجل ؟

ـ الهارب من الحياة يجب أن يخجل من نفسه !

انطلقت منى ضحكة مقهقهة ساخرة تردد صداها فى فضاء الحقول ووصلت الى سور القبور وقلت : قديمة ‥ قديمة ٠

قال بدهشة : ما هى القديمة هذه ؟!

ـ نغمة الاتهام بالهروب ٠ فلم أكن لحظة اتخاذ القرار بطلا أو حتى جنديا فى معركة ثم هربت منها ٠ أنما الحياة بالنسبة لى أصبحت دورة عقيمة ، والخجل الحقيقى كان هو أن أبقى مستمرا على قيد الحياة ٠ لا تسلنى أرجوك عن تفاصيل ٠ لقد ناقشت قضيتى طويلا وحسمت أمرى : الموت الآن بالنسبة لى هو الشجاعة ‥ وهو الشرف وهو أعظم المواجهات !

(ندت عنه ضحكة ساخرة مستهزئة) ··

ـ تتكلم عن المواجهة ثم تذهب الى الموت · انك حقا لتضحكنى !

قلت مستهزئا باستهزائه :

ذلك لأنكم معشر النباتات قمة فرحتكم فى مجرد التواجد بالحياة ، يزرعكم شخص ويخلعكم آخر ، ولا لوم عليكم ، فأنتم لا تعرفون شيئا عظيما اسمه « ارادة الحياة » وحين تنعدم هذه الارادة يبقى شىء اسمه « ارادة الموت » · ان نحيا باختيارنا وارادتنا · فان لم · فبارادتنا واختيارنا نموت · وهذا هو صميم موقفى · أظنه اتضح الآن ·· ولن ازيد ·· معذرة ·· سلام ··

كنت قاطعا فى لهجتى فلم يعاود الحديث · داخلنى نوع من السرور · من المؤكد أنه اقتنع بكلامى ، ولسوف يبارك ميتتى العظيمة ، ويكون من الشاهدين ·

وعاودت الانطلاق بنعشى بثبات ويقين ·

غير انى ما كدت أقترب من السور حتى فوجئت برجلين يظهران بغتة ويعترضان طريقى ·

كانت هيئتهما غريبة ، واسنانهما بالذات كريهة ·· وتوجست من التأرجح السريع لنظراتهما · كانا يريدان الاطمئنان لعدم وجود أحد غيرنا فى المكان · وفكرت على الفور أنهما لصان · ولكن ماذا سيسرقان منى ؟ لكل الاشياء تخليت عنها ، ولم يبق لى غير روحى ، وروحى هى الأخرى حالا سأتخلى عنها !

غير أنى فوجئت بهما يمدان أذرعهما الأربعة نحو النعش ويقولان :

ـ عنك أيها الرجل الصالح • لابد انك تعبت من حمله • نريد أن نكسب ثواب مساعدتك !

ودون أن ينتظرا منى ردا أمسكا بالنعش من حوافيه الأربع • قفزت متراجع بالنعش الى الخلف وصرخت فيهما : لا • لا • ثوابكما أن تتركانى حاملا نعشى • لست متعبا • أشكركما ••

بدا عليهما الضيق • تبادلا نظرة • قال احدهما :

ـ فلتسمح لنا اذن بثواب المشى فى جنازتك •

وأردف الآخر :

ـ ان جنازة بلا مشيعين شىء يثير الحزن والأسى •

لم تكن فى لهجتهما ذرة صدق • بل وازدادت ريبتى • قلت ولهجتى يختلط فيها الغضب بالتوسل :

ـ لكنى ، ومعذرة ، أريد هذا • لا أريد أن يمشى أحد فى جنازتى • كل واحد منا يصنع جنازته كما يشاء • أتركانى وحدى لو سمحتما •

عاودا تبادل النظرات • قال أحدهما للآخر وقد كشر عن أسنانه الكريهة :

ـ هذا الأسلوب لا يجدى معه • فلننته من الأمر بسرعة •

وبحركة خاطفة انحنى وجذبنى منأسفل ساقى ، فوقعت أنا والنعش على الأرض • صرخت وأنا احتضن نعشى بقوة •

ـ لماذا تفعلان هذا ؟ ما الذى تريدانه منى ؟

ـ نريد هذا النعش !

تأكد احساسى • انهما لصـــان • وعلى أبشع مســـتوى • يسرقان نعوش الموتى •

وها هما يريدان اغتصاب نعشى منى ·· !

تعبأت روحى بالكراهية·ورأيت زحف المهانة يدب الى صدرى لو أن هذا حدث فعلا ·· تختتم حياتى بهزيمة ·· حتى نعشى لا أستطيع المحافظة عليه · صرخت لا ·· وألف لا ·

تحولت أسنانهما الى أنياب ·

ـ أيها الأحمق (وشهر واحد منهما مدية حادة فى وجهى وقال) يجب أن تدرك حقيقة وضعك · نحن اثنان ·· وأنت واحد ·· وأعزل · يجب أن تسلم فورا ·

ازددت احتضانا لنعشى : لا · لست وحدى ·· نعشى معى ·· ولست بالاعزل · نعشى هو سلاحى · أتفهمان · نعشى هو سلاحى وسأحاربكما به !

كشرا عن أنيابهما البشعة وفى لحظة كانت المعركة قد نشبت وثارت من الأرض سحب التراب ، وأنا ممسك بنعشى · واذا بالنعش متينا وراسخا بين قبضتى ويئز فى الجو محدثا ذبذبات كهربائية مخيفة · كان فى لحظة درعا يتلقى عنى الضربات ، وفى لحظة أخرى سلاحا ·· عمودا ·· جذعا ·· يوجه الضربات ·· أعنف الضربات ·

واذ أصاب كل منهما من النعش ضربة دوختهما فتمايلا وراحا يترنحان ، زغرد قلبى بتباشير النصر ، وبدا لى النعش الذى كان منذ قليل دليلا للموت ، أصبح رمزا للحياة ··

وأحسست بشحنات تتفجر من داخلى وتتوالى ·· كانت أنفاسى تتدافع ·

ـ آه ·· لطالما استرخت عضلاتى أيها الكلاب حتى تشحمت ويبست ·

الآن تندفع الدماء فى عروقى ·· ولاحظت ان الــــزرع فى الحقول يرقب المعركة بلهفة ، فتضاعفت قوتى ، وعلت صــيحــات الحرب ، وأنات الألم الوحشية ·· ثم فى لحظة بدا لى أن قواى نفدت ، وأنى على وشك السقوط الأخير بنعشى ·· غير أن سمعت أعواد الزرع تصيح على ·· تشجعنى ·· ليست أعواد القمح فقط، بل أعواد القطن والأذرة وقصب السكر · ·ليس فقط الزرع ·· بل بشر أيضا ، فتيان وعرائس جاءوا ليشاهدوا رجلا يحارب بنعشه · لست بطلا فى مسرحية بل بطلا على مسرح الحياة · رجــــل كان يحمل نعشه ليودع الحياة ، فاذا بالنعش بين يديه سلاحا يصرع به اللصوص والطغاة ·

ورأيت الكل يصفق لى ·

كان اللصان قد سقطا على الأرض بلا حراك ··

وقفت التقط انفاسى ·· وأسترجع ما كان ··

كان سور المدافن قريبا منى ·· والنعش ملقى على الأرض ·

ـ لا ·· ليس الآن ·

وأعطيت ظهرى للقبور ·

ورحت أخترق الحقول ·· متجها الى البيوت ·

« ١٩٨٢ »

البرغوث سفيرا

كل شيء فى ذلك اليوم ، كان يقول بأنه الرجل الوحيد ·· الرجل المتفرد ·· الرجل الذى اختارته الأقدار لكى تتجه اليه كل الأضواء ـ بجوار ضوء الشمس ـ أضواء كاميرات الصحافة والتليفزيون ·· وكذلك ميكروفونات الاذاعة ووكالات الأنباء !

ولم يكن فى الأمر أى اصطناع أو مبالغة ، فهو القائد الذى يعود الى وطنه بعد أن انتصر على الأعداء فى أخطر وأشرس معركة ·· وهاهى الجماهير منذ الصباح ، بعد أن انتشر خبر وصوله ، تزحف اليه فى بيته الصغير المطل على الميدان تهتف باسمه ·· ياللسحر الذى يحدثه فى النفس الهتاف ·· نشوة الطائر المرفرف بأجنحة هائلة فى الفضاء ·· والقامة ، قامته ، يحس بها قد ازدادت واستطالت ، وأن البشرية تبدأ من خلاله عصرا جديدا !! انه يحس مع زحف الجماهير واستمرار هتافاتها أنه يتعرف على نفسه لأول مرة · يكتشف ذاته : كأنى كنت غائبا عن نفسى ، والآن رأيتها ·· عرفتها ·· من خلال أصواتهم وهتافاتهم ·· آه ·· ما أروع أن أصدق هذا الذى يقال · بل يجب أن أصدقه· فها أنا أسمعه خارجا من القلب ·· صادقا حارا ·· : « يارسول

الأقدار ، يامنقذنا ، يامزيل العار عنا ٠٠ » والهتافات متواصلة ٠ كلما خفت حدتها فى مكان ، تجددت وتعالت فى مكان آخـــر من الميدان ، تستعجل خروجه كى يطل عليهم ٠٠

لا بأس أن تطول اللحظة ٠ فهاهـــم يحولون الهتـــاف الى أغنيات ، والأغنيات الى رقصات صاخبة مائجة بالفرح ، بينما هو فى الحمام يغتسل ٠٠ وبعد الحمام يرتدى أجمل ملابسه ٠٠ الملابس التى تقتضيها اللحظة التاريخية ٠٠ وثمة جوقة كبيرة تحيط بـــه وتشرف على عملية ارتداء ملابسه بحماس بالغ ٠٠ الا أن زوجته ـ ذات الوجه الفائق الجمال ، كانت هى التى تختار من الثياب ومن الألوان هذا ، وتستبعد ذاك ، بصوتها الآمر الحاسم ، متصـــرفة كزوجة البطل ، ولابد أن تطمئن بنفسها تماما على منظره العـــام ، وهو يخرج الى الجماهير ٠٠ وتنثنى عليه فى حب ودلأل عميقين ، ثم تهمس فى أذنه : « أتعرف فيما أفكر الآن ؟! فى أول يوم رأيتك فيه ٠٠ أول لحظة ٠٠ كان عندى حق أنى وقعت فى حبك من النظرة الأولى ٠٠ الآن أغار من الهتافات ٠٠ أغار من هذه الجماهير المتلهفة لرؤية طلعتك » ٠

ـ سيدى ٠٠ وفد من بلاد كاف نون الشقيق يريد مقابلتـك لتهنئك ٠

ـ سيدى ٠٠ خمسة سفراء من بلاد الشرق والغرب ، وصلوا فى لحظة واحدة ٠

قال فى ضيق : وهذه الجماهير التى تنتظرنى من الصـــباح الباكر ؟!

ـ سيدى ٠٠ كلما طال الانتظار ، ازداد الحب واشـــتعلت الأشواق ٠

ـ انهم من فجر التاريخ ينتظرونك · لن يؤثر فى الأمر أن يطول انتظارهم ساعة أو ساعتين أكثر ؟!

فى تلك اللحظة سمع ضجة صراخ عالية ، وثمة صوت شاك باك يناديه ويستغيث باسمه ·· نظر مستغربا ·· مستفسرا ·

ـ سيدى ·· لاتبالى ·· منذ انتشرت أخبار النصر والمجانين بك كثيرون ·

ـ ماذا تعنى ؟!

ـ رجل فلاح يدعى أنه قريب لكم · ويدعى أيضا أنه كان صديقا لكم من أيام الطفولة ، وهو يبكى بشدة كى يراك ويسلم عليك ·

ثار فضوله ، واتجه من فوره الى الرجل ، وما أن رآه ، بجلبابه البلدى الفضفاض ، وطاقيته الصوف المغزولة ، وذلك « السبع الأخضر » المدقوق بالنار على أعلى صدغه الأيمن ، حتى عرفه على الفور ، وصاح عليه باسمه : خضر عبد الحميد خضر ؟! كيف أنت ·· وكيف أحوال البلد ومن فيها ·· جميعا !

ـ آه ·· يكفيهم فخرا أنك ابن بلدهم !

وفرد له كل ذراعيه فى اشتياق وحب ، ففرد له هو الآخر متأثرا ذراعيه والتحما فى عناق حار ، وانفجر الفلاح فى البكاء فرحا هو يحتضنه بقوة ويربت عليه ·

ـ يالى من محظوظ ·· جئت هذا الصباح من البلد لأقضى مشورا ··فلما رأيت المظاهرات فى الشوارع وسمعتهم يهتفون باسمك ، أحسست كأنهم يهتفون باسمى أنا ·· أنت تذكر طبعا أيامنا معا فى البلد ·· آه ما أكثر ذكرياتنا وحكاياتنا ··

ـ لم أنس شيئا ياخضر ·· غير أن الظرف الآن كما ترى لا يسمح بتذكرات · سوف يأتى الوقت فيما بعد ونتذكر » ·

وتوجه الى الجوقة بنظرة خفيفة على أثرهـــا اندفعوا على الفلاح جاذبين اياه من ظهره ·· ثم أخرجوه برفق عظيم !!

كان على البطل أن يخرج الى الجماهير !!

***

قبل أن يخرج الى الشرفة ببرهة ، سبقه الى الميكروفون أحد افراد الجوقة ، صائحا معلنا وصوله ·· وما أن أطل عليهم ، حتى تأججت الساحة واشتعلت الحناجر بجنون الحب تهتف ، وعشرات الألوف من الرؤوس والعيون اشرأبت اليه ، وكل واحد يود لو يطوله ويأخذه فى صدره ويحتضنه ، أحس بقوة هائلة تصـــطفق داخل صدره ، وأن ثمة أبراجا بنيت وهو واقف فوقها ·· وفكر مع نفسه : كيف كنت غافلا عن نفسى كل هذا العمر ؟! لا على ·· يولد الأبطال بين يوم وليلة ، هكذا يقول التاريخ عنهم ·· يكون عصـــر الفراغ ·· والعدم ·· ثم يأتون هم ، فيعطون المعنى للزمان والمكان ويملآنهما ـ ويتم الاحساس بالوجود !!

واذ هو سابح فوق أمواج النشوة ، طائرا محمولا على محفة من أجمل الهتافات والتحايا والقبلات والورود الطائرة اليه فى شرفته على أجنحة الهواء » والنسيم فى تلك الليلة عذب ورائع ، فلا حر ولا برد « كأن الأقدار ترسم لى حتى درجة حرارة الجو » ·

وبينما هو فى هذه النشوة ، اذا بشىء غريب جدا ومتناقض تماما مع طبيعة اللحظة يحدث له ·· لقد أحس فجأة بأن شيئا ما صغيرا جدا يلذعه قرب ابطه ·· لذعات ليست بالقاســـية لكنها سخيفة جدا ومقلقة وتدعوه لأن يهرش مكانها ·· فهل يعقل هذا ؟!

هل يصح للبطل الواقف كالأسطورة فى عز مجده أن يهرش ؟! ٠٠ وليتها هرشة واحدة يقوم بها سرا ؟ بخفة ولباقة دون أن يلحظ أحد وينتهى الأمر ، الا أن اللذع كان مستمرا وبطريقة أدرك معها! فجأة أنه برغوث !! ورأى أن الموقف فيه بعد مضحك ساخر ، فلا شىء يحرره الآن من حماقات هذا البرغوث التافه الحقير الا أن يتـرك الاحتفال والجماهير معتذرا للحظة ، ويدخل الى حجرته ويغيـر ملابسه ويعود بسرعة ، الا أنه استبعد الفكرة بشكل قاطع : على أن احتمل ٠٠ لقد احتملت أهوال المعارك ، أفـــلا احتمل سخافات برغوث ؟! ٠٠ ولكن (وقفز أمامه السؤال) من أين وكيف جاءنى هذا البرغـوث رغـــم أنى استحممت منذ قليل وغيرت ملابســى الداخلية ؟! ٠٠ آه ٠٠ تذكرت ٠٠ هو ذلك الفـــلاح اللعين المدعو خضر عبد الحميد خضر وهو يعانقنى ٠٠ انتقل منه البرغوث الى فى بســاطة ، دون أن يــدرى أنه بذلك يفســد على جلال اللحظة التاريخية ومتعتها ٠٠

خواطر كالومض كانت تمر مختلطة برأسه ، بينما كان واحدا من أفراد الجوقة يلقى كلمة يقدم بها للخطبة التى سيلقيها بطـل الأبطال ٠٠ وثمة صمت مطبق عميق فى انتظار كلمته ٠٠ كانت عيناه حينذاك على كتلة الجماهير الهائلة المتلاصقة ٠٠ رءوس ٠٠ رءوس ٠٠ وعيون ٠٠ عيون ٠٠ لا يمكنه أبدا التوقف عند أحد معين منها وفجأة ، ومن قلب كل هذا البحر الهائج المائج ، اذا بوجه بالذات يتحدد أمامه ، واذا يعينى هذا الوجه ، رغم أنهما فى نهاية الصفوف الخلفية ، تصلانه وتصطدمان مباشرة بعينيه ٠٠ أحس بثمة رجـة داخلية هائلة قاومها بسرعة وقوة ، وأسرعت دقات قلبه :

ـ هاقد ظهر ، رغم أنه كان قد اختفى ٠

وحول بسرعة عينيه عنه ، والا فلتت منه اللحظة التاريخية ٠ ودخل على الفور فى خطبته ٠٠ ومن أول جملة نطـــق بها تأججت

الجماهير بالحماس والتهبت الأكف بالتصفيق ، اذ ذاك استرد ذاته كما كان ، قبل أن يرى الوجه والعينين ، حتى أنه نظر اليه ليراه مرة أخرى ، لكنه لم يعثر عليه ·· كان قد اختفى من جديد ·· «أو · ربما كنت اتخيل ·· أو ·· فرط حساسية منى » !

واستغرق تماما فى خطابه · عاوده فيض النشوة والاحساس بعظمة البطولة وجلال التفرد ، دون أن تشوبه لحظة تشويش أو قلق ، ومضى متدفقا ومتجليا فى القاء خطابه ·· مؤكدا أن اليوم علامة يبدأ بضوئها تاريخ وعصر جديدان فى حياة الشعب العظيم !!

ولولا أنه كان قد مرت عليه أيام طويلة دون أن يحظى بقسط وافر من النوم ، لكان قد ظل هكذا حتى الصباح بين الجماهير ، يمارس هذه النشوة التى ما بعدها نشوة ، وخاصة أن البرغوث كان قد كف تماما عن مناوشته ، أو ·· ربما تركه ومضى !! لكنه كان مجهدا وتذكر احتفالات الغد التى تنتظره ، والتى ستكون بمثابة التتويج ·· لابد أذن أن يكون فيها على أكمل صورة ، وأطيب مزاج ·· فليخطف ساعتين أو ثلاثا ، يغلق فيها عينيه ، ورأسه ، ويستغرق فى نوم هادىء عميق ··

ــ ويأأيتها الجماهير الحبيبة ·· غدا نلتقى من جديد ·

***

ما أن دخل حجرته حتى أعلن عن احتياجه للنوم ، واحترم الجميع ، وأولهم الزوجة هذه الرغبة ·· قالت له هامســـة وعلى وجهها آيات الرضا : « كنت أحب أن نجلس معا ، هذه الليلة بالذات بعض الوقت ·· مجرد الجلوس لا أكثر ·· أفرح بك · ·وأعبر لك عن مشاعرى ·· آه ·· كم كنت رائعا ·

تمدد على السرير بكل جسده الضخم واسترخى : حقا ؟! ·· كيف ؟! احك لى ، الى أن أنام !

وبدأت تحكى ، بكل الحب والحماس ، غير أنه لم تكد تمــر دقيقة واحدة حتى كان قد سقط فى جب النــوم العميق ، حينذاك نهضت وأطفأت نور الحجرة ثم أغلقت بابها بهدوء شديد ·· وحل على البيت وعلى الكون سكون عميق !

هى نصف ساعة ووجد نفسه صاحيا ·· ويهرش بعصبية ·· تحت ابطه ·· وعلى الفور أدرك ـــ رغم أنه كان فى نصف أو ربع وعيه ، أنه : البرغوث اللعين !

وأوشك باللاوعى أن يصرخ ، الا أنه ، بجهد شديد أمسك نفسه : بطل الأبطال يصرخ شاكيا من برغوث ؟! ·· ثم فى وجه من يصرخ ويصيح ؟! ·· « الذنب ذنبى ·· أنا الذى تركت نفسى لهذا الفلاح اللعين المدعو « خضر » ليأخذنى فى صدره ويعانقنى ·· فدفعت ثمن بساطتى وانسانيتى ·· لقد أفسد فرحتى مع الجماهير وهاهو أيضا يفسد على ساعات نومى ·· أم ·· تراها مؤامرة ؟!

وتولته رعدة مفاجئة ، فقد تراءى له الوجه الذى طلع لــه للحظة من بين الجماهير ثم اختفى ـ هاهو يطلع له مرة أخرى : مختلطا بوجه « خضر » ، دون أن يعرف ان كان يبتسم له أو يكشر عن أنيابه ·· هل هناك علاقة ما بين الاثنين ؟! وهز رأسه بشدة ، مبعدا الصورة ·· الصورة المختلطة ·· وتدافعت أنفاســـه ·· « كنت قد نجحت فى ابعاد شبحه طوال المدة السابقة ، وهاهو وجهه يعود ، متخفيا ومختلطا بوجه خضر » ·· وفكر فى استدعاء هذا الخضر واستجوابه ، ورأى فى ثورة غضـــبه أن الأمر قد ينتهى بتعليقه فى فرع شجرة ·· وأزعجته الصورة ، أن يكون أول أعدائه من أبناء بلده ·· وتذكر صورة الخضر وهو يفرد له ذراعيه ودموع الفرح فى عينيه : « لا ·· لا ·· خضر يحبنى · خضر رمز البساطة والصفاء والنقاء ·· وان كان قد جاءنى حاملا برغوثا ، فلم يكن ذلك بقصد منه ، انما هى البلـــدة التى مازالت مليئة بالروث

والتلال والقاذورات ‥ بعثت به الى لكى تذكرنى !! يالها من طريقة سخيفة بل وشريرة ‥ كم أنا متعب بسبب عدم النـــوم ‥ أيهـا البرغوث ابتعد أرجوك ‥ ان غدا يبدأ عصر جديد ، ليس لى وحدى، بل للوطن كله ‥ وليس من المعقـول أن يفســـد مســـيرة التاريخ برغوث !

ولم يجد مفرا من أن ينهض ويخلع ملابســـه قطعة قطعــة ، بحرص وانتباه شديدين ، مستعدا للانقضاض على البرغوث فى أية لحظة ، مثلما انقض على خصمه الخطير وأجهز عليه ‥ هنا طالعه الوجه من جديد ، فأسرعت أنفاسه وتولته الرعدة الداخلية ‥ ووجد نفسه يسأل نفسه :

ـ هل حقا أنا الذى أجهزت عليه ؟! (وعادت اليه الصورة مجسمة) لقد رأى بأم عينيه أحد جنوده الصغار وهو ينازل القائد الأكبر لجيش العدو ‥ كان الاثنان محصورين فى خندق ، والمعركة بينهما على أشدها وفجأة وبفعل ضربة من الجندى رأى الخصـم يهوى مجندلا على الأرض مضرجا فى دمـــائه ‥ بينما الجندى استلقى منكفئا ببطنه على الأرض يلهث ويسترد أنفاسه المتقطعــة ‥ وقف مذهولا مبهورا بما حدث ‥ وأوشك أن يصيح على جنديه الصغير صيحة الفرح والنصر ، الا أنه تجمد فى وقفته ، والصيحة أيضا تجمدت فى حلقه ‥ اكان يحدث نفسه بحرقة : آه لو أننى كنت فعلتها ‥ كنت أتمنى أن أكون أنا الذى ظفرت به ‥ أية ضـــجة وتهاليل وأفراح واستعراضات كانت ستحدث ‥ وساورته أمنيـــة حارقة جارفة : لو تتوقف أنفاس هذا الجندى الصــغير ‥ يموت بسرعة ومعه سره ‥ وانحنى عليه ورفعه من رأسه ليعرف بالضبط حالته ‥ حينذاك فتح الجندى الصغير عينيه ونظر اليه ، هى نظرة واحدة ممتزجة بابتسامة خابية ، ثم أغلق عينيه من التعب وعاود انكفاءته الأرضية !

فى تلك اللحظة سمع ضجة آتية من بعيد ، ولم يلبث أن لمح عددا كبيرا من جنوده قادمين ·· وعلى الفور امسك بجثة العدو وراح يجرجرها حتى أبعدها كثيرا عن الجندى الصغير ، ووقف على رأسها يلهث لهاث الخارج من معركة رهيبة ·· وما ان وصل الجنود ورأوه واقفا معفرا يلهث ، وقائد الأعداء صريعا غارقا فى دمائه ، صاحوا صيحة هزت أرجاء المكان : الله أكبر يابطل ·· بطل الأبطال أنت ·· الله أكبر ·· الله أكبر ··

حملوه على أعناقهم وساروا به هاتفين مهللين !!

احتلته سعادة كبرى ، أن مخططه الذكى البسيط نجح بكل هذه السهولة وهذه السرعة الخاطفة ، دون أن يقول هو أى شىء ، انما هم الذين قالوا وقرروا وفرضوا الأمر ·· غير أن شعورا آخر بالتوتر والتحفز كان يتصادم فى داخله مع الشعور الأول ·· كان خائفا من ذلك الجندى الصغير أن يفيق وينهض ويلحق بهم ، ثم يصرخ عليهم بالحقيقة !! ·· تراه يجرؤ على ذلك ؟! لم لا ·· وهو الذى واجه ونازل قائد الخصم الأكبر وصرعه ·· و ·· فجأة تولته رعدة هائلة أوشك على أثرها بالسقوط من على الأكتاف ، لولا أن الأذرع كانت ممسكة به بقوة ! لقد رأى الجندى الصغير وقد راح يشق طريقه مترنحا بين كتلة الجنود المحيطة به حتى تجاوزهم ، وأصبح وجهه لوجهه : تلاقت عيناه بعينيه ·· وأدهشه جدا أن الجندى كان يلوح له بذراع جريحة ويهتف مع الجنود : الله أكبر ·· الله أكبر ··

لحظتها تمنى لو يهبط من على الأكتاف ويأخذه فى صدره ويحتضنه ، الا أن هذا قد يثير التساؤلات ·· وقد ينكشف السر على نحو ما !! ·· هذا الجندى لابد من تصرف ما ·· معه !! كيف وأنا لا أعرف حتى اسمه ؟!

وسرعان ما تبخرت هذه المشاعر المتناقضة وتبددت مع اندفاع المظاهرة · والجندى نفسه تراجع وضاع فى المظاهرة · الا أنه بعد قليل وجد نفسه وهى محمول على الأعناق ، ينظر فى كل الاتجاهات باحثا عنه ·· لكنه لم يجد له أثرا !! فاستراح لذلك ، لكنها راحة مشوبة بالقلق ·· أن تتاكشف الحقيقة على نحو ما ·· فى أية لحظة « أه ·· من يأتينى بهذا الجندى ؟! لابد سأحصل عليه بطريقتى » !

وتراءى له الجندى قائلا فى مسكنة وضراعة : أرجوك اتركنى فى حالى ، وسيبقى السر فى بئر ، وحتى لو قلـــت ماحدث : فلن يصدقنيأحد ، بل وسيكون مصيرى مستشفى المجانين ·· لاتقلق ·· والمهم اننا انتصرنا ·· ان الوطن انتصر ·· !!

حل عليه بعض الهدوء ·· بينما كان ماضيا فى خلع ملابسه ، قطعة قطعة ، متربصا بالبرغوث ، ورأى المرآة قريبة منه ، فذهب اليها ووقف أمامها · ولاحظ أن « ··· » ليس متسقا فى هذه اللحظة مع قامته الشاهقة ، فأسرع يغلق باب الحجرة بالترباس ، ثم استند بظهره على الباب وقد شغلته حكاية عدم الاتساق هذه ·· لقد واتته فكرة سببت له قدرا كبيرا من الانزعاج ·· فحتى لو كان اتساق فى أعضاء الجسم ، فليس هناك اتساق بين كل هذا الجسم الضخم . وهذا النصر العظيم الحادث ·· و ··

وانتفض فجأة على دقات خفيفة بباب الحجرة ، صاح بغضب وعصبية : ماذا تريدون ؟!

ـ لا شىء ياسيدى · فقد لاحظنا أن الحجرة مضـــاءة لمدة طويلة ، بينما أنتم فى حاجة الى النوم ·

بتر الحوار : أعرف كل شىء · (وخفف من عصـــبيته) لا تقلقوا · كنت أقرأ فى بعض الأوراق

والآن سأعود النوم ·

كان قد غير كل ملابسه الداخلية ، وعاد الى سريره واسترخى ثم مد يده وأطفأ النور ٠ هذه الهواجس يجب أن تتوقف ، وليسبح كل شيء في الظلام ٠٠ كل شيء : الحجرة ، والجمجمة ، والخيال أن يتلاشى بالنوم لبعض الوقت ٠٠ ينسحب احساسه عن الواقع الموجود ويصبح في مكمن ٠ في قوقعــة مهمــا علت بها الأمواج وهبطت ، الا أن مابداخلها في مأمن ، حتى يستعيد قواه ، ثم يخرج الجان أو العملاق من القمقم !

كان قد وصل الى حالة قصوى من الانهاك الجسدى والنفسى، وفكر مشجعا نفسه : ها قد غيرت كل ملابسى الداخلية ، وتحررت تماما من البرغوث للاستسلام للنوم ٠ أستعيد أصوات الهتافات ، وصوت الأمواج البشرية الزاحفة المشرئبة نحوى ٠٠ وأنام عليها ٠٠

واستلقى بكل جسمه ، فاردا كل ذراعيه باسترخاء وأغمض عينيه ، مهيئا نفسه ليدلف الى جوف القوقعة ، الا أنه وجد نفســه ينتفض بحركة عصبية ، وأصابعه ، رغما عنه ـ تهرش ٠٠ وكان الهرش هذه المرة ٠٠ في الفخذ !

آه ٠٠ عاد البرغوث اللعين بعد أن اختار لنفسه مكمنا آخر ! وكتم صيحة كادت تكون باكية : لا ٠٠ ليس هذا بالأمر الطبيعى ٠٠ كيف عاد البرغوث رغم أنه غير ملابسه ؟ أم أنها مجموعة براغيث نقلها الى هذا الجلف خضر ؟ ! وباللاوعى طار به الخيال الى تلك الأيام التى كان مصاحبا فيها خضر باستمرار ٠٠ وقفز أمامه وجــه خضر ٠٠ ضاحكا ٠٠ لكنه لميكن يضحك عليه ـ بل كان يضحك له مداعبا : أهلكذا ٠٠ من برغوث يحدث لك كل هذا ؟ ! خذها لعبــة يارجل ٠٠ اعتبر الحادث من باب الفكاهة والمزاح ٠ أنسيت حسك العالى فى هذا المضمار ٠٠ ياما ٠٠ كانت لك حكايات فى هذا الباب ٠٠ وياما كانت لك عمايل لم تكن تعملها الا من أجل أن تضــحك

وتضحكنا ·· أما الضحية فأمرها لله !! ·· هل نسيت يوم أن كنا نستحم فى البحر وتسللت أنت خارجا وأخفيت ملابس أحد الأولاد المستحمين ثم عدت دون أن يشعر بك أحد ·· ويالها من ضحكات ضحكناها حين خرجنا من الماء ورحنا نتفرج على الولد العريان الذى لايجد ملابسه ، ثم بعد قليل ذهبت أنت واحضرتها له · متمما لعبة الضحك والاضحاك ؟! ·· واكنت تحب أن تجمعنا حولك فى الليل وتحكى لنا عن مغامراتك مع البنات والنساء ، وكنا نتشكك فى سرنا فيما تقول ، الى أن رأيناك تستولى ببراعتك على عقل أجمل امرأة فى البلد ، وجعلتها تتطلق من زوجها ·· حامد النجولى ·· الذى على أثر المهانة ترك البلد واختفى ولم يره أحد بعدها ··

ـ من قال لك انى اختفيت ؟ !

وانتابه رجفة هائلة ، حتى أنه انكمش فى نفسه ، وأحس بأنفاسه تنسحب منه ، فقد رأى وجه ·· « حامد النجولى » ينقض عليه ، ضاغطا على أسنانه ، فى غل دفين : « اتحسب أنك فلت منى ؟ لا ·· لقد جاء الوقت ·· وانه يمهل ولا يهمل ·· لسوف أدمرك كما دمرت حياتى ·· يامن تغربت عن وطنى بسبب غدرك ونذالتك و·· »

وهز رأسه بعنف طاردا الشبح عنه ، لكنه رأى وجه خضر مازال يطل عليه ·· ويبتسم بصوت كالفحيح : أيها اللئيم ·· الآن أدركت أنك متآمر ·· هى حملة تقودها على ·· أيها الحقير التافه ·· أنت والبرغوث واحد ·· لكنى سأهزمكم جميعا ·· جميعا ·· وراح يجاهد ليمسك بأنفاسه !) ··

كان قد وصل الى درجة قصوى من التفكك وانعدام التوازن · ومضى يتسمع أنفاسه وهى تروح وتجىء ·· « لابد أولا من قتل البرغوث ·· لكن المهم أولا هو الامساك به ·· وقبل الامساك بـه رصد حركته وضبطه ·· و ··

وتنبه فجأة الى ماهو فيه ـ راح ينظر الى الصورة من أعلى ، فوجد بطل الأبطال الذى مازال دوى الهتاف باسـمه يحدث طنينا وذبذبات فى الجو ، يطارد برغوثا ، ولا يستطيع الامساك به ٠٠ وأحس بالخجل الشديد ٠٠ الخجل من نفسه ٠٠ هاهو مرة أخرى يبدأ خلع ملابسه ويتعرى ٠٠ وهذه المرة لن يقف أمام المرآة ليرى عدم الاتساق العضوى ٠٠ هذا عدم اتساق تافة ، وليذهب كل من يهمه هذا الأمر الى الجحيم ٠٠ هناك عدم الاتساق العام ، وهـو الأبشع والأخطر ٠٠ المشكلة الآن كيف يتخلص نهائيا من البرغوث ٠

ـ « لا حل الا أن أخلع ملابسى ، واستلقى عاريا ٠٠ العـرى الكامل هو الطريق الوحيد للنوم » ٠

وفعلها ٠٠

تمدد بجسده العارى على السرير ، مطمئنا الى أن باب الحجرة مقفول بالترباس ٠ وحيث ان الجو لم يكن بردا ولا حرا ، فقد تسرب اليه ـ مع الارهاق ، شعور ناعم عذب وجميل ٠ وفكر : لو أظـل هكذا ، بكل هذه الراحة الكاملة الناعمـة ٠٠ أجـل ٠٠ لا أريد مهرجانات ولا هتافات ، فكلها قائمة على كذبة كبيرة ، ولسوف تظل هذه الكذبة تثقل على حتى أموت ٠ »

ورأى نفسه ، وهو بين اليقظة والنوم ، يقف فى الشرفة ويخطب أيها الناس ٠٠ انتباه ٠٠ آن لنا أن نعرف اللعبة أو الخدعـة التى كثيرا ما يسير بها التاريخ ٠٠ خدعة البطولة والأبطـال المتألهين الذين يحركون بقدراتهم السحرية ومواهبهم النادرة مسار التاريخ ، بينما هم فى الحقيقة لصوص ، سارقون لشجاعة وعظمة وتضحيات الأبطال الحقيقيين الصغار ٠٠ ابناء الشعب الغلابة ٠٠ الصامتين العظام ٠٠ نعم أيها الناس ، واسمعونى جيدا ٠٠ لست أنا البطل فى هذه المعركة ٠٠ البطل الحقيقى هو فتى آثر التراجع والاختفاء ٠٠ ودعونى أحكى لكم تفاصيل الـ ٠٠

ولم يكمل ، فقد انفجرت فى وجهه عاصفة رعدية من الرفض والاستنكار ·· وكانت الجوقة هى أول من أثار العاصـــفة ، وفى الحال تبنتها الجماهير : لا ·· لا ·· ليس اليوم يوم التواضـــع وانكار الذات ، واننا لنعرف سلفا أفكارك عن الشعب وحبك لأولاد البلد وأبناء الشعب الطيبين ، ولكن أن يكون هذا الحب طريقا لكى تتخلى عن المسئولية التى تنتظرك السنوات الطوال ··

فى تلك اللحظة وجد نفسه ينتفض بفعل قرصة من البرغوث اياه ، رغم أنه كان عاريا بالكمال والتمام · قفز جالسا وراح ينظر فى غيظ · مدققا فى كل اتجاه · لكنه لم يلمح شيئا فى الفراش ، كما لاحظ أن انتفاضته هذه المرة جاءت خفيفـة ، وأن الاحســـاس بالقرصة أصبح ضعيفا ، أضعف بكثير من المرات السابقة ··

كان ثمة خدر شديد ، من فرط الانهاك والتعـــب ، قد احتـل رأسه وكل أطرافه · وبدأ يستسلم ، مهيئا نفسه للذع البرغوث دون أن يهتز أو يقاوم ·· ورأى ـ بخياله المرهق ـ زوجته تميل عليـــه وتستر جسده العارى ، ثم تهمس له مشجعة :

ـ أتعرف بماذا أصبحوا ينادوننى ؟ ·· زوجة البطـــل ·· زوجة الزعيم أليس ذلك يسعدك ؟ !

ـ كيف لايسعدني ؟! على الأقـــل يخفف عنى هموم عـــدم الاتساق ·· لكن اتساقا آخر أهم وأخطر هو الذى يجب أن يشغلنا ·· ولسوف أحدثك فى هذا المعنى ·· بعد أن ··

كان الخدر الناعم الشامل قد احتواه ، وطاب له الاستسلام التام · وشيئا فشيئا ، مع فرط التعب ، وتجلط الاحساس ، ســقط فى البئر ، وراح يهوى الى القاع ببطء سحرى شديد ··

وحين استيقظ صباح اليوم التالى ، كان قد نسى كل شىء ، وراح بمساعدة الجوقة التى تشرف عليها زوجته ، يرتدى أجمل ملابسه ، ويستعد بشغف لتلقى هتافات الجماهير ··

« ١٩٨٩ »

البـــاب والوهـــم

هذا يوم يمكن أن يصبح تاريخيا ، لو صـــحت الأحـــلام : قالت الفتاة لنفسها وقد انتهت من ارتداء ملابسها ووضع لمســـات خفيفة لماكياجها ، متهيأة للخروج ، وصدرها يضج بالانفعال ٠

وحين رأت أمها ، صاحت عليها ملتمسة بركتها : ادع لـــى يا أمى ٠٠ ادع لى ٠٠ أن يفتح لى الباب ٠٠ بسطت الأم كفيهـــا وراحت تدعو بحرارة أنيفتح لها الرب كل الأبواب ، ليس فقط باب « الأستاذ » ٠ وأوشكت أن تكمل الدعاء : « ويرزقك بابن الحـــلال الذى تجدين معه الهناء وراحة البال ويرحمك من كل هذا الجرى وكل هذه المعاناة » ، الا أنها كتمت فى نفسها هذا الجزء الأخير من الدعاء ، ليس فقط لأن البنت أصبحت تغضب الى حـــد الثورة من الحاحها على موضوع الزواج ، معتبرة ذلك مســـاسا بكرامتهـــا وكبريائها ، وتهديدا لمشروع حياتها الذى رسمته بعد أن تخرجت فى الجامعة ، أن تصبح كاتبة وصحفية ، وهاهى لاتزال فى أول الطريق، وانما أيضا لأن الموضوع الصحفى الذى تخرج اليه اليوم ، يبدو بالنسبة لها ، هو الأمل والمستقبل ٠٠ وأن هذا الباب الذى ترنو لأن يفتح لها هو باب الحياة ، ودعتها بقبلة حنون ، مواصلة لها الدعاء بفتح الباب !

أتوبيس أم تاكسى ؟! أيهما يأتى أولا سأركبه · المهم أن أصل الى بيته فى الميعاد ·· كان الشارع مزدحما ومتكدســا بالعربات وبالناس وبأصوات الكلاكسات · كما أن الجو كان حارا ومشبعا برطوبة خانقة للانفاس ، الا انها لم تعبأ ·· وفـأكرت بإسبــمة أن اختيارها كان موفقا ، حين لبست صندلا خفيفا ، وبنطلون « جينز » وقميصا شمرت كميه ، وضمت خصلات شعرها وربطتها على هيئة ذيل الحصان !! ·· ذلك يخفف عبء المعاناة ·· وان كانت أيــة معاناة تقابلها اليوم لتهون أمام خطورة وجلال المهمة الذاهبة اليها ·· تلك المهمة التى لم يسبقها أحد اليها ، حتى لتبدو أشبه بالمغامرة · وهاهى تندفع بجسارة وثقة للقيام بها ·· حوار مع أستاذ ومفكــر عظيم ، اشتهر بنفوره من عالم الأضواء والنجومية ، ورفضه القاطع الباتر لأية أحاديث للصحافة أو الاذاعة أو التليفزيون ! وقد سطعت الفكرة فجأة فى ذهنها بينما هى تقلب فى موســوعته الضـــخمة الشهيرة بأجزائها الثلاثة عن علم الحضارات الانسانية · والمعروضة فى أحد أجنحة معرض الكتاب الدولى ·· واذ وقعت عيناها على عنوان الجزء الثالث : الانسان ·· بين القمة والسقوط ·· اشتعل خيالها ، وتملكتها رغبة أججتها ، ليس فقط حاستها الصحفية ، بل أيضا ـ وهذا بعد هام جدا فى شخصيتها وتركيبتها ـ موهبتها الأصيلة كشاعرة ، تلك الموهبة التى فتحت لها وهى لاتزال طالبــة بالكلية ، أبواب النشر فى بعض المجلات ، ثــم زكتهــا ـ بعد أن تخرجت ـ للعمل بهذه المجلة ·· تملكتها الرغبــة فى أن ترى هذا الأستاذ ·· صاحب هذه الموسوعة ، وتدير معه حوارا حول هذا العنوان : الانسان حين يصعد ، والانسان حين يسقط ·· كيف ·· كيف يا أستاذى ؟! وألا يمكن للانسان أن يتجنب السقوط ؟! ولكيلا يكون الحوار ذهنيا ومجردا وفوق مستوى القراء العاديين ، فلــن تتركه يحلق فى الماضى ، عبر مراحل التاريخ ، بل ستدفعه بذكاء

الى حياتنا اليومية المعاصرة ، بتناقضاتها ، وأزماتها ، وتفاصيلها الصغيرة الواقعية !

لحظتها طارت فرحا بالفكرة فرحتها بهبوط الوحى عليها بقصيدة شعر جديدة ٠٠ وما أن عرضتها على رئيس التحرير ، حتى التمعت عيناه اعجابا وحماسا وقال : فورا ٠٠ نفذيها (ثم بدا عليه الجدية وكأنه يتكلم فى قضية مصيرية) سيسجل لك التاريخ ــ لو نجحت ــ أنك أول من أنزل النسر من عليائه ، وجعلت سكان القمم يتحدثون مباشرة مع الجماهير ٠٠ والتهب حماسها ، وتلبستها روح التحدى والاصرار !

وها هو الاصرار يتأكد فى نفسها لحظة بعد لحظة ، وهى تحس بخيوط العرق تسيل على جسدها ، ثم وهى ترفع حقيبتها وتغطى بها رأسها تفاديا من ضربة شمس ٠

ولابد أن منظرها هذا هو الذى أثار عطف أحد سائقى التاكسى فتمهل وهو يمر بجوارها ، ولاحظت أن معه راكبين ٠ لايهم ٠٠ صاحت عليه باتجاهها ٠٠ توقف ٠ ركبت ٠٠ ومضى التاكسى يشق طريقه فى قلب الزحام !

لحسن الحظ أن المقعد الخالى كان بجوار السائق ٠٠ تنهدت بارتياح ٠٠ وانطلقت بخيالها خلف مايمكن أن يكون ٠٠ طارت بأجنحة الأمل ٠٠ ورددت فى سرها بابتهال : آه لو يفتح لى الباب » وأغمضت عينيها عن الزحام ، متناسية الحر ٠٠ والعرق « لو يفتح لى الباب ٠٠ تنفتح الدنيا ٠٠ يظهر قرص الشمس ٠٠ يبدو النسر الذهبى الرابض فوق القمة ٠٠ يرمقنى ٠٠ تعلو دقات القلب ٠٠ أخطو بجسارة » فجأة توقف خيالها ٠ قالت لنفسها بفرح : « هذا مدخل قصيدة ٠ فلأخرج ورقة وأسجلها » الا انها استبعدت الفكرة ٠٠ ليس اليوم يوم الطيران بالشعر ٠٠ اليوم يوم المواجهة مع الواقع ٠٠ الواقع الصعب ٠

لم تكن هذه أول مرة تقطع هذا المشوار قاصـــدة بيته ·· ذهبت اليه مرة منذ يومين تستطلع وترتب للأمـر ·· وأحست من اللحظات الأولى بمدى الصعوبة ·· حين قال لها البواب العجوز ذو الشعر الأبيض : نعم ·· هو يسكن هنا ·· لكنه لايقابل أحدا أبدا

قالت باصرار مهذب : أعرف ·· ومع هذا عندى أمل ·· ليتك تساعدنى ··

تأثر الرجل بلهجة رجائها ، وكانت صاحبة وجه بشـــوش : أساعدك كيف يا ابنتى ·· هذه طريقته منذ جاء وسكن هنا ، منذ أكثر من خمسة عشر عاما ·

ـ أعرف ياعمى ·· أعرف ·· ولكن اسمح لى أن أحاول ·· وقلبك معى ··

تحركت عاطفة الرجل ·· ود حقا لو يساعدهـــا ·· أو على الأقل يشعرها بأنه متعاطف معها : هى طريقة واحدة ·· ليس هناك غيرها ·· ربما ·· سألت بلهفة : ماهى ؟!

اكتبى له ورقة بما تريدين ·· ودسيها له من تحت عقب الباب فربما يا ابنتى ·· ربما ··

وفعلت بالنصيحة ·· كتبت له ورقة مهذبة بطلـــب اللقاء ، وحددت له موعدا بعد ثلاثة أيام ، راجية العفو عن هذا التحديد : فلا وسيلة أمامها غير هذا ، ودست له الورقة من تحت عقب الباب ·

تراه قرأ الورقة ؟! يقينا قرأها ·· المهم أن يرق قلبه ويستجيب ·· ويفتح لها الباب !

استبشرت من أول لحظة وقف فيها التاكسى أمام البيت ··

فقد رأت البواب العجوز جالسا على دكته الخشبية ، كما لمحت بائعة ليمون كانت قد رأتها فى المرة السابقة ، جالسة على الأرض وأمامها قفص الليمون ·· غمرتها موجة تفاؤل ، وفكرت بحب : سأشترى منها بضع حبات وأجزل لها العطاء بقدر مايمكننى ·· ولكن بعد أن أخرج من عند الأستاذ·

واتجهت مباشرة الى البواب محيية ومسلمة ، ثم سألته ان كان الأستاذ بالداخل ، هز رأسه بالايجاب وقال : « نشفى عرقك أولا يابنتى ·· ثم بعد ذلك حاولى » ·· وأوشكت أن تقول له : ليس هذا وقت تجفيف العرق ·· الا أنها أحبت روحه الأبوية ·· اخرجت منديلها من حقيبتها وراحت تجفف عرقها ، وعيناها على الباب !! جميل أنها وصلت بالضبط فى الميعاد ·· والأجمل أنه يسكن الطابق الأرضى ·· وخطت بهدوء الى الباب ·· سمعت البواب يغمغم خلفها : « ربنا يقدرك يابنتى » ·· رددت لنفسها « يارب ·· يارب قدرنى » ·

كانت قد لاحظت فى المرة السابقة غرابة شكل الباب ·· كان أقرب مايكون الى باب القلاع : كتلة خشبية هائلة مصمتة ليس بها من علامة سوى ثقب صغير للمفتاح ·· الأمر الذى جعلها تفكر بأنه خلع الباب الأصلى وأتى بباب آخر من تصميمه هو ، بحيث يحقق فكرة القلعة والاحتماء !! وابتسمت لنفسها مبهورة بالفكرة : ذلك دليل العبقرية ·· أجل ·· العباقرة العظام لابد أن يدفعوا عن أنفسهم وعن رسالتهم ضد هجوم جحافل المتطفلين الذين أصبحوا يملأون الساحة الثقافية والصحفية ·· وخاطبته فى سرها ، بابتهال: أنا لست منهم ·· أرجوك ·· وليت كانت بالباب عين سحرية لترانى منها وتدرك ذلك بلماحيتك وفطنتك ·· فانا فتاة جادة ، وشاعرة قبل أن أكون صحفية ، وأقدر جيدا أهمية خلوتك ، وقيمة كل لحظة من وقتك ·

ومضت بحماس تفحص بنظراتها ما حول كتلة الباب ، باحثة عن جرس لتضغط عليه وتعلنه بوصولها ، الا انها لم تجد أى شىء ٠٠ الجدران مثل الباب مصمتة ٠٠ لامفر اذن من الطرق بيدها على خشب الباب !

وفى البدء كانت تنقر بأصـــابعها ، نقرات خفيفة مهذبة . حريصة على ألا توحى له بأى ازعاج أو جرح لعالم السكينة الذى يعيش فيه ، الا أنها لم تلبث أن اكتشفت ، أن نقرات أصابعها لاتكاد تحدث أى صوت بسبب غلظة الباب ، فلجأت الى الطرق بكل كفها ، ملتزمة الرقة والتعبير عن الاجلال والاحترام ٠٠ ولكن ٠٠ لارد ولا جواب ٠

تراه يسمع ولا يعبأ ؟! ولم تشأ أن تتصور الجواب بالايجاب ، وقالت لنفسها : يجب أن أكون أكثر حسما وشجاعة ، فأشدد من وقع الضربات ٠٠ فربما الاصرار يلين قلبه ويقنعه بجدية الطارق ويفتح الباب ٠٠ على الأقل ليعتذر ٠٠ أو ليؤجل لى اللقاء الى يوم آخر ٠٠ انه أولا وقبل كل شىء انسان ٠٠ ولابد أن قلبه أكبر وأوسع من موسوعته الضخمة عن علم الحضارات وتاريخ الانسان !

واذ مضت تطرق بكل كفها بعزم وقوة ، أحست فجأة بالألم ، ينبعث من منطقة الرسغ ٠ ٠ وأوشكت أن تصيح متأوهة ، لكنها كتمت الصيحة ، متناسية الألم ، ومضت تدق باليد الأخرى ٠٠ ولكن أيضا لا مجيب !

حط عليها شعور ثقيل بالكآبة والاحباط ٠٠ وبالمهانة أيضـــا هنالك أحست بدبيب الكراهية يتسلل الى نفســـها نحوه الا أنهـــا استنكرت بشدة هذا الشعور : يجب أن أكون عادلة ٠٠ فليس هـــو المسئول عما يحدث ٠ أنا المسئولة ٠ أنا التى استرسلت فى الحلم

وفى التمنى وحددت له موعد المقابلة دون أن آخذ رأيه ·· ولكن كيف كان يتأتى لى غير هذا ؟!

- «يعجبنى فيك اختيارك للصعب» · عاودها صوت رئيس التحرير وملامحه المتحمسة · سيسجل لك التاريخ - لو نجحت - انك أول من أنزل النسر من عليائه ·· و ·· وعز أن تعود اليه فاشلة ، فمضت باللاوعى تواصل الطرق على الباب بكفها الموجوع ·· فجأة اذا بصرخات استغاثة عالية تشق سمعها وتهز كل كيانها ، وقد خطر لها للحظة أن هذه الصرخات تنبعث من داخل شقته ، الا انها سرعان ما أدركت أنها صادرة من البيت القريب المقابل ، كما ميزت فيها أصوات أطفال يبكون ويصرخون فى ذعر وهلع ·· اندفعت الى الشارع لتستطلع الأمر ، فرأت رجالا يهرولون وهم يصيحون فى نفس واحد : حريقة ياناس ·· حريقة ياناس ·· سقط قلبها الى قدميها ، وامتلأت روحها بالخوف وبالتشاؤم ·· ورأت كل النوافذ والأبواب تفتح والسكان جميعا رجالا ونساء وصبيانا وبنات يطلون أو يخرجون مندفعين الى مكان الحريق ·· كما رأت البواب العجوز يهرول ، وبائعة الليمون وقد خلعت طرحتها ووضعتها فى القفص ومضت تهرول صائحة ، استر يارب ·· استر على عبيدك يارب ·

وتأكدت الكارثة حين رأت ألسنة من الدخان تخرج من احدى النوافذ وتتراقص ببشاعة فى الفضاء ·· تسارعت أنفاسها مع رغبة فى البكاء ·· ماذا يمكن أن تفعل ·· كيف تساعد ؟! وصرخت تليفون للمطافىء ·· أين أقرب تليفون ؟؟! ووجدت نفسها تتجه بنظراتها الى باب الأستاذ ونافذته ·· الآن لابد سيخرج ، أو على الأقل يفتح النافذة لينظر ويستطلع أمر هذه الكارثة أو المأساة التى تحدث بجواره ·

لابد من تبليغ المطافىء ·· عادت تصيح على من حولها ··

بلغناها ·· لكننا لن ننتظر حتى تصل ·· المهم أن نسـرع بانقاذ الطفلين وأمهم · ارتعش قلبها للصورة ·

واصطدمت برجال ونساء وصبيان يحملـون أوانى وجرادل مملوءة بالماء لينقضوا بها على النار ·· وأضناها أنها لا تقوم بعمل تشارك به على نحو فعال ، فدخلت أحد البيوت وراحت تساعد فى ملء الأوانى بالماء · · وتصورت فى لحظة أنها تفاجأ بالأستاذ وقد حمل أحد الأوانى المملوءة بالماء ، أو يشارك على نحو ما ، الا أنها سرعان ما نسيته ونسيت الموضوع الذى جاءت من أجله ·· نسيت الصحافة والشعر وعلم الحضارات ، ولم يبق فى ذهنها وأنفاسها اللاهثة غير شيء واحد ·· انقاذ الطفلين وأمهم واطفـاء الحريق تشارك بقدر ماتستطيع · فجأة وجدت قلبها يزغرد فرحا ، فقد رأت البعض ، ومعهم البواب العجوز ، يحملون سيدة مغمى عليهـا ، وعرفت أنها أم الطفلين : « الحمد لله · الحمد لله ·· كل شيء بعد ذلك يهون » ·· وأغرورقت عيناها بالدموع !

كانت ملحمة اطفاء الحريق مازالت دائرة ، فمضت تنظر بقلق الى النافذة التى تخرج منها ألسنة الدخان ·· ولاحظت أنها تهدأ وتخف بالتدريج حتى انعدمت وتلاشت تماما ·· نجـح الناس فى اطفاء الحريق !

هدأت دقات قلبها ، وراحت تتنفس بعمق وارتياح ·· كانت تحس بنوع نادر من السعادة لم تذقه من قبل أبدا ·· لأول مرة ترى الناس وهم يتجمعون ويتكتلون ويواجهون معا أبشع أنواع الخطر وينجحون ، وجميل أنها شاركت ولو بالروح !! وانتبهت فجأة على البواب واقفا بجوارها ، يلهث بهدوء وعلى وجهه آثار الحريق ·· اندفعت عليه ·· تود لو تعانقه ·· صاحت بكل ما فى داخلها من انفعال : أنتم عظماء ·· وأنت ·· أنت رجل عظيم ··

ـ العظمة لله يا ابنتى ·· كان لابد من هذا ، والا فالنار كانت

ستأكل الجميع » تذكرت الأستاذ ‥ قالت وهى تكاد تصـــرخ : وكانت ستأكله هو أيضا ، ومع هذا لم يخرج ‥ لـــم يفتـح حتى النافذة ‥ هل أنت متأكد أنه فعلا بالداخل ؟!

هز رأسه بالايجاب ، وقد ارتسمت على شفتيه طيف ابتسامة توحى بالسخرية وبالمرارة ·

مشغول ياابنتى فى أوراقه وكتاباته ·

دقت الأرض بقدمها غاضبة : اية كتابات يا عمى ‥ ملعونة كل كتابة تنزع من الانسان انسانيته ·

وعاودت النظر الى الباب المغلق ‥ كان لايـزال شـــاهقا ومصمتا ‥ وأصما ‥ أحست نحوه بكراهية عميقة ‥ واجتاحتها رغبة جارفة فى نسفه وتحطيمه ‥ وتصورت ماذا لو حدث هذا !! لن تجد خلفه غير خرائب وقبور وجرذان ‥ ارتعدت للصـورة : غمرها احساس بالخوف وبالحزن وبالرثاء !! أعطت للباب ظهرها ‥ رفعت يدها بالتحية للبواب ‥ ثم مضت مبتعدة تشق طريقها غير عابئة بالحر وبالزحام ·

كانت قد تحررت من وهم كبير ‥

« ١٩٨٩ »

الخماسين

باحساس مفعم باللحظة ·· لحظة تحقيق الحلم ·· الحلم الذى ياما عاشته فى الخيال سنوات ·· ومن أجله خاطرت وعانت وضحت بالكثير ، وهاهى الآن تراه حقيقة مجسدة ومصقولة لايحكم مكوناتها غير قوانين الجمال ، وانها لتود الآن لو جاء كل أهل الذوق وأهل الفن ليروا ·· ويتفرجوا : لكأنها ليست شقة أثثتها وفرشتها لتعيش فيها ، بل كأنها ·· « جاليرى » ·· معرض مقتنيات ·· كل قطعة منها جديرة بالوقوف وبالتأمل ·· وانها لمستعدة عن كل قطعة أن تحكى قصتها وتاريخها ! ·

أجل ·· هنا ·· كل شىء ، فى اطاره الجمالى ، له قصة وتاريخ ! ·

وضحكت فى سرها ·· « ذلك يرضى أهل الشكل وأهل المضمون » ··

بفعل الفرح الآخذ طعم الانتصار لم تكن تكف عن الحركة ·· حركة دائرية حول نفسها ·· وكانت أحيانا ترفع ذراعيها ·· بكفيها ·· فكانت فى دورتها تشبه راقصة باليه ·· وفى دورتها البهيجة

كانت تمر ببصرها على الأشـياء ٠٠ على اللوحـــات المعلقة على الحيطان ٠٠ على قطع الأثاث الخشبية التى تحقق فيها عنصر القدم، مع صيحات الفن الحديث !! ٠٠ أوه ٠٠ كم كلفها كل هذا ؟! ٠٠ لكنه يستحق ! (وطردت نفسا عميقا من صدرها) ٠

الآن تستطيع أن تهجع وتهدأ ٠٠ وتقضى الأيام والليالى فى هذه الشقة ٠٠ مستمتعة بجمالها ٠٠ لاتريد من الحياة أكثر من هذا ٠٠ ذلك هو كان خيالها ٠٠ وهاهى قد استطاعت ترجمة الخيال الى حقيقة !!

غير انها ، فى دورانها حول الاشياء وحول نفسها ، كانت نظراتها تتمهل عند آلة التليفون : هذه لحظة لاتحتمل الوحدة ٠٠ بل أن كل تلك المشاعر المتوهجة يمكن بعد قليل أن تستنفد نيرانها وتخمد وتنطفىء ٠٠ لابد أن تكلم أحدا تنتقل اليـــه الحـرارة ٠٠ يتقبلها فرحا ويشتعل بها هو الآخر ؟؟

وقبل أن تفكر : ترى من يكون ؟! ٠٠ وجدته يطل عليها بعينيه ٠٠ باسما ٠٠ مهنئا فى صدق وشفافية !!

وفكرت : هل هو الذى يقتحمها ؟! ٠٠ أم هى التى تستدعيه بخيالها ؟!

وحدثت نفسها « اننى أظلمه ٠٠ فهو لايعرف أى شىء عن هذه الشقة ٠٠ ولايعرف أى شىء عن حياتى منذ أن انفصلنا ٠٠ بل انه سافر وترك البلد ٠٠ اربع سنوات وهو مغترب ٠٠ لم يعد الا منذ شهور ٠٠ فكانت الصدفة هى التى جمعتنا فى ذلك الحفل ٠٠ غير أنه كان لقاء خاطفا ٠٠ لم يشف الغليل ٠٠ فلا أنا عرفت شيئا عن حياته ٠٠ ولا هو عرف شيئا عن حياتى ٠٠ كانت قصة حب ودخلت ذمة التاريخ !!

فلماذا هو بالذات تريده ان يكون أول من يرى الشقة الجديدة وتسمع منه كلمات التهنئة والاعجاب ؟!

وتنهدت : لأنه كان أول رجل استوعب مشاعرى ٠٠ وبجواره نسيت كل العالم ٠٠ و ٠٠

ـ واذن لماذا طلبت منه الطلاق ؟! تذكرين أنه ياما ناشدك أن تتعقلى وتنسى فكرة الطلاق هذه ٠٠ كان يقول لك يمكن أن يعيش كل منا بعيداً عن الآخر ، ولكن بدون طلاق ٠٠ هذه الكلمة الكريهة لايصح أن تطبق علينا ٠٠ لكنى ركبت رأسى ٠٠ كنت أريد أن أكون أنا ٠٠ وحدى ٠٠ بدون أحد ٠٠ بدون رجل ٠٠ ومع هذا أمتلك العالم ٠٠ والمصير ٠٠ والرجال يدورون حولى ٠٠ ويكون لى بيتى الخاص ٠٠ عالمى الذى ينتمى لى ، وليس للرجل الذى أنا انتمى اليه !!

وهاهى قد حققت كل هذا ٠٠ دخلت كل هذه المعارك وانتصرت فيها ٠٠ وانها الآن لفى غاية السعادة والفرح ٠٠ ولكن ٠٠ مابالها تريد شهادة بهذه السعادة وهذا الفرح ٠٠ والأعجب ٠٠انها لاتريد هذه الشهادة الا منه هو ؟!

يقولون ان السباح العالمى ، قاطع المسافات الكبيرة ، وعابر الامواج والدوامات المهولة ، يقولون أن أكثر مايدفعة ويملأه بكل طاقات الحماس والتحدى ، ليس فقط منظر الجماهير التى تنتظره بالهتاف والتصفيق ، انما لابد أن هناك وجها بالذات ٠ وجها واحدا متميزا عن آلاف الوجوه الأخـرى ٠٠ يتخيله بانتظاره ٠٠ النظرة الواحدة منه ٠٠ تساوى ألاف وملايين النظرات والبسمات ٠٠ انه وجه الحبيب !!

وغمغمت مع نفسها : هل ترانى مازلت أحبه ؟! ٠٠ لكننى أنا التى طلبت الطلاق ٠٠ وياطالما ناشدنى بأن انسى طلبى هذا لكنى أنــا التــى اصـــررت ٠٠ ؟ ! مـــاذا يعنــى هــذا ؟!

يعنى انى حقيقة أحبه ·· وأنها كانت تجربة امتحان اختبرت فيهـا نفسى وعواطفى ·· وهاقد اكتشفت أننى حقا احبه ·· وأنه هو الشخص الذى سأقضى معه بقية العمر ·· فى هذه الشقة الجميلة ·· آه ·· ما أجمل هذا ··

واندفعت الى التليفون وأدارت القرص ·

ـ ألو ··

ـ ألو ··

فرحت ·· انه صوته ·· تفاءلت وبكل طاقة الفرح

ـ مساء الخير ياحمدى ·

ـ من ؟! كاميليا ؟! معقول ؟! ·

ـ ولماذا غير معقول ؟! أم تراه أنت شيئا ·· لامعقولا ؟!

ـ بالعكس ·· من ناحيتى أنا شىء طبيعى جدا ·· انما ·· ربما المفاجأة ·· أربع سنوات الآن ·· وثلاثة شهور ·· كانت أعدها منذ قليل ··

ـ طمأنينى ·· كيف حالك ؟ !

ـ تغيرت أشياء كثيرة ياحمدى ·· ومعها حدثت تغيرات فى الانسان ·· تغيرات جذرية وعميقة ·· يحسها الانسان ولكنه قـد لايجد تفسيرا لها ·· قلت لنفسى : مع من أتكلم فيها ·· على راحتى ودون ادنى حرج · ولكنت أنت أول انسان خطر لى

ـ ذلك شىء يسعدنى ·· شىء أفخر به !

ـ وأنت ؟! كيف حالك ؟!

ـ حالى أنا ؟! (وضحك ضحكة صـغيرة) حسـب الرد

التقليدى ، أنا بخير ·· والحمد لله ·· أما الرد الحقيقى ، فيحتاج كلاما كثيرا ·· المهم الآن هو انت ·· احساسى يقول بانك جـد سعيدة ·· وأراهن على ذلك !!

ضحكت عاليا : كسبت الرهان ·· ؟!

قال متحمسا : ماهو الرهان ؟!

ـ زيارة منك لشقتى الجديدة ··

ـ شقة جديدة ؟! هذا خبر عظيم ·· عظيم جدا ·· مبروك ··

ـ الله يبارك فيك ·· وهذا مادفعنى لأن أكلمك الآن ·· أن تكون أنت أول المفتتحين لها ·· وأسمع رأيك فيها ··

ـ ذلك شىء يسعدنى بحق ··

ـ مارأيك لو تأتى الآن ·· ان لم يكن لديك شـــىء سيغير مصير العالم ، تعال ·· الليلة ·· أرجوك ·· لن تندم بأى حال ·

ـ أمام كلامك هذا ، سأنسى كل شىء ·· مصيريا كان أم غير مصيرى ، وسآتى · صفي لى العنوان ·· وسوف آتى فى الحال

***

داخلها اضطراب عظيم ·· وأسرعت ، أول ما أسرعت ، الى المرآة ·· تطمئن على منظرها ·· لقد أوشكت أن تقول له ألا يأتى الآن ·· بل يعطيها ساعتين أو ثلاثة تعيد فيها رسم جمالها ·· انها لابد أن تكون هى نفسها ، مثل الشقة وما فيها ، جميلة ·· بل تكون هى التحفة الحية الأولى فى المكان ·· الا أنها خشيت لو طلبت منه هذا الارجاء القليل فى المجىء أن يلغى الفكرة نهائيا من رأسه ·· أو يرجئها الى يوم بعيد ·· وهى تريده هذا اليوم ·· هذه اللحظة ·· وفكرت :

ـ لقد عرفنى فى جميع أحوالى ·· رآنى فى لحظات ازدهارى واشراقى ورآنى فى لحظات كآبتى وذبولى !! ·· أجل ·· فليأت فى الحال ··

ومضت تجرى بعض خطوط ولمسات فى الوجه ، وبالذات حول العينين ·· وهالة خفيفه خضراء تقابل خضرة عينيها ·· و ·· خصلات شعرها ، تعقدها بالطريقة التى كان يحبها ·· كان يعشق رقبتها كلها مكشوفة ·· على طريقة نفرتيتى « تراه مازال يذكر ؟! »

ومضت أمام المرآة ترسم نفسها بعينيه ·· وخطر لها أن أهم مايجب أن تقوله له ، بعد أن ينتهى من جولته بالشقة ، أو ربما خلال الفرجة ، لحظة أحد التعليقات له على قطعة ، أو لوحة ، أو خط ، أو لون ·· خطر لها مع الحماس أن تقول له خلاصة مشاعرهـــا وعواطفها فى السنوات الأربع الماضية ·· سنوات الانفصال : أنها وقد رأت عشرات الرجال ، وحاولت جادة فتح قلبها من أجـل ان تعيش قصة حب جديدة ·· الا أنها لم تستطع ·· لم ينجح أحد من كل هؤلاء الرجال ·· ولم تنجح هى نفسها ··

أليس ذلك هو البرهان الأكيد على أنه ·· مايزال ، كما كان ·· حبها العظيم ·· الأوحد ؟ ! ·· ولو نظر لهـــا بمرارة متذكرا الأيام التعيسة ·· وانها هـــى التى كانت مشـــعلة للحرائق ·· ستخفض عينيها معترفة بأنها هى التى كانت حقا المسؤولة عن كل ذلك ·· لكن شفيعها أنها كانت تريد أن تتأكـد من عواطفهـــا ·· عواطفها التى أحست بها تجف معه فى فترة وتتيبس ·· ولم تـــر حلا فى نظرها غير الانفصال والطلاق ·· كى تتأكـــد من حقيقـة مشاعرها !!

وماذا لو أنه لم يقبل هذا المنطق ؟! بل ماذا لو استفزه الى حد الغضب فيندفع مهاجما اياها ·· وقد تقلبت عليه مرارة ومهانة

مشهدهما الأخير ‥ وهو يبكى حبه بالدموع ‥ وهى واقفة كالحجر الأصم ‥ مصممة على طلبها ‥ بحجة الصدق مع نفسها : يوما ترين الطلاق هو الصدق مع نفسك ، ويوما ترين الرجوع هو الصدق ‥ لا ياعزيزتى ‥ لا ‥ هذا التقلب فى المشاعر اكرهه ‥

وهزت رأسها بشدة ، حتى أن بعض خصلات شعرها الملمومة انفكت وتبعثرت على كتفيها ‥ لاتريد لخيالاتها أن تصل الى هذه المنطقة الكئيبة ‥ أجل ‥ اليوم فرح ‥ والمناسبة فرحة ‥ وكل شىء يدعو للفرح ‥ ولو حدث أثناء الفرح أن انسابت الدموع ‥ لو أن الحنين فى قلبها اختلط بالندم ‥ لو أنها أجلسته على هذا المقعد ، ثم جلست على الأرض بجوار قدميه واحتوت ساقيه ‥ وقبلت ركبتيه ، لن تجد فى ذلك أبسط مس بكبريائها ‥ فليس فى الحب كبرياء ‥ و ‥ ودق جرس الباب ‥

لم تلحق حتى أن تلم شعرها من جديد ‥ أسرعت ‥ وفتحت الباب ‥ وكان هو ‥

من اللحظة الأولى ، ندت عنه صيحة اعجاب : الله ‥ أحب المداخل الواسعة · مساحات الفراغ · كنت واثقا · أعرف ذوقك !

لو تركت نفسها لمشاعرها فى هذه اللحظة لاندفعت عليه وقبلته ‥ من قال ان هناك طلاقا حدث بيننا ؟! لا ‥ لا ‥ كان كابوسا وانقضى (واستبد بها الشوق) ما أجمل أن نعود كما كنا ، زوجين حبيبين يعرفان كيف ينسجان معا اروع وأعذب اللحظات !! غير أن شيئا جامدا خفيا أحسته فى نظراته ، وفى شدة قامته ، أوقفها ثابتة فى مكانها !! ورغم هذا ، فقد فرحت بهذه المشاعر واستبشرت ‥ « ذلك يسعدنى ‥ رأيك انت بالذات يا حمدى » ·

صاح فجأة بفرح ، وقد توقف أمام احدى اللوحات ‥ صورة فوتوغرافية لتمثال : آها · عظيم أنك مازلت تحتفظين بهذه اللوحة

·· جميلة ·· موحية (وغمغم باسمها) : الخماسين ·· لابن مصر العظيم ·· مختار ·· كم أعشقها ·· فما بالك بالأصل ·· التمثال نفسه !!

ـ تذكر ؟! · (قالت بطرب) يوم أن رأينا التمثال معا أول مرة ·· فى متحف مختار بحديقة الحرية ؟!

ندت عنه تنهدة مسموعة أفحمت أية كلمات ·· وكانت الصورة قد امتصته واستغرقته ·· بتفاصيلها وايحاءاتها ، وخيل اليه أنه يدرك اسرار الخلق فيها لأول مرة ·· هذا الاحســـاس بجبروت العاصفة ، والمتجسد فى الاختباء هربا وطلبا للأمان ·· بل خيل اليه أيضا أنه يسمع صفير العاصفة وولولاتها ·· لكأن كل شىء يوشك أن يقتلع من أساسه ومن جذوره ·· المبـــانى والأشـــجار والانسان أيضا ·· وفكر والصورة تأخذ بتلابيبه : ما أفظع العاصفة حين تهب على المرء وهو فى العراء ·· فى خلاء ·· لايجد الا نفسه يلوذ بها ·· ينكمش مختبئا داخل نفسه ·· ينكمش وينكمش متلمسا أبعد وأعمق جذور قوته كى يبقى ·· ويعيش ·

وفكر فى سره : ان ماحدث بيننا كان اشبه بالخماســـين ·
واسترجع ، بلا عمد ، طعم التراب الذى ملأ حلقه ، وسيل الدموع التى سببتها ذرات التراب والرمال التى علقت بعينيه ··

قالت ، بنفس الحماس ، مشيرة الى لوحة اخـــرى مجاورة للوحة الخماسين : وانظر الى هذه أيضا ·· أنا أعطيتها اسما آخر غير اسمها الأصلى ·· اسميتها ·· مابعد الخماسين ·· مارأيك ·· انظرا الى المرأة وهى تنحنى بجرتهـا على مـــاء النهر ، ومع هذا فعيناها على كل النهر ·· بوجهها الصبوح الفرحان ·· ســـعيدة بانتهاء العاصفة ·· ان المساحات والالوان لتوحى بعالم من الصفاء وبأغمار من الهواء النقى المنعش يوحى للانســـان بأن يتنفس حتى العمق ، طاردا من جوفه آثار أيام الخماسين !!

كانت هى الأخرى تحس بانها تتحدث عن حياتهما ، اكثر مما تتحدث عن اللوحتين ٠٠ ونظرت اليه وقد امتلأ قلبها بالتفاؤل ٠٠ واستقرت عيناها فى عينيه بابتسامة ٠٠ بادلها الابتسام ٠ الا أنه كان يفكر فى نفسه : اثبت ياولد ٠ حذار أن تجرفك العواطف ، هذه الزيـــارة بالــذات أنت أقدمت عليهـــا لكـــى تخرجها تمامــا من حيـــاتك العاطفية ٠٠ بلطـف وكياســـــة تحفظ عليهــــا كبرياءها ٠٠ لقد انتهت « الخماسين » بالفعل ، الا أن الصـــفاء والنقاء الذى حل لم يأت مرتبطا بها هى ٠٠ (وســـرح بعينيه الى بعيد) لكان وجها آخر ٠٠ وجها مريميا ، يصاحبه فى كل خطواته ونظراته وهمساته ٠٠ كان يسترجع كلماتها « قابلها ياحمدى ٠٠ لابد أن تزورها،وتبارك لها٠وعش لحظاتك وفق ماتحس٠لاتجبر نفسك على شىء ٠٠ اذهب ولنتفق على موعد نلتقى فيه ٠٠ بعد الزيارة ٠٠ الليلة ٠٠ أو بعد عام ٠٠ أو ٠٠ فلتقل لى : لقد عـــدت اليها ٠٠ ووداعا الى الأبد » ٠

وقال لنفسه : فى أى بقعة من بقاع العالم وأقطاره يمكن أن أجد مثلها ؟! (وخاطب الطيف المريمى فى سره) : لا ياسهير ٠٠ اطمئنـــى ٠٠ انـت هـــو انت ٠٠ التى أصـــبحت مالكة العرش والصولجان !

- يبدو انك سرحت بعيدا بعض الشىء ٠

- هذا صحيح (وأشار بذراعيه الى محتويات الشقة) لكنى لم أخرج من هذا العالم الموحى بالاف المعانى والأفكار ٠٠ طـول عمرى ، من يوم أن رأيتك ياكاميليا ٠ وانا أقول عنك انك فنانة !!

سعدت بكلماته الى حد الاضـــطراب ٠٠ اختلطت أفكارهـــا بمشاعرها ٠٠ ولم تجد لنفسها خلاصا من الاضـــطراب الا أن

تعبر له عن أجمل ماتتمناه فى هذه اللحظة ·· اندفعت مقتربة منه وأمسكت بذراعيه :

ـ حمدى ·· هذه الشقة ليست شقتى وحدى ·· انها شقتك أنت أيضا ··

نظر اليها مدهوشا ، غير فاهم ، ولم يستطع أن ينطق بكلمة ·

واصلت هى : ننسى ماحدث ·· كأنه ما كان ·· صـــدقنى ياحمدى ·· لقد حاولت أن أحب غيرك فلم استطع ، لقد أيقنت انك الوحيد المالك لقلبى وعواطفى · (وضغطت على كفيه بقوة الرجاء) فلنتزوج من جديد !

ـ نتزوج ؟!

ـ نعم ياحمدى نتزوج ·· وننسى ماكان ·· ومن الآن وليس الغد ، نبدأ معا حياتنا ، وما أجمـــل الأيام التى تنتظرنا ·· أنا واثقة !

تنهد ·· كان فمه مغلقا ، فخرجت التنهدة من انفه · ووجد نفسه على وشك أن يبتسم ، لكنه قتل الابتسامة فى مهدها ·· كانت يداه لاتزالان بين يديها ·

ـ كاميليا ·· أود أن أقول لك شيئا ··

ـ قل ياحمدى ··

ـ أنا ·· ارتبطت بانسانة أخرى ·· وهى الآن تنتظرنى فى أحد الكازينوهات ·· على النيل ·· سيكون لطيفا لو جئت معى وقضينا سهرة جميلة ·· و ··

ولم تسمع شيئا ·· أحست برأسها يدور ، وبأن شيئا كالخماسين يهب عليها وعلى شقتها الجديدة · أغمضت عينيها ·· ثم استدارت عنه بوجهها فى كبرياء .. مغالبة البكاء .. وتسمرت بنظراتها أمام صورة الخماسين !

« ١٩٨٧ »

حبيبها

كانت الدنيا بردا ·· والفضاء غائما ·· والشمس الغاربة تختفى خلف السحب الكثيفة القاتمة ·· ورياح ديسمبر الثلجية تطارد فى طريقها الناس والعربات وتكتسح أمامها كل شىء ··

وعلى رصيف الشارع الطويل الواسع ، كانت تسير ، وكعب حذائها الأسود يدق أسفلت الطريق فى ايقاع متتابع سريع ··

كان جسدها ينتفض ، ويداها المدسوستان فى جيوب «التايير» ترتعشان ··

وأمام واجهة أحد المحلات الصغيرة ، توقفت لحظات ، وراحت تجيل فيها بصرها على مهل ولم تلبث أن دلفت الى داخل المحل فى نشاط وابتسامة هادئة ومريحة تعلو شفتيها ·· وحين استقبلها واحد من عمال المحلّ مرحبا قالت له بصوت فرحان ·

ـ من فضلك ·· عايزه كرافتة ·

أسرع العامل فأخرج بعض الصناديق وراح يعرض عليها أنواعا وألوانا من أربطة العنق ··

كان وجهها أليفا ، فراح العامل يتأمل فيه وهى تقلب الكرافتات ·· ووجد نفسه يتساءل فى سره ، وهو يرى ملامحها الدقيقة الصغيرة البيضاء ترتعش من البرد رغما عنها : ألم يكن من الممكن تأجيل شراء هذه الكرافتة الى يوم آخر ، لابرد فيه ولارياح ولا غبار ·· ؟! يالها من عفريتة شقية ، تريد أن تقابل حبيبها فى يوم عاصف مثل هذا ومعها هدية له ·· !!

ولاحظ فجأة ، أنها كفت عن التقليب ، ووضعت اصبعها بين أسنانها وراحت تفكر ·· فسألها فى ود ·· أى لون تريد المدموازيل ·· ؟ !

قالت وهى تنظر اليه نظرة باسمة وشاردة فى الوقت نفسه :
ـ هذا هو بالضبط ما أفكر فيه ·· أن لون بدلته بنى ·· وفيها خطوط بيضاء ·· أما هو نفسه ، فلون وجهه أسمر ··

فرحة غريبة أحس بها العامل ·· كان يود لو يسألها ·· « أسمر مثلى هكذا ·· ؟! ·· هل الجميلات مثلك يحببن السمر ·· ؟! »

وبالطبع كتم رغبته ·· وأحس بفضول يغمره ، فراح يقلب معها فى حماس ·· وفجأة ، قال لها فى شغف :

ـ آه ·· هذه مناسبة ·· بنية ·· وفيها نقشه صغيرة بيضاء ·· أنظرى ··

ـ فعلا مناسبة ·· ولكن ·· عنده أختها تماما ··

وحانت منها لفتة الى المرآة المواجهة لها ، والمغمورة بأنوار النيون ، فلمحت خصلة رفيعة من شعرها الأسود الناعم مائلة على جبينها حتى تصل الى حاجبيها ، فعدلتها وعادت تقلب فى الكرافتات من جديد ·· ولم تلبث أن صاحت فجأة ·

ـ آه ٠٠ هذه جميلة ٠٠ جميلة جدا ٠٠ سأشتريها ٠

واهتز العامل لنبرة صوتها وحماسها ، ولم يتمالك أن وجد نفسه يسألها فى صوت متردد خافت :

ـ خطيبك يامدموازيل ٠٠ ؟!

ضحكت وقالت فى رنة حلوة :

ـ لا ٠٠ زوجى ٠٠

وأعطته النقود وهى تبتسم ، وتناولت منه الكرافتة ، ثم خرجت الى الشارع فى نشاط ٠

كانت الرياح لاتزال تندفع فى الشارع ٠ وطريق عودتها الى البيت كان فى اتجاه الريح ، فأسرعت من خطاها وجسدها يرتعش من البرد ، لكنها كانت تحس أنها أسرع من الريح بكثير ٠٠ وأنها تكاد تطير من الفرحة ٠

« ١٩٥٩ »

المشى فى الليـــل ..

كان على البركان ان يهدأ ..

قال لها ، عازفا عن اى كلام : انتهينا ..

قالت ، شامخة بصدرها متحدية : انتهينا ..

لم تستفزه روح التحدى .

ـ لنذهب الى المأذون .

ـ الآن ، أنا مستعدة وها نحن بملابسنا .

خرجا فى صمت وقفلا خلفهما الباب فى هدوء . كانت قـد استقرت فى نفس كل منهما فكرة الطلاق بلا اى احساس بالتردد أو باحتمال الندم .

الى هذا الحد يكفى

صرخا فى وجه بعضهما كثيرا . تبادلا الالفـــاظ الجارحة . تملكتها شبه هستيريا وهو تملكته رغبة فى ان يرفع كفه ويهوى به على فمها المتدفق بالصراخ تكاد تسمع كل سكان الحى وليس البيت

وحده . ثم .. وفى آخر لحظة ثابا الى عقلهما .. تحكمـــا فى اعصابهما .

ان كانا حقا صــادقين ، فليكفــا عن هذه الترهـــات ويعلنا الانفصال .

يعلنانه بهدوء واقتناع يتناسب مع نبل حياتهمـــا التى كانت ويمضى كل منهما فى طريق ..

سارا فى هدوء . كانت الدنيا ليلا . والشوارع التى يسيرون فيها معتمة . لم يكن بيت المأذون بعيدا ، ولكنه ايضا لم يكن قريبا جدا . واذ لاح لهما تاكسى فارغ قادم احس كلاهما بالعزوف عن الركوب . كان كلاهما يحس بأن المشى فى الليل ، فى هذه الطرقات الهادئة الصامتة متوافقا مع نفسيته . فليستمرا فى المشى . ولاحت لهما صورة المأذون الذى يتجهان اليه . أنه هو نفس المأذون الذى حـرر عقد زواجهما ، وهو نفسه الذى سيحرر الليلة وثيقة طلاقهما .

وفكر فى نفسه بمرارة : ذلك اليوم كان زواجنا انتصارا . كان ختام معارك وتحديات خضناها . أكان كل ذلك وهما ؟!

وقالت فى نفسها وهى تحبس الدموع فى حلقها : تلك الليلة ووجوه الاصدقاء والصديقات من حولنا سعيدة ، وكلمات احدهم : كأنكما ستصنعان بهذا الحب ثورة تشتاق اليها البشرية ، ها نحن لم نصنع ثورة . بل انتهى الأمر بالفشل وبالهزيمـــة . لامفر من الاعتراف بالواقع . لكفى خداعا للذات !

وقال فى نفسه ، مانعا تنهدته ان يكون لها صوت : تلك الايام كنا نفـرح بأبسط الأشياء . وكانت السعادة ثمنها بسيط جدا .. وكنا ننضج حبنا بالمشى تحت الشمس وعلى ضفاف الانهار وتحت المطر فنسرع من خطواتنا ونجرى ونختبىء ونضحك من الأعماق .

الآن جفت ينابيع الضحك من القلب • السعادة أصبح ثمنها غاليا جدا فوق القدرات •

وقالت فى نفسها : كان فى تلك الايام سعيدا وضحوكا ونظراته متنبهة على جميع الاتجاهات •فقد كان دائما فى معركة ويحكى لى عن اخبارها •• الآن تحولت المعارك فأصبحت بينى وبينه كأنى أصبحت عدوه الرئيسى ويريد ان يدمرنى • لا • لن اسمح له أو لأى انسان آخر أن يقضي على •

وقال فى نفسه :لم تعد للحياة معنى ، فكيف يكون للزواج ؟! لقد اصبحنا داخل البيت كغريبين • منذ متى لـم نمش معا هذه المشية • كانت سعادتنا قائمة على الاشتراك فى الاحساس بالمتع الصغيرة والبسيطة !

وقالت فى نفسها : كنا نتلاصق فى الحجرة الواحدة • الآن نادرا ما نجلس ونتحدث معا •• أو نخرج ونمشى معا هكذا •

لقد كنا ••

على ايقاع خطواتهما الهادئة فى صمت الليل • كانا يسترجعان فتتباطأ خطواتهما أكثر وأكثر ، كأنما يريدان ان يفرغا من استرجاع ذكريات الرحلة كلها ، قبل أن يصلا الى محطة الفراق •

فجأة وجدا نفسيهما يدخلان الشارع الذى يقطنه المأذون • ها هو ذا البيت • بيته • خطوات قليلة ويدخلانه •• وينتهى فى دقائق كل شىء •• توقف الاثنان عن المشى • اتجهت عيونهما الى البيت • عادت عيونهما فتلاقت بلا كلمات : ندخل أم نؤجل ؟

وبلا كلمات ايضا ، عاودا المشى ، وحين حاذيا بيت المأذون ،

لم ينظرا اليه ، بل واصلا المسير · لكانا لايزالان يحسان بطعـــم جميل للمشى ··

وفكر كل منهما فى نفسه : فلنظل هكذا ولو للصباح ·· فمازال هناك وقت لجميع الاشياء · كانت عيونهما الى الامام · ومضيا ·· على ايقاع خطواتهما المتوحدة ، يسترجعان قصة حب ·· فى صمت الليل ··

« ١٩٧٢ »

أغنيـــة كونيـــة

ذلك الصباح الباكر ، بادئا يومى كالمعتاد ، باطـــلالة هادئة واسعة من شـــرفتنا العالية ، مستمتعا بمنظر المدينة قبل أن تبدأ ملحمتها اليومية الرهيبة ، قبل أن تصبح غابة وطاحونة ٠

ذلك الصباح الباكر ، وكل شيء يوحى بالصـفاء وبالتفاؤل بيوم جديد طيب : الأفق الأزرق الناعم ، والنسمة الرائعة المنعشة بعد موجة حر خانقة طالت ٠٠ وبضع شجيرات حولى فى الشرفة ، أهمها وأجملها شجرة ياسمين هندى ، أهدانى اياها صديق عزيز ســمعنى ذات مـــرة أتحدث عن جمال هذه الزهـــرة وعطرهـــا العميق الاخاذ ، واذا بى أفاجأ به ذات يوم يدق على بابى ، حاملا شجيرة صغيرة مزروعة فى آنية فخارية ويقول : كل ســـنة وانت طيب ٠ أليس اليوم هو عيد ميلادك ؟!

اهتز قلبى بالأمتنان وبالفرح ٠ رحت أعانق الاثنين : الصديق والشجرة ٠

آه ٠٠ كم هى رائعة وجميلة ٠ الحياة ٠ بما فيها من بشر ٠٠ وياسمين !

يومها لم تكن الشجرة أكثر من نبتة صغيرة ٠٠ مجرد ساق

صغيرة يخرج منه فرعان صغيران عاريان ، أشبه باصبعين منفرجين على شكل سبعة ·· وفكرت جذلانا : كأنهما علامة النصر !

حملتها بشغف وأخترت لها مكانا فى الشـــرفة ·· وكطفل صغير رحت أرعاها وأرضعها محبة وعناية حتى كبرت : الساق الصغير المزروع فى الطين تحول الى جذع ذى جذور وراح يستطيل ويقوى ويمتد الى أعلى · والفرعان ، علامة النصر ، بدءا ينبتان أوراقا جميلة مترعة الخضرة ··

وأنا فى عمق نشوتى باللحظة ، متفتح القلب ليوم جديد طيب، واذا بالحادث الرهيب يقع فجأة ·· بغلطة حمقاء منى ، ووجدتنى آشـــهق والقلـــب يكاد ينخلـــع · فبينمـــا أنا أســـتدير عن سياج الشرفة متجها الى الداخل ، طرق أذنى صـــوت خافت : تك ·

نظرت ·· واذا بى أرى أحد الفرعين فى الياســـمينة وقد انكسر وسقط بأوراقه على الأرض ·· اصطدمت به ساقى دون وعى منى ، ولرقته انكسر وسقط ··

انخطف قلبى واكتسحنى شعور بالتشاؤم ·· وبالخزى ··

جلست كالمجرم ينظر الى جسم جريمته ·· وتذكرت صديقى الذى اهدانى اياها ، واحسست بالخجل ·· كانت أجمل الأشجار عندى ·· وكانت رمزا ، فقد جاءتنى فى عيد ميلادى ·· أيكون هذا نذيرا بأيام صعبة وكئيبة قادمة ؟!

مجرم أنا ·· غبى أنا ·· غير جدير بامتـــلاك تلك النباتات المرهفة الراقية الجميلة ·

تحولت الشرفة الى مصدر للاحساس بالكآبة والذنب ، وأنا أرى الياسمينة وقد أصبحت بفرع ونصف ·· فرع سليم مورق ·· ونصف فرع مشوه عار وبائس ·

وفكرت كما يفكر المجرم بعد ارتكـــاب جريمته ، أن اخفى فعلتى ٠٠ أحملها الى الخارج وأتخلص منها ، غير أنى أحسست بالخجل من هذا الشعور الوحشى ٠٠ كأنى أضيف الى جريمتى جريمة أخرى ٠٠ لقد بدا لى وكأنى أتخلص من ابن لى أو صديق مرض أو أصيب ٠٠

فلتبق فى مكانها ، وسأواصل ريها فى مواعيدها المعتادة ٠٠ وان كانت بعد هذا قادرة على البقاء فلتبق ، ولكن ليس كمصــدر للجمال ، انما وفاء للعشرة ، وللرمز الذى كان : علامة النصر !

بعد فترة غير طويلة ، حدث مازاد من كآبتى ٠ فقد لاحظت أن الفرع السليم المورق يفقد زهوته ونضرته ، وأوراقه أيضا أخذت فى الذبول والسقوط ٠٠ ورقة بعد ورقة ٠٠ وفكـــرت : أيكون هذا حزنا منه على أخيه ؟ أم ان الاصابة قد وصلته على نحو ما ، وان الشجرة كلها فى طريقها الى الذبول والى الجفاف ؟!

غير أنى فوجئت بشىء بالغ الغرابـــة يحدث ٠ فبينما كانت الحيوية والخضرة تتناقصان فى الفرع السليم ، كنت أرى نوعا من الحياة يدب فى نفس الوقت فى الفرع المكسور !

استرعتنى الظاهرة ٠٠ فمضيت أرصدها وأتابعها ٠٠ لعلها لاتكون وهما وخيالات تمنى ٠٠ لكنها مع الأيام كانت تتأكد ٠٠ فقد رأيت أوراق الفرع السليم وقد جفت كلها وذبلت وتساقطت ، بينما الفرع المكسور وقد التأم جرحه ، راح يتمدد من جديد وينمو ٠٠ ثم اذا بالمعجزة الساطعة تحدث وأنا أرى تباشير أوراق جديدة تنبت وتبزغ وتطل منه على الدنيا ٠ رحت أرقص فرحا فى الشـرفة ، كأنى اغتسلت من ذنبى ٠٠ كأنى اغترفت من الحياة جرعـــة أمل جديدة ٠٠ وفكرت أن أجرى الى صديقى الذى أهدانى الشـــجرة وأحكى له كل ماحدث ٠٠

لكنى كنت مشغولا بمتابعة الظاهرة أو المعجزة ، كما أنى كنت حزينا للفرع الذى كان سليما وجف ·· كنت قلقاً على مصيره ··

غير أن ضوء المعجزة كان يقترب من قمة ذروة سطوعه وبهجته واكتماله ·· فما أن استعاد الفرع المكسور صحته وقدرته على معاودة الحياة ، حتى بدأ الفرع الثانى يستعيد حيويته وقدرته ، وبدا هو الآخر يورق من جديد ··

وبدت الشرفة وكأنها تتغنى بأغنية كونية لا مثيل لها ·· أغنية عن ذلك القانون الجليل الرائع ، والذى لا تمضى الحياة عظيمة وراقية ومتطورة الا به ·· فى النبات تماما ·· كما فى البشر ·· والقلب ذائب بالوجد ·· مبتهج بما يملكه فى هذا العالم من جمال البساطة ··

كأنه عيد ميلاد جديد أهدتنيه الحياة ، وأنا أرى الياسمينة تزدهر مرة أخرى بجمالها ·· وتلوح لى كل صباح ، كعلامة نصر جديدة !

« ١٩٦٠ »

قلب الحب

لا أحد يعلم كيف وقعت البللورة ، وأى يد أو قوة شـريرة دفعتها من مكانها العالى وأسقطتها على الأرض تلك السقطة العنيفة فتطايرت كتلتها المتماسكة الصلبة الى قطع وأجـزاء متفرقة ·· متباعدة ··

هبت عليهم جميعا رياح التشاؤم والحزن ·· من أول الأب والأم ، الى أصغر افراد الأسرة ·· فقد تحولت هذه البللورة مع الأيام الى ما يشبه الرمز أو التميمة ·· وقفوا جميعـا مذهولين مفجوعين يتطلعون الى الشكل الجميل الآسر وقد ضاع وتناثر ·· ليس فقط الشكل الجميل ، وانما أيضا تلك القدرات والامكـانيات الداخلية التى كانت تكمن فيها ·· كانت تضىء فى الليل وفى النهار تتماوج بألوان الطيف السبعة ·· وبين الحين والآخر ترسل الحانا موسيقية بهيجة ··

ما من صديق أو غريب كان يراها ، الا ويتساءل مبهورا : من أين جئتم بهذه البللورة ؟ وفى أى مصنع صـيغت ؟ فيجيبون باسمين مزهوين : فى مصنع الحياة والزمن ، صنعت وصـيغت بللورتنا ·

كان هذا هو بالفعل سـرها العجيب ! فقد كانت فى البدء صغيرة ودقيقة حين دخلت هذا البيت لأول مرة مع الأب والأم ، ولم يكونا أبا وأما بعد ٠٠ كانا عروسين صغيرين رومانسيين التقيا على الحب فأسمياها « قلب الحب » وكانت تنتقل معهما من حجرة الى حجرة ٠٠ غير أن شيئا رائعا ومدهشا كان يحدث للبلورة ٠ فمع دورات السنين ومع مجيء أطفال جدد للحياة ، كان حجمها ينمو ويزداد ، مكتسبة جمالا أعظم وقدرات أكثر ٠٠ حينذاك بدا لها مكانا جديدا يليق بها ويحفظها ٠ شيئا كالمحراب أعلى صـدر الصالة فى مدخل البيت مباشرة ٠٠ تبهج عين الداخل والخارج ٠٠

كيف سقطت رغم هذا ؟! أم أن حركتها الذاتية النامية المستمرة هى التى دفعت بها الى الموت والى النهاية ؟!

انتفضوا جميعا من وقفتهم المذهولة ، وانكبوا على الأرض يتسابقون فى جمع الأجزاء المتناثرة ٠٠ كل واحد ملهوف على ان يكون له منها جزء ٠٠ للذكرى ، وللحظ الطيب جاءت القطع بعددهم تماما ٠ أمسك كل منهم بقطعته وأنفاسه تتسارع ، وراح ينظر اليها ٠٠ والى بقية القطع الأخرى ٠٠

كانت الأحجام متفاوتة ، لكنها ـ كلها ـ كانت تبرق وتشع ٠

قال الأب وقد لاحظ أن أصغر قطعة جاءت من نصيبه : أنا يكفينى من « قلب الحب » ذرة ٠

قالت الأم وهى تقاوم فى عينيها دمعة تأثر : وأنا أيضا ٠٠ وتذكروا دائما ياأولادى أن « قلب الحب » بدأت معنا صغيرة جدا ٠٠ أصغر من أى قطعة من هذه القطع !

واذا بالابن الأكبر يصيح فجأة مهللا : قطعتى ترسـل لحنا موسيقيا ٠٠ اسمعوا قطعكم جميعا ٠٠ أرجوكم ٠

اسرع الكل بوضع القطع على اذانهم ، واذا بوجوههم تتفتح

وتشرق ·· فقد كانت القطع كلها ترسل موسيقى ·· تماما كما كانت تفعل البللورة الكبرى ·

حينذاك انجاب عنهم الاحساس الحزين بموت الأشياء ونهايتها ··· وبدا لهم على الفور ان البللورة الكبرى لم تضع أو تتبدد ·· بل رآوا امامهم الانقسام العظيم الذى يتولد عنه كيانات جديدة ، ومهما كانت صغيرة ففيها كل خصائص وجماليات البللورة الأولى ·· وهتف الأب قائلا ونظراته ذاهبة الى بعيد : أتعرفون فيم أفكر الآن ؟ افكر فى حركة الكون الأولى ، حين كان كتلة واحدة دوارة · ثم انتثر الى نجوم وكواكب سيارة ··

تصاعد الفرح بالاكتشاف العظيم ·· وبأن كلا منهم أصـبح له بللورته الخاصة يحملها معه حتى لو سافر الى بعيد ·· واعترتهم جميعا نشوة ··

حسبناها النهاية فاذا بها البداية ·· وضم كل واحد بللورته الى صدره ·· سعيدا بها ··

ومهما كان حجمها ·· يكفينا من « قلب الحب » ذرة ··

« ١٩٧٨ »

الأعظم

وقفت فى الصف الطويل انتظر دورى • عشرات من النساء والرجال والاطفال أمامى ، وعشرات آخرون خلفى • قدرت انى لن أبلغ دورى قبل ساعة • لم أعبأ • المهم أن أحقق هدفى • والأكثر أهمية ان يظل هذا الهدوء العميق يسود المدينة • هدوء ثقيل مشحون بالريبة واحتمال الغدر فى أى لحظة ••

كانت الغارات الوحشية على غرب بيروت قد توقفت مع أول اضواء النهار • انتهزتها فرصة قبل ان يعودوا • حملت « الجيرك » الكبير لأملأه بالماء • انجاز عظيم لو تحقق هذا • ان أعود الى البيت والى الاصدقاء ومعى ماء • كان الحصار على أشده • وكان أبشع مافيه قطع الماء عن الاهالى • قطرة الماء نحافظ عليها مثلما نحافظ على حبات عيوننا • الجرعة الواحدة نتقاسمها بالعدل حين نشرب • اما غسل الوجه وحلاقة الذقن فكان ترفا لايليق باللحظة • بعد أيام بدأت الروائح الكريهة تفوح من البيوت • وشبح الاوبئة يلوح • أصبح الماء هو حلم أحلام البشر •

كنت ادرك ونار الغيظ •• بل الحقد ، تأكل فى صدرى ، ان

هدفهم هو الضغط على الاهالى كى يهجروا نصف المدينة المحاصر ، ويبقى المقاتلون وحدهم فيه ·· حينذاك يسهل الانفراد بهم والقضاء عليهم · لكن الاهالى صمموا على البقاء فازدادت غاراتهم وحشية وضراوة ·

انتهزت لحظات الهدوء · حملت « الجيرك » واسرعت الى مكان كنت قد لمحت بالصدفة بعض الاهالى يملأون منه أوانيهم · سور حديقة أحد البيوت يخرج منه خرطوم ·· وشخص غير ظاهر يتولى توزيع الماء ·

كانت العملية تتم بنظام وسرعة · ففى أية لحظة يمكن أن يعاودوا التحليق وصب الجحيم · آه ما أجمل لوعدت الى زملائى ومعى الماء الوفير · نشرب حتى الارتواء · نحلق ذقوننا التى طالت نغسل شعرنا الذى تلبد · وكذلك أوانينا التى تراكمت عليها آثار الطعام ·

خطوة خطوة كنت اقترب من مكان توزيع الماء · ولأن الشخص الذى كان يوزع جالسا ، فلم أكن قد رأيته بعد ·· وحين لم يبق أمامى فى الصف غير ثلاثة أو أربعة ·· رأيته بوضوح · وكان منظره مفاجأة لى · كان فى حوالى الثلاثين · ومن كتفيه العاريتين بدالى أنى أمام بطل من أبطال المصارعة أو حمل الاثقال · استرعتنى قوته الجسدية · وفكرت ان هذا الذى يفعله بالنسبة لقوته شىء تافه وبسيط · حقا ان الماء هو اكسير الحياة ، لكن هذا الذى يقوم به ، يمكن أن يؤديه صبى صغير · أما مكانه المناسب هو أحد مواقع القتال وبيده مدفع يلاحق به هؤلاء المتوحشين ·

وان لم يبق على دورى غير شخص واحد ·· يملأنى الحماس والاستبشار ·· فجأة تبدد كل الهدوء وانفجر البركان من جديد · لقد عادوا بصواريخهم من البحر ، وقاذفات قنابلهم من الجو · انتثرنا جريا الى اقرب ملجأ ·· وفى غمضة عين كان الشارع

قد خلا من الصف الطويل · الا اننى فوجئت بالشاب الذى كان جالسا يوزع الماء ، وقد ظل باقيا على جلسته اسفل السور فى العراء · ورأيته ينظر الى أعلى حيث تهدر اسراب الطائرات المغيرة ويصرخ : ياكلاب · يا أولاد الزناة ·· انزلوا لى · لتكون المواجهة بيننا شخصية (وراح يلوح بكلتى ذراعيه) بيدى وحدهما · سأواجهكم أيها الجبناء · بيدى هاتين ·

فى تلك اللحظة ، سطعت الحقيقة · واكتشفت مالم يخطر على البال · كان الفتى الجميل القوى مصابا بشلل الاطفال ، ولايستطيع النهوض من مكانه الا بمساعدة ·خجلت من افكارى الأولى تجاهه · يا لها من مدينة عظيمة · كل من فيها يساهم فى المعركة بما يستطيع · وهذا الشاب لايملك غير ذراعيه · ورأيت سيدة وفتاة يجريان عليه ، تحت الجحيم ، ويجذبانه برفق · استند عليهما ، ومضى معهما الى أحد المخابىء · وبدا الشارع بعده خاليا تماما من أية حركة للبشر ··

كان الاناء فى يدى فارغا ، لكن مشهد البطل كان قد روى قلبى بمياه انهار العالم العذبة كلها ·

« ١٩٨٣ »

الحنين الى الفرح

كنت امشى على الرصيف سارحا ·· فيم كنت ســـارحا ؟ لا أذكر ·· لكن حين يحدث ويكون المزاج رائقا طيبا ، يحلو للمرء الانطلاق خلف فكرة أو قضية معلقة ينشغل بها عن الضجة وعن الزحام ·· زحام ساعة الذروة ، تلك التى يخرج فيها عشـــرات الألوف من الموظفين والعاملين والطلبة والطالبات دفعة واحدة وفى ساعة واحدة ، ليصبوا جميعا فى شارع واحد ، الأمر الذى جعلنى أطلق على هذه الساعة : ساعة الحشر اليومية !

كنت اشق طريقى بهدوء وسط الجموع ، غير مهتم بالنظر فى وجوههم ·· وكنت قد قرأت ـ قبل أيام ـ جملـة لأحـــد الفنانين التشكيليين أعجبتنى جدا وحرصت على حفظها : « لا معنى لوجه يشبه كل الوجوه » ·· ورأيت أن ذلك يتحقق تماما فيما حولى ·· هذه الكتل البشرية الهائلة التى تبدو الوجوه فيها والرءوس كأنها وجه واحد ورأس واحد بتعبير واحد ، واذن لا معنى للنظر فيها ··

فجأة ، وموجات الوجوه والأجسام تتوالى ، اذا بعينى تتوقفان على وجه بالذات ، قادما فى اتجاهى ، واذا بينبوع فرح ينبثق فى قلبى ، وهتفت لنفسى بفرح : « منصور السويفى ·· من كم سنة ··

ياالهى · نفس الاستدارة فى الوجه وفى الجسـم ، وان كان قد سمن بعض الشىء » ·· وبكل الحنين وكل الاشتياق الى تلك الأيام الخوالى بصورها واحداثها وذكرياتها ، اندفعت اليه ، فاتحا كل ذراعى لآخذه بالحضن ·· الا اننى ماكدت اقترب منه ، موشكا على ضمه حتى فوجئت به يجفل ماخوذا ، ويتراجع الى الخلف خطوة !!
·· اكتشفت على الفور خدعة البصر التى أوقعتنى فيها عيناى ؛ رغم أنى كنت أضع نظارتى الطبية !! تجمدت ذراعاى ، ثم تدلتا بهدوء الى جانبى ، وقلت منكمشا فى نفسى مبتسما بحياء وخجل ـ أنا آسف ·· العتب على النظر (وندت عنى ضحكة صغيرة معتذرة) يخلق من الشبه اربعين ·

أفاق الرجل من المفاجأة ·· ادرك الموقف ·· كان ينظر فى وجهى محاولا جمع شمل نفسه بسرعة ، بينما اتسعت له ابتسامتى بانتظار أن يقبل اعتذارى ، ثم أمضى لحالى ·· وكررت : آسـف جدا ··

واذا بوجهه المستدير يتفتح بابتسامة كبيرة ويقول بحماس ، ناظرا فى عينى بود شديد : آسف ليه ؟! (وبسـط لى فجأة كل ذراعيه ، بصوت فائض بالحيوية والبساطة ·· « تعال ياراجل ·· بالحضن » واندفع الى ، نفس اندفاعتى الأولى اليه ، اندفعت عليه أنا أيضا ، والتحمنا فى عناق حار !!

من منا كان الاكثر طفولة ونحن نربت على ظهر بعضنا بود وحرارة وحماس ، كأننا صديقان قديمان التقيا بعد غياب طال ، نبتعث من لاشىء ، شيئا رائعا وجميلا يحتاجه كل منا ·· عنـاق صديق ·· عناق صاف لا تشوبه أية شـائبة ·· ينصـب فيه كل اشتياق الانسان للانسان ، ويبدد به وحدتـه وغربته فى قلب هذا الزحام ··

وبينما كنت أحاول استيعاب الموقف الذى يبدو كالخيال أو المعجزة السعيدة ، كانت ثمة كلمات تقال ، منى ومنه ، مع اهتزازات العناق : هو لازم الناس يكونوا عارفين بعض عشان ياخدوا بعض بالحضن ؟! الانسانية واحدة ..

وكلنا أولاد أدم وحوا ..

ومضينا نضحك فرحا ، كطفلين ،من أعماق القلب ..

« ١٩٨٩ »

يعود الحب أقوى

حين وضعا ـ هو وهى ـ أقدامهما على سلم الطائرة ليصعدا ، خفق القلب فرحا وتبادلا نظرة · لولا الزحام واندفاع الركاب لتمهلا فى الصعود كى يطيلا من اللحظة ·· يثبتانها على صفحة الزمان فى الذاكرة · كانت أعماق الاثنين تموج بانفعالات شتى متضاربة ·· لكن الفرح كان هو الطاغى ، وثمة لحن بهيج راقص يشيع فى الجو ويتبعهما ·· ما أجمل أن يعيشا الحب لأول مرة فوق السحب ·· ولئن كانت سماء القاهرة اليوم صافية وخالية من أصغر ندفة سحاب ، كأنما احتفالا بطيرانهما معا ، فسرعان ما ستدخل بهما الطائرة مناطق وأجواء تبدو فيها كتل السحاب كمنشآت المدن ، فتخترقها وتعلو عليها ثم تنطلق بهما خفيفة متجلية ! ··

لم يكن طيرانهما معا لأول مرة هو المفجـــر الوحيد لكل هذا الفرح ، انما السبب الأعظم والأخطر فى الحقيقة ، والذى لولاه ما كانت هذه المشاعر ولا كانت الرحلة نفسها أنهما عادا الى بعضهما زوجين حبيبين ، بعد أن وسوس الشيطان فى صدريهما ، وألهمهما شر مايقع بين اثنين مزج بينهما الحب لأكثر من خمسة عشر عاما : الطلاق !! وعاشا منفصلين ثلاث سنوات .، كل منهما فى عالمـــه ،

لايدرى شيئا عن الآخر رغم أنهما يعيشان فى مدينة واحدة ! ··
لكأنما ، فى هذه اللحظة ، ومن فوق سلم الطائرة ، يريدان اعلان
خبر عودتهما على العالم كله ·· ينثرانه أضواء ملونة وساطعة
مثل تلك التى تضىء السماء فى ليالى المهرجـــانات والاحتفالات
السعيدة ·· لكن ضغط الركاب كان شديدا ، فمضيا ، بقوة الدفع ،
يصعدان بهمة ونشاط ومرح أيضا : على الحب ألا يعطل من مسيرة
الرحلة ·· ! ودخلا الطائرة ··

·· أسرع بعينيه عبر صفوف المقاعد متمنيا مقعدين خاليين
بجوار احدى النوافذ · تلك متعته فى السفر بالطائرة ·· رؤية العالم
من أعلى ·· ما أجمل أن تعيش معه ولأول مرة هذه المتعة ·· واذ
لمح مقعدين خاليين أسرع وحجزهما ·· آثرها بمقعده المفضل ··
« فلتكن هذه هى هديتى الأولى لها فى الرحلة : المقعد الملاصـــق
للنافذة » ·· وجلس بجوارها ـ أمسكت يده بانفعال وحنـــان ··
أخذت من عينيه نظرة مفعمة جياشة ·· الكلام الآن ليس بالألفاظ ··
الكلام الآن له لغة أخرى تنطق العيون بها ·· بل ان العيون ليحلو
لها الآن أن تغلق جفونها ·· هذا العالم الخارجى لا ينبؤنا حقـا
بالحقيقة ·· الداخل هو الأعظم ·· ما يســـتكن فى القلب ، وما
ترفرف به الروح هو الأجمل والأصدق !

أغمضت عينيها ·· مالت برأسها على ظهر المقعد ، مستبقية
يده فى يدها ·· ند عن صدرها نفس طويل عميق هادىء : الحمد
لله ·· انقشعت الغمة ·· ماكان يمكن أن أعيش لحظة سعادة حقيقية
بدونه ·· ورأت نفسها فى معرضها الأخير ، بقاعة المشربية ، تتلقى
التهانى وكلمات الاعجاب من كل جانب ·· « ومع هذا وجدتنـــى
أنتحى أحد الأركان تحت احدى لوحاتى وبكيت ·· لأنه لـــم يكن
معى ·· هو بالذات ·· هو الذى فجر فى نفسى موهبة الرســـم ،
ومعظم هذه اللوحات هى حصاد أيامنا معا ··

هاهو الآن معى ·· يده فى يدى ·· طائران فى الأعالى » ··
وطار بها الخيال الى مرحلة من الماضى البعيد ·· قبل أن تراه ··
صبية صغيرة ، فى السادسة عشر ، مبكرة النضوج ولكن كل مافيها
مكمور ومغلق عليه بقوة واحكام ·· حتى فتح النافذة كان اخوها
واقفا له بالمرصاد ، فما بالك بالخروج وحدها من البيت · وعاودتها
صورة بشعة : أخوها وهو يجذبها بوحشية من شعرها ثم يصفعها
صفعة أنزلت الدم من شفتيها ! ·· فى تلك الأيام جاء هو ·· كفارس
أطلقها وحررها من السجن والسجان ، ثم أركبها الحصان وطار بها
·· « رأيت فيه الحياة ·· رأيت فيه الحرية التى طالما تشوفت روحى
اليها ·· وانطلقنا ·· وتدفقنا ·· وأنجبنا ، وتفجرنا بالآمال
وبالأحلام ·· من كان يتصور أننا بعد كل هذا نصل الى قرار
الطلاق ؟! (وتنهدت فى سرها) كان لابد أن يحدث هذا ·· كنا وصلنا
الى طريق مسدود ·· كان لابد أن نفترق ، حتى لو سالت الدماء ،
كى نعود عبر العذاب الى بعضنا من جديد ! »

وضغطت بقوة على يده ·· « لحسن الحظ أننا لم نركب معا
من قبل طائرة ·· » وتبسمت ملامحها ، رغم أنها لاتزال مغلقة
العينين ·· « جميل أن يبقى دائما أمام المحبين عوالم لم يروها ،
وانجازات واشتياقات لم تتحقق بعد ·· » ·· وهرعت الى ذاكرتها
بعض أبيات من الشعر ، ضمن ديوان لناظم حكمت ، كان قد أهداه
اليها فى أحد أعياد ميلادها :

أجمل الأزهار هى التى لم تنبت بعد ·· وأجمل الأنهار هى
التى لم نرها بعد ·· وأجمل الأطفال هى التى لم تولد بعد ··
(وأضافت فى سرها تكمل) ·· وأجمل اللحظات هى التى لم نعشها
بعد ·· أجل · هناك لحظات جميلة فى انتظارنا حين نهبط الى
الأرض ، وننطلق فى مدينة لم نرها من قبل أبدا !! » ·· وعاودت

الضغط على يده ، استجابت يده على الفور ‥ كفه الكبير احتوى كفها الصغير ‥ أحست به يقول : أنا أعيش نفس أحاسيسك »

تنبها من سرحتهما على صوت المضيفة ترجو الركـــاب ربط الأحزمة . سحب كل منهما يده من يد الآخر فى نعومة ، ومضى يربط حزامه استعدادا لانطلاق الطائرة ‥ لحظات قليلة وجاءت احدى المضيفات ومعها جهاز الانقاذ وراحت تقدم عرضـــا لطريقة استعماله ‥ داهمها احساس غريزى بالخطر ‥ وارتسمت لهـا صورة مروعة كئيبة فأستبعدتها بقوة ‥ وفكرت : « ستمر الرحلة على خير . باذن الله ‥ » وعادت تمسك بكفه بقوة ‥ « وحتى لو حدث ــ لا قدر الله ــ مكروه للطائرة ، فســـنكون معا ‥ تكون النهاية ونحن معا ‥ » ‥ واختلست من وجهه نظـــرة ، وجدته سارحا ‥ لايتابع عرض المضيفة ، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة تنم عن الرضا العميق ‥ « هو دائما هكذا ‥ يعطيني الاحساس بالأمان ‥ ما أكثر ماواجهنا معا من شدائد وأخطار » !! ‥ واذ انتهت المضيفة من عرضها ، احست بارتياح شديد ، كأنما الخطر زال ‥ وبدأت الطائرة فى التحرك ‥ ببطء شديد كانت تسير على ممرها الأرضى ‥ ثم حين بلغت نقطة الانطلاق توقفت وتصاعدت منها فجأة ضجة كبرى ‥ ضجة الاحتشـــاد الذى يســـبق لحظة الوثوب الى الفضاء . أحست بثمة طاقة هائلة يحتشد بها صدرها هى الأخرى ، وفكرت سعيدة ، وخفقات قلبها تسرع : بقوة الحب تطير الطائرة هذه المرة » ‥ ودوى صـــوت رعدى هـــائل أعقبه مباشرة انطلاق الطائرة الى أعلـــى فى يســـر ونعومة ‥ صـــمت مهيب وعميق يرين على الطائرات فى مثل هذه اللحظات وهى تسبح مخترقة طبقات الفضاء لكى تصل الى ارتفاعها المنشود ! ‥ لكأنما الطائرة تطير بهما وحدهما ، رغم امتلائها بالركاب ومن بينهم بعض أصدقاء وصديقات ، هم أعضاء « الجروب » السياحى الذى انضما اليه ‥

نظر اليها ·· نظرت اليه ·· قال : أحس أنها ليست أول مرة لنا معا فى طائرة ·· كأننا ركبناها معا من قبل مرات ومرات ·

اندفعت مؤكدة بفرح : نفس احساسى ـ وهو أمر طبيعى ·· فى كل مرة كنت أطير فيها وأنت لست معى ، كنت فى لحظات اتخيلك جالسا بجوارى ، أتحدث معك ، وأحاورك ، وانقل اليك كل مشاعرى ·

قال : ذلك بالضبط ماكان يحدث لى وأنا طائر بدونك · لكنت أحيانا أمد يدى ، كأنما سأجد يدك !

هزتها الصورة · ودت لو تضمه كله · خرجت الكلمة الوحيدة التى يمكن أن تعبر عما يموج فى صدرها : ياحبيبى ··

أحس بالكلمة تصله أنفاسا لاحروفا ·· كأوراق ورد مبللة بالندى ·· ندى الفجر وندى أنفاسها أيضا ··

ـ ياحبيبتى ·· أنت حبى الأول والأخير ·· ومابينهما ··

راقها المقطع الأخير ·· ليس كثيرا على خيال شاعر ·· وفكرت وهى تبتسم فى سرها أن تسأله : هل هذا يعنى أنك لم تعرف واحدة أخرى خلال سنوات انفصالنا ؟! ·· الا انها استبعدت السؤال ضنا بصفاء اللحظة وجمالها ·· « لن نبعث من الماضى الا كل ماهو شفاء للنفس ·· واننى لواثقة من أنه حتى لو كان قد عرف أخرى ، فهو لم يكن حبا ·· الحب لى أنا وحدى ·· مثلما ظل حبى له هو وحده » ·· ومرت بخيالها صور سريعة لأطياف رجال داروا حولها ، وتمنوا حبها ·· «لقد حاولت بالفعل ·· حاولت جادة ، أن أحب واحدا منهم ·· لكنى فشلت ·· لم يكن الحب هو قضيتى ·· كانت قضيتى هى الحرية · »

وانتبهت من خواطرها على صوته ، داعيا بحماس ·· ومشيرا على النافذة ـ انظرى ·

توجهت بنظراتها الى النافذة . صاحت بنشوة ودهشـــة :
شمس الغروب .. الله .. الله على الألوان .. ألوان الهية ..

قال فرحانا بفرحتها : اذن فلتملأ الرسامة عينيها ..

قالت ، وليملأ الشاعر أيضا عينيه ..

قال : ليتنى أرى هذه الألوان فى لوحة جديدة لك ..

بسطت يدها متحسرة على العجز ! هذه الألوان .. محال أن يجدها أى رسام ..

ـ أتعرفين ماذا يسمونها فى بلاد النوبة ؟! .. لون المغارب » سمعتها مرة من شاعر نوبى كان يتغـــزل فى وجنـــات حبيبته : « والخدود الشارية منلون الشفق عند المغارب » .. ورفع أنامله ومر بها على خديها ..

سألته وهى تنظر باسمة فى عينيه : مايزالا ؟!

ضغط قليلا على خديها : وأجمل مما كانا .

اختلج قلبها بالفرح . هاهى الأشـــياء الصـــغيرة واللفتات الجميلة البسيطة لم تضع من حياتهما .. وعادت تفكـر : « كانت تجربة شقية (وتنهدت) لكنها كانت ضرورية .. كانت الامتحان الذى أنقذ حبنا » ..

وسمعته يقول : هاهى الألوان قد تغيرت ..

اسرعت تنظر : تغيرت تماما .. حتى الألوان تتوالد .. مع كل لحظة يولد لون جديد .. (وتنهدت بصوت مســـموع) أجمل ما يفعله الرسام ازاء هذا السحر أن يعيشه .. لا أن يرسمه .. بل يمتصه ويختزنه .. رصيدا للأيام القادمة .

ـ هو ذاك .. الآن ليس وقت الرسم ..

ـ ولا وقت قرض الشعر أيضا ••

ـ الآن وقت (وتوقف عن الكلام ، ونظر فى عينيها منتظرا أن تكمل جملته ••

ـ الآن وقت الحب ••

فرح أنها أكملت الجملة كما اكان سينطلق بها • انتابته حالة مرح وثقة •• ما أكثر ماكان ذلك يحدث بينهما •• فى الأشياء الصغيرة والأشياء الكبيرة •• فى الفعل ورد الفعل •• كثيرا ، بل غالبا ، ما كانت الأفكار والمشاعر بينهما متوحدة •• حتى على البعد ، كان بينهما « تليباثى » يرسل الاشارات السرية التى تكشـــف عنهما الحجاب وتوحد الرؤية بينهما رغم حواجز الأمكنة •• (وتنهد من العمق) كل شىء يعود كما كان وأجمل •

وعادا الى متعة الصمت ، وأوشكا أن يغلقا جفونهما مرة أخرى ، لكنهما رأيا بعض الركاب يروحون ويجيئون فى ممر الطائرة •• أدركا أن من حقهما • فك الأحزمة •• فكاها فى الحال •• قال مبتهجا ، وقد أحس بحرية الحركة : غريب أن يحس المرء بأنه يريد أن يطير رغم أنه طائر •

وفوجىء بها تنهض واقفة وتقول : هيا نطير •

قال مداعبا : الى أين ؟!

قالت باسمة ، وهى تشير على احدى الراكبات : سأجلس مع ليلى بعض الوقت ••

وأفسح لها طريقا للمرور ، ومضت الى صـــاحبتها • وبقى جالسا وحده ••

« هذا هو أحد وجوه الخلاف بيننا (قال باسما لنفســـه)

لاتطيق البقاء مدة طويلة فى مكان واحد ‥ ان استقرت يوما بأكمله فى البيت ، خرجت منطلقة فى اليوم التالى وكأنهـــا حرمــت من الشوارع ومن الناس دهرا !! ‥ بينما أنا يمكننى البقاء فى البيت أسبوعا واسبوعين مع تأملاتى وكتبى وحنينى الى الهام عظيم يهبط على خلوتى ! ما أكثر ما تصادمنا بسبب ذلك ‥ بل كان ذلك هو لب الصدام الذى راح يشتعل يوما بعد يوم حتى أوصلنا الى القرار الرهيب ! وهرعت اليه صورتهما وهما يجلسان فى مكتب المأذون !! هز رأسه مبعدا الصورة ، وعاد ينظر من النافذة ‥ انتقل الى مقعدها كى يرى بشكل أفضل ‥ وخطر له من اللحظة الأولى أن ينادى عليها لتشهد التطور الأخير فى المنظر ‥ كانت الطائرة قد أمعنت فى الارتفاع ، حتى لم يعد يبدو فى المحيط الهائل غير قرص الشمس الغارب ‥ هاهو القرص يلامس خط الأفق البعيد ‥ انها ملامسة الوداع ‥ وفكر : بعد قليل سيختفى قرص الشمس، ولكن سيبقى نور آخر يضىء ‥ هو نور الحب !

أبهجته الفكرة . تملكته رغبة عارمة في أن يخرج ورقة وقلما ويكتب ‥ يبدأ قصيدة ، أو يفتح قصة ‥ ان بحرا من الالهـــام يوشك أن يتدفق من أعماقه ‥ الا أنه تذكر اتفاقهمـــا : لاوقت الا للحب ‥ وهاهو قرص الشمس قد اختفى ، ساحبا معه كل ألوان مهرجانه ‥ ولم يبق فى الفضاء ثمة شىء أو علامة يمكن أن تتعلق بها العين ‥ بل فراغ كامل مطبق ، ولا دليل على أن الطائرة تطير غير صوت الأزيز .. أزيز أحسسته فجأة مفرغا من قوة الحركة والاندفاع ‥ وانتابه الشك فى أن الطائرة تطير ‥ شعور رهيب ومقبض وغير مفهوم ، عانى منه مرة من قبل ، وهاهو يستبد بــه مرة أخرى ‥ أن الطائرة واقفة تعانى ‥ تراهـــا على وشـــك السقوط ؟! أم أن الطيار سينجح فى اصلاح الخلل ؟! ‥ وعاودته ذكرى أيام كئيبة ، بدأ فيها الحب بينهما قد توقف ‥ لفظ أنفاسه

الأخيرة ومات ‥ « وكنت أقول معزيا نفسى : هى قوانين الحياة ․ كل شىء له عمر ‥ يولد وينمو ثم يموت ‥ كذلك الحب ، لــــه هو الآخر عمر ‥ الحب أيضا يتوقف ويموت ‥ يجب أن أتقبل هذا » ‥ ومضى يحيا حياته على أنها خلت والى الأبد من الحبيب ‥ الذى كان !! ‥ لكن الحقيقة كانت غير ذلك ‥ لم يكن الأزيز مفرغا ‥ كان الحب بينهما ينبض مستترا فى الخفاء ‥ كان منطلقا بكل قوته ولايدريان ‥ تماما مثلما يحدث لهذه الطائرة الآن ‥ فبينما لم يكن هناك ثمة دليل على حركتها وانطلاقها الا حينما تجتاز منطقة مطبات هوائية ، أو تمر بقطعة سحاب تتجاوزها ثم تدخل ثانية فى منطقة الفراغ المخيف ، الا أنها كانت ماضية فى اندفاعها الى الأمام ‥

وند عنه نفس ارتياح عميق : « أجل » هناك ثمة حركة متوثبة وجياشة فى الداخل ، رغم أن الخارج يوحى بالفراغ وبالتوقف ․ كذلك حبنا ‥ أيام الفراق ! ‥ كل لحظة صدق عشناها فى الأيام السابقة للأزمة ، كانت دون أن ندرى رصيدا لأيام الشدة ‥ وكان كلانا بعيدا عن الآخر ، ومع هذا كان يواجه نفسه بصدق وحرارة : هذا الذى حدث بيننا ‥ لماذا حدث ؟! لماذا ضاع ماضاع ؟!

ولم يكن مفر من الصدق مع الذات ‥ واكتشفت أن قدرا كبيرا من المسئولية يقع على ‥ لابد من الاعتراف ‥ ليس من أجل أن نعود ‥ بل من أجل معرفة الذات ‥ لقد التقيت بها صــغيرة ، واستمرأت أن يظل الملاك صغيرا ، أحمله سعيدا على كتفى وأمضى به ‥ أريه العالم بعيونى أنا !! ‥ غير أن الملاك سرعان ماكبر ، وأصبح يضيق بأن يحمله أحد ‥ يريد أن أن يستمتع بالمشى على قدميه ، وبالنظر بعينيه وينطلق وحده وبقدراته هو فى كل اتجاه ‥ وفوجئت بها تقفز من فوق أكتفى الى الأرض وتنطلق وحدها كمــا تشاء ! ‥ حينذاك ملأنى خوف ساحق ‥ أن تقضى عليها وعلى

حبنا تجربة الحرية ·· ورفعت كف الاعتراض ، ثم سيف الاتهام بالعقوق وبالجحود ، فكان الصراخ وكان الصدام الذى انتهى ·· بقرار الانفصال !! (وتجهمت ملامحه) أصبح الفارس المبشر بالحرية ، هو عدوها ·· وسجانها ·· بالضبط هو ذاك ·· كنت أنا فى البدء المبشر والمعلم ، وهى المريد التابع الأمين ·· وكنت أنا الذى أصحبها الى حديقة الأورمان لنجلس على العشب على ضفاف بحيرة صغيرة مليئة بأزهار اللوتس ، وأقرأ لها فى كتاب « النبى » لجبران : هات حدثنا عن الزواج ، فيهمس لنا بموعظته : لا تأكلا من رغيف واحد · فليأكل كل منكما من رغيفه · اجعلوا بينكم فسحات ، ولاتلتصقوا على الدوام ·· كونا مثل عمودى الهيكل متباعدين ، لكنكما تحملان معا السقف الواحد !! (وندت عنه زفرة حارة) ·· وحين وصل بنا التطبيق الى أعلى ذراه ، لم أقو ·· وبدا لى شغفها الزائد بالحرية يحمل نوعا من الدمار !!

هاهى بالحرية ازدهرت وتألقت ·· لم يحدث خراب أو دمار عفوا أيها العظيم جبران ·· كان لابد من التجربة كى أسلم بهذه الفسحات بيننا ·· لنرى بعضنا من بعيد ·· ومن جديد !

ولاح له « جبران » دون أن يفتح شفتيه المزمومتين على معنى شجى عميق : لاتندم على تجربة ·· ولا تأس على دم سال ·· كآبتنا هى فجر لذواتنا ·· انما ·· لاتنسى انها باصرارها على حريتها ، أعادت اليك حريتك ·· الآن اكتملت الدائرة ·· التقت النقطتان فأصبحتا خطا واحدا ··

فجأة انتبه على شىء غريب ومدهش يحدث فى صوت الطائرة لقد انتهى الأزيز الذى كان يوحى بالتوقف والتخلخل فى

الفراغ ، وعاد الصوت العظيم المهيب ، الموحى بالقوة وبالقدرة على الاختراق والمضى فى الطيران والتحليق !! ..

فى هذه اللحظة رآها قادمة فى الممر نحوه مضيئة الوجـــه مبتسمة ، رفع لها فى الحال يده محييا .. وكان يقول فى نفسه : محررتى العظيمة .. أجل « سوف تأتى لحظة الاعتراف !

وحين عـاودت الجلوس بجواره ، أحس بالنقطتين تدوران وتلتقيان .. مال عليها وقبلها .. واكتملت الدائرة الى الأبد !!

« ١٩٨٩ »

صـيد البـكور

تعرفين ذلك ياصديقتى ، حين يقابلنا شخص ما ، لأول مـرة وعلى غير انتظار ، فاذا به يتلبسنا من الوهلة الاولى ، ويأخـذ بجماع أرواحنا وانفسنا ، ونستسلم لهذا الشـعور بسـعادة ، مبهورين بهذا الحب الذىيرسله القدر الينا بعد افتقاد طويل ٠٠ كأجمل عطايا الحياة ٠٠

يحدث لنا هذا احيانا مع انسان ، كما يحدث لنا أيضا مع مكان ٠٠ هناك أماكن تأخذ بمجامع القلب وتهز اعطـاف النفس بالنشوة والحبور ، ونشكر الحياة على اننا لم نمت قبل ان نراها وندب بأقدامنا عليها ، ونود لو نقضـى بقية العمر فيها ٠٠ أجل ياصديقتى ٠٠ عشق الاماكن ليس أقل خطورة وروعة من عشـق البشر ٠٠ حدث ذلك لى حين زرت لأول مرة « شرم الشيخ » فى جنوب سيناء مع بعض الاصدقاء ٠ وكانت اقامتنا فى بيت هلالى الشكل ، شبيه ببيوت الأحلام ٠٠ اقيم فى حضن احدى الهضاب ، تعلوها من الخلف قمم الجبال ٠٠ ومن الأمام تنبسط فسيحة وممتدة ومغرية بالمشى أو الجرى حتى نبلغ حافتها ، فاذا بها تطل على واحد من اروع خلجان البحر الأحمر ٠٠ ومع دورة الأفق مجموعة

من الجبال ، بالروعة التشكيل ، وبالسحر الألوان وهى تتعاقب ، فاذا بالصخور أرواح تنطق وتقول ·· وتناجى ··

هناك يا صديقتى أصمم لنفسى لحظات أعايش فيها المكان ، واضمخ روحى بأرضه وهوائه وكتله وفضائه ··

اصحو مبكرا ، والكل نيام ، أخرج الى سطح الهضبة الممتدة ، مسحورا بتلك البكارة الأولى للصباح ، كوجه الوليد فى اطلالته الأولى على الحياة ·· امضى فوق الهضبة بهدوء بالغ ، حريصا على الا تحدث خطواتى فوق الحصى أى صـوت ·· لكل شـــىء مستغرق فى السكون يصلى ·· عرفت فى زيارة سابقة لهذا المكان صديقة كانت تعشق هذا النوع من الصـــلاة ·· كانت من هـواة اليوجا ·· وقفت ذات مرة ارقبها مايقرب من الساعة وهى مستغرقة وحدها على حافـــة الهضـــبة فى سكون عميق ، ثم بعد أن ثابت أخيرا الى ماحولها ·

سألتها : فيما كان تركيزك هذه المرة ؟!

قالت : مع صوت الموج !

ولم يكن صوت أمواج الخليج لحظتها غير وشوشات تهمس لشطئان الخليج !

ذلك الصباح ·· جلست على الحافة ·· تحتى مباشـــرة ، بمسقط رأسى مياه الخليج ·· ورحت املأ عينى وروحى ·· لكاننى كنت نائما من سنوات وصحوت ·· ماذا أريد ؟! ·· وقلت لنفسى : أنا أريد ·· ولكنى الآن لا أعرف ماذا أريد ، ولا أريد أن أعـرف ماذا أريد ·· يكفينى هذا الثراء الروحى الذى أحس به ·· ليس ثراء روحيا فقط ، بل وثراء ماديا أيضا (وفكرت مع نفسى بطرب) كل هذه الروائع ملكى ·· الجبال ·· والخليـج ·· والألوان ··

والفضاء الرحيب ·· فلأضمخ بها روحى ·· وأملأ بها قلبى حتى يفيض ··

كنت الانسان الوحيد الجالس يستمتع بهذه اللوحة المسحورة ·· وخطر لى ذلك الشعور الجميل بالتفرد والتميز عن الآخرين ·· فها نحن مالا يقل عن ثلاثين جئنا معا فى هذه الرحلة ، والمكـــان مبسوط للجميع ، ومع هذا ، فها انا الوحيد الذى يخرج للقـــاء البكور ··

الا اننى فجأة ، تنبهت الى انى لســـت الوحيد ، فقد لمحت طائرا فوق أعلى قمة الهضبة عن يسارى ·· ينظر فى نفس الاتجاه الذى كنت أنظر اليه ·· نحو جبال الشرق التى سيصعد من خلفها قرص الشمس فى موعده المحتوم ·· وما أغرب وقفته ·· لكانما هو واقف فى شرفة ملوكية عالية ·· وأوحت لى هيئته بأنه ملك ينظر فى هدوء وعظمة الى مملكته ·· تراه هو الآخر فى صــــلاة ؟! ·· أحسست أن هناك شيئا ما مشتركا يجمعنا ·· ماهو هذا الشىء ؟!

– صباح الخير ياطائرى العزيز ·· ياشريكى ويا انيسى فى هذا المحيط الالهى البديع ·· لا أعتقد أن صلاتك تختلف عن صلاتى ·· وربما كان قصدك هو نفس قصدى ·· فكل مــافى هذا الكون يتحرك بفعل قوانين واحدة ··

وددت لو تثبت الدورة عند هذه اللحظة ، وتبقى اللوحة ·· لوحتنا أنا والطائر والهضبة والجبال ومياه الخليج وسحر البكور ، الا أن ضوء النهار كان ينبثق ناعما فى هدوء وبالتدريج ·· واذ بدا قرص الشمس فى الاقتراب وفى الظهور ، انعكست اشعته على مياه

الخليج وتخللتها وكشفت عن أعماقها وعن كل مافى هذه الأعماق ·· فجأة رأيت الطائر يندفع منطلقا بأسرع من غمضة العين الى مياه الخليج ويغوص فيها بكل رأسه ومنقاره ، ثم يخرج ومعه صيده ومضى محلقا الى بعيد ، حتى اختفى ··

الفيتنى وحيدا من جديد ، ومضيت أفكر بأسى ·· وحنين : لقد وجد صيده ·· وأنا ؟! ·· أين صيدى ·· أين صيدى ؟!

« ١٩٨٩ »

حلاوة البحر المـالح

ـ هل تجمع قواقع ؟!

ـ وأحجارا ملونة أيضا •

اقتربت الفتاة منه بحركة طفولية ملهوفة ، وتوجهت بنظراتها الى يديه اللتين تحملان ماجمع ••

ـ هل يمكننى رؤية ماجمعت ؟

ـ بكل تأكيد ••

وراح يريها •• ما أن رأت أول قطعة ، حتى صاحت بانبهار وفرح : أوه •• كم هى جميلة ••

قال وقد أسعدته فرحتها : اذن فهى لك •

تراجعت برأسها قليلا وقالت وهى تنظر فى عينيه بدهشة : هل تفرط فى الأشياء الجميلة هكذا بسهولة ؟!

ـ اذا كان من سيأخذها ، أجمل منها ••

استراحت للاجابة · مالت برأسها قليـــلا نحو كتفها وقالت بابتسامة : هل ترانى حقا جميلة ؟!

ـ استغرب السؤال · أو يمكن حقا ألا تكون مدركة لجمالها ·· كل هذا الجمال ·· الشعر الذهبى المفـــروق من الوســـط ، والخصلات المنسدلة ·· بعضها على الكتف ، والبعض الآخر يكاد يخفى احدى الوجنتين المتوردتين والملوحتين بحرارة الشمس ·· ثم هذا القوام البديع المشدود والمكسو جزء منه بثياب الشاطىء البسيطة ·· وجذب بصره أكثر قدماها الحافيتان وقد علقت بهما بعض ذرات الرمال ·· أهى حقا لاتدرك جمالها ·· أم هى لابد رغبة الأنثى الدائمة أن تسمع بأنها جميلة ·· ماتزال جميلة ؟!

ـ لقد رأيتك من قبل فى كافيتيريا « الشمندورة » ·· وكنت وسط مجموعة كبيرة ··

هزت رأسها بالايجاب باسمة ··

وخطر له أن يكمل ويقول لهـــا : الآن ، وانت وحـــدك على الشاطىء ، تكتمل بك سيمفونية الجمال الالهى ·· السـمـاء ·· والخليج ·· والجبال المحيطة ·· انت قمة من قمم الخلق الالهى · وجاشت بنفسه رغبة فى أن يجول بنظراته عبر مساحات قوامها ، ويصافح مسام نصف جسدها الجميل العارى ، الا أنه حرص على ألا يبدر منه مايجعلها تسىء فهم قصده ·· كما أن لابد لها صاحب أو رفيق وربما زوج وحالا سيلحق بها :

ـ هل معك أحد ·· الآن ؟!

هزت رأسها مرة أخرى بالايجاب ـ وقد اتسعت ابتسامتها · تلفت بعينيه فى كل الاتجاهات ، ثم فى اتجـــاه صـــف الفنادق ومجموعات الخيام والكافيتريات البادية بطول الشاطىء ، لكنه لم ير أحدا بالمرة ·· كان المكان كله خاليا ·· هو وهى وحدهما على حافة

الشاطيء والأمواج الخفيفة تدور وتلتف حول أقدامهـــا ، تغطـى الأصداف حينا ، وحينا آخر مع الارتداد تكشف عنها ٠٠

قال يستوثق : أين هو ٠٠ صاحبك هذا ؟!

ـ هو معى ٠٠ هنا ٠

أدرك بما لايقبل الشك أنها تقصده هو ٠٠ وأن لا أحد آخر ٠٠ وأوشك أن يصيح : ياالهى ٠٠ هذا أكثر مما كنت أتصور ، أو أحلم ٠٠ ان لم يكن معها حقا أحد ، فهى لابد واحدة من حوريات البحر ، أو شبيهة بها ٠٠

ـ تقصدين أنك غير مرتبطة بأحد ؟!

فردت ذراعيها بابتهاج ، وجذبت بأنفها نفسا عميقا ٠

ـ أنا حرة ٠٠

رنت الكلمة والنبرة فى ســمعه وفى قلبه ٠ وتراءى له مع منظرها ، كما لو أن الموج ارتفع فجأة وهو وسط البحر وعليه أن يضبط جيدا حركته ليعرف كيف يسبح ٠٠ أهو الوعد يأتيه به القدر على غير ميعـــاد ٠٠ حب جديـــد يعوض الذى راح ويجد معـه السلوى ؟! ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ أنا لا أطمع فى أكثر من أسبوع الاجازة الذى جئت لأقضيه هنا ٠٠ بل يكفى يوما أو يومين ٠٠ ننطلق معا ٠٠ ويرتوى القلب الذى أصابه التشقق والعطش !

ـ منذ متى وصلت شرم الشيخ ؟!

ـ منذ خمسة أيام ٠ (وأشارت على مجموعة الخيام) أسكن هناك ٠٠ فى المخيم الحر !

المخيم الحر ؟! ياله من تعبير يطلق الخيال ويفجر فى النفس

عوالم وصور ورغبات تعيش حبيسة فى الأعماق وتهفو للانطلاق والرفرفة والزقزقة كما الطيور ··

وواصلت تقول : اسكن فى تلك الخيمة ·· الثانية الى اليمين ·· أمامها كرسيان ومنضدة ·· أعيش فيها مع صديقة لى ··

ـ وأين صديقتك الآن ؟

ـ ذهبت مع الآخرين ليشتروا ··

قال مجاهداً فرحه : اذن نستطيع أن نقضى بعض الوقت معا ··

أسرعت قائلة : بالطبع · ان لم يكن لديك مانع ·

أى مانع ياحوريتى الجميلة ؟! لو أن أخطر المهام الآن فى انتظارى لطرحتها بعيدا عنى ، لكنى فى الحقيقة رجل وحيد ·· شريد القلب والفكر ، يعزى نفسه بجمع القواقع والأصداف ، ويوهم نفسه بالبحث عن سر التكوين الأول !!

انت قمة من قمم التكوين الالهى ·· كيف يكون لدى مانع ؟!

نظرت اليه بامتنان ، ثم طافت بعينيها فيما حولها بسعادة ·

ـ ماذا تحبين أن نفعل ؟ فلتكن الرغبة رغبتك ·

ـ كل مافى هذا المكان يوجه اليك دعوة · الرمال تدعو الى الجرى ، والبحر يدعو للسباحة والغوص ، والجبال تدعو للصعود الى القمم ··

قال بحماس : أنا مستعد لكل هذا ·· بماذا تحبين أن نبدأ ·

قالت : الآن ·· أنا سعيدة بجمع القواقع ·· فلنواصل ماكنت تفعل ·

وإذ مضيا يبحثان بأيديهما وبأقدامهما فى الرمل وفى الماء ، عرف كل منهما ماهو مهم عن الآخر ·· الاســـم ·· والوطن ·· والعمل ·· وأحب اسمها : لودميلا ·· ورردده مرتين فرحا بايقاعه ·· وعرف أنها من « أمستردام » وتعمل مهندسة كومبيوتر ·· وعبر لها عن دهشته : وتملكين كل هذه الرومانسية ·· وكل هذا الحب للطبيعة ؟! ضحكت وقالت : نوع من التعويض ·· مع الطبيعة أجد انسانيتى ·· وانت !! مصرى ·· أليس كذلك ؟!

– هو ذاك ·· وأعمل كاتبا باحدى المجلات ·

توقفت لحظة عن البحث فى الماء ، ونظـرت اليه بدهشـــة واعجاب :

كاتـــب ·· أوه ·· هذا شـــىء عظيم ·· لابد انك انســـان سعيد ··

ندت عنه ضحكة عالية سرعان ماانتهت بتنهده : سعيد بلقائك هذا ·· انه لقاء من صنع الأقدار !

لم يكن يريد لأى شىء آخر أن يقتحم عليهما خلوتهما الرائعة الطليقة ، ودعا من كل قلبه أن يرسل اليه البحر احدى أعاجيبـــه ومدهشاته ، فيهديها اليها ·· وفكر لو أنه عثر فى واحدة منها على لؤلؤة كريمة فسيهبها لها على الفور ودون أدنى تردد !!

وانتبه عليها تصيح مهللة : أوه ·· أوه ·· انظر ·· ماذا وجدت !

كانت تحمل بين كفيها قوقعة متوسطة الحجم زاهية الألوان ·

– آه ·· كم هى جميلة حقا ·· ونادرة أيضـــا ·· أرينى اياها ··

وقدمتها له وهى تكاد تقفز من السعادة ·· مضى يتأملها من جميع جوانبها ، ثم ينظر فى عمقها المختفى ··

ـ من يدرى ·· ربما بداخلها لؤلؤة !! ومضى يشخشخها ·· نبهته ضاحكة ·· انها فارغة ·

قال : ليس على وجه اليقين · ربما اللؤلؤة ملتصقة بجدارها !

ـ أوه ·· لاأحب أن أذهب بأحلامى الى بعيد ·· يكفينى جدا جمالها البادى هذا ·· يكفى جدا ·

أحب اجابتها ·· قربتها أكثر الى نفسه ·· الاكتفاء هو فلسفته فى الحياة ·· هز لها رأسه ·

ـ حقا ·· يجب أن نفرح بالأشياء كما هى ·· انظرى (ومضى يمتحن قوة القوقعة) كم هى صلبة · هذه الصلابة هى ماتدهشنى فى القواقع :

ـ وفيم الدهشة ؟!

ـ دهشة التحولات ·· قانون التحول ، حيث يصبح الشىء شيئا آخر مختلفا بالمرة ·

ـ كيف ؟!

ـ هذه القوقعة ·· ألم تكن فى الأصل خلية هلامية بالغة الدقة والتكوين ·· ثم مضت بالتدريج تكسو نفسها ، وتقيم لها درعا من أفرازها ·· درعا يحميها من عنف البحر وتقلباته ·· ثم حين كبرت وأصبحت قادرة على الحركة والانطلاق بنفسها ، ودعت القوقعة وانطلقت فى كل هذا المحيط ·· لقد أصبحت شيئا ·· مخلوقا آخر تماما ··

كان يتكلم بحماس ، راجيا الا يكون قد اختار موضوعا ثقيلا

يتناقض مع رومانسية المكان ·· يبدد عنها فرحها الطفولى ·· وفرح اذ وجدها تقول : أحس أنى كنت فى قوقعة وخرجت منها ··

ـ كيف ؟!

ـ الحياة كلها أحيانا تبدو قوقعة ، وتحتاج من الانسان الى قوة هائلة ليخرج منها !!

وجذبت نفسا عميقا بأنفها ، فبرز صدرها الناهد مثل شراع امتلأ فجأة بالريح ويستعد للابحار وللانطلاق وقــالت : الآن بى رغبة شديدة للسباحة ·· ننزل الى الماء ··

ـ هيا ··

وخلع كل منهما سرواله القصير وأصبحا بالمـايوه ·· نظر لحظة يتملى قوامها البرونزى البديع وهى تشب على أطراف أصابعها كما لو أنها تريد أن تطير ·· اصطفقت الأمواج هائلة فى صدره ·· مهلا أيها القلب مهلا ·· فمازال أمامنا الوقت طويلا ·· واندفعت جريا الى الماء فاندفــع خلفها ·· ورآها تغوص للحظات حتى اختفت تماما ، ثم اذا بها تخرج من الماء ، رافعة ذراعيها ·· تناديه ! ·· كانت قد ابتعدت قليلا ·· وفكر : أنا لا أجيد السباحة ·· ومع هذا ، لن أنكص على عقبى ·· أجل ·· ولو غرقت فسأكون شهيدك يا لودميلا ·· شهيد اللحظة الجميلة ·· لكن الانسان حين يقرر عدم الموت لايموت ·· ومضى يسبح اليها ·

ـ لودميلا ·· هل تسمحين لى أن اتغزل فيك والماء يقطر من خصلات شعرك ؟!

ضحكت : أوه ·· أرجوك ·· تغزل كما تريد ·· ليس أروع من غزل الكتاب ! ··

ـ أنا الآن لست كاتبا ·· أنا الآن انسان !

ـ اذن فغزلك أصدق ·· (وندت عنها تنهدة) ليس أجمل من الحرية ، لكن المؤسف أن يجد الانسان نفسه مضطرا للدخول فى القوقعة من جديد !

ـ أية قوقعة ؟!

ـ أنظر ·· ها قد عادوا ومعهم مشترياتهم ··

ورأى مجموعة من الشباب والفتيات قادمين يغنون ويضحكون ·· فرحين بما يحملون ··

ـ على الآن أن الحق بهم ·

(وهزت رأسها بأسف) خسارة ·· لماذا لم نلتق من أول يوم جئت أنا فيه الى هنا ؟! لماذا لا نلتقى الا فى اليوم الذى سأسافر فيه ؟!

انقضت الكلمات عليه كموجة عاتية وحشية أفقدته توازنه ·· صاح بها رافضا التصديق : اليوم تسافرين ؟! مستحيل ··

خرجت من صدرها زفرة حارة : بعد ساعتين ·· لابد أن نكون جميعا على استعداد ·· وبعد اربع ساعات ستطير بنا الطائرة الى امستردام !!

كانا قد اقتربا من الشاطىء · وأوشك أن يصرخ فيها : لماذا ظهرت لى ؟ ·· ولماذا أقبلت على بكل هذا الجمال وهذا التبسط وأحييت فى نفسى مشاعر كنت ودعتها من زمن طويل ؟! لماذا وأنت تعرفين انك راحلة ·· لماذا ؟! وتراءت له ـ للحظة فى صورة حواء متآمرة غليظة القلب ، تهوى العبث بالرجال ·· تحيى الجذوة الراقدة تحت الرماد ·· تنفخ الرياح فى القلاع وتعدها بالابحار ، ثم فجأة تتخلى وتتراجع فتنطفىء الجذوة من جديد وتتغضن القلاع ·· وفكر أن يقول لها : أنت مثلها ·· مثل التى راحت ·· كلكن واحدة !!

الا أنه تحكم فى مشاعره ٠٠ كان يدرك من أعماقه أن الحقيقة غير ذلك ٠٠ الحقيقة أن منظره وهو يجمع القواقع من الشـــاطىء هو الذى جذبها ٠ اللحظة الساحرة فى المكان الساحر جذبتهمــا الى بعضهما ٠٠

كانا قد عادا الى الشاطىء ٠٠ حيث ترقد القواقع والأصداف على الرمل فى انتظارها ٠٠

ـ لست وحدك الحزين ٠٠ أنا أيضا حزينة ٠ ومع هذا فأنا لست بنادمة ٠٠ هل أنت نادم ؟!

ـ اطلاقا ٠٠ (وابتسم بحزن) جميل أن الحياة منحتنا هذه اللحظات ٠٠ كان يمكن ألا تحدث ٠٠ كانت ستكون خسارة كبرى ٠٠ شكرا لله ٠٠

ـ لحظات لن أنساها ٠٠ ستعيش معى بمثل ماستعيش هذه القطع فى بيتى ٠٠ (وانحنت ترفعها ، وتضعها برفق فى سروالها بعد أن حولته الى مايشبه الحقيبة ٠٠ وقالت وقد عاودت السعادة وجهها : أشكرك على الهدية ٠٠ أوه ٠٠ سيحسدوننى عليها ٠٠ انها أفضل من كل ما اشتروه ٠٠ من كل قلبى أشكرك ٠

ـ اشكرى البحـــر ٠٠ والقـــدر الذى جمـــع للحظة بين غريبين ٠٠

ـ لم نعد غريبين ٠٠ (ونظرت باســمة فى عينيه) اقفـــل عينيك لحظة لو سمحت ٠٠

استغرب مطلبها ٠٠ أغلق عينيه ٠٠ فوجىء بشفتيها تطبعان قبلة بين عينيه ٠ أسرعت دقات قلبه ٠٠ فتـــح عينيه ٠ كانت قد ابتعدت قليلا ٠٠ ثم توقفت للحظة ٠٠ ومضت تلوح له مودعة !! بقى واقفا مكانه ٠٠ وراح هو الآخر يلوح لها ٠٠ وفجأة استدارت وانطلقت تجرى بما تحمل ٠٠

ألقى نفسه وحيدا ·· عاوده صـــوتها : أغمض عينيك ·· وأغمضهما ·· ورفع يده الى مابين عينيه ·· يتحسس مكان القبلة ·· كان يود ألا يفتحهما ، الا أنه أحس بالرمال تتخلخل تحت قدميه وبدوار يشبه دوار البحر ، ففتح عينيه خشية السقوط !! ··

كان متراوحا بين الحزن والفرح ·· تنهد مغمغما : لا ·· أنا لست طماعا ··

اشكرك ايتها الحياة ·· اشـكرك لودميلا ·· لقد منحتمانى ماسيبهج القلب الى الأبد ·

« ١٩٨٩ »

مـوت المـوت

● واقترب المساء ٠٠

هفت روحه الى الشرفة الالهية : جلسته الأثيرة فى شرم الشيخ ، فوق الصخرة العالية ، أقصى نهاية اللسان الخارج من الهضَبة ، ومياه الخليج تحته مباشرة ! ٠٠ كان قلبه يخفق بالحنين وبالنشوة المنتظرة ٠٠ ذلك هو موعد مهرجان ألوان الغروب ، والتى لاتدوم بهجتها الا لوقت قصير ، فليسرع ليملأ بها عينيه ، ويضمخ بها جسده وروحه قبل الزوال !

صعد حثيثا الى سطح الهضبة ، ثم شرع يسير فوق اللسان الطويل الضيق ، والذى ينحدر من الجانبين بمسقط رأسى حاد ، الأمر الذى ٠ يستوجب غاية الانتباه والحذر ٠٠ ان أبسط انحراف يعنى السقوط فى الهوة ٠٠ ذلك مايجعل الاغراء أقوى ٠٠ والغايات العظيمة دائما محفوفة بالخطر !

قال لنفسه وقد بلغ الصـــخرة بأمـــان وجلس على حافتها يستشرف المنظر : الجبال ٠٠ والمياه والسماء ٠٠ والرمـــال ٠٠ والفنادق والمخيمات البعيدة : هنا فى هذا المكـــان بدأت يومى ،

ورأيت الصبح وهو يتنفس وينشر أول أضوائه ·· وهاهى الشمس تميل الى المغيب ·· فماذا أخذت من يومى ؟! ·· وتذكر الطائر الذى لمحه فى جلسة الصباح واقفا على احدى القمم المجاورة وفرح به لحظتها كرفيق للبكور ، لكنه سرعان ما رآه مع طلعة الشمس ينقض على الماء ويلتقط صيده ثم طار محلقا مبتعدا ·· تاركا اياه وحده ! ·· كما تذكر أيضا « لودميلا » فتاة الشمال التى سطعت على حياته للحظات مع شمس الضحى ، ثم لم تلبث هى الأخرى أن رحلت بقواقعها وأحجارها الملونة وتركته وحيدا على الشاطىء ! ·· رحل الاثنان ، لكن صورتهما ظلت باقية فى القلب وفى الذاكرة !! ·· وتنهد : اننى لا أتعزى ·· فهكذا أصبحت حياتى ·· ليس المهم ما نمتلكه فى اليد أو فى الجيب ، بل مايبقى فى القلب ويدفئه ·· وها هو المهرجان قد بدأ !!

ورأى الفضاء وقمم سلسلة الجبال تشع وتتوهج بالألوان فانتعشت روحه ·· كان اللون الأعظم والطاغى هو البرتقالى النارى ·· لولا الهدوء والسلام الرانيين على المكان لحسبه صادرا من قلب بركان متفجر فائر · ورأى واجهات الجبال وجنباتها تتخذ مع تموجات الألوان أشكالا وتكوينات جديدة غير تلك لكانت عليه بالنهار ، فمضى يتتبع الأشكال بفرح طفولى ·· وتراءت له وجوه انسانية هائلة حينا ·· وحيوانات ديناصورية حينا ·· ومزيجا كونيا غريبا حينا آخر !! كما جذبته بقوة مياه الخليج وقد أصبحت هى الأخرى مسرحا لابداعات مدهشة جعلت الموج الفيروزى يصبح أخضر ·· ثم أحمر كالعقيق ومخمليا ناعما ·· وراقصا !! ·· واذ راح يتنقل ببصره فى المحيط اللانهائى ، انتابه احساسى مفاجىء بطغيان الجمال ، وأنه أضعف من أن يحتمله هو وحده ·· واشتاق لأن تكون معه عينان أخريان تنظران معه ·· ولكن ليس أى عينين ! وانبثق وجهها أمامه ·· بلمعة عينيها السوداوين الضاحكتين دوما ·· قبل أن تهب العاصفة على حياتهما ·· « ولم أكن أرى منظرا

جميلا الا واصطحبها معى بعد ذلك لكى تراه معى وأسعد بصيحات فرحها المدهوشة ·· (وندت عنه زفرة) انتهت تلك الأيام السعيدة ·· أم تراها تعود ذات يوم وأجدها بجوارى فوق هذه الصخرة ، وتعيش معى هذا المهرجان · كنا سنحوله الى عـــرس زفاف لنـــا بالألوان ·· والحجرة هناك فوق الهضبة تجمعنا ·· ومعنا الألوان كلها داخل الجدران الأربع ·· و ·· (وهز رأسه)لا ·· ليس الآن وقت بعث الماضى ·· والحزن رقد فى الأعماق وأصبح شجنا !!

كان عرس الألوان ماضيا بكل قوته وزهــوته · · واذ رآه يقترب من لحظات الذروة ، والوهج يصل الى أقصى سطوعه ، لاحظ فى نفس الوقت أنه بدأ يميل الى الذوبان والى الانحسار ·· قال لنفسه : هكذا الأيام ·· تنسحب من عمر الانسان مثلما تنسحب ألوان الغروب ، وحالما سيغيب كلشىء فى جوف الظلام ·· ظلام الموت !! ·· غير ان الألوان تعود مع دورة الأرض فيتجدد مهرجان كل يوم ، أما الأيام التى تروح منا لاتعود ·· كل يوم ينقضى يقربنا من نهاية الرحلة ·· من الغروب الأكبر !

الا أن مشاعره رغم هذا لم تكن مفجعة على أى نحو ·· كان قد بدأ ـ خاصة فى السنوات الأخيرة ـ يتصالح مع فكرة تســرب الأشياء الحميمة من حياته · لا سيما بعد موت أمه ثم بعد ذلك عدد كبير من أصدقائه ·· أصدقاء العمر الذين رافقوه رحلة الحياة بكل مافيها رآهم يرحلون بغتة وعلى التوالى ·· يرحلون بالموت أو بالسفر والهجرة الى بلاد أخرى بعيدة وغريبة ·· الأمر الذى جعل فكرة الموت تختلط فى نفسه بفكرة السفر ·· فبعض من سافروا وغابوا لم يكن يعرف على وجه اليقين ان كانوا ما يزالون أحياء أم ماتوا ؟!

لسوف يعتبر الموتى مسافرين فى بلاد وأماكن مجهولة ، ولئن كان من المستحيل الوصول اليهم ، الا أنه بالخيال يمكننا استحضارهم

.. نناجيهم .. وفى أوقات الأزمة نستشيرهم .. ونستضىء برأيهم ! . ولهذا ، كان ، ومايزال ، يرفض زيارة قبر أمه .. وقبور أصدقائه .. انهم مازالوا يعيشون .. انهم هناك .. مسافرون !

كان كل همه فى الحقيقة أن يهون من وقع احساسه الدائم بمأساة الموت .. وأنه لكى يواصل حماسه للحياة ويعمل ويكتب ويحب ويسافر ويحلم يجب أن ينساها ، أو يتعامل معها على نحو يزيل عنها وجهها المأساوى .. يسيطر على فكرة الموت بدلا من أن تكون هى المسيطرة عليه ! .. وساعدته على ذلك جملة قرأها ذات يوم للحلاج .. شيخ شهداء المتصوفين : « الموت رفيقى » .. فتلقفها ، وجعل يديرها فى نفسه وفى عقله حتى خرج منها بفكرة ظن معها أنه أمسك بطائر الموت بين يديه ، وانتصر عليه وعلى مأساويته : أجل .. أن أحبه .. أحب الموت .. أجعله الفا لى .. وحين يحب الانسان الشىء ويألفه ، ينعدم تماما خوفه منه .. أنا والموت رفيقان .. وحين أموت ، سيموت هو الآخر بموتى .. سيموت الموت معى !!

وأبهجته الفكرة : موت الموت .. بدت له كاكتشاف ملهم نادر .. ليس فقط كانسان .. وانما أيضا ككاتب .. ما أروعها قصة أو رواية .. فليمسك بها بقوة ولا يدعها تفلت مثل ألوان الغروب .. وأخرج ورقة وقلما يحتفظ بهما دائما فى جيبه .. وكتب : موت الموت !! .. ثم أعادهما بحرص الى جيبه !

كان مهرجان الغروب قد انتهى ، وبدأت عتمة الليل تحل ، وسرعان ماهبط الظلام ولم يعد يرى أى شىء وهو جالس وحده فى قمته . وفكر فى العودة .. عليه أن يكون أكثر انتباها وحذرا حين يمشى فوق اللسان ! كان سعيدا مثل صياد جاد عليه يومه برزق طيب .. وفكر مبتهجا بأعظم مافى صيده : موت الموت .. قصة يفرح بها عشاق الحياة التائقين لهزيمة الموت هزيمة أبديه !

فجأة ‥ أحس بجسم رفيع زاحف يمرق تحت ساقه ، وبشيء حاد كسن الابرة يلذعه ، فانتفض باللاوعى مرتعبا من موقعه ‥ ولأنه كان يجلس على حرف الصخرة فقد وجد نفسه ينزلق ويهوى فى فراغ دون أن تطول يداه أى شيء يمكن أن يتعلق به : ماهذا ؟! كيف هذا ؟! وجاءه الجواب على شكل دوى هائل احدثه ارتطامه بالماء ، وأحس بنفسه يتناثر شظايا ‥ وبدلا من أن تطير الشظايا فى الفضاء ، راح بكل كتلته يغوص ويغوص ، وقد أفقدته الصدمة واللجة الباردة كل شظايا الوعى الباقية ‥ كان يغوص حينا ، وحينا يلف ويدور ‥ البحر والدنيا وألوان الغروب تدور ‥ وقد سيطرت عليه روح استسلامية كاملة ‥ وعاد الهدوء يطبق على المكان ‥ انتهى الدوى وصداه ‥ والدوائر المرتعشة التى أحدثتها السقطة فى الماء خفت وتلاشت ‥ وعادت حركة أمواج الخليج الى ايقاعها الرتيب الأول ‥ اذن فهو الموت ‥ ومهرجان ألوان الغروب كان زفـــاف عرس لكنه الآن زفاف للموت ٠ للصمت الأعظـم !! ‥ الا أن هذا الصمت سرعان ماتمزق ، وفزعت اســـماك البحر وكائناته وابتعدت ‥ فقد أحس صاحبنا بمحض الغريزة لا أكثر ــ بشيء مروع ومؤلم يحدث له ‥ كان الماء يندفع الى فمه ، ووجد نفسه باللاوعى يشهق ويفهق ‥ وجاهد أن يزم شفتيه بقوة ‥ الموت اختناقا شيء بشع ‥ ومضت يداه تضربان ‥ وقدماه أيضا ‥ ولمعت فى رأسه شظية وعى أدرك بها أنه فى بحر ويغرق ‥ لو نفس هواء يستنشقه ‥ الهواء فوق ‥ واندفعت ذراعاه وقدماه فى حركة غريزية تصعد به الى أعلى ‥ نسمة ‥ لايريد غير نسمة ‥ الا أن قدميه لامستا بعض النباتات البحرية فتصورها خصلات شــعر احدى الجنيات ستلتف حوله وتجذبه الى الأعماق مرة أخـــرى ، فمضى بكل قوة الفزع يضرب فى الماء مبتعدا ‥ ومصعدا ‥ كأنما عمق الخليج آلاف الأميال وعليه أن يقطعها ‥ يصعدها ‥ ولأن غريزة حب البقاء لاتخطيء أبدا لحظات الخطر ، فقد تراءى لـه

فجأة ، أن المعجزة تحدث ، فهاهى رأسه تطل من الماء ويستنشـــق الهواء ·· يستنشق ويستنشق ·· الهواء هو الحياة ، والحياة هى الهواء ·· ولكن عليه أن يضبط جيدا تنفسه وحركته ·· فهاهما ذراعاه تكادان أن تخذلاه ·· ويكاد يهوى الى أسفل من جديد ·· « لا ·· لا ·· مستحيل « يكفينى الهواء » وألهمته غريزته أن يستلقى بظهره على الماء ويطفو ·· مجرد أن يطفو ·· ولا يفعل شيئا الا أن يتنفس ·· ويحاول استعادة بعض شظايا وعيه ان أمكن !

واذ كانت له بعض الدربة السابقة فى الطفو بالظهر على الماء ·· بل تلك كانت أروع لحظات استمتاعه بالبحر ·· بحر الاسكندرية ·· والأصدقاء ·· والأولاد ·· والصيد بالسنانير ·· ومهرجانـــات الصيف المرحة على البلاج ·· بلاج المندرة ·· وانقلب على ظهره مثلما كان يفعل ·· وفرد ذراعيه بالعرض على آخرهما ·· وطفا !!

داخلته شحنة أمل ·· فاذا كان قد نجح فى ذلك ، فبالامكان أن ينجح فى أشياء أخرى · ومع هذا لم يكن يطمع فى أكثر من هذا ·· أن يبقى طافيا على ظهره ·· يتنفس ·· ويحاول اســـتعادة الوعى بما حدث ! ·· « أين أنا الآن ؟! » ·· واذ رأى السماء وقد امتلأت بالنجوم الى آخر المدى ، خيل اليه أنه يطفو وسط اقيانوس هائل بلا شواطىء ·· أى نجم من هذه النجوم اتخذه دليلى ؟! ··رغم أنه كان فى الحقيقة قريبا جدا من الشاطىء ومن حرف سفح الهضبة فى التقائها بمياه الخليج !! ·· كان ثمة دوار يثقل رأســـه ·· وأحس فجأة بأنه فى حاجة الى النوم ·· وبدا النوم شيئا ناعما ورائعا وعذبا ·· لو ينام ويستغرق فى النوم ويستريح ·· الا أن شظية الوعى أو الغريزة لمعت : لسوف تكون النومة الأبديـــة ·· غرقا فى الأعماق !! ·· فلأحرك ذراعى ·· أو حتى كفى ·· بهدوء بالغ وعلى مهل ·· ليس المهم الاتجـــاه ·· المهم الحراكـــة ·· حركة تبعد عنى شبح النوم الموت !!

ما كاد يجدف قليلا بذراعيه ، حتى أحس فجأة بأصابع احدى يديه تلمس جسما أيقن على الفور أنه صخرة ، فانقلب ملهوفا على بطنه وتشبث بكلتى يديه بالصخرة ‥ واذا به فى نفسى اللحظة يحس بقدميه تصطدمان بأرض صخرية صلبة ‥ هتف لنفسه بفرح يكاد يبلغ حد البكاء : انه الشاطىء ‥ انها العودة للحياة !

***

بعد قليل ، وعبر مساحة من الصخور المختبئة والزلقة ، وجد خطواته الواهنة المترنحة تقوده فى الظلام الى الشاطىء ‥ وما أن أحس بملمس الرمل ناعما وحانيا تحت قدميه ، حتى تراخت كل عضلاته المشدودة وتهاوى مختارا ‥ وتمدد !! الآن يمكنه النوم ‥ ولن يكون النوم الموت ‥ بل النوم البعث ‥ ومع أنفاسه التى كانت تتردد ببطىء ، بدأ الوعى يعاوده بالمكان وبالزمان وبمـــا حدث ‥ وأراد أن يفرح ، لكن شيئا غريبا أفسد عليه رغبته ، فقد أحس باحدى ساقيه ثقيلة كصخرة ، ملتهبة كجمرة ، رغم أنه خارج لتوه من الماء البارد ‥ وحاول أن يرفعها أو يحركها فلم يستطع ‥ بل وجد نفسه يتأوه من شدة الألم ‥ واذ لاحظ أن كل جسده يرتعش ، أدرك أنها حمى ‥ وعلى الفور تذكر اللدغة التى جعلته ينتفض وبسببها سقط من فوق الصخرة ‥ هى اذن لدغة الأفعى ٠ وربما عقرب : نجوت من الغرق ‥ لكنى لم أنج من السم ‥ والسم يسرى فى العروق فلا تطوله يد لتمنع سريانه ‥ يسرى صعدا حتى يصل الى المخ ‥ فتنطفىء جميع الاشارات ، ويسود الظلام المطبق ‥ النوم الموت ‥ على الرمل ‥ على الشاطىء ‥ ها هو رذاذ الموج المتناثر يتساقط على وجهى ‥ كنقرات طائر ‥ طائر الموت ‥ ورأى النجوم بقعا وشرارات ضوئية تتعانق وتتصادم ثم تخبو ‥ وأغمض عينيه : وما تدرى نفس بأى أرض تموت ‥ الآن يمكننى قبول الموت ‥ (وعاودته الجملة الساحرة) الموت رفيقى ‥ وبموتى

سيموت الموت معى ·· تتحقق الفكرة التى تمنيت أن اكتبها قصة ··
آه ·· ماكان أجمل أن أعيش حتى اكتبها ·· ويقرأها الأصـــدقاء
والصديقات · و ·· وجد نفسه ينتفض فجأة من قسوة الألم ··
ومضى يتأوه ·· واذ سمع صوت آهاته ·· بدا له أن بداخله كائنا
مايزال يعيش ويحس بالألم ويرفضه ويستغيث منه ·· ما الذى
استطيع أن أفعله من أجله ؟! فى تلك اللحظة برقت فى ذهنه صورة
قديمة ·· على جسر النيل ·· قرب منطقة الغاب ·· وفلاح لدغه
ثعبان فى قدمه فأسرع بشق مكان اللدغة ليخرج السم مع الدم
النازف بغزارة من ساقه !! لو أستطيع أن أفعل هذا ·· لو مدية
أو سكين ·· أو قطعة صخرية مسنونه ·· أو محارة أو قوقعـــة
مدببة الأطراف ، ألقى بها البحر على الشاطىء ·· وراح يتحسس
الرمل حانيا ورطبا فمضى بجهد شديد يحفر فيه ·· ورأى أن الرمال
تستجيب له فمضى يحفر ويحفر ·· وبدا له فى لحظة أنه يحفـر
لنفسه قبرا ليتوسد فيه ·· فجأة وجدها ·· قطعة حجر صغيرة ذات
حواف مدببة مسنونة ·· فشدد قبضته عليها وأخرجها ·· الآن
على بالجلوس لكى أتمكن من الانحناء على الساق وشق مكان اللدغة
·· وحاول النهوض لكنه أحس بثقل جسمه ، وبرأسه تدور : كنت
فى جوف الماء واستطعت أن أطفو ، وانا الآن على الأرض ، أفلا
أستطيع الجلوس نصف جلسة ؟! ··

فى تلك اللحظة رأى شيئا غريبا بالغ الروعة يحدث ·· رأى
القمر هلالا طالعا ·· وأحس بأن طلوعه ليس وفقا لدورة ·· بل من
أجله هو ·· لينصره فى لحظته : هيا انهض يافتـــى الترحـــال
والتجوال ·· أجل فأنت مازلت فتى رغم أعوامـــك التى تجاوزت
الستين ولم تبق فى رأسك شعرة واحدة سوداء ·· أجل يا بابا ··
أجل ياجدو ·· ومرت به أطياف الأولاد والاحفـــاد المتفرقين فى
الأماكن وفى البلاد ·· وكنا كثيرا ما نفعلها ونجتمع كلنا فى مكان

واحد وبلد واحد ·· نحن فى انتظارك لتغمرنا بحضنك وبغرائب حكاياتك واسفارك ·· انهض ·· وشد جذعه الى أعلى ·· وجلس ·· الآن أسرع ·· فأنت مع السم فى سباق ·· لاتضيع لحظة ·· لكنه أحس بيده واهنة ترتعش ، وأن القطعة الصخرية تكاد تنزلق من يده ·· شدد القبضة عليها ، حتى أنه رأى الدم ينبثق من كفه ·· داخله الفرح : هذا هو ما أريد ·· ولكن ليس دم اليد ·· وانقض بالقطعة مصوبا حرفها المسنون على مكان اللدغة ومضى يشق اللحم ·· لايشقه بل يذبحه بوحشية ·· وأحس بالألم الرهيب يخرج من عينيه كالشرر ·· لكنه لم يعبأ ·· مضى يشق فى اللحم ويشق ·· ورأى الدم يتفجر من ساقه وينزف ·· مرحى ·· مرحى ·· الموت ينسكب منه ويسيل والرمال تشربه ·· بقى أن يضغط على موضع اللدغة كى يصفى كل مابقى من دم ·· آه لو تواتيه القوة ·· أو ·· لو يدان أخريان ·· تمدان لى يد العون ·· وانبثق طيفها ، بوجهها الأسمر الضاحك والمتفتح للحياة دوما ·· لو أنها الآن هنا ورأتنى هكذا نهجمت كالوحش وراحت تصفى الجرح ·· ورآها لاتضغط فقط بكفيها ، بل تطبق بشفتيها وتمص الدم وتبصقه · تمصه وتبصقه ·· غير عابئة بأى خطر ·· ويعود الحب أقوى ·· تلك كانت كلماتها ·· وصرخاتها أيام الأزمة : لابد من فتح الجراح وتصفيتها تماما من كل الدماء ·· فيقول لها مستبشعا : هذا منطق المتوحشين ، فتقول بل منطق الصادقين ··كانت ستفعلها رغم أننا افترقنا ، وتخضر الشجرة من جديد ·· تخضر بدمائى !! ·· كان ماضيا ، دون أن يدرى فى الضغط على اللحم المشقوق ·· وثمة قوة غريبة تلبست يديه ·· قوة حب الحياة والتمسك بها ·· حتى لم يعد يرى الدم النازف غير قطرات ·· هل حقا تطهر الجـرح ، أم أن حب الحياة أحيانا يدفع الى الموت ·· ووجد نفسه من فرط الانهاك يتراجع برأسه الى الخلف ·· ثم يتمدد بظهره على الرمال ·· فليكن مايكون ··

·· لقد فعلت كل ما كان يجب على أن أفعله ·· وأغمض عينيه : ما أعذب النوم ·· وغاب عن الوعى ·· !

***

بعد قليل · كان فتى وفتاة يسيران ·· يستمتعان بلحظات حب على الشاطىء فى ضوء القمر ·· واذ لمحاه ممددا ·· مبتلا وغارقا فى الدم ·· هرعا اليه ·· حسباه قتيلا ·· لكن صدره كان يعلو ويهبط بانتظام : تنفسا الصعداء ـ انه حى ··

ـ أو ربما يلفظ أنفاسه الأخيرة ··

وأمسكا به ·· وراحا يهزانه برفق : أنت ايها الصديق ·· ماذا حدث ·· قل لنا ·· من أنت ·· يجب أن نعرف من انت ··

وصاحت عليه الفتاة وهى تكاد تبكى : هذا المكان الرائع ليس للموت ، بل للحياة !!

وامتدت يد الفتى الى جيب قميصه المبتل ، فوجد ورقة صغيرة وقلما ، كامنين أسفل الجيب ! ·· اخرجهما على الفور ·· كانت الورقة مبتله ومطوية ·· فردها الفتى بحذر وعناية ·· ربما يجد فيها الدليل الى شخصيته ·· وانكب عليها الاثنان يقرآنها فى ضوء القمر ·· لم يجدا غير كلمتين اثنتين لم يفهمانها ·· لأنهما كانتا بالعربية ·· كانت الكلمتان : موت الموت !!

((١٩٨٩))

الفهـرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

١٥/٦٦

رقم الايداع ١٩٩١/٣٥٨٧

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 2748 — 5

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب